For The Sake Of
((Islamic- Christian Dialogue))
2

في سَبيل
((الحِوَار الإِسْلامي المسِيحي))
٢

القرآن دَعَوة ((نصْرانيّة))

(القسم الأول: الفصل الأوّل - الفصل الثّالث (ص ١ - ٣٦٩)

The Qur'an is a "Nazaritic" Mission

(The first part: 1st chapter – The 3rd chapter (pp. 1- 369)

يوسف درة الحداد

Professor Youssef Durrah al-Haddad

www.muhammadanism.org
November 4, 2011

طبعة ثانيّة منقحة

١٩٨٦

منشورا المكتبة البولسية

في سبيل « الحِوَار الإِسْلامي المسِيحي »

٢

القرآن دَعوَة « نصْرانيّة »

الأستاذ الحداد

منشورات المكتبة البُولسيّة

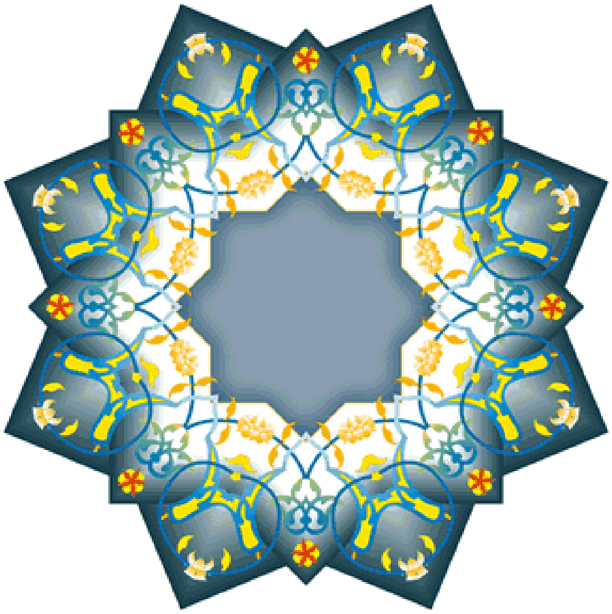

فهرس

	صفحة
« هذا بلاغ للناس »	١٩
تمهيد : سرّ « النصارى » في القرآن	٢١
بحث أول : أنوار كاشفة من الإنجيل والقرآن	٢٣
بحث ثان : صلة القربى بين الإسلام والمسيحية، عبر « النصرانيّة »	٢٧
بحث ثالث : أنوار قرآنية هادية، ما بين « النصرانية » والدعوة القرآنية	٣١
الفصل الأول : « النصارى » في مصادر الوحي الإنجيلي	٤١
بحث أول : يسوع الناصري، ويسوع المسيح	٤٣
بحث ثانٍ : انقسام أتباع يسوع في الاسم إلى « نصارى » و « مسيحيين »	٤٥
بحث ثالث : انقسام أهل الإنجيل في العقيدة إلى سنّة وشيعة	٤٨
بحث رابع : « شيعة النصارى » في « العهد الجديد »	٦١
أولاً : رسالة يعقوب	٦١
ثانياً : رسالة يهوذا	٦٣
ثالثاً : رسالة بطرس الثانية	٦٤
رابعاً : الرسالة إلى العبرانية	٦٧
خامساً : رسالة يوحنا الأولى	٧٠
الفصل الثاني : « النصارى » في التاريخ	٧٥
توطئة : تاريخ « النصارى » في « عهد الفترة »	٧٧

بحث أول	: موجز تاريخ «النصارى»	٧٨
	١ ـ من ارتفاع المسيح إلى النكبة اليهودية الأولى (٧٠م)	٧٨
	٢ ـ «النصارى» ما بين النكبتين	٨١
	٣ ـ «النصارى» من تأسيس إيلياء حتى قيام المسيحية ديناً للدولة	٨٦
بحث ثانٍ	: **هجرة «النصارى» إلى الحجاز**	٩٠
أولاً	: شهادة القرآن بوجود «النصارى» بمكة والمدينة	٩٢
ثانياً	: شهادة السيرة النبوية بهجرة «النصارى» إلى الحجاز	٩٣
ثالثاً	: ورقة بن نوفل، قس مكة، «رئيس النصارى»	٩٧
رابعاً	: التفسير الصحيح لمتشابه القرآن في «بني إسرائيل»	٩٩
خامساً	: «الحنفاء» بحسب القرآن	١٠٨
سادساً	: هجرة «النصارى» إلى الحجاز، والنهضة الجاهلية	١١٣
بحث ثالث	: إنجيل «النصارى» هو «الإنجيل بحسب العبرانيين»	١١٧
أولاً	: إنه الإنجيل بحسب متى، في حرفه العبراني	١١٨
ثانياً	: الفوارق طفيفة بين العبراني واليوناني	١٢٧
ثالثاً	: الحقائق الثابتة في إنجيل النصارى	١٢٨
بحث رابع	: علم الكلام عند «النصارى»	١٣١
توطئة	: علم الكلام عند «النصارى» مبني على الغنوص	١٣١
أولاً	: الاجتهاد في الاعتقاد على عهد الرسل الحواريين	١٣٢
ثانياً	: ما بين النكبتين (٧٠ ـ ١٣٥) نشوء مدارس الكلام «النصراني»	١٣٦
ثالثاً	: من هجرة «النصارى» من أورشليم، حتى هجرتهم إلى الحجاز	١٣٩
رابعاً	: الفرق الكلامية «النصرانية» قبل الهجرة إلى الحجاز	١٤٤
	١ ـ الإبيونية	١٤٤
	٢ ـ الكبرنثية التهويدية	١٤٨
	٣ ـ الكسائية الغنوصية	١٥٢

خاتمة : ميزة الكلام ((النصراني)) ١٥٦
١ ـ ظاهرة التشيّع للتوراة؛ وظاهرة الغنوص ١٥٦
٢ ـ الكلام ((النصراني)) جعلها أمة وسطاً بين اليهودية والمسيحية ١٥٧

بحث خامس : أسلوب الدعوة عند ((النصارى)) ١٥٨
أولاً : ((العلم)) في الكلام ((النصراني)) ١٥٨
ثانياً : أسلوب الدعوة ((النصرانية)) تنزيل كتاب في رؤيا ١٦١
ثالثاً : ((تفصيل الكتاب)) في لغة أخرى: ((الترجوم)) ١٦٣
رابعاً : الكتب السماوية، والكتاب المنزل ١٦٥
خاتمة : ((العلم)) أسلوب دعوة ما بين ((النصرانية)) والقرآن ١٦٨

بحث سادس : عقيدة ((النصارى)) ١٦٩
توطئة : عقيدتهم ((أمة وسط)) بين اليهودية والمسيحية ١٦٩
أولاً : عقيدتهم في النبوة والكتاب ـ المسيح هو ((النبي)) ١٧٠
ثانياً : صورة الكون عند النصارى وفي القرآن ١٧١
ثالثاً : عقيدة ((النصارى)) في الملائكة ١٧٣
رابعاً : المسيح في العقيدة ((النصرانية)) ١٧٧
خامساً : أسماء المسيح الحسنى في الكلام ((النصراني)) ١٧٩
سادساً : التثليث الإنجيلي في عقيدة ((النصارى)) ١٨١
توطئة : لغته المتشابهة تحوّله عن حقيقته ١٨٢
١ ـ ((ملاك كلمة الله)) هو ميكال ١٨٢
٢ ـ ((ملاك الروح القدس)) هو جبريل ١٨٥
٣ ـ صيغة التثليث المتشابهة في ((النصرانية)) ١٨٨
سابعاً : تجسد ((كلمة الله)) بحسب الكلام ((النصراني)) ١٩٠
ثامناً : قصة ((الشبه)) في صلب المسيح، عند ((النصارى)) ١٩٢

تاسعاً : قصة « رفع المسيح » إلى السماء في الدعوة « النصرانية » ١٩٤
عاشراً : رجعة المسيح واليوم الآخر في عقيدة « النصارى » ١٩٦

بحث سابع : الشريعة والصوفية عند « النصارى » ٢٠٠

أولاً : بعض الأحكام الشرعية « النصرانية » ٢٠٠
١ ـ استنكار التبني ٢٠٠
٢ ـ تحريم الخمر حتى في القربان ٢٠١
٣ ـ تحريم الخنزير ٢٠٢
٤ ـ الغسل من الجنابة والوضوء للصلاة ٢٠٤
٥ ـ الميل إلى تحريم « الرهبانية » عند « النصارى » ٢٠٥
٦ ـ الختان عند « النصارى » ٢٠٧
٧ ـ الصيام عند « النصارى » ٢٠٧

ثانياً : الحياة الاجتماعيّة عند « النصارى » ٢٠٩
١ ـ المجتمع « النصراني » : الحجر على الإبنة والمرأة في البيت ٢٠٩
٢ ـ الحجاب على النساء ٢١١
٣ ـ أحكام الزواج ٢١٢

ثالثاً : الحياة الدينية والصوفية ٢١٣
١ ـ الإيمان الجامع بين « النصرانية » والإسلام ٢١٤
٢ ـ الصلاة عند « النصارى » ٢١٤
٣ ـ العماد والختان معاً عند « النصارى » ٢١٦
٤ ـ المائدة والقربان ما بين « النصرانية » والقرآن ٢١٨

خاتمة الأبحاث السابقة : « النصرانية » هي « الأمة الوسط » ٢١٩
١ ـ تشيع « النصارى » للتوراة ولأهل بيت المسيح ٢٢٠
٢ ـ « النصارى » بين نارين: نار بني قومهم ونار بني دينهم ٢٢١
٣ ـ « النصرانية » أمة وسط بين اليهودية والمسيحية ٢٢٢

الفصل الثالث : « النصرانية » في مكة والحجاز قبل الإسلام ٢٢٥

توطئة : المسيحية و « النصرانية » في جزيرة العرب قبل الإسلام ٢٢٧
١ ـ سيطرة المسيحية على أطراف الجزيرة ٢٢٨
٢ ـ « النصرانية » في مكة والحجاز تبعث النهضة الجاهلية ٢٢٩

بحث أول : الدعوة الإنجيلية في الحجاز ـ من وحي القرآن والتاريخ ٢٣١
١ ـ الشاهد الأول هو الشعر الجاهلي ٢٣٢
٢ ـ الشاهد الأكبر هو القرآن ٢٣٢
٣ ـ شهادة التاريخ ٢٣٢
٤ ـ تلقينات القرآن بشيوع المسيحية بين العرب ٢٣٣
٥ ـ ملوك كندة المسيحيين هم ملوك نجد والحجاز ٢٣٦

بحث ثانٍ : « النصرانية » في مكة والمدينة والحجاز من وحي السيرة ٢٣٧

أولاً : « النصرانية » والمسيحية في المدينة ٢٣٨
١ ـ « النصرانية » في المدينة، من خير سلمان الفارس ٢٣٩
٢ ـ « المسيحية » في المدينة، من خبر الراهب أبي عامر ٢٤٢

ثانياً : « النصرانية » والمسيحية في نجران ٢٤٦
١ ـ الكنيسة المسيحية في اليمن ونجران ٢٤٧
٢ ـ « النصرانية » في نجران ـ خبر القس، ابن ساعدة ٢٥٢

ثالثاً : هل دخلت المسيحية أو « النصرانية » إلى الطائف؟ ٢٥٥

رابعاً : « النصارى » من بني إسرائيل بمكة قبل الإسلام ٢٥٨

١ ـ التوحيد الكتابي بمكة قبل الإسلام ٢٥٩
١) شهادة التاريخ على التوحيد عند أهل مكة قبل الإسلام ٢٥٩
٢) شهادة القرآن لأهل مكة بالتوحيد ٢٦٠
٣) القرآن يدعو إلى التوحيد الكتابي، لا إلى التوحيد المطلق ٢٦٥
٤) التفسير الصحيح لشهادة القرآن بتوحيد أهل مكة ٢٦٨

٢ ـ القرآن المكّي يشهد بوجود اليهود والمسيحيين بمكة ٢٧٥
١) القرآن يشهد بوجود اليهود بمكة بين أحزاب المعارضة ٢٧٦
٢) والقرآن يشهد بوجود المسيحيين بمكة، لكن على الحياد ٢٧٧
٣ ـ « النصارى » بمكة والدعوة القرآنية ٢٨٠
١) مجموعة أولى من الدلائل ٢٨٢
٢) مجموعة ثانية من الدلائل والإشارات ٢٨٤
٣) مجموعة ثالثة نكتفي بالإشارة إليها ٢٨٧
٤) « النصارى » بمكة جالية أجنبية، وطائفة عربية ٢٨٩

بحث ثالث : محمد على درب « النصرانية » ـ من وحي السيرة ٢٩٤

توطئة : ولاية الكعبة لأجداد محمد كانت من قِبَل ملوك كندة ٢٩٤

أولاً : « النصرانية » في بيت محمد ٢٩٥
١ ـ زعامة البيت ومكة في بني هاشم، لعبد المطلب ٢٩٥
٢ ـ « تنصّر » عبد المطلب، زعيم مكة، و « تحنّفه » ٢٩٧

ثانياً : « نصرانية » محمد في سيرته، قبل بعثته ٢٩٩
١ ـ المرحلة الأولى : الهدى في الصبا ٣٠٠
١) والدا محمد كانا مؤمنين ٣٠٠
٢) كفالة عبد المطلب لليتيم محمد ٣٠٠
٣) الهدى في الصبا ـ عماد محمد ٣٠١
٤) الحجّ إلى الإمام الأكبر، بحيرى ٣٠٣
٥) محمد الفتى يستمع في عكاظ إلى القس ابن ساعدة ٣٠٦
٢ ـ المرحلة الثانية : زواج محمد من خديجة ٣٠٧
١) محمد في تجارة خديجة ـ لقاء نسطور ٣٠٧
٢) خديجة تستشير ورقة في زواجها من محمد ٣٠٩
٣) ورقة ولي خديجة في زواجها من محمد ٣١١

٤) زواج «له نبأ عظيم وشأن خطير» ٣١٢
٣ ـ المرحلة الثالثة : محمد ينتظر في «التحنف» و «الدرس» ساعة الله ٣١٣
١) تحنّف محمد مع القس ورقة ٣١٣
٢) «درس» الكتاب مع القس ورقة ٣١٥
٣) محمد يحضر القس ورقة يترجم إنجيل النصارى ٣١٦
٤) محمد يداوم مع القس ورقة على الصلاة وتلاوة الكتاب ٣١٧

بحث رابع : مبعث محمد، ودور أئمة «النصارى» فيه ـ من وحي الحديث والسيرة ٣١٨

أولاً : الرؤيا الصالحة في النوم ٣١٨

ثانياً : صفة ورقة بن نوفل، من إنجيله وحديث ٣٢٤

ثالثاً : دور «النصارى» في بعثة محمد ـ من وحي السيرة ٣٢٨
١) حديث الرؤيا في السيرة ٣٢٨
٢) الخشية المخيفة من الرؤيا ٣٣١
٣) امتحان حقيقة الرؤيا الصالحة ٣٣٢
٤) استفتاء خديجة لرؤساء دينها في معنى الرؤيا ٣٣٣
٥) كيفية الوحي : و «برحاء الوحي» ٣٣٦
٦) دور «النصارى» بمكة في بعثة محمد ٣٣٩
خاتمة : صحة «الرؤيا» الصالحة ـ والإيمَان بالكتاب ٣٤٣

بحث خامس : أثر القس ورقة بن نوفل في محمد والقرآن ـ من وحي الحديث ٣٤٥
١ ـ أثره في نشأة محمد على «النصرانية» ٣٤٥
٢ ـ أثره في مبعث الوحي ٣٤٦
٣ ـ وفاة ورقة وفتور الوحي ٣٤٦
٤ ـ حديث رؤية ورقة في الجنة ٣٤٧

بحث سادس : انتساب الدعوة القرآنية إلى «النصرانية» ـ بنصّ القرآن نفسه ٣٤٨
أولاً : على حياة «القس» ورقة بن نوفل ٣٤٨

ثانياً : بعد وفاة ورقة بن نوفل ٣٥٤
ثالثاً : القرآن المدني يعلن وحدة الأمة بين محمد و ((النصارى)) ٣٦٠
خاتمة الفصل : هل الدعوة القرآنية هي ((النصرانية)) باسم ((الإسلام)) ؟ ٣٦٩

الفصل الرابع : الوثائق القرآنية ٣٧١

تمهيد : المبادئ القرآنية لفهم ما تشابه من القرآن ٣٧٣

بحث أول : الوثائق المكيّة لانضمام محمد إلى ((النصارى)) ٣٨٥
بحث ثانٍ : الوثائق المكيّة لقيام ((النصارى)) مع محمد بالدعوة القرآنية ٤٣٦
بحث ثالث : الوثائق القرآنية المدنية ((لتنصّر)) محمد ودعوته ٤٦٩

تمهيد : مبادئ سبعة في فهم الوثائق المدنية ٤٦٩

الوثائق المدنية ((لتنصّر)) محمد ودعوته ٤٧٧

خاتمة البحث : أربعة شواهد تاريخية ٥٣٧

بحث رابع : الوثائق القرآنية المدنية لإسلام ((النصارى)) ٥٤٠

توطئة : إطلاق اسم ((نصارى)) على المسيحيين سبب شبهة دائمة ٥٤٠

الوثائق المدنية لإسلام ((النصارى)) ٥٤٢

خاتمة البحث : إسلام ((النصارى)) بالمدينة ٥٥٤

خاتمة الفصل : الدعوة القرآنية هي ((النصرانيّة)) ٥٥٥

الفصل الخامس : الدلائل الحسان على ((نصرانيّة)) القرآن ٥٥٧

توطئة : الدعوة القرآنية هي ((النصرانيّة)) عينها ٥٥٩
بحث أول : ((نصرانية)) القرآن في دعوته ٥٦٠
أولاً : ((نصرانية)) القرآن في وحدة الكتاب ٥٦٠
ثانياً : ((نصرانية)) القرآن في وحدة الوحي والتنزيل ٥٦٢
ثالثاً : ((نصرانية)) القرآن في وحدة الدين ٥٦٤

رابعاً : « نصرانية » القرآن في وحدة الإيمَان ٥٦٥
خامساً : « نصرانية » القرآن في وحدة الإسلام ٥٦٧
سادساً : « نصرانية » القرآن في وحدة النبوة والرسالة ٥٧٠
سابعاً : « نصرانية » القرآن في وحدة العقيدة ٥٧١
ثامناً : « نصرانية » القرآن في وحدة الشريعة ٥٧٣
تاسعاً : « نصرانية » القرآن في وحدة الأمة ٥٧٤
عاشراً : « نصرانية » القرآن في وحدة الجدال والقتال ٥٧٦

بحث ثانٍ : « نصرانية » القرآن في ظواهره البارزة ٥٧٨

الظاهرة الأولى : حصر دعوة المسيح ببني إسرائيل ٥٧٩
الظاهرة الثانية : حصر خطاب القرآن لأهل الكتاب ببني إسرائيل ٥٨٠
الظاهرة الثالثة : معنى « النصارى » في اصطلاح القرآن ٥٨٣
الظاهرة الرابعة : لا يذكر القرآن الإنجيل إلا بالمفرد، فهو واحد ٥٨٥
الظاهرة الخامسة : حصر رسالة المسيح في نطاق التوراة ٥٨٦
الظاهرة السادسة : حصر دعوة المسيح بالتوحيد التوراتي ٥٨٨
الظاهرة السابعة : اقتصار رسالة المسيح على الشهادة لا على الفداء ٥٩٠
الظاهرة الثامنة : انتساب القرآن إلى الكتاب وأهله ٥٩٢
الظاهرة التاسعة : انتساب النبي العربي إلى « المسلمين » من قبله ٥٩٣
الظاهرة العاشرة : انتساب الإسلام إلى أولي العلم المقسطين ٥٩٥

بحث ثالث : « نصرانية » القرآن في أساليبه ٥٩٧

أولاً : أسلوب الكلام في أركان الإسلام ٥٩٧
ثانياً : أسلوب التعبير في لغته ومفرداته ٦٠٠
ثالثاً : مصطلح القرآن يدل على نسبه ٦٠٢
رابعاً : أسلوب النبوة « بالرؤيا » و « الإسراء » ٦٠٥

خامساً	: أسلوب التنزيل في الدعوة	٦٠٧
سادساً	: أسلوب «العلم» في «تفصيل الكتاب»	٦١١
سابعاً	: أسلوب القرآن في قصص الأنبياء، ومولد المسيح	٦١٤
ثامناً	: أسلوب الدعوة والبرهان على الإيمان	٦١٦
تاسعاً	: أسلوب القرآن في الجدال	٦١٨
عاشراً	: أسلوب النظم في القرآن	٦١٩
بحث رابع	: «نصرانية» القرآن في صيغ الإيمَان	٦٢٤
أولاً	: صيغة الإيمَان بالتوحيد	٦٢٤
ثانياً	: صيغة الإيمَان بالله واليوم الآخر	٦٢٦
	١ ـ صيغة الإيمَان بالله واليوم الآخر	٦٢٦
	٢ ـ صيغة الإيمَان بالله	٦٢٨
ثالثاً	: صيغة الإيمَان بالإسلام	٦٢٩
رابعاً	: صيغة الإيمَان بالمسيح	٦٣١
خامساً	: صيغة الإيمَان بالنبوّة	٦٣٣
سادساً	: صيغة الإيمَان بالكتاب	٦٣٦
سابعاً	: صيغة الإيمَان بالإنجيل	٦٣٧
ثامناً	: صيغة الإيمَان بالقرآن	٦٣٨
تاسعاً	: صيغة الإيمَان بالنبيّ العربيّ	٦٣٩
عاشراً	: صيغة الإيمَان بخاتمة النبوّة والكتاب	٦٤١
بحث خامس	: «نصرانية» القرآن في عقيدته	٦٤٣
أولاً	: عقيدة القرآن في «الروح»	٦٤٣
ثانياً	: عقيدة القرآن في «كلمة الله»	٦٤٦
ثالثاً	: عقيدة القرآن في «روح القدس»	٦٤٩
رابعاً	: ما بين التوحيد والتثليث في عقيدة القرآن	٦٥٠

خامساً : عقيدة القرآن في نزول « كلمة الله » إلى مريم ٦٥٦
سادساً : عقيدة القرآن في قصة مولد المسيح ٦٥٧
سابعاً : عقيدة القرآن في رسالة المسيح ٦٥٩
ثامناً : عقيدة القرآن في آخرة المسيح ٦٦٢
تاسعاً : عقيدة القرآن في رجعة المسيح ٣٣٦
عاشراً : جدال القرآن في عقيدته ٦٦٤

خاتمة الفصل : الإسلام « أمة وسط » نصرانيّة بين اليهودية والمسيحية ٦٦٧

الفصل السادس : مفاجآت تاريخية حول الدعوة القرآنية ٦٦٩

توطئة : « النصرانية » غير المسيحية ٦٧١

بحث أول : النصارى من بني إسرائيل في مكة والحجاز ٦٧٢

المفاجأة الأولى : هجرة « النصارى » إلى مكة والحجاز ٦٧٢
المفاجأة الثانية : سر النهضة الجاهليّة ٦٧٤
المفاجأة الثالثة : سرّ الحركة الحنيفيّة قبل الإسلام ٦٧٥
المفاجأة الرابعة : الدعوة إلى الإسلام قبل القرآن ٦٧٦
المفاجأة الخامسة : رمضان صيام « نصرانيّ » قبل القرآن ٦٧٧
المفاجأة السادسة : الكعبة مسجد مسيحيّ قبل القرآن ٦٧٨
المفاجأة السابعة : « النصرانية » في بيت محمد قبل مولده ٦٧٩

بحث ثانٍ : « نصرانيّة » محمد قبل مبعثه وفي دعوته ٦٨٠

المفاجأة الأولى : « النصارى » إمام « المتقين » من العرب ٦٨٠
المفاجأة الثانية : « نصرانية » محمد قبل مبعثه ٦٨٢
المفاجأة الثالثة : محمد يدرس « النصرانية » على يد ورقة، قس مكة ٦٨٤
المفاجأة الرابعة : بعثة محمد للدعوة للكتاب، على طريقة « النصرانية » ٦٨٨

المفاجأة الخامسة : محمد في دعوته يقتدي بهدى « النصارى » ٦٩٢
المفاجأة السادسة : محمد « أول المسلمين » أي « رئيس النصارى » ٦٩٥
المفاجأة السابعة : انتصار « النصرانية » باسم الإسلام، بفضل الدعوة القرآنية ٦٩٦

بحث ثالث : « نصرانية القرآن » ٧٠٠

المفاجأة الأولى : « نصرانية » القرآن من وجود « مثله » عند النصارى ٧٠٠
المفاجأة الثانية : « نصرانية » القرآن من عقيدته في المسيح وفي آخرته ٧٠٣
المفاجأة الثالثة : « نصرانية » القرآن في إسلامه ٧٠٤
المفاجأة الرابعة : « نصرانية » القرآن في أمته ٧٠٥
المفاجأة الخامسة : « نصرانية » القرآن في جهاده ٧٠٧
المفاجأة السادسة : فالإسلام القرآني هو « النصرانية » عينها ٧٠٨
المفاجأة السابعة : « النصارى » يذوبون في الإسلام « النصراني » القرآني ٧٠٩
خاتمة الفصل : « الأمة الوسط » في القرآن هي « النصرانية » ٧١٠

الفصل السابع : النتائج الحاسمة من الواقع القرآني ٧١٣

توطئة : الظاهرة الكبرى في القرآن أنه قريب وبعيد معاً ... ٧١٥

بحث أول : مصادر الإسلام في نظر الإيمَان والعلم ٧١٦
١ ـ نظرية الإيمَان في مصادر الإسلام والقرآن ٧١٧
٢ ـ نظرية العلم في مصادر الإسلام والقرآن ٧١٨
٣ ـ كشف الغطاء عن سرّ الدعوة القرآنية ٧١٩

بحث ثانٍ : القرآن دعوة « نصرانية » ٧٢١
١ ـ مصدر الخطإ في فهم حقيقة الدعوة القرآنية ٧٢١
٢ ـ واقعان تاريخيان لا مجال للريب فيهما ٧٢٢
٣ ـ نوجز « نصرانية » الدعوة القرآنية بهذه المواقف العشرة ٧٢٢

بحث ثالث : في عرْف القرآن لا يصح إسلام بدون إيمَان بالمسيح والإنجيل ٧٢٧
١ ـ محور الدعوة القرآنية هو أيضاً الإيمَان بالمسيح والإنجيل ٧٢٧
٢ ـ القرآن يجعل الإنجيل « هدى وموعظة للمتقين » ٧٢٩
٣ ـ لذلك لا يصحّ إسلام إلا بالإيمَان بالمسيح والإنجيل ٧٣٠

بحث رابع : « نصرانية » القرآن هي صلة الوصل الكيانية بين الإسلام والمسيحية ٧٣٢
١ ـ القرآن دعوة « نصرانية » ٧٣٢
٢ ـ فمَا بين الإسلام والمسيحية قربى كيانية هي « نصرانية » القرآن ٧٣٣

خاتمة الكتاب : « نصرانية » القرآن هي محور الحوار بين الإسلام والمسيحية ٧٣٥

القول الفصل : بين الإسلام والمسيحية، الشهادة لله وللمسيح على حرف واحد، على خلاف التأويل ٧٤١

[Blank Page]

((هذا بلاغ للناس))

((قلْ : **هذه سبيلي، أدعو إلى الله عن بصيرة،** أنا ومن اتبعني؛ وسبحان الله؛ وما أنا من المشركين)) (يوسف ١٠٨).

*

نصرّح للناس أجمعين : إن الوحي والتنزيل قضية إيمانية لا تمس.

لكن القرآن نفسه يدعونا إلى ((تدبره)) : ((أفلا يتدبّرون القرآن)) (٤ : ٨١ ؛ ٤٧ : ٢٤)؛ ((أفلم يدبّروا القول)) (٢٣ : ٦٩)؛ ((ليدبّروا آياته)) (٣٨ : ٢٩).

ويحرّض بتواتر أهل العلم على البحث فيه والنظر.

فعملاً بدعوة القرآن ندرس معنى انتسابه بتواتر إلى الكتاب وأهله، خصوصاً إلى ((أولي العلم قائماً بالقسط)) (آل عمران ١٨)، المحسنين منهم، ((الراسخين في العلم)) (آل عمران ٧)، ((مَن عنده علم الكتاب)) (الرعد ٤٥)، لنرى : هل القرآن دعوة ((نصرانية)) ؟

إن صح ذلك، يكون **الأساس المشترك** للحوار الصحيح بين الإسلام والمسيحية. تلك ((النصرانية)) القرآنية هي **الجامع الموحّد** بين الإسلام والمسيحية.

*

في مواجهة الرأي :

((الضعيف يرتجف منه!
والجاهل يخالفه!
والحكيم يدرسه!
والحازم يقرّره)) ! (حكمة شائعة)
((**هذا بلاغ للناس**)) (إبراهيم ٥٢).

* * *

[Blank Page]

تمـهيد

سر « النصارى » في القرآن

[Blank Page]

بحث أول

أنوار كاشفة من الإنجيل والقرآن

١) في المؤتمر الأول للرسل، صحابة المسيح:

« غير أن قوماً من الذين آمنوا، من مذهب الفريسيين، نهضوا وقالوا : إنه يجب أن يُختتنوا (المسيحيون من الأمميين) ويؤمروا بإقامة شريعة موسى »
(سفر الأعمال ١٥ : ٥)

٢) يعقوب، زعيم « النصرانية» يقول لبولس، زعيم المسيحية :

« أيها الأخ، أنت ترى كم ربوة من اليهود قد آمنوا (بالإنجيل)؛ وكلهم ذو غيرة على الشريعة » ـ أي التوراة. (سفر الأعمال ٢١ : ٢٠)

فالنصارى من بني إسرائيل يقيمون وحدهم التوراة والإنجيل.

٣) « قلْ : يا أهل الكتاب لستم على شيء **حتى تقيموا التوراة والإنجيل**، وما أنزل إليكم من ربكم » (المائدة ٧١)

٤) شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصينا به إبراهيم **وموسى وعيسى :** أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه » (الشورى ١٣)

٥) « لا نفرّق بين أحد من رسله » (البقرة ٢٨٥)

« لا نفرّق بين أحد منهم، **ونحن له مسلمون** »
(البقرة ١٣٦؛ آل عمران ٨٤ قابل النساء ١٥١)

٦) « ومن **قوم موسى** أمة يهدون بالحق، وبه يعدلون » (الأعراف ١٥٨)

٧) « يا أيها الذين آمنوا، كونوا أنصار الله، كما قال عيسى، ابن مريم، للحواريين : من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله. فآمنت **طائفة من بني إسرائيل**، وكفرت طائفة : **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ». (الصف ١٤)

فالنصارى هم « طائفة من بني إسرائيل » آمنت بالمسيح؛ وهم « من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » .

هؤلاء هم النصارى اليهود، أو « النصارى » على الحصر والعلمية.

وصفتهم في القرآن : أولو العلم المقسطون، المحسنون.

٨) « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم ، درجات »
(المجادلة ١١)

٩) « شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة، **وأولو العلم قائماً بالقسط** ـ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ أن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٨ و ١٩)

فالنصارى هم « أولو العلم قائماً بالقسط » ، وهم يشهدون : « أن الدين عند الله الإسلام » ؛ والقرآن يشهد للإسلام بشهادتهم. فهم « **المسلمون** » على التخصيص؛ وهو يميزهم من « الذين آمنوا » :

١٠) « قلْ : نزّله روح القدس من ربك بالحق، ليثبّت الذين آمنوا، وهدى وبشرى للمسلمين » (النحل ١٠٢)

*

فمن هم « النصارى » في القرآن؟

وهم شائع، منذ الدعوة القرآنية حتى اليوم، أن النصارى هم المسيحيون المنتشرون في الأرض، قبل ظهور الدعوة القرآنية وبعدها.

وهذا الوهم الشائع هو مصدر الخلاف بين الإسلام والمسيحية : يظنون أن المسيحية هي « النصرانية » التي يذكرها القرآن.

وقد زاد هذا الوهم الشائع ترسيخاً ترجمة المستشرقين كلمة « نصارى » في القرآن، بلفظة « مسيحيين » Chrétiens . فزاد البلبال.

ونحن إذا « تدبرنا القرآن » ، كما يدعونا هو إلى ذلك (محمد ٢٤ ص ٢٩ المؤمنون ٦٨ النساء ٨١) وجدنا أن « النصارى » في القرآن هم غير المسيحيين. وهذا ما نتحققه أيضاً في مصادر الوحي الإنجيلي، « العهد الجديد » ؛ وما تثبته المصادر التاريخية، في عهد الفترة ، ما بين الإنجيل والقرآن.

فالظاهرة الأولى الكبرى أن القرآن، الذي يميّز بين العقيدة النصرانية والعقيدة المسيحية، لا يعرف أَتباع المسيح من بني إسرائيل والأمميين إِلا باسم « نصارى » ! ولا يذكر اسم « مسيحيين » على الإطلاق، مع أنه الاسم الشائع في الدنيا كلها على أيام الدعوة القرآنية والفتوحات الإسلامية؛ والاسم الشائع في أطراف الجزيرة العربية نفسها من اليمن إلى الشمال.

والظاهرة الثانية الكبرى أن القرآن يكفر اليهودية تكفير « النصرانية » لها، و« يكفّر » المسيحية أيضاً تكفير « النصارى » لها : « قل : يا أهل الكتاب **لا تغلوا في** دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل ـ **لُعن** الذين كفروا من بني إسرائيل، على لسان داود، وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ! (المائدة ٨٠ ـ٨١). فتكفير اليهودية جازم: إنه « لعن » ! وتكفير المسيحية دعوة

للاعتدال في أمر المسيح وأمه : « لا تغلوا في دينكم غير الحق » ! فليس في القرآن من تكفير للمسيحية؛ إنما هناك تكفير لبعض انحرافات، كفرتها المسيحية من قبل القرآن.

والظاهرة الثالثة الكبرى أن ما بين القرآن والكتاب، وما بين النبي العربي وأهل الكتاب انتساب ونسب، يجعل أهل الكتاب وأهل القرآن أمة واحدة : « إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدونِ » (الأنبياء ٩٢)، « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقونِ » (المؤمنون ٥٣)؛ ويجعل الدعوة فيما بينهم تجاه المشركين واحدة : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكْم ـ (أي الحكمة) ـ والنبوة، فإن يكفر بها هؤلاء، فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين؛ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدهْ » (الأنعام ٨٩ ـ ٩٠). فالقرآن يقوم على هدى الكتاب وأهله، **بقطع النظر عن الوحي والنبوة، فهما مسألة إيمانية فوق درس الدارسين.**

فالقرآن قريب من أهل الكتاب حتى وحدة الأمة والدعوة، وبعيد عنهم حتى التكفير، في آن واحد. وهذه هي **الظاهرة الرابعة الكبرى** فيه. فمن هم أهل الكتاب الذين على النبي العربي أن يقتدي بهداهم؟ ومن هم « الذين كفروا من بني إسرائيل » فلعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم؟ ومَن هم أهل الكتاب الذين « يغلون في دينهم غير الحق » ؟ ومن هم الأمة من قوم موسى الذين يهدون بالحق : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق، وبه يعدلون » (الأعراف ١٥٨)؛ ومَن هي الطائفة من أتباع المسيح التي يظاهرها القرآن حتى النصر المبين (الصف ١٤)؛ ـ نعرف ذلك متى عرفنا سر النصارى في القرآن.

فمن هم « النصارى » في القرآن؟

وما هو سر « النصارى » في القرآن؟

وما هي صلة « النصرانية » بالدعوة القرآنية؟

* * *

بحث ثان

صلة القربى بين الإسلام والمسيحية، عبر « النصرانية »

كل من يقرأ القرآن يشعر بأن بين الإسلام والمسيحية صلة قربى. والواقع القرآني شاهد عدل على هذه القربى.

لكن **ما مداها ؟ وما سرها ؟**

مصدر القرآن، في لغة الإيمان، النبوة والتنزيل. وهذه قضية إيمانية لا تُمس.

لكن لغة الإيمان لا تمنع لغة العلم. وفي تفسير تلك القربى، في القرآن، بين الإسلام والمسيحية، تشعبت **مذاهب العلماء** إلى ثلاثة : قوم منهم وجدوا مصادر القرآن في **اليهودية وحدها**، بسبب انتساب القرآن إلى الكتاب، وتصريحه باصطفاء بني إسرائيل على العالمين : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وإني فضلتكم على العالمين » (البقرة ٤٧ و١٢٢). وقوم وجدوها في **المسيحية وحدها**، بسبب دعوة القرآن للمسيح وأمه « آية للعالمين » (الأنبياء ٩٢، المؤمنون ٥٣)، وإيمانه بأن « المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » (النساء ١٧٠). ومن هؤلاء من خصّص فوجدها في المسيحية النسطورية. وقوم تزندقوا فجعلوا مصادر القرآن تلفيقاً مقتبساً من اليهودية والمسيحية.

ومن الحق أن يقال : بأن هذه **المذاهب كلها قاصرة** لا تشرح إلا جانباً من الدعوة القرآنية؛ ولا تفسرها كلها تفسيراً كاملاً مقبولاً.

فالقرآن، مع قوله بتنزيله، ينتسب انتساباً مطلقاً إلى الكتاب. فقد جاء يشرع للعرب دين موسى وعيسى بلا تفريق (الشورى ١٣)؛ ويعلمهم « الكتاب والحكمة » ـ التوراة والإنجيل (البقرة ١٢٩ و١٥١؛ آل عمران ١٦٤؛ الجمعة ٢)؛ وشعاره : « لا نفرق بين أحد من رسله » (البقرة ٢٨٥).

لكنه في انتسابه المطلق إلى الكتاب وأهله، ينتسب خصيصاً إلى جماعة منهم يؤمن بإيمانهم ويدعو بدعوتهم : « وأمرت أن أكون من المسلمين، وأن أتلو القرآن » (النمل ٩١) فالمسلمون موجودون من قبله وهو ينتمي إليهم.

وهؤلاء المسلمون من قبله يصفهم بأنهم « أولو العلم » المقسطون الذين يشهدون مع الله وملائكته بأن الدين عند الله الإسلام : « شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الإسلام. وما اختلف الذين أوتوا الكتاب (اليهود) إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » (آل عمران ١٨ و١٩).

فهؤلاء المسلمون الذين يشهد القرآن بشهادتهم ليسوا جماعته من العرب « الذين تابوا معه » ، « والذين آمنوا » كما يسميهم بتواتر. فهو يميّز بينهم وبين أولي العلم المقسطين الذين يجعلهم في منزلة واحدة من الرفعة : « يرفع الله الذين آمنوا منكم، والذين أوتوا العلم، درجات » (المجادلة ١١). فهما **اصطلاحان في القرآن** يجعلان جماعة محمد وأولي العلم فريقين متميزين ولكن متفقين في الدعوة القرآنية.

في اصطلاح القرآن، إنما « المسلمون » ، « أولو العلم » المقسطون، هم جماعة « من قوم موسى » و « طائفة من بني إسرائيل » آمنت بالمسيح، وكانوا للمتقين من العرب مع محمد إماماً، باسم « عباد الرحمن » . في تلك المترادفات الخمسة **مفتاح السر** في الدعوة القرآنية. فهو يقول : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق، وبه يعدلون » (الأعراف ١٥٨). ويقول : « وعباد الرحمن ... الذين يقولون ... واجعلنا للمتقين إماماً » (الفرقان ٦٣ و٧٤) ـ والمتقون، في

اصطلاحه المتواتر، هم « الذين آمنوا » من العرب المشركين، كما هو اصطلاح متواتر عند أهل الكتاب في « الذين آمنوا » من الأمميين أو الأميين (بحسب النسبة إلى الجمع أو إلى المفرد). وهؤلاء الجماعة، « عباد الرحمان » ، الأمة من قوم موسى، هم الطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح، والتي قامت الدعوة القرآنية لنصرتهم على الذين كفروا بالمسيح من بني إسرائيل : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : مَن أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله! **فآمنت طائفة من بني إسرائيل، وكفرت طائفة** : فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (الصف ١٤). لاحظ الترادف بين أنصار عيسى وكلمة نصارى؛ فقد نقل القرآن عنهم تفسير اسمهم « نصارى » بأنصار عيسى. ففي اصطلاح القرآن، **أن بني إسرائيل طائفتان** : النصارى من بني إسرائيل الذين آمنوا بالمسيح على دعوة الحواريين، أنصاره؛ واليهود من بني إسرائيل الذين كفروا بالمسيح. والقرآن يكفر اليهود، ويؤيد النصارى من بني إسرائيل عليهم « حتى أصبحوا ظاهرين » في الحجاز والجزيرة. **فالقرآن دعوة لتأييد هؤلاء النصارى من بني إسرائيل. وهو يحصر حصراً اسم « نصارى »** بالطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح، وبالأمة من قوم موسى يهدون بالحق وبه يعدلون، عباد الرحمان الذين جعلهم « للمتقين إِماماً. فهم « **الأمة الوسط** » **بين اليهودية والمسيحية** التي ينادي بها في وجه المشركين : « وكَذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً » (البقرة ١٤٣).

لذلك نقول بحق : إن القرآن دعوة « نصرانية » .

وهذا ما نراه في هذا الكتاب.

سنرى أن « النصرانية » بالنسبة للمسيحية، في منزلة **الشيعة من السنّة**، بين أهل الإنجيل. إن أهل « شيعة النصارى » يقيمون التوراة والإنجيل معاً، من

دون أهل « السنّة المسيحية » الذين يكتفون بأحكام الإنجيل وحدها، بناء على قرار مؤتمر الرسل عام ٤٩ م (أع ١٥).

« فالنصرانية » هي صلة القربى بين الإسلام والمسيحية.

في كتاب لنا سابق (القرآن والكتاب ـ القسم الثاني : أطوار الدعوة القرآنية) رأينا تطورها إلى خمسة عهود : العهد المسيحي، فالعهد الإسرائيلي، فعهد الأمة الواحدة، فعهد الأمة الوسط، فالعهد الإسلامي. تلك ظواهر الدعوة القرآنية. أمّا الحقيقة الكامنة فيها جميعاً أن القرآن كله دعوة « نصرانية » . وقد « درس » محمد (الأنعام ١٠٥) هذه الدعوة خمس عشرة سنة بعد زواجه من خديجة، ثرية مكة، على يد ورقة بن نوفل، قسّ مكة النصراني، وعم خديجة؛ **وأخيراً تراءى له ملاك من الله**، في رؤيا غار حراء، وأمره بالإيمان بها والدعوة لها (الشورى ٥٢): « وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم » (الشورى ١٥)؛ « وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن » (النمل ٩١) أي قرآن الكتاب؛ فهو تصديق له وتفصيل (يونس ٣٧)، بحسب « المثْل » الذي عند النصارى من بني إسرائيل (الأحقاف ١٠).

فالقرآن دعوة « نصرانية » برزت شيئاً في أطوار الدعوة القرآنية.

وهذه هي الصلة الجوهرية بين الإسلام والمسيحية. فالقرآن، بعد التوحيد الكتابي، **دعوة صريحة للمسيح والإنجيل**، في « أمة وسط » بين اليهودية والمسيحية، كما كانت « النصرانية » التي يشهد بشهادتها (آل عمران ١٨ و١٩)، والتي جاءت الدعوة القرآنية « تأييداً » لها (الصف ١٤). إن « نصرانية » الدعوة القرآنية هي **جوهر القربى** بين الإنجيل والقرآن، **ومحور الحوار** الواجب الوجود بين الإسلام والمسيحية.

* * *

بحث ثالث

أنوار قرآنية هادية، ما بين « النصرانية » والدعوة القرآنية

في القرآن إشارات عديدة إلى صلة الدعوة القرآنية « بالنصرانية » . إذا ما استجمعناها ظهر لنا أن تلك الصلة هي **صلة انتساب ونسب**، في « أمة واحدة » ، هي « الأمة الوسط » ، بين اليهودية والمسيحية.

١ـ هداية محمد وبعثته.

« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً، فيوحي بإذنه ما يشاء، إنه عليّ حكيم. وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان؛ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا. وإنك لتـُهدَى[١] إلى صراط مستقيم، صراط الله » (الشورى ٥٢).

لقد أرسل الله إلى محمد، وهو معتكف في غار حراء، « رؤيا » بواسطة « روح من أمره » أي ملاك، فأوحى إليه « الإيمان بالكتاب » ، الصراط المستقيم، صراط الله؛ فاهتدى إلى صراط الكتاب وآمن به : « وقلْ : آمنتُ بما أنزل الله من كتاب، وأُمرتُ لأعدل بينكم » (الشورى ١٥).

---

(١) قراءة « لتـُهدَى » أصح من قراءة « لتـهدِي » لأنها تنسجم مع السياق الذي يذكر هداية الله لأنبيائه بالوحي إليهم، على ثلاث طرائق.

وهذا هو الإسلام الذي اهتدى إليه، وإليه يهدي : « **وأمرتُ أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن** » (النحل ٩١ ـ٩٢). فالإسلام موجود قبل القرآن، والمسلمون موجودون قبل محمد وهو ينضم إليهم، ويتلو معهم « القرآن » ، قرآن الكتاب بلسان عربي مبين.

*

٢ـ القرآن يميّز بين « المسلمين » وبين « المتقين » من العرب.

مصادر الوحي الإنجيلي تسمي « متقين » أولئك الذين آمنوا بالتوحيد الكتابي ثم بالمسيح من الأميّين. وهذا هو المعنى الذي نجده في القرآن، فهو يميز بين « المسلمين » وبين « المتقين » « الذين آمنوا » مع محمد، الذين « تابوا معه » من بين المشركين العرب الذين يسميهم « الناس » ؛ قال : « هذا بيان للناس، وهدى وموعظة للمتقين » (آل عمران ١٣٨)؛ « فاستقم كما أمرت، ومَن تاب معك » (هود ١١٢).

والقرآن، كما هو « هدى وموعظة للمتقين » الذين آمنوا من العرب، هو أيضاً « بشرى للمسلمين » : « قل : نزَّله روح القدس من ربك بالحق، **ليثبت الذين آمنوا، وهدى وبشرى للمسلمين** » (النحل ١٠٢). فالدعوة القرآنية تثبيت « للذين آمنوا » من العرب، « وبشرى للمسلمين » . فالمؤمنون بمحمد من العرب، و « المسلمون » ، هم فريقان متميزان، لكن متحدان في الدعوة القرآنية. « فالمسلمون » هم إذن في الأصل غير جماعة محمد « الذين آمنوا » ، والذين « تابوا معه » من العرب. والقرآن « بشرى للمسلمين » أي إنجيل لهم، بحسب الترجمة الحرفية لكلمة إنجيل.

*

٣ـ المسلمون هم الأمة الهادية من قوم موسى، الطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح.

محمد يؤمر بأن يقتدي بهدى أهل الكتاب : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب

والحكم[1] والنبوة ـ فإن يكفر بها هؤلاء، فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ـ أولئك الذين هدى الله، فبهداهم اقتدِهْ ›› (الأنعام ٨٩ ـ ٩٠).

وهدى أهل الكتاب الذي يؤمر محمد بالاقتداء به هو هدى أمة معلومة من قوم موسى: ‹‹ **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ›› (الأعراف ١٥٨).

وما هي هذه الأمة المهدية الهادية من قوم موسى؟ إنها الطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح مع الحواريين صحابته : ‹‹ يا أيها الذين آمنوا، كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : مَن أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله! **فآمنت طائفة من بني إسرائيل، وكفرت طائفة: فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ›› (الصف ١٤).

لقد حصر القرآن الأمة الهادية العادلة من قوم موسى، التي بهداها يجب على النبي أن يقتدي، بالطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح. وهي أمة ‹‹ النصارى ›› في لغة القرآن ولغة الإنجيل. **والنصارى، في عرف القرآن، هم حصراً الطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح**؛ فهم اليهود النصارى، الأمة الهادية العادلة من قوم موسى، الطائفة الصحيحة من آل عيسى. فالقرآن يحصر إذن اسم ‹‹ نصارى ›› بالمؤمنين بالمسيح من اليهود، لا بالمؤمنين بالمسيح من غير أهل الكتاب أي من الأميّين.

وقد عرّب القرآن معهم اسم ‹‹ نصارى ›› بأنصار : فالنصارى من بني إسرائيل هم ‹‹ أنصار الله ›› ، وهم ‹‹ الذين آمنوا ›› ؛ وعلى مثالهم يجب أن تكون جماعة محمد من العرب ‹‹ أنصار الله الذين آمنوا ›› : وحدة في الاسم، ووحدة في الإيمان.

*

---

(١) الحكم تعبير عبراني نقله بحرفه يعني الحكمة، كما يتضح من وضعه بين الكتاب والنبوة.

٤ـ « النصارى » من بني إسرائيل، و « المتقون » من العرب هم « أمة واحدة » في التوحيد الكتابي والإيمان بالمسيح:

ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون. وجعلنا ابن مريم وأمه آية، وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين : يا أيها الرسل كلوا من الطيبات، إني بما تعلمون عليم. **وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربك فاتقونِ** » (المؤمنون ٥٠ ـ٥٣). فالمتقون من العرب مع محمد هم أمة واحدة مع المؤمنين بالمسيح وأمه من أهل الكتاب، من بني إسرائيل.

ثم يذكر أنبياء الكتاب ويختم ذكرهم بقوله : « والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا، وجعلناها وابنها آية للعالمين. **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدونِ** » (الأنبياء ٩٠ ـ ٩٢). فمحمد والذين « تابوا معه » من العرب هم أمة واحدة مع النصارى، الطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح وأمه آية للعالمين.

فالأمة الواحدة التي يشيد بها القرآن والتي ينتمي إليها محمد ومن معه من المتقين العرب، ليست اليهودية التي تكفر بالمسيح وأمه؛ وليست المسيحية التي « تغلو في دينها » بالمسيح وأمه؛ بل الأمة « النصرانية » ، « أمة من قوم موسى يهدون بالحق وبه يعدلون » ، « طائفة من بني إسرائيل » آمنت بالمسيح فصارت مع الحواريين أمة « النصارى » ، أنصار الله والمسيح.

فالنصارى من بني إسرائيل، والمتقون من العرب هم « **أمة واحدة** » في التوحيد الكتابي والإيمان بالمسيح وأمه آية للعالمين. لكنها « **أمة وسط** » ما بين اليهودية والمسيحية.

*

٥ـ ما بين « النصارى » المسلمين، والعرب « المتقين » وحدة شاملة كاملة :

وحدة في « الأمة الواحدة » (الأنبياء ٩٢؛ المؤمنون ٥٣).

وحدة في الاسم ما بين « نصارى » و « أنصار » (الصف ١٤).

وحدة في العقيدة : فهم « يؤمنون بالكتاب كله » أي بالتوراة والإنجيل معاً، لا بالشريعة الموسوية من دون الإنجيل كاليهود، ولا يعملون بالإنجيل من دون الشريعة كالمسيحيين؛ بل يقيمون التوراة والإنجيل معاً : « **قل : يا أهل الكتاب لستم على شيء، حتى تقيموا التوراة والإنجيل** » (المائدة ٧١). فالذين يقيمون التوراة والإنجيل هم المسلمون حقاً، المؤمنون « بما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم : لا نفرّق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون » (البقرة ١٣٦؛ آل عمران ٨٥). فشعاره : « لا نفرّق بين أحدٍ من رسله » (البقرة ٢٨٥)

فالمسلمون هم النصارى من بني إسرائيل الذين يهتدي محمد بهداهم، ويقتدي بعقيدتهم وهو معهم « أمة واحدة » في الدعوة والجهاد.

*

٦ـ فما بين الدعوة القرآنية و « النصرانية » وحدة في الدعوة:

« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ـ إلا الذين ظلموا منهم **وقولوا : آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون** » (العنكبوت ٤٦).

يقسم القرآن أهل الكتاب في الحجاز إلى محسنين وظالمين : فمع « الظالمين » منهم، وهم اليهود، يصح الجدال بغير الحسنى أي بالجهاد؛ ولكن مع « المحسنين » منهم أي النصارى ـ الأمة الهادية من قوم موسى، الطائفة من بني إسرائيل المؤمنة بالمسيح ـ لا يصح الجدال إلا بالحسنى، وهذه الحسنى هي التسليم معهم بأن الإله الذي يعبده الفريقان واحد، والتنزيل واحد، والإسلام واحد. فوحدة الإله، ووحدة التنزيل، ووحدة الإسلام، بين « النصرانية » والدعوة القرآنية، دليل وحدة الأمة ووحدة الدعوة.

*

٧ـ فإسلام القرآن هو إسلام « النصارى » من بني إسرائيل، أولي العلم المقسطين:

يقسم القرآن العرب إلى أهل الكتاب والأميّين : « وقل للذين أُوتوا الكتاب والأميّين : أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا » (آل عمران ٢٠).

ويسمي القرآن أهل الكتاب، على العموم، « الذين يعلمون » ؛ أما العرب المشركون، أي باصطلاح أهل الكتاب والقرآن، الأميون، فصفتهم : « الذين لا يعلمون » (البقرة ١١٢ و١١٩).

ويقسم القرآن أهل الكتاب، أولي العلم، إلى فئتين : أولي العلم « الظالمين » أي اليهود (العنكبوت ٤٦)، وأولي العلم « المقسطين » أو « المحسنين » أي النصارى من بني إسرائيل. فهؤلاء النصارى المحسنين المقسطين هم الذين يدعون إلى الإسلام :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة، وأولو العلم قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم : **إن الدين عند الله الإسلام**. وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ـ (أي اليهود) ـ إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم؛ ومن يكفر بآيات الله، فإن الله سريع الحساب. فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله، ومن اتبعني! وقل للذين أوتوا الكتاب ـ (اليهود) ـ والأميّين : أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد. إن الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون **الذين يأمرون بالقسط من الناس**، فبشرهم بعذاب أليم » (آل عمران ١٨ ـ٢١).

فاليهود ينكرون أن الدين عند الله الإسلام. والنصارى أولو العلم، أي من كان « قائماً بالقسط » من أهل الكتاب، يشهدون مع الله ومع الملائكة « إن الدين عند الله الإسلام » . ولذلك يقتلهم اليهود كما كانوا يقتلون النبيين بغير حق : « ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس » ، أي الذين يشهدون مع القرآن « أن الدين عند الله الإسلام » .

فهؤلاء النصارى من بني إسرائيل؛ الأمة من قوم موسى يهدون بالحق، وبه يعدلون (الأعراف ٥٨)؛ الطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح (الصف ١٤) هم في عرف القرآن أولو العلم المقسطون؛ وشهادتهم للإسلام من شهادة الله والملائكة. فهم المسلمون، وهم الداعون للإسلام الذي يتنكّر له اليهود. **فإسلام القرآن هو إسلام « النصارى »** ، أولي العلم المقسطين من أهل الكتاب. لذلك فهم في **منزلة واحدة** : « يرفع الله الذين آمنوا منكم، والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة ١١).

*

٨ ـ فالإسلام من قبل القرآن : ومحمد ينتمي إليه، ويدعو بدعوته :

فالإسلام من قبل القرآن : « **هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا** » القرآن (الحج ٧٨).

ومحمد يؤمر بالانضمام إلى هؤلاء المسلمين : « **وأمرت أن أكون من المسلمين، وأن أتلو القرآن** » (النحل ٩٠ ـ٩١).

فالقرآن يحصر الإسلام والمسلمين بالنصرانية والنصارى، لا بسائر أهل الكتاب من بني إسرائيل، ولا بالمسيحيين من الأميين، إلا إذا تركوا « الغلو في الدين » بأمر المسيح وأمه.

فالدعوة النصرانية بين العرب أخذت اسم « الإسلام » ؛ ومحمد في هدايته وبعثته (الشورى ٥٢ و١٥) انضمّ إلى هذا الإسلام النصراني : « وأمرت أن أكون من المسلمين »، ودعا بدعوته في القرآن : « وأن أتلو القرآن » .

فالإسلام القرآني هو الإسلام « النصراني » اسماً ومعنى ودعوة.

*

٩ـ وهذا الإسلام « النصراني » هو الدين الذي يشرعه الله للعرب :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصينا

إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » (الشورى ١٣).

الإسلام النصراني القرآني هو الإيمان بموسى وعيسى معاً، بإقامة التوراة والإنجيل معاً : « قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل » (المائدة ٧١). وهذا ما لا ترضاه اليهودية التي تكفر بالمسيح والإنجيل، وما لا ترضاه المسيحية التي تقيم الإنجيل وتنسخ شريعة موسى. وهذا ما تقول به النصرانية التي تؤمن بالإنجيل وتقيم شريعة موسى. وما تقول به النصرانية اليهودية هو دعوة القرآن : فالقرآن يشرع للعرب دين إبراهيم وموسى وعيسى، دين التوراة والإنجيل معاً، « **ما أوتي موسى وعيسى،** والنبيون من ربهم : لا نفرّق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون » (البقرة ١٣٦، آل عمران ٨٥). فهذا الإسلام « النصراني » الذي يقيم التوراة والإنجيل معاً، ولا يفرّق بين موسى وعيسى، هو الدين الذي شرعه الله للعرب في القرآن.

*

١٠- هذا الإسلام « النصراني » القرآني هو « الدين القيّم » ، « دين الحق » .

« **إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون** » (النحل ٧٦).

اختلف بنو إسرائيل في أمر عيسى، فآمنت طائفة به أنه المسيح، وكفرت طائفة (الصف ١٤). والطائفة التي آمنت بالمسيح من بني إسرائيل هي « أمة من قوم موسى يهدون بالحق وبه يعدلون » (الأعراف ١٥٨). ومحمد يؤمر أن يقتدي بهدى هذه الطائفة النصرانية الهادية العادلة (الأنعام ٩٠)؛ ومعها يقص القرآن على بني إسرائيل من اليهود أكثر الذي هم فيه يختلفون (النحل ٧٦)، وما اختلفوا إلا على المسيح : فالقرآن يدعو اليهود إلى الإيمان بالمسيح، إلى « الدين القيّم » . فطلبوا منه البينة :

« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ـ أي اليهود ـ والمشركين

منفكين حتى تأتيهم البينة : رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة، فيها كتب قيمة. وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب ـ أي اليهود ـ إلا من بعد ما جاءتهم البينة! ... **وذلك دين القيمة** » (البينة ١ ـ ٥).

فدين القيّمة، الدين القيّم ـ ترجمة حرفية للأرثذكسية » ـ و ما ينكره اليهود والمشركون على محمد والنصارى : التوحيد النصراني القرآني الذي يؤمن بالله والمسيح. فيقول : « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » (الشورى ١٣)؛ ويقول : « إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » (النحل ٧٦)، وأكثر الذي هم فيه يختلفون هو الإيمان بالمسيح؛ مع أنه « الدين القيّم » ، « دين الحق » الذي يدعو إليه القرآن بين العرب : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون » (٩ : ٣٤؛ ٤٨ : ٢٨؛ ٦١ : ٩).

*

١١ـ الدين القيم، الإسلام النصراني القرآني، هو « أمة وسط » بين اليهودية والمسيحية.

إن اليهودية تكفر بعيسى المسيح، والمسيحية « تغلو » في أمره؛ لكن النصرانية من بني إسرائيل تؤمن بالمسيح، ولا « تغلو » فيه؛ فالنصرانية أمة وسط بين اليهودية والمسيحية. وعلى مثال هذه الأمة النصرانية الوسط أنشأ القرآن أمته :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً، لتكونوا شهداء على الناس » ! (البقرة ١٤٣). فأهل القرآن مثل النصارى، لا يكفرون بالمسيح مثل اليهود، ولا « يغلون » في أمره مثل المسيحيين؛ بل هم « أمة وسط » بين اليهودية والمسيحية. فأمة القرآن « أمة وسط » مع « النصرانية » ، وهم « الأمة الواحدة » التي تؤمن بالمسيح عيسى وأمه آية للعالمين (المؤمنون ٥٣).

*

١٢ـ أخيراً ما بين الدعوة القرآنية والنصرانية وحدة الجهاد والرسالة

هذا هو التصريح الضخم الذي يكشف لنا سر النصارى وسر الدعوة القرآنية:

« **فآمنت طائفة من بني إسرائيل (بالمسيح)، وكفرت طائفة : فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين** » (الصف ١٤).

فالدعوة القرآنية تأييد للنصرانية من بني إسرائيل على اليهودية حتى الظهور والنصر! فالقرآن يدعو ويجاهد مع « أمة من قوم موسى يهدون بالحق وبه يعدلون » (الأعراف ١٥٨)، مع طائفة من بني إسرائيل آمنت بعيسى المسيح (الصف ١٤)، مع النصارى، حتى السيطرة التامة على اليهود في الحجاز والجزيرة.

فما بين النصرانية والدعوة القرآنية وحدة في العقيدة، ووحدة في الدعوة، ووحدة في الجهاد حتى النصر المبين : « **ونريد أن نمنّ على الذين استُضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين** » (القصص ٥)؛ « واجعلنا للمتقين إِماماً » (الفرقان ٧٤).

يقول ذلك بحق النصارى من بني إسرائيل الذين وقعوا بين نارين، نار بني قومهم اليهود، ونار بني دينهم المسيحيين، فاستُضعفوا في الأرض، ولجأوا إلى الحجاز. وأتت الدعوة القرآنية انتصاراً لهم « على عدوهم، فأصبحوا ظاهرين » (الصف ١٤). فانتصرت النصرانية، « الأمة الوسط » على اليهودية وعلى المسيحية في الحجاز والجزيرة بفضل الدعوة القرآنية : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون »
(٩ : ٣٤؛ ٤٨ : ٢٨؛ ٦١ : ٩).

فهل الدعوة القرآنية هي « النصرانية » ؟

على هدى تلك الأنوار القرآنية نرى الجواب، في هذا الكتاب.

الفصل الأوّل

« النصارى » في مصادر الوحي الإنجيلي

بحث أول : يسوع الناصري ، ويسوع المسيح

بحث ثانٍ : انقسام أتباع المسيح في الاسم
إلى نصارى ومسيحيين

بحث ثالث : انقسام أهل الإنجيل إلى سُنّة وشيعة

بحث رابع : « شيعة النصارى » في « العهد الجديد »

بحث أول

يسوع الناصري ـ ويسوع المسيح

إنها لسُنّة شرقية مألوفة تسمية معلم أو زعيم بالنسبة إلى بلدته، أو مسقط رأسه. فلما ظهر يسوع يدعو بين اليهود بدعوته، لقبه أتباعه الأولون، فالشعب، فالسلطات اليهودية والرومانية : « **يسوع الناصري** » نسبةً إلى بلدته، الناصرة، التي نشأ فيها. وهذا اللقب، « الناصري » لا إحراج فيه لمن لا يؤمن بدعوة يسوع أنه « **المسيح** » الموعود. وصحابة يسوع الناصري كانت تؤمن أنه المسيح، وترادف بين اللقبين : فتدل بالأول على قوميته، وبالثاني على عقيدتهم فيه.

والإنجيل بحسب متى، الذي دُوّن في البيئة الإسرائيلية، ولها قبل غيرها، ينقل في مطلعه اللقب الذي اشتهر به يسوع؛ فيقول : « جاء وسكن في بلدة تسمّى الناصرة، ليتم ما قيل : **إنه يدعى الناصري** » (متى ٢ : ٢٣). فيسوع يُعرف بالناصري حتى عند الذين يؤمنون أنه المسيح.

وباسم « الناصري » عُرف المسيح يسوع في سيرته ورسالته في البيئة الإسرائيلية.

فتلاميذه الأوائل يعرفونه ويعرّفون به، بنسبته إلى الناصرة : « وصادف فيلبس نثنائيل فقال له : إن الذي كتب عنه موسى في التوراة، وكتب عنه الأنبياء، قد وجدناه : إنه يسوع، ابن يوسف، من الناصرة » (يوحنا ١ : ٤٣ ـ٤٥). يسميه « ابن يوسف » لأنه لا يعرف شيئاً بعد عن أصله، وعن مولده المعجز من أمّ بتول.

وفي ختام دعوته، عند دخول يسوع إلى أورشليم، عاصمة الدين والدولة، حيث يجتمع اليهود لعيد الفصح من أطراف بلدهم ومن أقطار المسكونة،

دخولَ المسيح الموعود، الفاتح الوديع كما وصفه الأنبياء (زخريا ٩ : ٩)، تساءل الناس من الغرباء الذين لم يعرفوه : « مَن هذا؟ فكانت الجموع تقول : هذا هو النبي، يسوع الذي من الناصرة في الجليل » (متى ٢٠ : ١٠ ـ١١).

ولمّا قرّر السنهدرين، مجلس اليهود الأعلى، إعدام يسوع لدعواه أنه المسيح، ابن البشر النازل من السماء، أرسلوا جنودهم لتوقيفه في بستان الزيتون، في ضيعة جتسماني، قرب أورشليم، « بمصابيح ومشاعل وأسلحة. فخرج يسوع، وهو عالم بكل ما كان موشكاً أن يحدث له، وقال لهم: من تطلبون؟ أجابوه : يسوع الناصري! فقال لهم : أنا هو! ـ وكان يهوذا مسلمه واقفاً أيضاً معهم ـ فلما قال لهم : « أنا هو » ارتدوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض. فسألهم أيضاً : مَن تطلبون؟ قالوا : يسوع الناصري! ... » (يوحنا ١٨ : ٣ ـ ٨).

وفي محاكمة يسوع الدينية، كان الخدَم في بلاط الحبر الأعظم يلقبون يسوع : الجليلي أو الناصري : « وأما بطرس فكان جالساً خارجاً في الدار، فتقدمت إليه جارية وقالت : أنت أيضاً كنت مع **يسوع الجليلي!** فأنكر قدام الجمع، فقال : لا أدري ما تقولين! ثم توجه نحو البوابة، فرأته جارية أخرى فقال للذين هناك : هذا كان مع **يسوع الناصري** » (متى ٢٦ : ٦٩ ـ٧٥). ففي الأوساط الشعبية والرسمية كان اسمه : يسوع الناصري.

وفي الأوساط الحاكمة كان يعرف كذلك؛ وبهذا اللقب كتب الوالي الروماني سبب إعدام المسيح : « وكتب بيلاطس لوحة وضعها على الصليب؛ وكان مكتوباً فيها : يسوع الناصري، ملك اليهود » (يوحنا ١٩ : ١ ـ٢٠).

ففي نظر أتباعه وأنصاره ورسله، وفي نظر الشعب كله، وفي نظر السلطات الدينية والمدنية كان يسوع يُعرف باسم : يسوع الناصري، بحسب العوائد الشرقية.

وليس في هذا اللقب عند المؤمنين من تنكّر لدعوة يسوع أنه المسيح، وقد

اعترفوا بذلك صريحاً، عندما سألهم : « مَن تقول الناس إني هو؟ ... وفي نظركم أنتم مَن أنا؟ فأجاب بطرس، قال : أنت المسيح » (مرقس ٨ : ٢٧ ـ٣٠).

فيحسب الوطن والقومية : هو « يسوع الناصري » ، كما تشهد دعوة الرسل الحواريين له (سفر الأعمال ٢ : ٢٢؛ ٣ : ٦؛ ٤ : ١٠؛ ٦ : ١٤؛ ٢٢ : ٨؛ ٢٤ : ٥؛ ٢٦ : ٩).

وبحسب الدعوة والرسالة : هو يسوع المسيح.

فلا غرابة إذن أن يُسمي أتباع يسوع في البيئة الإسرائيلية : **نصارى** أو نصرانيين؛ وفي البيئة الهلنستية الأممية، حيث تعنيهم دعوته أكثر من قوميته : **المسيحيين**، كما سنرى في البحث التالي.

واليهود الذين لم يؤمنوا بيسوع أنه المسيح فضلوا في أوساطهم لقب « يسوع الناصري » ، واسم « نصارى » لأتباعه منهم، لأنه لا يدل على اعتراف بعقيدة.

ولم يتحرّج اليهود المتنصرون من اسم « نصارى » لأنه من عوائد بيئتهم، ولأن ليس فيه استثارة لبغض اليهود ليسوع ولهم. ويسمون يسوع على السواء : يسوع الناصري، ويسوع المسيح.

* * *

بحث ثان

انقسام أتباع يسوع في الاسم إلى « النصارى » و « مسيحيين »

بعد ارتفاع يسوع حياً إلى السماء، ونزول الروح القدس على رسله وصحابته، اندفعوا بالدعوة للإنجيل. وطالما بقيت الدعوة محصورة في فلسطين

كانوا يسمون « **نصارى** » ، فلما انتشرت الدعوة المسيحية في سوريا أخذ الناس يسمونهم « **المسيحيين** » .

في الدعوة ليسوع المسيح في أورشليم قال بطرس، زعيم الرسل، في خطابه الأول لبني إسرائيل : « يا بني إسرائيل اسمعوا هذه الكلمات : إن **يسوع الناصري**، الرجل الذي أيده الله بين ظهرانيكم بالخوارق والآيات والمعجزات التي أجراها على يديه في وسطكم كما تعلمون؛ ذاك الذي أُسلم بحسب قضاء الله، وعلمه السابق، فقتلتموه أنتم صلباً بأيدي الظالمين، قد أقامه الله، ساحقاً قيود الموت، إذ لم يكن في طاقة الموت أن يضبطه ... فليعلم يقيناً جميع آل إسرائيل أن الله قد جعل يسوع، هذا الذي صلبتموه أَنتم، **ربا ومسيحياً** » .
(سفر الأعمال ١ : ٢٢ ـ ٣٦).

فيسوع الناصري هو، في دعوة الرسل الأولى، المسيح الرب.

ثم جرت معجزة عظيمة على يد بطرس، زعيم الدعوة، بشفاء مقعد مشهور كان يجلس عند باب الهيكل يستعطي. شفاه بطرس « باسم يسوع المسيح الناصري » (أَع ٣ : ٦). فأوقفه السنهدرين، مجلس اليهود الأعلى، مع يوحنا الرسول رفيقه لاستجوابهما في دعوتهما وفي المعجزة التي سببت إيمان المئات من اليهود بيسوع المسيح (أَع ٤ : ٤) : « فأجاب بطرس، وهو ممتلئ من الروح القدس : يا أحبار الشعب وشيوخه، إننا نسأل اليوم عن معروف إلى رجل سقيم، وباسم مَن بُرئ. فليكن معلوماً عندكم أجمعين، وعند شعب إسرائيل كله، أنه باسم **يسوع المسيح الناصري**، الذي صلبتموه أَنتم، وأقامه الله من بين الأموات، أجل به وقف ذاك متعافياً. فهو الحجر الذي ازدريتموه، أيها البنَّاؤون، وهو الذي صار رأساً للزاوية : فما من خلاص بأحد غيره! وليس تحت السماء اسم آخر أعطي للناس، به يخلصون » (أَع ٤ : ١ ـ١٢).

فصحابة المسيح ورسله، في بيئتهم اليهودية، يجمعون في أَلقاب يسوع اللقب النبوي الذي به يؤمنون، المسيح؛ واللقب القومي الذي به يُعرفون، الناصري.

فلا بدّ إذن من أن يسمي اليهود الجاحدين مسيحية يسوع أَتباعه : ناصريين أو نصارى (بحسب صيغة الجمع الآرامية).

نرى ذلك لمّا قبض اليهود على بولس الرسول في أورشليم لتقديمه للمحاكمة المدنية لدى الوالي الروماني فيلكس. فرفع الدعوة عليه باسم المجلس اليهودي الأعلى المحامي ترتلّس الشهير عندهم، قال : « أيها الشريف فيلكس، لن أزعجك بالكلام طويلاً. بل أرجوك أن تسمع لنا بحلمك قليلاً. لقد تبيّن لنا أن هذا الرجل وباء. فإنه يثير الفتن بين يهود المسكونة جميعاً. وهو إمام **لشيعة النصارى**. وقد حاول أيضاً أن ينجّس الهيكل. فقبضنا عليه في الجرم المشهود. وها هو ذا بين يديك. فتستطيع أنت نفسك، إذا سألته، أن تتحقّق جميع ما نشكوه به. وأيده اليهود : أن الأمر كذلك » (أع ٢٤ : ١ -١٠).

ففي البيئة اليهودية اسم أتباع المسيح هو : « النصارى » ؛ وهم من بني إسرائيل.

ثم انتشرت الدعوة المسيحية خارج فلسطين. وقام بها كطلائع للرسل، صحابة المسيح، اليهود الهلّينيون الذين وُلدوا في المهاجر ونشأوا على الثقافة اليونانية، ثم آمنوا بالمسيح. وبسبب ثقافتهم والحرية الدينية التي تعودوا عليها في مهاجرهم، كانوا أجرأ الناس دعوة للمسيحية، حتى في أورشليم، فثارت عليهم السلطات اليهودية وقتلت زعيمهم اسطفان (أع ٧: ٥٤ ـ ٦٠)، وشتتوهم خارج فلسطين، « فاجتازوا حتى فينيقية وقبرص وأنطاكية، وهم لا يدعون بكلام الله إلاّ اليهود فقط. بيد أن بعضاً منهم كانوا قبرصيين وقيروانيين، فهؤلاء لمّا دخلوا أنطاكية طفقوا يكلمون الهلّينيين أيضاً مبشرين بالرب يسوع، وكانت يد الله معهم، فآمن عدد كثير ورجعوا إلى الرب » (أع ١١ : ١٩ -٢١).

وهنا يذكر سفر أعمال الرسل، وهو تاريخ تأسيس المسيحية : « **وفي انطاكية أولاً دُعي التلاميذ مسيحيين** » (أع ١١ : ٢٧). ومنذئذٍ شاع هذا

الاسم مع الدعوة في أقطار الدولة الرومانية، ثم في أقطار الأرض كلها. فالمسيحيون هم من الأمميين.

وهكذا صار اسم تلاميذِ المسيح من بني إسرائيل : نصارى. وصار اسمهم من الأمميّين : « مسيحيين » .

وهذا الانقسام في الاسم، بسبب البيئة المختلفة، سيجر إلى انقسام في العقيدة.

* * *

بحث ثالث

انقسام أهل الإنجيل إلى سُنة وشيعة

اختلاف الأمة الواحدة في البيئة والثقافة قد يجر إلى اختلاف في العقيدة. وهذا ما جرى للمسيحية منذ تأسيسها، كما جرى لغيرها.

كان أتباع المسيح في أورشليم وفلسطين كلهم من اليهود، في بدء الدعوة. وكما كان المسيح، مع دعوته بالإنجيل، يمارس الشريعة الموسوية، كان الرسل صحابته في دعوتهم للمسيحية يمارسون الشريعة الموسوية؛ فيترددون على الهيكل، ويحفظون الأعياد اليهودية، ويحافظون على الختان والسبت والصوم وسائر أحكام التوراة، لأنها أمست جزءاً من قومتيهم.

فكانوا كل يوم يلازمون الهيكل بنفس واحدة (أع ٢ : ٤٦)؛ ويصعدون إلى الهيكل للصلاة في أوقاتها (أع ٣ : ١)؛ وخارج أورشليم يقيمون الصلاة الإسرائيلة في أوقاتها (أع ١٠ : ٩)؛ وكان المتحررون منهم مثل بولس يحافظون على عوائدهم كالنذر التوراتي (أع ١٨ : ١٨). وكانوا يعيّدون مع

اليهود أعياد الفصح (أع ٢٠ : ٦) والعنصرة (أع ٢ : ١؛ ٢٠ : ١٦). وهذه صورة كاملة للحياة النصرانية اليهودية، في حوار يعقوب، أسقف أورشليم، مع بولس الرسول الذي كان يدعو إلى التحرير من الشريعة الموسوية. قال يعقوب، زعيم النصرانية، لبولس، زعيم المسيحية :

« أيها الأخ، أنت ترى **كم ربوة من اليهود آمنوا. وكلهم ذوو غيرة على الشريعة**. ولقد بلغهم عنك إنك **تردّ عن موسى**، بتعليمك، جميع اليهود الذين بين الأمم (في مهاجرهم) قائلاً لهم **أن لا يختنوا أولادهم، ولا يجروا على تقاليدهم**. فما العمل إذن؟ ولا بدّ، سيسمعون بقدومك؛ فافعل ما نقول لك : إن عندنا ههنا أربعة رجال عليهم نذر، فخذهم معك، وطهّر نفسك معهم، وأنفق عليهم ليحلقوا رؤوسهم؛ فيعرف الجميع أن ما بلغهم عنك ليس بشيء، بل إنك أنت أيضاً **تسلك محافظاً على الشريعة** ... وفي الغد أخذ بولس الرجال وتطهّر معهم، ودخل الهيكل، وبيّن أجل أيام التطهير، الذي فيه يقرَّب القربان عن كل واحد منهم » (أع ٢١: ١٧ ـ٢٧).

هذه الصورة تظهر لنا أن أتباع المسيح من اليهود، وعلى رأسهم آل البيت، كانوا يقيمون التوراة والإنجيل معاً؛ وينادون بالإيمان بموسى وعيسى معاً؛ ويرفعون شعار العماد والختان معاً. هذا محور عقيدتهم، الذي يظهر **تشيّعهم « النصراني » لأهل بيت المسيح وتوراة موسى**، على حساب الرسل، صحابة المسيح، وعلى حساب حقيقة الإنجيل، كما ترى في رسائل العهد الجديد إليهم.

مع ذلك فقد كان أتباع المسيح في أورشليم **أمة مستقلة في الأمة اليهودية** : فهم يتميّزون بإيمانهم بيسوع أنه المسيح (أع ٢ : ٤٢؛ ٤ : ٢؛ ٥ : ٤٢). ويختصون بالعماد لتكريس إيمانهم بالمسيح، ونيل الروح القدس الموعود للمعمود : « توبوا، وليعتمد كل واحد منكم باسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا، فتنالوا موهبة الروح القدس » (أع ٢ : ٣٨). وكان لهم خلواتهم للتعليم وتناول القربان : « كانوا مواظبين على تعليم الرسل، والشركة، وكسر الخبز (القربان)

والصلوات » المسيحية الخاصة (أع ٢ : ٤٢). ويخرجون من خلواتهم وصلواتهم ممتلئين غيرة على الدعوة الإنجيلية (أع ٤ : ٣١)، « وكان الرسل بقوة عظيمة يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع » (أع ٤ : ٣٣)، « وكانوا كل يوم في الهيكل وفي البيوت، لا ينفكون يعلمون ويبشرون بيسوع أنه المسيح »

(أع ٥ : ٤٢)

*

لكن بدأت المشاكل تظهر عندما آمن بعضهم من الأميّين المشركين وشريعة التوراة، قبل القرآن : « إنما المشركون نجس » ! وعلامة شركهم أنهم غير مختونين! فهل يصح لليهودي النصراني أن يجتمع بالمسيحي من أصل وثني، ويدخل بيته، ويأكل معه؟ فاحتاج بطرس إلى رؤيا معجزة وأمر رباني حتى تجرأ على دخول بيت القائد الروماني كرنيليوس في قيصرية لهدايته وتعميده (أع ١٠). مع ذلك فقد خاصمه نصارى أورشليم قائلين : « إنك دخلتَ على أناس قلف وأكلت معهم » ! (أع ١١ : ١ -٣). فشرح لهم أنه فعل ذلك بأمر رباني، وثبته الله بحلول الروح القدس على المهتدين من الأمميّين، كما حل على الرسل أنفسهم! « فلما سمعوا ما قال اطمأنوا ومجدوا الله. قالوا : إن الله إذن قد أعطى التوبة للأمم أيضاً ليكون لهم نصيب في الحياة » (أع ١١ : ١٨).

فالمشكل الأول الذي واجه الجماعة المسيحية هو المؤالفة بين أَهل الكتاب والأميّين في الإيمان بالمسيح : هل المهتدي إلى المسيح من الأمم عليه أن يتهوّد مع إيمانه بالمسيح حتى تصح مسيحيته؟

وانتشرت الدعوة المسيحية بين الأميّين، وتكاثر عدد المسيحيين من الأمم حتى فاق عدد أهل الكتاب من اليهود المتنصرين. واستناداً إلى مثل بطرس مع كرنيليوس، كانوا يهتدون دون أن يتهوّدوا ويخضعوا لشريعة موسى والختان. فظهر بين أتباع المسيح سلوك في الحياة المسيحية متعارض : النصارى اليهود ظلوا يقيمون شريعة موسى مع العماد والإيمان بالمسيح؛ والمسيحيون من

الأمم يعتنقون المسيحية من دون اليهودية وشريعتها. وسرعان ما ذرّ الشقاق قرنه بين العنصرين المؤمنين إيماناً واحداً: **ما هو موقف الدعوة المسيحية من الشريعة الموسوية؟ هذا هو السؤال الضخم** الذي هزّ المسيحية في مطلع دعوتها، على عهد الرسل، والذي يملأ مصادر الوحي الإنجيلي، بعد الأناجيل.

وجاء الجواب مختلفاً، باختلاف البيئة؛ فالنصارى اليهود يقولون **بإقامة التوراة والإنجيل معاً** بلا تفريق؛ والمسيحيون من الأميّين يقولون **بالإنجيل وحده** من دون الشريعة الموسوية والختان.

وتزعم مقالة النصارى آل بيت المسيح، وعلى رأسهم أبناء قلوبا، عمّ المسيح بحسب البشرية، الذين كانوا يسمونهم لهذه القرابة « أخوة الرب » ؛ وكانت منزلتهم عندهم تضاهي منزلة الرسل، صحابة المسيح. ولذلك أمّروهم أساقفة عليهم في أورشليم من دون الرسل أنفسهم. فكان زعيمهم وزعيم آل بيت المسيح، يعقوب[١]، « أخو الرب » أول أسقف على أورشليم، بوجود الرسل أنفسهم. **وبدأ يظهر تشيعهم للشريعة ولآل بيت المسيح**، على حساب المسيحية العامة، عند هداية جماعة الفريسيين (أع ١٥: ٥).

وتزعم مقالة المسيحيين من غير أهل الكتاب بولس الرسول، رسول الأمم، منذ هدايته وبعثته. فكان في رسالاته ورسائله، إيلافاً للدعوة المسيحية بين الأمم غير الكتابية، يدعو إلى تحرير المسيحية من اليهودية وشريعتها وختانها.

وكان اليهود في مهاجرهم ـ ويسمونهم « اليهود الهلّينيين » ـ أقرب على موقف بولس، لتعوّدهم على الحياة بين المشركين من الأمّيين، وعلى التسامح

---

(١) كان يعقوب في نظر النصارى من بني إسرائيل، بحسب التقليد الشرقي، خليفة المسيح، وعلى هذا الأساس كانت منزلته منزلة أول خلق الله . جاء في إنجيل توما المنحول المؤلف من ١١٤ قولاً للمسيح: « قال التلاميذ ليسوع : نعلم أنك ستفارقنا، فمن هو العظيم علينا من بعدك؟ قال لهم يسوع : حيثما كنتم، تذهبون إلى يعقوب الذي بسببه كانت السماء والأرض » (القول ١٢).

الذين معهم. وكانوا عنصراً أساسياً في الكنائس التي أسسها بولس في العالم السوري والإغريقي.

وكان الرسل، صحابة المسيح، القيّمون على دينه يراقبون **الصراع الناشب** بين فريق النصارى اليهود المحافظين، بزعامة يعقوب؛ وفريق المسيحيين من اليهود الهلينيين والأميّين الأحرار بزعامة بولس. وانتظر الرسل المناسبة ليفتوا في المشكل الضخم، والصراع المتأزم.

وانفتحت **معركة تحرير المسيحية** من الموسوية وشريعتها وختانها.

*

وكان لكل فريق حججه في تأييد نظريته.

فريق النصارى اليهود، المحافظين، يستند إلى عوامل عديدة في فهم المسيحية فهماً إسرائيلياً توراتيّاً يهوديّاً.

إنه يعتمد على وعد الله لإبراهيم أن بنسله، تتبارك أُمم الأرض كلها. والمسيح، نسل إبراهيم الأعظم، كان في نظرهم يهودياً؛ فعلى كل مسيحي، نسبته إلى المسيح، نسل إبراهيم، أن يتهوّد.

وشريعة موسى، في عرفهم، أزلية لا تُنسخ، فلا تصح مسيحية بدونها.

والمسيح عاش كيهودي، والرسل صحابته، يسلكون مع إيمانهم بالمسيح والدعوة له، كيهود : فعلى كل مسيحي أن يقتدي بهم، ويتهوّد في سلوكه، لتصح مسيحيته.

وكنيسة المسيح كلها في أورشليم، وعلى رأسها الرسل أنفسهم، كانوا يقيمون أحكام التوراة مع أحكام الإنجيل؛ وأورشليم هي أمّ الكنائس، فما على سائر الكنائس إلا أن تقتدي بالكنيسة الأم.

وبولس نفسه، زعيم الدعوة للتحرير من الموسوية، كان يمارس شريعة موسى فيما بين اليهود، خصوصاً عندما يحضر إلى أورشليم (أع ٢١ : ١٧ -٢٧). فليست دعوته للتحرير من شريعة موسى، في نظرهم سوى تملّق للأميّين، لإيلافهم.

وكان الرسول متى في هذه الأثناء يدوّن الإنجيل في البيئة الإسرائيلية الفلسطينية. ونقل في خطاب المسيح التأسيسي مبدأه : « لا تظنوا أني أتيت لأنسخ الشريعة والنبيين! إني لم آتِ لأنسخ، بل لأتمّم » (متى ٥ : ١٧). ففهم النصارى اليهود من هذا المبدإ أن الموسوية وشريعتها أساس، والإنجيل تكميل ولا يقوم تكميل بدون أساس : فلا تصح مسيحية بدون شريعة موسى.

فماذا يزعم، بعد هذا كله، دعاة التحرير المسيحي، مثل بولس؟!

وكان فريق المسيحيين الأحرار، بزعامة بولس رسول الأمم، **ينادون بنسخ الشريعة بالإنجيل**؛ فالخلاص المسيحي هو بالإيمان، لا بأعمال الشريعة : « نحن بحسب الطبيعة يهود، ولسنا من الخاطئين الأميين. مع ذلك، لعلمنا أن الإنسان لا يبرّر بأعمال الشريعة، بل الإيمان بيسوع المسيح، آمنا نحن أيضاً بالمسيح يسوع، لكي نبرَّر بالإيمان بالمسيح لا بأعمال الشريعة؛ بل بالإيمان بيسوع المسيح، آمنا نحن أيضاً بالمسيح يسوع، لكي نبرَّر بالإيمان بالمسيح لا بأعمال الشريعة؛ وما من إنسان يبرّر بأعمال الشريعة » ! (غلا ٢ : ١٥ -١٦).

أجل شرع المسيح في الإنجيل : « ما أتيت لأنسخ الشريعة والنبيين، بل لأتمم » ؛ ولكن تكميل الشريعة بالإنجيل كان في الواقع نسخاً لها؛ لأننا بدعوة الإنجيل دخلنا « في عهد التجديد » الذي ذكره المسيح (متى ١٩ : ٢٨)، وهو « العهد الجديد » الذي فتحه في العشاء الوداعي، قبل استشهاده (متى ٢٦ : ٢٨). فالمسيح ما نسخ الشريعة على حياته، لكنه نسخها بدمه على الصليب : فالخلاص بدم المسيح، لا بشريعة موسى. ومبدأ المسيح أن الإنجيل تصديق وتفصيل التوراة لا ينطبق إلا على الكلمات العشر، كما نرى المسيح نفسه يطبق المبدأ عليها (متى ٥ ـ ٦) ونراه ينسخ شرعة الطلاق (متى ١٩) والتحريم في الأطعمة (مرقس ٧).

فالشريعة كانت المربّي الهادي إلى المسيح المصطفى؛ فلما جاء المسيح تمّ ملء الزمان، وتمت كلمة الله صدقاً وعدلاً، فما من حاجة بعد إلى مربّ يقودنا إلى المسيح (غلا ٣: ٢٣ ـ ٢٩)؛ لقد استنفذت الشريعة أغراضها، وحل عهد

النعمة محل عهد الشريعة : « إِن الشريعة نزلت بموسى، وبيسوع المسيح النعمة والحقيقة » (يوحنا ١ : ١٧).

والعهد القديم في سيناء كان أمانة بيد آل موسى؛ فلمّا جاء العهد الجديد بالمسيح بلغ العهد كماله، وانتقلت أمانته إلى المؤمنين من العالمين : فلا حاجة بعد إلى أحكام العهد العتيق: « فبقوله « عهد جديد » أعلن الأول عتيقاً؛ وما عتق وشاخ فهو على شفا الزوال » (عبر ٨ : ١٣).

والوعد بالنسل المبارك المصطفى على العالمين ليس لليهود وحدهم، بل للعالمين؛ بينما الشريعة كانت لليهود وحدهم؛ فلما تحقق الوعد بمجيء المسيح للعالمين، تخطى الوعد الشريعة. والوعد كان قبل الشريعة، فلما تحقق أغلق عليها ونسخها (غلا ٣ : ١٥ ـ ١٨).

أجل لقد اقتصر المسيح دعوته، في حياته على الأرض، على « الخراف الضالة من آل إسرائيل » . لكنه جعل مركز دعوته خصوصاً في الجليل، لأنه « جليل الأمم » ، فيتصل بهم ويسمعون صوته (متى ٤ : ١٥ ـ١٦)؛ « فتبعته جموع كثيرة من الجليل، والمدن العشر (من البتراء إلى دمشق) وأورشليم واليهودية وعبر الأردن » (متى ٤ : ٢٥). ومن الجليل كانت رحلاته المتواترة إلى أرض المشركين. وقبل ارتفاعه إلى السماء أمر صحابته بالدعوة بالإنجيل « إلى الخليفة كلها » (خاتمة مرقس)، « لكي يجعلوا جميع الأمم تلاميذ للمسيح » (خاتمة متى)، « في كل مكان » (خاتمة لوقا). فالمهتدون بالإنجيل هم تلاميذ عيسى، لا تلاميذ موسى!

وحصر المسيحية في الموسوية يجعلها **ديناً قومياً** كغيرها، ويحد من فعالية الإنجيل في العالمين. فالمسيحية دين عالمي لا يتقيد بشريعة قومية كشريعة موسى.

*

واحتدم الجدال والصراع بين النصارى اليهود، بزعامة يعقوب، زعيم آل بيت المسيح وأسقف أورشليم، وبين المسيحيين من الأميّين بزعامة بولس وبرنابا. وكان مركز نشاط النصارى في أورشليم، ومركز نشاط المسيحيين في انطاكية.

« وانحدر من اليهودية قوم (إلى انطاكية) يعلمون الأخوة، ويقولون : إنكم **إن لم تختتنوا بحسب شريعة موسى،** فلا تستطيعون أن تخلصوا! وإذ جرت بينهم وبين بولس وبرنابا منازعة ومباحثه حادة، جزموا أن يصعد بولس وبرنابا مع آخرين منهم إلى الرسل والكهنة للنظر في هذه المسألة » (أع ١٥ : ١ -٢).

وكانت المناسبة التي ينتظرها الرسل للبت في الجدال القائم.

فانعقد مجمع الرسل، بحضور يعقوب وسائر آل بيت المسيح من الأساقفة، وحضور الوفدين المتنازعين. فكان المجمع المسكوني الأول في تاريخ المسيحية، وذلك عام ٤٩ ميلادية: « فاجتمع الرسل والكهنة لينظروا في الأمر. وفي مطلع الجلسة الأولى، نهض « قوم من الذين آمنوا، وهم على مذهب الفريسيين وقالوا : انه يجب أن يختتنوا (المهتدون من الأميين) ويؤمروا بإقامة شريعة موسى » (أع ١٥ : ٥). فتهويد المسيحية بدأ بدسّ الفريسيين المتنصرين. فجرت « **مباحثه عظيمة** » (أع ١٥ : ٦ ـ٧). فحسم بطرس، زعيم الرسل، الجدال، وأفتى بتحرير المسيحيين من غير اليهود من شريعة موسى. « فسكت الجمهور كله » . وانتصرت نظرية بولس (أع ١٥ : ٦ -١٢)، وتحررت المسيحية من الموسوية.

لكن جماعة المحافظين حرّضوا يعقوب، « أخا الرب » ، على التوسط في الأمر للتعايش السلمي بين أهل الختان من النصارى اليهود وبين المسيحيين من الأميين، لأن اليهود، وإن تنصّروا، فقد ظلوا بسبب رواسب قوميتهم التوراتية، يأنفون من معاشرة غير المختونين وإن كانوا على إيمان واحد معهم بالمسيح والإنجيل.

فتوسط يعقوب في الأمر، وانعقدت جلسة ثانية، خطب فيها يعقوب أسقف أورشليم وزعيم آل بيت المسيح : « أيها الرجال الأخوة، اسمعوا لي لقد أخبر سمعان (اسم بطرس الآرامي) كيف افتقد الله الأمم، منذ البدء، ليتخذ منهم شعباً لاسمه. وفي هذا تتفق أقوال الأنبياء ... لذلك أرى أنا أن لا يثقّل على من

يرجع إلى الله من الأمم. إنما يرسم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والفحشاء، والمخنوق والدم. فإن موسى، منذ الأجيال القديمة، له في كل مدينة دعاته يتلونه في المجامع كل سبت ». فوافق المجمع على هذا **الحلّ العملي الوسط** الذي يسهل التعايش السلمي بين الفريقين؛ وكتبوا بذلك إلى انطاكية :

« لقد رأى الروح القدس ونحن، أن لا نحمّلكم إصراً فوق هذه التي لا بدّ منها : أن تمتنعوا عمّا ذبح للأصنام، وعن الدم، وعن المخنوق، وعن الفحشاء. إذا صنتم أنفسكم عنها، فنعمًّا تفعلون. والسلام عليكم » (أع ١٥ : ١٣ ـ٣٠).

فمجمع الرسل والأساقفة يشرع باسم الله وبسلطان الروح القدس فيهم. وكانت شرعته الأولى تحرير المسيحيين من الأميين من الشريعة الموسوية، إلا في أكل الدم والمخنوق، لا مكان التعايش السلمي بين النصارى والمسيحيين.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المجمع لم يتطرّق إلى بحث قضية ضرورة الشريعة الموسوية **للمتنصرين من اليهود،** أو عدمها. **فظل النصارى اليهود يقيمون التوراة والإنجيل معاً**؛ وتحرّر المسيحيون من الأميين من التوراة وأحكام الشريعة، واكتفوا بالإيمان بالمسيح وإقامة الإنجيل.

وهذا السلوك المختلف في الجماعة الواحدة، شقّ المسيحية منذ تأسيسها إلى **سنّة وشيعة:** سنّة المسيحيين الذين يتبعون شرْعة الرسل في مجمع أورشليم؛ وشيعة النصارى اليهود الذين ظلوا يقيمون التوراة والإنجيل معاً، بزعامة آل بيت المسيح ويعقوب أسقف أورشليم، الذين أمَّرهم أساقفة عليهم، منذ تأسيس الكنيسة في أورشليم حتى طرد اليهود وكل مختون نصراني منها عام ١٣٥، في الحرب اليهودية الرومانية الثانية.

*

وتظهر ذيول هذا الانقسام إلى سنّة وشيعة، **في تمرّد غلاة النصارى اليهود** على شرعة مجمع الرسل، ومحاولتهم فرض الشريعة الموسوية على المسيحيين في العالم السوري والإغريقي والروماني؛ وملاحقة بولس في كنائسه من انطاكية إلى

فيلبي إلى كورنثس إلى رومة، والانتقاص من حقه في الرسالة المسيحية، وتشويه سمعته. فكانوا بذلك مثل «الأخوة الكذبة» الذين يعملون عمل اليهود لخنق المسيحية في مهدها.

بعد مجمع الرسل جال بطرس الزعيم يتفقّد الكنائس حتى وصل إلى **انطاكية**. وكان يخالط المسيحيين من الأميين غير المختونين، ويصلي فيهم، ويأكل معهم، ويستضيفهم. فبلغ ذلك إلى مسامع المتطرفين من أورشليم، فأوفدوا إلى انطاكية مراقبين، «من عند يعقوب». فلاموا على مخالطة غير المختونين، وإن كانوا مسيحيين. فامتثل لهم حسماً للنزاع. «وأخذ ينسل ويتنحّى خوفاً من أهل الختان. وتظاهر معه سائر اليهود أيضاً. بل برنابا نفسه انجرّ لتظاهرهم». وكاد سلوك بطرس المتردّد يجرّ إلى القطيعة بين النصارى والمسيحيين في عاصمة سوريا، لأن سلوك زعيم المسيحية شرع، يثبت النصارى في تشيعهم لشريعة موسى، ويوهم المسيحيين أن الإيمان بالمسيح لا يكفي وحده للخلاص بدون الشريعة، وقد قرر مجمع الرسل تحرير المسيحية من اليهودية. ويقول بولس في تقريره عن الحادثة: «فلمّا رأيت أنهم لا يسيرون على الصراط المستقيم، بحسب حقيقة الإنجيل، قلت لكيفما (لقب بطرس بالأرامية) أمام الجميع: إِن كنت، أنت اليهودي، تعيش كالأميين، لا كاليهود، فلم تلزم الأميين أن يتهوّدوا»! (غلا ١٢ : ١١ -١٤). وفي خطاب ناري في الكنيسة، أعلن بولس حقيقة الإنجيل أن الخلاص بالإيمان بيسوع المسيح، لا بأحكام الشريعة الموسوية (غلا ٢ : ١٥ - ٢١). فكسب بولس الجولة، وانصاع بطرس للوم بولس. ثم أكمل سفره إلى رومة يرأس الدعوة فيها. ولحقه في ما بعد بولس أسيراً، واستشهدا معاً في سبيل المسيحية المتحرّرة المحرّرة.

لكن صراع غلاة النصارى مع بولس لم يتوقف. فاندس قوم منهم في كنيسة غلاطية، وكادوا يردّون المسيحيين فيها إلى إنجيل غير إنجيل المسيح الذي دعاهم إليه بولس. وكان بولس منهمكاً في تدريس المسيحية في مدرسة أفسس،

عاصمة آسيا الرومانية. فكتب رسالته النارية إلى أهل غلاطية، يحذرهم من تحريف النصارى اليهود لإنجيل المسيح مبشرين بإنجيل آخر يقول بضرورة الشريعة للخلاص بالمسيح (غلا ١: ٦ ـ١٠). وأعلن لهم نسخ الإنجيل للشريعة، وفضل الإيمان على أحكام الشريعة، لأن النبوة لله هي في الإيمان بالمسيح، لا في شريعة موسى (غلا ٤ : ١ ـ ٨) : « إذ ليس الختان بشيء، بل الخليقة الجديدة » في الإيمان بالمسيح، هي كل شيء (غلا ٦ : ١٥). ثم يدعوهم إلى **مقاطعة النصارى اليهود** الذين يحرّفون إنجيل المسيح : « أيها الأخوة، أنتم أبناء الموعد مثل إسحاق. فكما كان حينئذ المولود بحسب الجسد (عيسو) يضطهد المولود بحسب الروح (إسحاق)، كذلك الآن أيضاً. لكن ماذا يقول الكتاب؟ « **اطرد الأمة وابنها** » ، فإن ابن الأمة لا يرث مع ابن الحرة. فمن ثمّ أيها الأخوة، لسنا نحن أبناء الأمة، بل أبناء الحرة : لقد حرّرنا المسيح لكي ننعم بهذه الحرية! فأثبتوا فيها ولا ترجعوا ترتبطون بنير العبودية » (غلا ٤ : ٢٨ ـ ٥ : ١). فربح بولس الجولة الثانية في تحرير المسيحية.

وبلغ غلاة النصارى اليهود إلى بلاد اليونان، وبلبلوا كنيسة كورنثس بدعوتهم وشقوها ثلاث فرق : حزب بولس، وحزب أبولس، وحزب كيفا أي بطرس. في غير مكان تستروا باسم يعقوب، وفي كورنثس يتسترون باسم بطرس. ويعلون فصاحة أبولس على بساطة بولس. وكان البلبال عظيماً في كورنثس، فأوفد بولس إليهم مبعوثيه ومعهم رسائل منه. وما هدأ البلبال حتى حضر بولس بنفسه إليهم وردّهم إلى إنجيل المسيح الصحيح. فربح الجولة الثالثة في تحرير المسيحية.

فانتقل غلاة النصارى إلى مكدونية، وفتنوا كنيسة فيلبي. حينئذ طفح الكيل مع الرسول بولس وكتب إلى أهل فيلبي : « احذروا الكلاب[1] المفسدين!

---

(١) كانت عند اليهود كناية عن غير اليهود، فردها بولس عليهم في شخص اليهود والنصارى اليهود الذين يتعاونون عليه.

احذروا أهل البتر (الختان)! فأهل الختان إنما هم نحن، العابدين بحسب روح الله، المستمدين الفخر من المسيح يسوع! » (فيل ٣ : ٢ ـ٣). فربح بولس الجولة الرابعة في تحرير المسيحية.

وبعدما انتهى بولس من الدعوة في الشرق، أراد حمل الرسالة إلى الغرب. فكتب رسالته العظيمة إلى أهل رومة يهيئ بها قدومه إلى عاصمة المسكونة. ويعرض فيها فضل الإنجيل على التوراة، وموقف المسيحية من الشريعة الموسوية : إن الخلاص بالإيمان في المسيح لا بشريعة موسى. وربح بولس الجولة الخامسة في تحرير المسيحية، وذلك في رومة، عاصمة المسكونة.

وهكذا انتصرت **سنّة الرسل** في مجمع أورشليم، على **تشيع النصارى اليهود** للشريعة الموسوية ولآل بيت المسيح، بفضل جهاد بولس ودعوته.

لكن النصارى من بني إسرائيل، وغلاتهم من الفرنسيين المتنصرين (أع ١٥ : ٥) جمدوا على **تشيعهم لشريعة موسى ولإمامة أهل البيت، حتى النهاية**. هذا ما نراه في حديث يعقوب، زعيم النصرانية، لبولس، زعيم المسيحية، لمّا حمل إلى فقراء أورشليم تبرعات المسيحيين من الأمميين؛ وفيه يحمله على ممارسة شعائر الموسوية في أورشليم. وقد نقلناه (أع ٢١ : ١٧ ـ٢٧) :

وهكذا على عهد الرسل، صحابة المسيح أنفسهم، انقسم أهل الإنجيل إلى **سنة وشيعة**: « سنّة المسيحيين » (أع ١١ : ٢٦)، « وشيعة النصارى » (أع ٢٤ : ٥) من بني إسرائيل.

فالمسيحيون من الأمميين يسلكون بحسب « **سنّة** » الرسل في مجمع أورشليم، فيقيمون الإنجيل من دون التوراة.

والنصارى من بني إسرائيل يقيمون الإنجيل والتوراة معاً، **فيتشيعون** لشريعة موسى، ولإمامة أهل البيت الذين أمروهم أساقفة عليهم من دون الرسل وبحضورهم، وعلى حياتهم.

وهذا الفصل الأول كله كان **الصراع على الشريعة الموسوية**. وقد وقعت أحداثه قبل أسر بولس في فلسطين ثم في رومة.

والفصل الثاني كان **الصراع على العقيدة في المسيح**، مدة أسر بولس حتى استشهاده، عام ٥٧ ـ٦٧م.

لمّا أُسر بولس ظن الفريسيون المتنصرون أن الفرصة وأتتهم للجهر بعقيدتهم في المسيح. فاعتمدوا الغنوص ـ أي « العلم » ـ الهلنستية واليهودية، في الكلام النصراني لتفصيل الإنجيل؛ وأخذوا يدعون أن المسيح هو ابن الله على المجاز، لا على الحقيقة، فهو مخلوق لا رب معبود. ومنذئذ اتصف **الكلام النصراني بأسلوب الغنوص**، أي « العلم » .

وبلبلوا كنائس بولس في آسيا الرومانية ومكدونية. فردّ عليهم بولس في رسائله الغنوصية الثلاث : سر المسيح في ذاته إلى أهل فيلبي؛ سر المسيح في الكون إلى أهل كولوسي؛ سر المسيح في الكنيسة إلى أهل أفسس. فانتصرت بها العقيدة المسيحية على « النصرانية » .

لكن **البدعة** ذرت قرنها في « النصرانية » ، وظهرت فيها **طلائع الردّة**. فهرع أئمة « النصرانية » من آل البيت أنفسهم، لبيان العقيدة الإنجيلية في المسيح، وتحذير « النصارى » من البدعة والردّة، في تشيّعهم للتوراة والتوحيد الكتابي، على حساب الإنجيل، والإيمان الصحيح في المسيح.

* * *

بحث رابع

شيعة « النصارى » في « العهد الجديد »

لقد رأينا انقسام أهل الإنجيل بالاسم، منذ مطلع الدعوة، إلى نصارى من بني إسرائيل، وإلى مسيحيين من الأمميّين؛ ثم انقسامهم في الشريعة إلى سُنّة وشيعة؛ ونرى الآن انقسامهم في العقيدة، بظهور البدعة والردّة عند النصارى من بني إسرائيل، وذلك بسبب تشيّعهم للتوراة والتوحيد الكتابي، على حساب الإنجيل والعقيدة في المسيح.

أولاً : رسالة يعقوب

كان **يعقوب**، المسمّى « أخا الرب » لأنه ابن عم المسيح، زعيم آل البيت، وبهذه الصفة أسقف أورشليم والنصارى من بني إسرائيل. ولما نجمت البدعة فيهم، كتب إليهم في مهاجرهم « رسالة يعقوب » ، « إلى الأسباط الإثني عشر في الشتات » (١ : ١). وهي موجز إنجيل النصارى.

كتبها تفسيراً لتعليم بولس : « إن الإنسان يُبرّر بالإيمان، بدون أعمال الشريعة » (رومية ٣ : ٢٠ و ٢٨)؛ فيقول : « إن الإنسان يُبرّر بالأعمال، لا بالإيمان وحده » (يع ٢ : ١٤ الخ ٢ : ١٥ ـ ٢٦). ويعقوب يقصد أعمال الإيمان المسيحي وأعمال الشريعة الموسوية معاً؛ وهو يصف هذه الشريعة بأسمى الأوصاف :

« إنه (أبا الأنوار) ولدنا بكلمة الحق (أي **دين الحق**)، لنكون باكورة خلائقه ... فاقبلوا بوداعة الكلمة (الإنجيل) التي غُرست فيكم، وفي وسعها أن تخلص نفوسكم ... أما من يدقق في **الشريعة الكاملة**، شريعة الحرية، **ويداوم عليها** ـ لا كمن يسمع فينسى، بل كمن يكب على العمل ـ فهذا يكون

سعيداً في عمله (١ : ١٨ -٢٥). فإن كنتم تتمون **الشريعة الملكية** على حسب الكتابة القائلة: (أحبب قريبك كنفسك[1]) فنِعما تفعلون. وأما إن حابيتم الوجوه، فإنكم آثمون والشريعة تحجّكم كمعتدين. فإن مَن حفظ الشريعة كلها، وزلّ في وصية واحدة، فقد صار مجرماً في الكل : لأن الذي قال : (لا تزنِ)، قال أيضاً (لا تقتل)؛ فإن لم تزنِ، ولكن قتلت، فقد صرت متعدّياً للشريعة. **فتكلموا واعملوا كأنكم مزمعون أن تدانوا بحسب شريعة الحرية** (٢ : ٨ ـ ١٢) : « تلك هي الديانة الطاهرة الزكية » (١ : ٢٨).

ظن بعضهم أن يعقوب يقصد « بالشريعة الكاملة » ، « الشريعة الملكية » ، « شريعة الحرية » : الإنجيل. وفاتهم أن تلك الشريعة هي شريعة الوصايا العشر (٢ : ١٠ ـ١١)، شريعة موسى؛ كما يستشهد بوصية المحبة للقريب بحسب التوراة؛ ويعطي مثالاً « الأنبياء الذين تكلموا باسم الرب » (٥ : ١٠) ومثال أيوب (٥ : ١١) ومثال إيليا (٥ : ١٧). فهو يدعو باسم التوراة أكثر من الإنجيل؛ ونعرف أن يعقوب هو الذي حمل بولس على ممارسة الشريعة في أورشليم (أع ٢١ : ٢٠ ـ ٢٦).

فيعقوب، زعيم آل البيت والنصارى، يدعو المؤمنين من الأسباط الاثني عشر إلى **إقامة الإنجيل والتوراة**، « كلمة الحق » وشريعة موسى (١ : ٨ و٢١).

ومن المذهل، بعد الإنجيل، أن يعلن يعقوب أن الدينونة في اليوم الآخر ستكون أيضاً لأهل الإنجيل بموجب شريعة موسى : « فتكلموا واعملوا كأنكم مزمعون أن تدانوا بحسب شريعة الحرية » (٢ : ١٢).

إن **إقامة الإنجيل والتوراة**، في نظر يعقوب، هي « الديانة الطاهرة الزكية » (١ : ٢٧). تلك هي ميزة النصارى من بني إسرائيل. وهذا هو **مصدر تشيعهم**، وسبب صراعهم المستميت مع بولس الرسول، الداعي إلى تحرير الإنجيل من وصاية شريعة موسى.

---

(١) يستشهد بسفر اللاويين ١٩ : ١٨.

والظاهرة الثانية في رسالة يعقوب هي الدعوة للتوحيد (٢ : ١٩). **فلا نرى فيها تعليماً في التثليث**. وجلّ ما فيها الإيمان « بالرب يسوع المسيح » (١ : ١)، « الإيمان في ربنا يسوع المسيح، رب المجد » (٢ : ١)، وذكر « الله الآب » (١ : ٢٧)، « ربنا وأبينا » (٣ : ٩). وهذا التعليم قد يفسّر تفسيراً مسيحيّاً أو « نصرانيّاً » .

فتعليم الرسالة توراتي أَكثر مما هو إنجيلي، في العقيدة والشريعة، وما أن انقضى عهد الرسل الحواريين، حتى كان **تشيّع النصارى** من بني إسرائيل، في الشريعة والعقيدة والإمامة، أمراً مقضيّاً.

*

ثانياً : رسالة يهوذا

في عام ٦٢ م استشهد يعقوب، واستلم إمامة النصارى من بني إسرائيل مكانه أخوه سمعان (٦٢ ـ ١٠٢ م).

ونعلم أنه بعد الحرب السبعينية التي قضت على الدولة والأمة والمدينة المقدسة والهيكل، انضم إلى « النصرانية » عدد غفير من **الاسينيين**، ورهبانهم من دير قمران. وهؤلاء زادوا في **تهويد العقيدة المسيحية**، فمال النصارى من بني إسرائيل إلى البدعة، وأخذوا ينكرون سيدنا وربنا يسوع المسيح » (٤). وتحول الإيمان المسيحي الصحيح عندهم من **التشيّع إلى النفاق**.

فكتب إليهم، باسم أخيه، وبصفة كونه أحد مجلس الأساقفة عليهم : « لقد رأيتني مضطراً أَن أكتب إليكم لأجل **الجهاد في سبيل الإيمان**، الذي سُلم دفعة واحدة للقديسين. فإِنه قد اندسّ بينكم أناس كتب عليهم القضاء من قديم، **منافقون** يحوّلون نعمة إِلهنا إلى عهارة. **وينكرون سيدنا وربنا الأوحد يسوع المسيح** » (٣ ـ٤).

في لغة الأنبياء الكفر زنى وعهارة. والذين تنصّروا حديثاً آمنوا بيسوع أنه المسيح، النبي الأعظم « مثل » موسى؛ لكنهم أنكروا ربوبيّته وسيادته؛

وزعموا أن الملائكة ـ ويسمّونهم « الأمجاد » ـ أفضل من يسوع المسيح؛ وهم منزلو التوراة على موسى، والنبوة على الأنبياء. (قابل النساء ١٧١).

ويهوذا، أحد « السياد[1] » من آل البيت، يصفهم في نفاقهم وشقاقهم : فهم « أناس لا يفترون عن التذمر والشكوى، ويسلكون في شهواتهم، وتنطق أفواههم بالكلام الطنّان، ويتملقون الناس في سبيل مصلحتهم (١٦). ينسون **الأقوال التي نطق بها من قبل رسل ربنا يسوع المسيح**، إذ كانوا يقولون : سيكون في آخر الزمان أناس **مستهزئون** يسلكون بحسب **شهواتهم الكفرية**. فهؤلاء هم المشاقّون الحيوانيون، الذين ليس لهم **الروح** » (١٧ ـ١٩).

بعد الحرب السبعينية، والعهد الرسولي، فقد تفشى بين النصارى من بني إسرائيل، بعد تشيّعهم للتوراة، **الاستهزاء والنفاق، والكفر والشقاق**؛ لأنهم نسوا « أقوال رسل ربنا يسوع المسيح » ، التي تعلم أن يسوع هو « سيدنا وربنا الأوحد يسوع المسيح » .

*

ثالثاً : رسالة بطرس الثانية

في مطلع اضطهاد نيرون (٦٤ ـ ٦٨ م) للمسيحية، جمع سلوانس مرقس (١ بطر ٥ : ١٢ و١٣) ثلاث عظات لبطرس في رومة، برسالة واحدة، وأرسلوها بأمره إلى « المغتربين في الشتات » وإلى « المختارين » من الأمميّين في « البنطس وغلاطية وكباذوكية وآسيا بثينية » من أقاليم آسيا الصغرى، في « محنة الإيمان » (١ : ٧) و « الحريق المضطرم في ما بينكم لاختباركم » (٤ : ١٢). وفيها تعليم صريح في إلهية المسيح، وعقيدة التثليث. تلك هي رسالة بطرس الأولى.

وبعد الحرب السبعينية، قامت فتنة بين النصارى من بني إسرائيل بسبب

---

(١) نقل أوسابيوس (تاريخ الكنيسة ك ١ ف ٧ ع ١٤) أن الناس يسمون آل بيت المسيح: δεσποσήνοι أي السياد. فانظر إلى أي حد بلغ تطبيق الواقع المحمدي على الواقع « النصراني » .

عدم رجوع المسيح وظهوره ربا مجيداً، كما كانوا يربطون ذلك بخراب الهيكل والمدينة المقدسة. وأخذوا يشكون « في معرفة الله ويسوع ربنا » (٢ بطر ١ : ٢؛ ٣ : ١٨). فجمع أحد تلاميذ بطرس تعليمه برومة، ودمج فيه **نسخة من رسالة يهوذا**، في الفصل الثاني (٢ : ١ ـ٣ : ٢). فصار تعليم بطرس برومة كأنه موجه خصيصاً إلى النصارى من بني إسرائيل، في عنوانها « **إلى الذين نالوا إيماناً ثميناً كإيماننا**، في برّ إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح » (١ : ١). فإيمان النصارى في أصله كإيمان المسيحيين « في برّ إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح » .

تلك هي رسالة بطرس الثانية، والرسالة تركز تعليمها على « معرفة ربنا يسوع المسيح » (١ : ١ و ٨ و ١١؛ ٢ : ٢٠). وتفتتح « بمعرفة الله وربنا يسوع » (١ : ١)، وتختتم بها : « فانموا في النعمة، وفي معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، له المجد الآن وإلى يوم الأبد » (٣ : ١٨).

والرسالة تصرّح بأنها شهادة تجاه **أهل الردة** (٢ : ٢١) من النصارى المستهزئين (٣ : ٣) المنافقين (٣ : ٧).

ففي رسالة بطرس الثانية نرى أن **النفاق في التشيّع**، لدى النصارى من بني إسرائيل، أمسى « **ردّة** » ، بها « **تركوا الصراط المستقيم** » (٢ : ١٥) :

« إنّا لم نتبّع خرافات مدسوسة، إذ أعلمناكم بقدرة ربنا يسوع المسيح ورجوعه (١: ١٦). لقد كان في الشعب (الإسرائيلي) أيضاً **أنبياء كذبة**، كما سيكون فيكم **معلمون كذبة يدسّون بدع هلاك. وبإنكارهم السيد الذي افتداهم** يجلبون على أنفسهم هلاكاً سريعاً. وسيتبعهم كثيرون في فجورهم، فَيُجدَّف بسببهم على **صراط الحق** (٢ : ١ ـ ٢) : فهم **يحتقرون السيادة** ويتجاسرون معجبين بأنفسهم، فلا يهابون أن يفتروا على الأمجاد ـ أي الملائكة ـ (٢ : ١٠). يصطادون النفوس المقلقلة، وقلوبهم مروّضة على الحرص : إنهم **بنو اللعنة! لقد تركوا الصراط المستقيم**، وضلوا مقتفين سبيل بلعام بن بعور (٢ : ١٤ ـ ١٥).

« فإن كانوا قد نجوا من نجاسات العالم **بمعرفة الرب المخلص يسوع المسيح**، ثم عادوا فارتكسوا فيها، وانقادوا لها، فإن آخرتهم قد صارت شراً من أُولاهم. فقد كان خيراً لهم أن لا يعرفوا **صراط البرّ، من أن يرتدوا بعد ما عرفوه**، عن الوصية المقدسة التي سلمت إليهم (٢ : ٢٠ ـ٢١).

« هذه رسالة ثانية اكتبها إليكم ... لكي تتذكروا الأقوال التي نطق بها الأنبياء القديسون، **ووصية الرب المخلص** على أيدي رسلكم (٣ : ١ ـ٢). فاعلموا قبل كل شيء أنه سيأتي في الأيام الأخيرة أناس **مستهزئون**، مفعمون سخرية، يسلكون على هوى شهواتهم، ويقولون : **أين موعد رجوعه**؟ فإنه منذ رقد الآباء ما زال كل شيء على ما كان عليه منذ بدء الخليقة » (٣ : ٤ ـ٥).

فالقوم، بسبب سوء فهمهم لنبوءة المسيح في خراب أورشليم وفي رجوعه الثاني بالمجد، قرنوا رجعة المسيح بخراب أورشليم. وها قد خربت أورشليم وهيكلها، وقامت « رجاسة النجاسة » أي الأعلام الوثنية وأصنامها مكان هيكل الله، ولم يظهر المسيح كما وعد. فانطلقوا من هنا بالدس على التعليم المسيحي الرسولي، بالاستهزاء والنفاق حتى **ارتدوا** عنه (٢ : ٢١)، واستمالوا « كثيرين إلى فجورهم وتجديفهم » (٢ : ٢). وردتهم تقوم على « إنكار السيد الذي افتداهم » (٢ : ١) أي كون المسيح هو « الرب المخلص » (١ : ١١؛ ٢ : ٢٠؛ ٣ : ٣ و١٨).

فالردّة « النصرانية » موضوعها : الكفر بإلهية المسيح، والكفر بالفداء في صلبه. وينتج عن ذلك الكفر بالتثليث، والكفر بالتجسد. هذه هي عقيدة « النصارى » في المسيح. وسيقومون عليها، طوال عهد الفترة، ما بين الإنجيل والقرآن.

والباحثون الذين يشكون في ذلك بسبب بعض التعابير المتشابهة في كتب النصارى من بني إسرائيل، ما عليهم إلا الرجوع إلى صريح رسالة بطرس الثانية وإيضاح الرسالة إلى العبرانيين.

ففي رسالة بطرس الثانية إلى النصارى من بني إسرائيل، نرى أن « **الصراط المستقيم** » (٢ : ١٥)؛ « صراط الحق » ، « صراط البر » - بحسب تعبيرهم المتواتر حتى القرآن - هو « في بر إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح » (١ : ١).

فالرسالة تعلن للنصارى من بني إسرائيل، « الذين نالوا إيماناً ثميناً كإيماننا » (١ : ١) أي كإيمان المسيحيين، أن « **الصراط المستقيم** » هو الإيمان بإلهية المسيح (١ : ١ و٨ و١٤ و١٦)، وبأنه هو « **الرب المخلص** » (١ : ١١؛ ٢ : ٢٠؛ ٣ : ٣ و١٨)، « السيد الذي افتداهم » (٢ : ١).

وتعلن لهم أن « **أهل الردّة** » (٢ : ٢١) هم « أهل اللعنة! إذ قد تركوا الصراط المستقيم » (٢ : ١٤) : « فقد كان خيراً لهم أن لا يعرفوا صراط البر، **من أن يرتدوا، بعد ما عرفوه** » (٢ : ٢٠).

هذه هي شهادة الوحي الإنجيلي في ردّة النصارى من بني إسرائيل. أن « شيعتهم » ردّة، عن « برّ إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح » (١ : ٢) : « لقد تركوا الصراط المستقيم » (٢ : ١٤).

*

رابعاً : الرسالة إلى العبرانيين

كان اليهود، والنصارى منهم على أثرهم، يقسمون أنفسهم إلى « عبرانيين » مقيمين على أخلاق الكتاب في الوطن فلسطين؛ وإلى « **هلينيين** » مقيمين في المهاجر كلها على الأخلاق الهلينية.

وهذه الرسالة هي « إلى العبرانيين » أي إلى النصارى من بني إسرائيل الفلسطينيين. وقرائنها الذاتية تدل على أنها كتبت إليهم، في أثناء هجرتهم إلى شرق الأردن، مدة الحصار الروماني لأورشليم عام ٦٦ -٧٠م.

ومناسبة الرسالة هي حال الهجرة، والفتنة التي أخذت تعصف بهم بسبب فقدانهم طقوس الهيكل الإسرائيلي وكهنوته وذبائحه. وتلكما **الهجرة والفتنة** تحمل هؤلاء النصارى « العبرانيين » على **البدعة والردّة**.

ففي الرسالة إلى العبرانيين نرى أن « الردة » عن حقيقة الإيمان المسيحي بدأت تعم النصارى « العبرانيين » ـ كما رأينا في رسالة بطرس الثانية ـ بتأثير الروح التوراتي والكهنوت اللاوي فيهم. فجاءت الرسالة العبرية معالجة لاهوتية كلامية رائعة لتلك الردة. فهي أفضل دفاع لاهوتي عن المسيحية في البيئة الإسرائيلية، كما أن الإنجيل بحسب متى أفضل دفاع تاريخي، وهما من حيث الأسلوب البياني أفضل أسفار العهد الجديد.

في الرسالة العبرية نرى النصارى من بني إسرائيل في حالة هجرة (١٠ : ٣٢ ـ ٣٦)، لاجئين (٦ : ١٨) وليس لهم من مدينة يلجئون إليها (١٣ : ١٤) وقد شملهم جميعاً الاضطهاد (١٢ : ٨) بسبب « عار المسيح » (١١ : ٢٦؛ ١٣ : ١٣). فوقعوا تحت تأثير **المحنة والفتنة**، وصارت « أيديهم مسترخية، وركبهم واهنة » ، **وتاهوا عن الصراط المستقيم** شاردين كالأعرج (١٢ : ٤ ـ١٢). **وكثرت فيهم الردة والمرتدون** (١٣ : ١٢؛ ١٠ : ٢٦ ـ٢٧) خصوصاً بين الأحبار واللاوين المهتدين إلى المسيح، وبدأوا يحنون إلى كهنوتهم القديم وذبائحه التي كانوا يعبدون الله بها، ويعيشون منها (٦ : ٤ ـ٦) ونسوا **الشهادة للمسيح** (٢ : ١ : ٤ و١٤؛ ١٠ : ٢٣).

فتبيّن الرسالة العبرية للنصارى العبرانيين أفضلية العهد الجديد على العهد القديم، بوسيطه « الابن » (١ : ١)، وبكهنوته الروحي لا الجسدي، وبذبيحته الخالدة، بدم المسيح، التي بدأت على الأرض، وتتم الآن في السماء أمام عرش الله، فهي أفضل بكثير من دم تيوس وعجول.

ومن حيث التنزيل، فكلام « الابن » أفضل من كلام الأنبياء « عبيد الله » (١ : ١ ـ٣) : « فإذا كانت الكلمة التي أنزلها الملائكة قد ثبتت، وكل تعدٍ ومعصية قد نال جزاءً عدلاً، فكيف نفلت نحن، إن أهملنا خلاصاً مثل هذا الذي **نطق به الرب أولاً**، ثم ثبّته لنا الذين سمعوه، **والله يؤيد شهادتهم** بالآيات والخوارق وشتى المعجزات، وبتوزيع مواهب الروح القدس، على حسب

مشيئته » (٢ : ١ ـ٤). فالشهادة المسيحية قائمة بكلام الابن نفسه، وبشهادة شهود العيان؛ وبراهينها من الخارج أنواع المعجزات، ومن الداخل مواهب الروح القدس التي تخلق المسيحيين خلقاً جديداً.

ويدخل إلى صلب العقيدة المسيحية في شبهتين لهم على منزلة المسيح الأزلي : بشريته التي اتخذها في تأنسه، وصلبه في استشهاده! فليست بشرية المسيح، ولا صلب المسيح، بشبهة على **أفضلية المسيح على الملائكة**، لأن « اشتراك المسيح باللحم والدم » مع أخوته البشر خلاص لهم من سيطرة الخطيئة، ومن عبودية الموت، وممن له سلطان الموت عليهم أي إبليس؛ فالله باستشهاد المسيح قد جعل « رائد الخلاص بالآلام كاملاً، لذلك نراه الآن في الأعالي، عن يمين عرش الجلال مكللاً بالمجد والكرامة، وقد أُخضع كل شيء تحت قدميه » (٢ : ٥ ـ١٨). فليس في بشرية المسيح ولا في استشهاده صلباً شبهة على ربوبيته.

فالردّة عن هذه الشهادة، وعن الإيمان بالمسيح، ابن الله (٤ : ١٤) « الابن » على الإطلاق (١ : ٣) تنبعث من الفتنة في المحنة : « أيها الأخوة احذروا من أن يكون لأحد منكم قلب **ماكر وغير مؤمن، فيرتد عن الله الحي** ... فقد صرنا شركاء في المسيح، إن نحن أقمنا على الإيمان ثابتاً حتى النهاية، كما في البداءة (٣ : ١٢ ـ١٤). وإذ لنا الحبر الأعظم الذي اجتاز السماوات، **يسوع ابن الله، فلنثبت على شهادة الإيمان** (٤ : ١٤). فإنه من المحال على المستنكرين الذين ذاقوا الموهبة السماوية واشتركوا في الروح القدس، وتذوّقوا كلمة الله الطيبة، وقوات الدهر الآتي (أي الأسرار المسيحية)، ثم **ارتدوا**، أن يجدّدوا ثانية بالتوبة : **فهم يعيدون في أنفسهم صلب** ابن الله، ويشهّرونه » (٦ : ٤ ـ٦)، لكفرهم بإلهيته، وفدائه في استشهاده.

فالردة عن الشهادة للمسيح بأنه ابن الله، والكفر بصلب المسيح، صلب جديد له.

« ومن ثمّ، أيها الأخوة، بما أن لنا بدم المسيح ثقة بالدخول إلى المقادس

(السماوية) من **هذا الصراط الجديد الحي** الذي فتحه لنا من خلال الحجاب، **جسده؛** وبما أن لنا هذا الكاهن الأعظم على بيت الله، فلندنُ بقلب صادق، وفي كمال الإيمان ... **ولنتمسك بالشهادة** لرجائنا، على غير انحراف ... **لأننا إن كفرنا بعد ما نلنا معرفة الحق،** فليس بعد من ذبيحة عن تلك الكبيرة! بل هناك ما ينتظر من هول الدينونة، وغضب نار **تلتهم المرتدين.** وإن كان من يتعدّى شريعة موسى يُقتل قتلاً، على شهادة اثنين أو ثلاثة، فكم ترون يستوجب عقاباً أشد **من يدوس ابن الله ويحتقر دم العهد** الذي تقدس به » ؟! (١٠ : ١٩ ـ٣٠). إنها شهادة صريحة بردة « النصارى » عن المسيحية.

فالردّة « النصرانية » التي تحذرهم منها الرسالة، تقوم على الكفر بيسوع أنه ابن الله، وعلى الكفر بمعنى الفداء في صلبه وسفك دمه.

وهذا **الكفر المزدوج بإلهية المسيح ورسالته الفدائية** بصلبه هو ما يميّز شيعة « النصرانية » ، من سنّة المسيحية، طوال عهد الفترة ما بين الإنجيل والقرآن. وهذه هي الصورة الصادقة الناطقة التي نجدها في القرآن نفسه، للنصارى من بني إسرائيل.

*

خامساً : رسالة يوحنا الرسول الأولى

آخر صحابة المسيح انتقالاً إلى الرفيق الأعلى، كان يوحنا الرسول، في آخر القرن الأول الميلادي. وقبل وفاته دوّن سفر الرؤيا في سر الكنيسة من التاريخ، والإنجيل بحسب يوحنا في سر المسيح، وذلك في بيئة تحكمت فيها الغنوص الهلنستيّة واليهودية و« النصرانية » . وكتب رسالته لتقديم الإنجيل إلى العالم المسيحي.

وفي الفترة ما بين الحرب السبعينية وآخر القرن الأول ظهرت في « النصرانية » الإسرائيلية النزعة الغنوصية، فأدت فيها إلى حركتين على طرفي

تفيض : الأبيونية التي تميل إلى تهويد المسيحية، والكيرنثية التي تميل إلى العقلانية بتسلط الغنوصية عليها.

وللحدّ من هذه النزعات الانحرافية في « النصرانية » يشهر بها يوحنا في رسالته التي بها يقدّم الإنجيل ويوجز عقيدته. وفيها نرى أن **أهل البدعة والردة** من النصارى اليهود قد أمسوا، في آخر القرن الأول الميلادي « **خوارج** » على « الصراط المستقيم في المسيح » (٢: ١٨).

ويوحنا يكتب للمسيحيين معرّضاً بهم، ويكتب بصفة **الشاهد العيان** « للذي كان من البدء الذي سمعناه، الذي رأيناه بأعيننا، الذي تأملناه ولمسته أيدينا : **كلمة الحياة الذي كان في الآب وظهر لنا** » (١ : ١ ـ٤). ويقول : « لقد كتبت إليكم، لا لأنكم لا تعرفون الحق، بل لأنكم تعرفونه، ولأنه ما من كذب يصدر عن الحق. ومن الكذّاب إلا الذي ينكر أن **يسوع هو المسيح؟!** ذاك المنكر هو المسيح الدجال! **الذي ينكر الآب والابن!** وكل من ينكر الابن ليس له الآب؛ ومن يشهد للابن أيضاً » (٢ : ٢١ ـ٢٣).

فمنذ آخر القرن الأول، استقر النصارى من بني إسرائيل على الكفر بإلهية المسيح الابن، والكفر بالتثليث الإنجيلي. لذلك يسميهم يوحنا الرسول **خوارج**: « يا أولادي الصغار، ها هي ذي الساعة الأخيرة! لقد سمعتم أن مسيحاً دجالاً سيظهر فيها : **وها مسحاء دجالون** كثيرون ... **لقد خرجوا منا**، بيد أنهم لم يكونوا منّا، لأنهم لو كانوا منا لاستقاموا معنا » (٢ : ١٨ ـ١٩). فهو يصم أئمة « النصرانية » بالمسحاء الدجالين الخوارج على العقيدة المسيحية.

ويوجز لهم الشهادة المسيحية بقوله : « فها هي ذي وصية (الله ربنا) أن نؤمن باسم ابنه يسوع المسيح (٣ : ٢٣). فيا أيها الأحباء لا تركنوا إلى كل روح : لأن **أنبياء كذبة كثيرين** قد خرجوا إلى العالم! بل اختبروا الأرواح هل هي من الله. بهذا تعرفون روح الله : **كل من يشهد بأن يسوع المسيح أتى في الجسد هو من الله**؛ وكل روح لا يشهد ليسوع بهذا فليس من الله، إنما هو روح

المسيح الدجال (٤ : ١ ـ٣). ونحن قد **عاينا ونشهد** أن الآب قد أرسل ابنه **مخلصاً للعالم** : فمن شهد بأن يسوع المسيح هو ابن الله، فالله يقيم فيه، وهو يقيم في الله » (٤ : ١٤ ـ١٥).

فالتثليث والتجسد والفداء هي الشهادة المسيحية الصحيحة، كما يعلنها شاهد العيان منذ الساعة الأولى لسيرة المسيح ودعوته ورسالته. وهذا ما تنكره « النصرانية » الإسرائيلية؛ لذلك يسمي أئمتها « أنبياء كذبة » ، « مسحاء دجالين » : ويدمغهم بسمة « الخوارج » على العقيدة المسيحية الصحيحة. ويقول : « ذلك ما أكتب به إليكم بشأن الذين يضلونكم » (٢ : ٢٦) : فلئن كنا نقبل شهادة بشر (موسى والأنبياء)، فشهادة الله أعظم : وهذه هي شهادة الله التي شهد بها لابنه : **فمن يؤمن بابن الله، فله هذه الشهادة في نفسه**، ومن لا يصدق الله فقد جعله كاذباً، إذ أنه لا يؤمن بالشهادة التي شهد بها الله لابنه » (٥ : ٥ ـ١٠). والنصارى من بني إسرائيل، وقد أمسوا بالبدعة والردة خوارج، ينكرون الشهادة المسيحية : أن المسيح هو ابن الله أتى بالجسد، وصلب بالجسد، لخلاص العالم. **فهم يفسرون الإنجيل بالتوراة، لا التوراة بالإنجيل.**

وهذه هي بدعة النصارى اليهود الخوارج، كما أعلنها زعيمهم كيرنثس على أيام يوحنا الرسول! إن المسيح « روح منه » تعالى، حلّ على يسوع يوم عماده، وفارقه قبل استشهاده. فما قتل اليهود المسيح نفسه، وما صلبوه يقيناً، بل رفعه الله إليه. إنما قتلوا يسوع الناصري لا غير.

نقل لنا اوسابيوس[١]، أبو التاريخ الكنسي، حادثاً طريفاً وقع ليوحنا الرسول مع كيرنثس « النصراني » . دخل يوحنا الحمام البلدي. فقيل له : كيرنثس ههنا! فهرول للحال مسرعاً في الخروج من الحمام، وهو يقول للذين معه : « لنهرب، خوفاً من أن يقع الحمام علينا : ههنا كيرنثس عدو الحقيقة » .

(١) تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ١٨ ع ٦.

تلك هي « النصرانية » في مصادر الوحي الإنجيلي : بدأ النصارى من بني إسرائيل، في فلسطين، ـ لا نقول في البيئة الهلنستية، حيث ذابوا مع الزمان في المسيحية ـ بدأوا شيعة في الشريعة والإمامة؛ وتطور تشيعّهم مع الحرب السبعينية إلى نفاق في الدين والعقيدة؛ وبعد الحرب السبعينية صار النفاق ردة؛ وانتهى أولئك النصارى الفلسطينيون، في مهاجرهم بسوريا الكبرى ومصر، إلى خوارج على الشهادة المسيحية، منذ أواخر القرن الأول الميلادي.

تلك هي « شيعة النصارى » في « العهد الجديد » . وهي تغنينا عن شهادة التاريخ في عهد الفترة، ما بين الإنجيل والقرآن، لكننا سنستقرئ التاريخ لنرى كيف وصلت إلى عهد القرآن، وذابت في الإسلام.

الفصل الثاني

((النصارى)) في التاريخ

توطئة : تاريخ ((النصارى)) في ((عهد الفترة))

بحث أول : موجز تاريخ ((النصارى))

بحث ثان : هجرة ((النصارى)) إلى الحجاز

بحث ثالث : إنجيل ((النصارى))

بحث رابع : علم الكلام عند ((النصارى))

بحث خامس : أسلوب الدعوة عند ((النصارى))

بحث سادس : عقيدة ((النصارى))

بحث سابع : الشريعة والصوفية عند ((النصارى))

كلمة الختام : النصارى ((أمة وسط)) بين اليهودية والمسيحية

توطئة

تاريخ النصارى في « عهد الفترة »

لقد ثبت لنا، من مصادر الوحي الإنجيلي في « العهد الجديد »، أن اسم « النصارى[1] » محصور بأتباع المسيح من بني إسرائيل[2]؛ بخلاف أتباع المسيح من جميع الأمم الذين عرفوا منذ تأسيس المسيحية باسم « مسيحيين » (أع ١١ : ٢٦؛ قابل أع ٢٦ : ٢٨؛ ١ بطر ٤ : ١٦) في كل زمان ومكان.

وثبت لنا أيضاً، خصوصاً من سفر أعمال الرسل ورسائل بولس، أن النصارى من بني إسرائيل كانوا « **شيعة** » بالنسبة « للسنّة » المسيحية، وذلك بسبب تشيّعهم لشريعة موسى ولإمامة آل البيت عليهم. ولإظهار حق آل البيت بالإمامة على الرسل صحابة المسيح كانوا يسمون أبناء عم المسيح « أخوة الرب » ، أو « السيَّاد » . وكانوا يعتبرون يعقوب، زعيم آل البيت، وأول أسقف على أورشليم، **خليفة المسيح**، بحسب التقاليد الشرقية.

وثبت لنا أخيراً، من « الرسائل الكاثوليكية » ، أن تشيّعهم أدّى بهم في آخر العهد الرسول إلى **بدعة وردّة**.

والآن نرى أن تاريخ النصارى في « عهد الفترة » ما بين الإنجيل والقرآن، يؤكد كيف جرهم تشيّعهم إلى البدعة والردة في العقيدة المسيحية.

*

(١) وبعض الأحيان يسمون « نصرانيين » بحسب اختلاف صيغة النسبة. والعلامة ايريناوس الذي عرفهم وكتب عنهم يسميهم بالاسمين معاً.
(٢) وهذا ما يؤكده القرآن أيضاً (الصف ١٤).

بحث أول

موجز تاريخ « النصارى »

نرى في تاريخ النصارى بعهد الفترة **ثلاث مراحل** : من ارتفاع المسيح إلى الحرب السبعينية؛ ثم ما بين النكبتين عام ٧٠ ـ١٣٥؛ أخيراً تشتّتهم في الإمبراطورية الرومانية حتى إعلان المسيحية دين الدولة، في دولة الروم في منتصف القرن الخامس.

١ـ النصارى من ارتفاع المسيح إلى النكبة اليهودية الأولى عام ٧٠م

تلك الفترة من أربعين سنة تسمى « العهد الرسولي » . وهو عهد دعوة الرسل، صحابة المسيح، وتأسيس المسيحية في الإمبراطورية الرومانية.

في هذا العهد الرسولي، ظل « النصارى » على الصراط المستقيم في العقيدة الإنجيلية، مع تشيّعهم بإقامة الإنجيل والتوراة معاً، طالما يعقوب، زعيم آل البيت على رأسهم.

حادثان خلقا **النزاع الأول** في المسيحية، فشقَّاها إلى شيعة وسنّة : إلى « نصرانية » ، ومسيحية.

الحادث الأول هو دعوة بولس للمسيح بين الأمميّين. وكان يبني دعوته على استقلال المسيحية عن الموسوية.

والحادث الثاني هو دخول الفريسيين في الدعوة الإنجيلية، ومحاولتهم تهويدها، وفرض الشريعة الموسوية على المهتدين من الأمميين : « إن قوماً من الذين آمنوا، من مذهب الفريسيين، نهضوا وقالوا : إنه يجب أن يُختنوا ويؤمروا بإقامة شريعة موسى » (أع ١٥ : ٥). ويرى بولس في هداية هؤلاء الفريسيين حركة مشبوهة : ففي مؤتمر الرسل والكهنة بأورشليم عام ٤٩م،

« إن تيطس الذي كان معي، وهو هلّيني، لم يُضطر إلى الختان، رغماً عن **الدخلاء، الأخوة الكذبة**، الذين **اندسوا** خلسة في ما بيننا، **ليتجسّسوا حريتنا**، تلك التي لنا في المسيح يسوع، بقصد أن يستعبدونا. غير أنا لم ننقد لهم في شيء، ولا لحظة، لتدوم لكم **حقيقة الإنجيل** » (غلا ٢ : ٣ ـ ٥).

وبما أن مركز الدعوة الإنجيلية بين الأمميين كان في أنطاكية، فقد حضر وفد من الفريسيين المتنصرين إليها وأثار النزاع في ضرورة شريعة موسى للمهتدين إلى المسيحية من الأمميين : « وانحدر من اليهودية قوم يعلمون الأخوة قائلين : إنكم إنْ لم تختتنوا بحسب شريعة موسى فلا تستطيعون أن تخلصوا. وإذ جرت بينهم وبين بولس وبرنابا منازعة حادة في المباحثة، جزموا أن يصعد بولس وبرنابا ونفر آخرون منهم إلى أورشليم، إلى الرسل والكهنة، للنظر في هذه المسألة » (أظ ١٥ : ١ ـ٢).

فانعقد المؤتمر الأول في المسيحية من الرسل وآل البيت والكهنة والشيوخ. وجرت مباحثة في المسألة. فحسم القضية بطرس زعيم الرسل بتحرير الأمميّين المهتدين إلى المسيح من شريعة موسى والختان. وأيده زعيم آل البيت، يعقوب. « فسكت الجمهور كله » (أع ١٥: ٢ ـ ١٨).

وترك المؤتمر أَهل الكتاب المتنصرين أحراراً في إقامة الإنجيل والتوراة معاً. فأقاموا على إقامة التوراة مع الإنجيل، على مثال يعقوب وآل البيت.

كان هذا **الفصل الأول من النزاع** في سبيل شريعة موسى.

ونرى عقيدة النصارى مصورة في رسالة يعقوب، « إلى الأسباط الاثني عشر في الشتات » : إنها الإنجيل بلغة توراتية.

وكان يعقوب في نظرهم **خليفة المسيح** بينهم. وكان من أولياء الله بالزهد والقداسة، والمواظبة على شعائر الهيكل الإسرائيلي، مع تكميل الإنجيل.

فكان بهذا السلوك المزدوج المثال المزدوج المثال الأكبر للنصارى من بني إسرائيل، حتى كانوا يسمونه « سور الشعب[1] » .

مع ذلك لم يسلم يعقوب، زعيم آل البيت، من اضطهاد اليهود. في عام ٥٩ كان بولس أَسيراً في قيصرية فلسطين، فاستأنف دعواه، كمواطن روماني، إلى محكمة قيصر برومة. ولمّا أفلت بولس من يد اليهود، وبدأت تردهم الأخبار من رومة بتبرئته ودعوته الكاسحة، ارتد غضبهم على يعقوب، أسقف أورشليم، لأنه ربما ساعد على نجاة بولس من قبضتهم. وأخذوا يتربصون به الدوائر، حتى خلت فلسطين من والٍ روماني ما بين موت الوالي فستس، الذي أرسل بولس إلى محكمة قيصر في رومة، مع توصية حسنة به، ومجيء الوالي ألبينوس خلفاً له. فجمع الحبر الأعظم حنَّان الثاني السنهدرين، مجلس اليهود الأعلى، واستصدر فتوة بقتل يعقوب لإيمانه بيسوع أنه المسيح. فحملوه إلى قمة سور الهيكل وطرحوه إلى الوادي، حيث أجهزوا عليه بالرجم[2] .

وباستشهاد يعقوب عام ٦٢م، وفي أسر بولس برومة، انتقل الحزب الفريسي النصراني إلى **الفصل الثاني** من تشيّعه : بجعل المسيح من منزلة موسى، النبي الموعود « مثله » . وقد رأينا الرد عليهم في رسائل بولس، وفي « الرسائل الكاثوليكية » مع الرسالة إلى العبرانيين.

ولمّا قامت ثورة اليهود على الاستعمار الروماني عام ٦٦ ـ٧٠م كانت المسيحية قد انشقت إلى **سنّة وشيعة** : سنّة المسيحيين من الأمميّين، وشيعة النصارى من بني إسرائيل.

*

---

(١) أوسابيوس : تاريخ الكنيسة ك ٢ ف ٢٣ ع ٧.

(٢) أوسابيوس : تاريخ الكنيسة ك ٢ ف ٢٣؛ قابل يوسيف : الآثار اليهودية ك ١٨ ف ٣ ع ٣.

٢ـ النصارى ما بين النكبتين (٧٠ ـ١٣٥م)

اندلعت الثورة اليهودية على الدولة الرومانية عام ٦٦م. فجاء الجيش الروماني بقيادة فسبسيانس وابنه تيطس لتأديب اليهود. وحاصروا أورشليم.

وقبل الحصار قام أحد الأنبياء وحذّر النصارى من الحصار المقترب؛ وذكرهم بكلمة المسيح ووصيته بالهرب من أورشليم عندما يحيط بها من بعده جيوش الغزو، لأن ساعتها تكون قد حضرت[١].

فهرب النصارى من أورشليم واليهودية إلى شرق الأردن. وأقاموا في بلَّة وفي كوْخَبة. وهكذا سلموا من الحصار ومن الدمار.

وكان الحصار وحشيّاً، حتى أكل الناس بعضهم بعضاً. وقد نقل أوسابيوس وصفه عن المؤرخ اليهودي يوسيف[٢].

فمحى الرومان أورشليم محواً، ولم يتركوا فيها حجراً على حجر! فتمت بذلك نبوءة المسيح فيها. وكان ذلك عام ٧٠م، أي نحو أربعين سنة من نبوءة المسيح.

وبعد سحق الثورة، وخراب المدينة المقدسة وهيكلها العظيم، واستتباب الأمر للرومان، سمحوا بإعادة البناء فيها، لكنهم لم يسمحوا بإعادة بناء الهيكل الذي تحوّل إلى حصن أخير أثناء الحصار. بل بنى الرومان على أنقاضه معبداً لجوبيتر. فسقطت ممارسة الديانة عندهم، كما سقطت دولتهم.

وفي هذه الحرب اليهودية دمر الرومان أيضاً أديرة قمران، للرهبان الاسينيين من اليهود. فخبّؤوا كتبهم في أكناف مغاور الدير، فجاء الحريق عليها، وسلم منها ما سلم حتى اكتشفوه حديثاً.

---

(١) اوسابيوس : تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ٥ ع ٣.
(٢) تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ٥ و٦؛ قابل يوسيف : الحرب اليهودية ك ٥ و٦.

وعام ٧٦م رجع معظم ((نصارى)) أورشليم إليها، وإلى اليهودية، مع سمعان أخي يعقوب على رأسهم. وكانوا قد اتعظوا بما جرى للمدينة المقدسة، وللهيكل عنوان فخرها. لكنهم ازدادوا انعزالاً، بإقامة التوراة مع الإنجيل، عن سائر العالم المسيحي؛ بالرغم من الرسالة إلى العبرانيين، التي جاءتهم مدة الهجرة والحصار، تحذّرهم من البدعة والردة.

وكانت العبرة أكبر عند رهبان قمران الذين صعقهم تتميم نبوءة المسيح بأمتهم ودولتهم وهيكلهم. وسارع الكثيرون منهم ومن جماعاتهم العلمانية، إلى الدخول في ((النصرانية)) . لكنهم دخلوها بروحهم التوراتية وتزمتهم الرهباني. فزادوا ((النصرانية)) تشيّعاً للتوراة عن حقيقة الإنجيل. وتسمّت حركتهم النصرانية الاسينية القمرانية **بالأبيونية**، من قول المسيح الذي اتخذوه شعاراً لهم : ((طوبى للمساكين - (وبلغتهم : طوبى للابيونيين) - فإن لهم ملكوت السماوات)) .

وشيئاً فشيئاً صبغت حركتهم النصرانية كلها، على درجات متفاوتة، وبحسب التيارات المتعارضة فيها من علم الكلام. قال عالم في تاريخ الكنيسة الحديث[١] : ((إن اسم أبيونيين قام مقام، أو صار صفة، لاسم ((نصارى)) الذي تسمّى به من قبل أتباع المسيح من اليهود)) .

ويصف أوسابيوس، أسقف قيصرية فلسطين، الذي كانت مكتبته الأسقفية تحوي على مر الزمان مؤلفات الأولين كلها، التأثير الأبيوني على النصرانية الإسرائيلية. قال[٢] :

((منذ البدء سموهم بحق أبيونيين (أي فقراء) لأنه كان لهم في المسيح آراء فقيرة حقيرة. فكانوا يعتبرونه بشراً سويّاً، **بشراً لا غير**، تقدّس بممارسة

(١) Fliche et Martin. Livre I p. 394

(٢) تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ٢٧.

الفضيلة. **وقد ولد من رجل ومريم**. وكانوا يتمسكون بإقامة الشريعة، لأنه على زعمهم لا خلاص بالإيمان بالمسيح وحده، بل بإقامة الشريعة أيضاً.

« لكن إلى جانب هؤلاء كان آخرون يحملون اسمهم من دون حماقتهم. فهؤلاء لا ينكرون مثلهم مولد المسيح من بتول بمعجزة من الروح القدس. لكنهم مثلهم لا يعترفون بأزليته، مع أنه الرب والكلمة والحكمة. **وهكذا يرجعون إلى كفر الأولين**. وكانوا مثلهم يغارون على إقامة أحكام الشريعة الجسدية (أي الموسوية). وكانوا يقولون برفض رسائل الرسول، ويسمّونه « المرتدّ » . ولا يقبلون إلا **الإنجيل بحسب العبرانيين** (أي إنجيل النصارى). وقد لا يكترثون بغيره. وكانوا **يحفظون السبت**، ويسلكون بحسب اليهودية، مع أنهم يقيمون الأحد مثلنا، ذكرى لقيامة المسيح المخلص.

« لذلك استحقوا اسم « أبيونيين » الذي يُظهر فقر ذهنهم، فإن هذا هو معنى الفقراء عند العبرانيين » . وهذا هو التعريف الوافي « بالنصرانية » .

وهذه أصح فذلكة تاريخية لتطور العقيدة « النصرانية » حتى **القرن الرابع** الذي فيه وضعها مؤرخ الكنيسة أوسابيوس، الذي عرفهم عن كثب وكان بين ظهرانيهم. وقوله شهادة الشاهد العيان.

فبتأثير الاسينيين المتنصرين، الذين نصّروا رهبانيتهم القمرانية معهم فتسموا « أبيونيين » ، سيطرت الروح التوراتية على « النصرانية » وانحرفت عن « حقيقة الإنجيل » كما لحظ بولس منذ تنصّر الفريسيين (غلا ٢ : ٥). فعند عامتهم أن السيد المسيح وُلد من بتول لم يمسسها بشر، لكنه ليس بإله، وإن سموه على المجاز والاصطفاء « ابن الله » . فإن تعابير « ابن الله » و « كلمة الله » و « حكمة الله » تعني في كلامهم الغنوصي الناشئ أوصاف « الروح » زعيم الملائكة.

وهذا التيار الأبيوني في « النصرانية » هو ما يثور عليه **نداء يهوذا** أخي يعقوب وسمعان، من مجلس أساقفتهم، في « رسالة يهوذا » .

ونحو العام الثمانين حرم السنهدرين « النصارى » من مخالطة اليهود في صلاتهم، بتأثير رابي جمالئيل الثاني. فصار « النصارى » ـ ومعهم بطبيعة الحال المسيحيون ـ بدعة كافرة، بنظر اليهود، يجب لعنهم مع « المِيْنيم » المشركين كل يوم في صلاة « شمونه عشْره ». فالبركة الثانية عشرة تقول :

« لا يكن للمرتدين رجاء! ولتُستأصلْ دولة الظلم سريعاً، وعلى أيامنا! وليضمحل في لحظة النصارى والمشركون! وليمحو من سفر الحياة! ولا يكن لهم حظ مع الصالحين. الحمد لك، أدوناي، مذلّ المتجبرين » !

هذا الحرم اليهودي، من جهة؛ واستقلال النصارى عن المسيحيين في إقامة أحكام التوراة مع الإنجيل؛ جعلا « النصرانية » كياناً وعقيدة « **أمةً وسطاً** » بين اليهودية والمسيحية، منذ أواخر القرن الأول.

وعبثاً حاولت رسالة بطرس الأولى، وخصوصاً الثانية التي جُمعت من بعده مع إدماج رسالة يهوذا فيها، جلبهم إلى الصراط المستقيم في المسيحية. فأصرّوا أنهم في « نصرانيتهم » على الصراط المستقيم، وعلى دين الحق.

وفي أواخر القرن الأول ميلادي ومطلع الثاني، في عهد الإمبراطور ترايانس، نجم في النصرانية، بتأثير علم الكلام الطالع المبين على **الغنوص** ـ التفسير « العلمي » للعقيدة الإنجيلية ـ وعلى **أسلوب الرؤيا**، حركتان على طرفي نقيض : **الكيرنثية** الموغلة في الغنوصية، والتي تقول بجنة حسية عند رجوع المسيح[١]؛ ثم **الكسائية** الموغلة في التهويد[٢]. وكان الكسائي يأمر بالقبلة إلى أورشليم في الصلاة[٣] على خلاف المسيحيين الذين يصلون إلى الشرق.

حينئذٍ كتب يوحنا الرسول، آخر صحابة المسيح على قيد الحياة، في ختام

---

(١) أوسابيوس : تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ٢٨.
(٢) ابيفانس : الشامل في التاريخ ك ٩ ف ١ ع ٥.
(٣) ابيفانس : الشامل في التاريخ ك ١٩ ف ٣ ع ٦ ـ ٧.

القرن الأول، رسالته الأولى إلى المسيحيين ينعت فيها أولئك المتكلمين من « النصارى » بالخوارج.

في هذه الأثناء كان سمعان، رئيس أساقفة النصارى في أورشليم يقود الكنيسة « النصرانية » على هدى أخيه وسلفه يعقوب، بإقامة الإنجيل والتوراة معاً. وعاش سمعان حتى عهد القيصر ترايانس. وفي ولاية أَتكُس وُشي به فحُكم عليه بالموت صلباً. وقاسى في استشهاده عذابات طويلة وكثيرة أثارت إعجاب الوالي حتى كان يقول : كيف يستطيع ابن مائة وعشرين سنة أن يتحمل كل هذه الآلام المبرحة[١] !

فخلفه على إمامة النصارى يُستس، وربما هو يوسى أخو يعقوب وسمعان، يعاونه مجلس أساقفة يعدهم أوسابيوس خمسة عشر[٢].

وفي أيام القيصر ترايانس وُشي « **بالسيَّاد** » من آل بيت المسيح، كمطالبين بالعرش الإسرائيلي، فاقتيد أحفاد يهوذا إلى رومة. فلما رآهم القيصر من عامة الناس تركهم وشأنهم. فاعتبروا مجاهدين، « وحكموا كنائسهم[٣] » .

وتعاقب « السيَّاد » ، من آل بيت المسيح على إمامة النصارى حتى اندلعت **الثورة اليهودية الثانية** على الدولة الرومانية عام ١٣٢، على أيام هدريانس قيصر.

قام بالثورة رجل من كوزبة سمَّاه الربَّان عَقِبَة : « ابن كوكب » ـ بركوكبا ـ فادّعى أنه المسيح الموعود الذي أتى لتحرير إسرائيل من الأمميين. فلم يشترك النصارى معه بالثورة، بسبب هذا الادعاء وبسبب ولائهم للدولة، مما أثار حفيظة اليهود عليهم وجعلهم عرضة للاضطهاد اليهودي على الصعيدين القومي والديني؛ فعملوا في النصارى ذبحاً وتقتيلاً[٤].

---

(١) اوسابيونس : تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ١١ و ٢٠ و ٣٢.
(٢) اوسابيونس : تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ٣٢.
(٣) اوسابيونس : تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ١٩ و ٢٠.
(٤) اوسابيونس : تاريخ الكنيسة ك ٤ ف ٦.

فكانت ضربة رومة هذه المرة الضربة القاضية على الأمة والدولة والمدينة المقدسة. وفي عام ١٣٥ محى الرومان حتى اسم أورشليم. وسموا المدينة الجديدة التي قامت على أنقاض أورشليم «إيلياء» من اسم القيصر «ايليوس هدريانس» . وحرموا دخولها على كل يهودي. فطال المنع النصارى من بني إسرائيل. فقامت كنيسة مسيحية من الأمميّين في أورشليم بدل كنيسة النصارى؛ وتزعمهم بطريرك من الروم حتى أيامنا.

في هذه النكبة الثانية القاضية، تشتت النصارى من بني إسرائيل في سوريا الكبرى وفي مصر، جماعات جماعات يعيشون مستقلين على هامش الكنائس المسيحية.

*

٣ـ النصارى من تأسيس إيلياء حتى قيام المسيحية ديناً للدولة (١٣٥ ـ٤٢٥).

من هجرة النصارى عن أورشليم عام ١٣٥، وتشتتهم في الولايات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية، حتى هداية الدولة الرومانية إلى المسيحية عام ٣١٣، وقيام المسيحية فيها ديناً للدولة على أيام ثاوضوسيوس الكبير وأبنائه عام ٤٢٥، ليس لدينا في المصادر التاريخية الباقية سوى شذرات تذكر وجودهم وعقيدتهم وإنجيلهم.

فهذا يُستين، الفيلسوف النصراني الكاثوليكي، من نابلس، وصاحب مدرسة في رومة، يكتب في مطلع هجرة النصارى إلى الإمبراطور ومجلس الشيوخ دفاعين عن المسيحية. وفي (الحوار مع تريفون[١]) ـ متكلم يهودي يقاوم الدين المسيحي ـ يعتبر النصارى المحافظين ـ وهو أصلاً منهم ـ على صراط مستقيم في نصرانيتهم بإقامة التوراة والإنجيل معاً، شريطة أن لا يفرضوا طريقتهم على غيرهم ويُلزموا المسيحيين بالتهويد.

(١) قابل مجموعة الآباء اليونان ك ٤١ ص ٣٨٨.

وفي أواخر القرن الثاني، يشهد فيهم الأسقف العلامة ايرناوس الشهادة عينها[١].

وفي القرن الثالث نرى عند العلامة أوريجين أن النزعة الأبيونية قد سيطرت على « النصرانية » حتى صار اسم (أبيونيين) مرادفاً لاسم (نصارى). في (الرد على كَلسُس) يقول أوريجين[٢] : « يظهر أن كلسس لا يعرف أن الذين آمنوا بالمسيح من اليهود لم يتركوا شريعة آبائهم، **بل هم يسلكون بموجب أحكامها حتى اليوم**. واسمهم (الأبيونيون) مشتق من فقر تلك الشريعة : فالفقير يقال له في لغة اليهود (أبيون)؛ واليهود الذين يؤمنون أن يسوع هو المسيح قد اتخذوا اسم أبيونيين » .

ولنا عند أوريجين شهادة قيمة على تضاؤل **عدد النصارى** في القرن الثالث. فهو يقول[٣] على تفسير الآية (٧ : ٤) من سفر الرؤيا : « إن عدد (١٢٤٠٠٠) لا ينطبق على النصارى لأنهم لا يبلغون هذا العدد، بل علينا نحن المسيحيين » . فهكذا نرى أن عدد النصارى أخذ يتضاءل لانكماشهم على أنفسهم، وسط بغض اليهود لهم، ونفور المسيحيين منهم. « وبقي حتى القرن الثالث في الأوساط النصرانية من أولئك (السيَّاد) من آل المسيح الذين ظلت لهم حرمه كبرى[٤] » . والعلامة أوريجين يميّز بين النصارى المحافظين، والأبيونيين المنحرفين : « النصارى بعضهم على رأي الأرثذكسيين، وبعضهم يعلم أن يسوع ولد كسائر الناس[٥] » . ويقول أيضاً : « إِن النصارى الأبيونيين فئتان : **فئة تقول بمولد المسيح المعجز**، وفئة تقول بمولده الطبيعي. **ولكن الفئتين تنكران أزليته** » وبالتالي إلهيته.

هذا ما انتهى إليه تطور « النصرانية » في العقيدة التي وصلت إلى القرآن.

---

(١) الرد على الهرطقات ك ١ ف ٢٦ ع ٢.
(٢) مجموعة الآباء اليونان ك ١١ ص ٧٩٣ : الرد على كلسس ٢ : ١.
(٣) مجموعة الآباء اليونان ك ٢١ ص ١٢٧٨ : الرد على كلسس ٥ : ٦١.
(٤) Flich et Martin : Histoire de l'Eglise L I p. 394
(٥) مجموعة الآباء اليونان ك ١١ ص ١٢٧٧ : الرد على كلسس ٥ : ٦١.

وفي القرن الرابع لدينا أولاً الشهادة القيمة للعلامة جيروم الذي اعتنى بالنصارى وترجم إنجيلهم إلى اليونانية واللاتينية. فقد كتب إلى القديس العلامة أغسطين[١] في رسالة : « وماذا أقول في الأبيونيين؟ ... إنهم هم الذين تسميهم العامة : النصارى » . يظهر من هذه الشهادة أن اسمهم الشعبي (نصارى) واسمهم العلمي (أبيونيون).

ويكتب إليه في عقيدتهم[٢] : « يؤمنون بالمسيح أنه **ابن الله المولود** من العذراء مريم. ويقولون فيه إنه استشهد على عهد بنطيوس ببلاطس وقام. ونحن أيضاً نؤمن بذلك. ولكن بما أنهم يريدون أن يكونوا يهوداً ومسيحيين، **فهم ليسوا يهوداً وليسوا مسيحيين** » - إنهم « أمة وسط » بين اليهود والمسيحيين.

وبمقارنة شهادة أوريجين بشهادة جيروم يتضح أن تسمية النصارى للمسيح « ابن الله » هي على المجاز. وهذا التعبير المجازي سيذوب هو نفسه.

ويقول جيروم أيضاً[٣] : إن الإنجيل الذي يقبله النصارى والأبيونيون واحد : « هذا موجود في الإنجيل الذي يقبله النصارى والأبيونيون » .

ومن القرن الرابع عندنا ثانياً شهادة المطران ابيفان، وهو يذكر في فصلٍ النصارى وفي التالي الأبيونيين. يقول في النصارى[٤] : « إن النصارى من اليهود؛ ونزعتهم التهويد. قضية واحدة تميّزهم عن المسيحيين وعن اليهود على السواء :

---

(١) الرسالة ٨٩ : ١٣ في مجموعة الآباء اللاتين ك ٢٢ ص ٩٢٤.

(٢) مجموعة الآباء اللاتين ك ٢٢٧ ص ٩٢٤. وهذا هو النص اللاتيني :

« qui credunt in Christum , Filium Dei , natum de Virgine Maria, et Eum dicunt esse qui sub Pontio Pilato passus est et resurrexit, in quem et nos credimus. Sed dum volunt et Judei esse et Christiani, non Judei sunt nes Christiani » .

(٣) جيروم تفسير الإنجيل بحسب متى ك ١٢ ف ١٣ :

« in Evangelio quo utuntur Nazarei et Ebionitae »

(٤) الشامل في الهرطقات ك ٢٩ ف ٧. قابل مجموعة الآباء اليونان ك ٤١ ص ٤٠١.

يتميّزون عن اليهود بإيمانهم بالمسيح؛ ويتميزون عن المسيحيين بإقامة الشريعة والختان والسبت وسائر الأحكام التوراتية. فهم ليسوا مسيحيين! إنما هو يهود، لا أكثر من ذلك » . ويضيف : إن لغة الصلاة عندهم لا تزال العبرانية أي الآرامية السورية. ذاك التعريف المتواتر يجعل منهم « الأمة الوسط » بين اليهودية والمسيحية.

نختم أخيراً بشهادة جامع التاريخ المسيحي، العلامة أوسابيوس (تاريخ الكنيسة ك٣ ف٢٧ ع١ ـ٦). وقد نقلناها سابقاً: إن النصارى يقيمون التوراة والإنجيل؛ ويؤمنون بمولد المسيح المعجز من بتول، ويقولون بأنه ابن الله، وكلمة الله، وحكمة الله، لكن لا يعترفون بإزليته أي بإلهيته : فهو إذن عندهم « ابن الله » على المجاز. ونعرف أن الأبيونية الطاغية على « النصرانية » تنكر عليه حتى هذا اللقب المجازي. وسنرى أن تفسيرهم الملائكي لعقيدة التثليث هو الذي حملهم على إنكار أزلية وإلهية المسيح، كلمة الله.

فما كان في مصادر الوحي الإنجيلي تحذيراً من البدعة والردة، نراه في أطوار تاريخهم حقيقة واقعة تشهد بها كل المصادر المعروفة.

وسيطرت المسيحية على الدولة الرومانية مع قسطنطين الكبير. ومن المجمع المسكوني الأول عام ٣٢٥ إلى الثالث عام ٤٣١ والرابع ٤٥١ وقع النصارى بين نارين : نار بني قومهم اليهود، ونار بني دينهم المسيحيين. وكان عددهم يتضاءل بانكماشهم على أنفسهم.

وفي منتصف القرن الرابع صدر الدستور التيوضوسي يفرض المسيحية ديناً للدولة. وجرى الضغط لفرض الإيمان المسيحي على الكافرين. فهاجر اليهود إلى دولة الفرس، فكانوا عيوناً لهم وطابورهم الخامس بين العرب وبين الروم. وانطفى خبر النصارى في المصادر المسيحية.

ماذا حلَّ بالنصارى؟ هذا هو السوآل الذي حار فيه المؤرخون حتى اليوم. هل زالوا بقدرة قادر فذابوا في المسيحية أو في اليهودية؟ لا يرى المؤرخون

سوى هذا الواقع المشبوه. فالعالم (زيلر) في تاريخ الكنيسة الكبير[١]، يعتمد على العلامة (دوشين[٢]) ليقول :

« يظهر أن تقارباً حصل بين النصارى وبين الكنيسة العظمى، على نطاق إفرادي، فليس من اتحاد جماعي. ويجوز أيضاً أن قسماً منهم عاد إلى اليهودية. وهكذا **تنتهي النصرانية اليهودية في الظل والحقارة**. فالكنيسة المسيحية كلما ازدهرت في العالم الإغريقي الروماني، كانت تبتعد عن مهدها، بتحرّرها من النصرانية اليهودية، كتحررها من اليهودية نفسها » .

ونحن نرى أن النصارى من بني إسرائيل لم يذوبوا في يهودية ولا في مسيحية؛ ولم ينتهوا في الظل والحقارة. إنما كانت لهم هجرة ثانية من دولة الروم إلى الحجاز الحاجز بصحاريه من دولة الروم ودولة الفرس؛ لأن أطراف الجزيرة العربية قد دانت بالمسيحية على شيعها المختلفة، قبل هجرة النصارى إلى الحجاز. سنتحقق وجودهم في الحجاز **يمهدون لظهور الإسلام بالنهضة الجاهلية** في التجارة والأدب والدين التي بعثوها في مكة، أم القرى. هذا ما نراه في القرآن والسيرة والحديث.

* * *

بحث ثان

هجرة « النصارى » إلى الحجاز

لما فرض الدستور التيوضوسي المسيحية ديناً للدولة لم ير اليهود بداً من

(١) Jacques Zeiller, dans Fliche et Martin : Histoire de l'Eglise I p. 395.
(٢) Duchesne : Histoire ancienne de l'Eglise I p. 127- 128.

الهجرة، فهاجروا بمعظمهم إلى دولة الفرس، عدو الروم، ليكونوا عوناً وعيوناً لهم على الروم. وهذا شأن اليهود عبر التاريخ، فهم يعيشون كطفيليات يعششون في جسم كل دولة كبرى قامت في الشرق أو الغرب. والتاريخ المعاصر شاهد على التاريخ الغابر. وتوغل اليهود إلى اليمن، وحاولوا تهويده، بانتزاعه من سلطان الحبشة المسيحيين إلى تاج الشاه. والصراع في القرن الخامس بين المسيحية الحبشية واليهودية للسيطرة على اليمن، وعلى طرق المواصلات بين الشرق والغرب، معروف ومشهور. وكان من نتائج ذلك الصراع الديني والسياسي شهداء نجران الذين أشاد بهم القرآن (سورة البروج).

والنصارى الواقعون بين نارين، نار اليهود ونار المسيحيين، لم يبق لهم من ملجأ سوى الحجاز المحجوز عن الروم وعن الفرس بصحاريه وحياده السياسي، فهاجروا إليه، واستوطن الأكثرون منهم مكة، أم القرى، لأن اليهود كانوا قد تغلغلوا إلى الطائف وإلى يثرب (المدينة).

ولنا دليل على هجرة النصارى إلى الحجاز القرآن والسيرة والحديث.

رأينا في كتابنا (القرآن والكتاب ص ٤٦) أن المسيحية كانت سائدة في شمال الجزيرة من نجد إلى الحيرة إلى غسّان، حتى بداية الشام : « إن قبائل عربيّة كثيرة كانت تنزل الشام، بل تشارك دولة الروم في الأحكام. وأشهرها غسان في الجنوب، وتنوخ في الشمال، وتغلب في الشرق. وكانت هذه القبائل العربية قد دانت بالنصرانية » أي بالمسيحية[١]. وما نقلناه في كتابنا المذكور **يتعلق بالمسيحية** على مختلف شيعها في الجزيرة العربية.

وهنا نحاول أن نبرهن استيطان **النصارى من بني إسرائيل** في الحجاز، وفي مكة نفسها. ومن أثر هجرتهم إلى مكة أن « **تنصّر من أحياء العرب قوم من قريش** »[٢] .

*

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ١ : ١٠٥.
(٢) تاريخ اليعقوبي ١ : ٢٩٨.

أولاً : شهادة القرآن بوجود النصارى بمكة والمدينة

واقعان في القرآن يستلفتان الحسبان : لا يعرف القرآن اسم « مسيحيين » على الإطلاق، ولو أشار إليهم، مع أنه الاسم الوحيد الذي يعرفون به في جميع مواطنهم. فلا يذكر القرآن إلا اسم « النصارى » المخصوص بشيعة كما رأينا.

والقرآن كله حوار متواصل مع أهل الكتاب من يهود ونصارى. وفي مواقف الاستشهاد بالنصارى، وتأييدهم للدعوة القرآنية، واندماجهم بها، **لا يمكن أن يعني القرآن إلا النصارى من بني إسرائيل** ـ بسبب موقفه من التثليث وإلهية المسيح.

إن النبي العربي يؤمر بأن يقتدي بهدى « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة... أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدهْ » (الأنعام ٩٠). وإن أهل « الكتاب والحكمة، والتوراة والإنجيل » هم « النصارى » لا اليهود.

من هم هؤلاء « النصارى » ؟

يقول : « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » (الشعراء ١٠٧). وبما أن اليهود هم مع المشركين « أول كافر به » ، وهم « شر البرية » : فهؤلاء العلماء من بني إسرائيل هم النصارى من بني إسرائيل. وشهادتهم للدعوة القرآنية تكفي محمداً حجةً وبرهاناً: « ويقول الذين كفروا: لست مرسلاً ! قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، ومن عنده علم الكتاب » (الرعد ٤٥). « من عنده علم الكتاب » هم « أولو العلم قائماً بالقسط » الذين يشهدون مع الله ملائكته : « إن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٧ ــ ٨). وهؤلاء « العلماء » ليسوا اليهود، ولا المسيحيين، كما تشهد سائر القرائن القرآنية. إنما هم النصارى من بني إسرائيل.

هذا ما يصرح به بقوله : « ومن **قوم موسى** أمة يهدون بالحق، وبه يعدلون » (الأعراف ١٥٨). هذه الأمة من قوم موسى المهدية الهادية هي التي يسميها

الطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح، وجاء القرآن يؤيد دعوتها في مكة والحجاز والجزيرة كلها : « فآمنت **طائفة من بني إسرائيل** (بالمسيح) وكفرت طائفة (اليهود) : فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (الصف ١٤).

هذه الشهادة القرآنية واضحة صريحة، **بوجود النصارى من بني إسرائيل في مكة**، وتأييد القرآن لدعوتهم في أم القرى ثم في المدينة. هذا واقع قائم، بنص القرآن القاطع.

*

ثانياً : شهادة السيرة النبوية بهجرة « النصارى » إلى الحجاز

في السيرة النبوية الهاشمية والحلبية والمكية، **خبر سلمان الفارسي**. يروونه قاصدين منه الدلالة على أن رهبان النصارى تنبأوا بمجيء محمد النبي العربي. وهذا هدف مشبوه لأن رهبان النصارى لم يكونوا أنبياء. أما نحن فنأخذ واقع الخبر دليلاً على انسحاب النصارى من بني إسرائيل من الشام والعراق والأناضول إلى الحجاز.

جاء في السيرة النبوية لابن هشام[1]، « وهو أقدم كتاب في سيرة الرسول » : أن سلمان كان مجوسياً بفارس، ومن عائلة شريفة. فمرّ بكنيسة « للنصارى » فتطلع إلى النصرانية؛ وعرف من رهبانها أن أصل هذا الدين بالشام (١ ص ٢٢٨).

وأتفق سلمان والرهبان على الهرب إلى الشام. « فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علماً. قالوا : الأسقف في الكنيسة. فجئت فقلت له : إني قد رغبت في هذا الدين، فأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك، فأتعلم منك، وأصلّي معك. قال : ادخل. فدخلت معه » (١ ص ٢٢٩).

كان ذاك الأسقف ـ أو بالحري القس، بلغة النصارى ـ سيئاً، فهلك. وخلفه أسقف صالح. « فأقمت معه زماناً طويلاً. ثم حضرته الوفاة. فقلت له :

(١) مصطفى السقا ورفيقاه. مطبعة الحلبي بمصر. عام ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.

يا (فلان) إني قد أحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك. وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي ؟ وبم تأمرني ؟ قال : أي بني، **والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه : فقد هلك الناس** (جماعة القس)؛ وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل، وهو (فلان)، **وهو على ما كنت عليه** فالحق به » (١ ص٢٣٠).

ـ إن السيرة تشهد بأن النصارى بالشام قد انتهوا؛ وغيرهم ـ أي المسيحيون ـ « بدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه » . ولم يبق في الشام أحد على مذهب القس النصراني. فأرسل تلميذه سلمان إلى القس النصراني بالموصل. والتاريخ العام يشهد أن أهل الشام كانوا في القرن السابع جميعاً مسيحيين، على ثلاث فرق الملكية واليعقوبية والنسطورية، وكانت الفرقة السائدة بدمشق الملكية. وظلت المسيحية هي السائدة مع الفتح الإسلامي. فكيف تقول السيرة بأن ذلك الأسقف هو آخر أسقف « على ما كان عليه » ؟ فالشهادة مزدوجة : أولاً بأن ذلك الأسقف كان « نصرانياً » لا مسيحياً، لأن الأساقفة المسيحيين ظلوا على رأس طوائفهم بدمشق؛ وثانياً بأنه بوفاة القس الدمشقي النصراني قد انقطعت « النصرانية » من الشام.

وصل سلمان إلى الموصل. ووجد الأسقف النصراني الذي بعثه إليه. « فأقمت عنده. فوجدته خير رجل على **أمر صاحبه**، فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة، قلت له : يا (فلان) إن (فلاناً) أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك؛ وقد حضرك من أمر الله ما ترى: فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال : يا بني **والله ما أعلم أحداً على مثل ما كنا عليه**، إلا رجلاً بنصيبين، وهو (فلان) فالحق به » (١ : ٢٣١).

ونعلم أن الموصل، والعراق كله، كان على المسيحية. والملة السائدة فيه كانت النسطورية المسيحية، حتى بعد الفتح الإسلامي : فعدم وجود « رجل على ما

كنا عليه)) دليل على أن ذاك القس كان ((نصرانياً)) ، وعلى أن ((النصارى)) قد انقرضوا في العراق وانسحبوا منه.

نصيبين مدينة من الجزيرة السورية، ما بين الفرات والخابور.

يقول أيضاً سلمان : ((فلما مات وغيّب لحقت بصاحب نصيبين. فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبي. فقال أقم عندي. فأقمت عنده. **فوجدته على أمر صاحبه**. فأقمت مع خير رجل. فوالله ما لبث أن نزل به الموت. فلما حضر قلت له. يا (فلان) إن (فلاناً) كان أوصى بي إلى (فلان) ثم أوصى بي (فلان) إليك : فإلى من توصي بي ؟ وبم تأمرني؟ قال : يا بني، **والله ما أعلم بقي أحد على أمرنا** أمرك أن تأتيه، إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم، **فإنه على مثل ما نحن عليه**، فإن أحببت، فأتهِ، **فإنه على أمرنا**)) (١ ص٢٣١).

ـ كذلك، كانت الجزيرة السورية على المسيحية قبل سلمان وقسّه، ومن بعدهما. فحصر المسيحية ((على أمرنا)) دليل أنها كانت ((النصرانية)) التي يشهد سلمان انسحابها.

ويضيف : ((لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري. فقال : أقم عندي. فأقمت عند رجل **على هدي أصحابه وأمرهم** ... ثم نزل به أمر الله تعالى. فلما حضر قلت له : ... إلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال : **أي بني، والله ما أعلم أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه، من الناس،** آمرك به أن تأتيه ولكنه **قد أظل زمان نبي،** وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل. به علامات لا تخفى : يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة؛ **وبين كتفيه خاتم النبوة**. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل)) (١ ص ٢٣١ ـ٢٣٢).

هذه هي الشهادة على انسحاب ((النصارى)) إلى الحجاز، ((أرض العرب، بين حرّتين)) . كانت بلاد الشام والموصل والجزيرة السورية والأناضول كلها على المسيحية، بفرقها الثلاثة المعروفة، قبل سلمان وبعده. فقول آخر راهب

نصراني لسلمان : « **والله ما أعلم أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس** » دليل على انقراض النصارى في تلك الأقاليم المسيحية. وإشارة آخر راهب نصراني على سلمان الفارسي بالتوجه إلى الحجاز، حيث « **أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم** » برهان على تجمع النصارى في الحجاز، وعلى « نصرانية » النبي العربي : ولولا ذلك ما أمره الراهب النصراني أن يأتيه.

*

يؤيد ذلك **خبر الراهب بحيرى**، في بصرى وحوران، وصلة محمد به، كما نقلته السيرة أيضاً. كانت حوران مثل سائر الشام كلها على المسيحية. وبصرى كانت مركز رئيس أساقفة حوران. فسفر محمد يافعاً، ثم تاجراً، في رحلة الصيف إلى ديار الشام، ولقاؤه في كل رحلة للراهب النصراني ـ من دون غيره من الرهبان ورجال الدين المسيحي ـ بعد الاجتماع الدائم إلى ورقة بن نوفل، قس النصارى بمكة، مدة خمس عشرة سنة من زواج محمد حتى مبعثه، دليل أيضاً على « نصرانية » بحيرى، الراهب النصراني الوحيد على طريق القوافل، ودليل على ميل محمد إلى « النصرانية » بتأثير ورقة بن نوفل كما سنرى. وعند البعثة، فإن لجوء السيدة خديجة إلى ورقة بن نوفل في مكة، وإلى بحيرى في بصرى، للاطمئنان على ما حدث لمحمد في غار حراء ـ من دون علماء المسيحية كلهم ـ دليل آخر على أن زعماء النصارى ومن كانوا معهم قد استوطنوا مكة، وبحيرى الراهب النصراني الوحيد الذي بقي على أطراف الحجاز.

وقصة بحيرى في السيرة النبوية « صحيحة، فقد أخرجها الترمذي (٢٩٦/٤) من حديث أبي موسى الأشعري. وقال : (هذا حديث حسن). قلت : وإسناده صحيح، كما قال الجزري »[١] .

*

---

(١) محمد الغزالي : فقه السيرة ص٦٨ حاشية

ثالثاً : ورقة بن نوفل، « رئيس النصارى » ، بحسب الحديث الصحيح.

بخبر ورقة بن نوفل، وابنة عمه خديجة، تتم الشهادة في المصادر الإسلامية بهجرة النصارى من بني إسرائيل إلى مكة والحجاز.

نعرف من تاريخ اليعقوبي (١ : ٢٩٨) : « وأما من تنصّر من أحياء العرب **فقوم من قريش** » . هذه شهادة بغزو النصرانية قبيلة قريش، سيدة مكة والحجاز.

وكانت السيدة خديجة ابنة عم ـ بعضهم يقول : ابنة أخ ـ ورقة بن نوفل. وقد استشارته في زواجها من محمد، فوافق عليه وحرّضها بقوله : « سيكون نبي هذه الأمة » كما نقلت السيرة الهاشمية. فهل كان ورقة نبيّاً حتى يتنبأ بنبوءة محمد، وذلك قبل خمسة عشر عاماً من المبعث؟ أم أن الحادث يشير إلى تهيئة محمد لمهمته؟

وكانت السيدة خديجة سيدة تجار قريش، « ثم خرج محمد على تجارة خديجة التي كان قيمتها تعادل قيمة تجارة قريش مجتمعة[١] » .

وتقول السيرة الهاشمية : إن ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى « كان **نصرانياً** قد تتّبع الكتب، وعلم من علم الناس » (١ ص ٢٠٣). فقد كان عالماً نصرانياً. وكان قسّاً كما يشهد الحديث : « رأيت القس في الجنة » .

وتقول السيرة الحلبية (١ : ٢٦٣) : « إنه كان على دين موسى، ثم صار على دين عيسى عليهما الصلاة والسلام. أي كان يهودياً ثم صار نصرانياً » . نقول : ما كان لعالم يهودي أن يصير نصرانياً، لكن نصرانيته الإسرائيلية هي التي اشتبهت عليهم، فجاؤوا بما وصفوه به. وتقول أيضاً (١ : ٢٧٤) : **إن ورقة كان قسا.** والقس في لغتهم، بحسب الناموس « **رئيس النصارى** » . ليس بحسب

---

(١) عبد الرزاق نوفل : محمد رسولا نبياً ص٩٧.

الناموس يصير النصراني قساً، « رئيس النصارى » بل بحسب الإنجيل. وهذا التشابه في التعبير يدل على أن ورقة كان **قس النصارى** بمكة. والقس بلغة النصارى الأرامية السريانية، يرادف الأسقف بلغة الروم : فقد كان ورقة « رئيس النصارى » أي مطرانهم بمكة.

فتأمل هذا الواقع التاريخي : **مطران نصراني مع جماعته بمكة**. هذه هي الشهادة بهجرة النصارى إلى مكة، ونجاح دعوتهم فيها.

والشهادة الثانية كامنة في الإنجيل الذي يترجمه ورقة إلى العربية. ففي صحيح البخاري (١ : ١٨ ـ١٩) وفي صحيح مسلم (١ : ٩٧ ـ٩٨) جاء عن عائشة حديث بدء الوحي. وفيه : « فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ـ وكان امرءاً **تنصر في الجاهلية**، وكان يكتب الكتاب العبراني، **فيكتب عن الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب** ».

إذن كان ورقة ينسخ الإنجيل بالعبرانية، ويترجمه إلى العربية.

ولم يدون بالعبرانية سوى الإنجيل بحسب متى. ونعرف من شهادات الآباء والعلماء الذين عرفوه، خصوصاً من شهادة العلامة جيروم[1] الذي نقله إلى اليونانية وإلى اللاتينية، أن الإنجيل بحسب متى كان مكتوباً بلغة أرامية سريانية، لكن بالحرف العبراني المقدس عندهم؛ وأنه كان **الإنجيل الوحيد الذي يعترف به النصارى**.

وهكذا تتضافر الشهادات الإسلامية والمسيحية على هذه النتيجة الحاسمة : إن ورقة بن نوفل، « رئيس النصارى » بمكة كان يكتب ويترجم إنجيل النصارى، لجماعته. فالنصارى موجودون بمكة مع مطرانهم وإنجيلهم.

ومحمد، مدة خمس عشرة سنة، ما بين زواجه من خديجة ومبعثه، كان بجوار

---

(١) تفسير الإنجيل بحسب متى (١٢ : ١٣) قابل مجموعة الآباء اللاتين ك ٢٦ ص ٧٨. كذلك في الحوار مع بيلاجيوس (٣ : ٢) قابل مجموعة الآباء اللاتين ك ٢٣ ص ٥٧٠.

ورقة يحضر كتابة الإنجيل وترجمته إلى العربية. ونعرف تأثير ذلك عليه من حديث عائشة الذي تختمه بهذه الكلمة : ((**ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي**)) . فالوحي يفتر بوفاة ورقة!

فسيرة محمد، بناء على حديث عائشة، تدور منذ زواجه حتى مبعثه وفتور الوحي، في كنف قس النصارى، ورقة بن نوفل. وفتور الوحي دليل على يد ورقة في الدعوة القرآنية.

فخبر ورقة بن نوفل، وحديث بدء الوحي، يشهدان بوجود النصارى بمكة وعلى رأسهم ((رئيس النصارى)) . ومن لغة إنجيلهم وحرفه، ومن صفه ورقة في السيرة، نجزم بأنهم كانوا **النصارى من بني إسرائيل،** ومن ((تنصّر)) معهم من العرب.

وهذا سر استخدام القرآن لاسم ((النصارى)) . فالاسم في القرآن ـ وهو لا يذكر اسم ((المسيحيين)) على الإطلاق ـ يدل على أن الدعوة القرآنية تقوم بمؤازرة ((النصرانية)) من بني إسرائيل.

فالمصادر الإسلامية، القرآن والسيرة والحديث، تشهد بهجرة النصارى إلى الحجاز، وبإقامتهم بمكة، حتى ((نصّروا قوماً من قريش)) ، ونصّروا محمداً نفسه حين زواجه من خديجة، ابنة عم ورقة بن نوفل، ((رئيس النصارى)) بمكة. وما كان قس مكة، ولا سيدة تجار قريش، ابنة عمه، ليقبلا بزواجه لو لم ينضم إليهما. والقول الفصل في هذا الاستنتاج للقرآن نفسه، كما رأينا : إن الدعوة القرآنية تأييد للدعوة ((النصرانية)) حتى النصر المبين (الصف ١٤).

*

رابعاً : التفسير الصحيح لمتشابه القرآن في ((بني إسرائيل))

إن اليهود من بني إسرائيل وقفوا من الدعوة القرآنية موقف الكفر والعداء في مكة والمدينة، ما عدا نفر يعدون على أصابع اليد؛ وكان هذا النفر من الذين دسوا الإسرائيليات على الإسلام.

تكفينا على ذلك شهادة السورة الأخيرة تقريباً بمكة، العنكبوت : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن - **إلا الذين ظلموا منهم** - وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون » (٤٦). فمن هم « الذين ظلموا » من أهل الكتاب، والذين يصح جدالهم بغير الحسنى؟ إنهم اليهود، باصطلاح القرآن يعلن بصراحة نهائية مطلقة : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً : بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم **الظالمين**. قلْ : يا أيها الذين هادوا، إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين؛ ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم، والله عليم **بالظالمين** » (الجمعة ٥ - ٦). كذلك قوله : « وعلى الذين هادا حرّمنا ما قصصنا عليك من قبل، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (النحل ١١٨). ففي مكة والمدينة كان اليهود يلقبون « بالظالمين » لكفرهم بمحمد بعد المسيح ... أما النصارى فلا يصح جدالهم إلا بالحسنى، وهي الأمر الصريح بإعلان وحدة الإله ووحدة التنزيل ووحدة الإسلام بين النصارى وجماعة محمد. واليهود الظالمون يُشهّر بهم منذ سورة البقرة : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ... وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم، ولا تكونوا **أول كافر به** » (٤٠ -٤١).

وتكفينا أيضاً شهادة السورة الأخيرة تقريباً بالمدينة، المائدة : « لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا : **اليهود** والذين أشركوا. ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنّا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » (٨٥). فالعدو الأول للإسلام هم « اليهود » . لاحظ قوة التعبير في إطلاقه : « اليهود » ، فهو لا يستثني منهم أحداً. لذلك فهو يعتبرهم « أول كافر به » (البقرة ٤١)، و « شر البرية » (البينة ٦).

فالموقف في آخر العهد المكي وآخر العهد المدني واحد : **كفر اليهود المطلق** بمحمد والقرآن ودعوته. هذا هو **المبدأ الأول** للتفسير الصحيح لمتشابه القرآن في « بني إسرائيل » .

والمبدأ الثاني: إن النصارى من بني إسرائيل هم وحدهم المؤمنون بالمسيح ومحمد معاً، كما هو واضح من هذا الإعلان : بدعوة الحواريين للمسيح « **آمنت طائفة من بني إسرائيل** وكفرت طائفة : فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (الصف ١٤). كفرت طائفة اليهود بالمسيح، وآمن به طائفة النصارى من بني إسرائيل؛ وجاء القرآن تأييداً لهذه الطائفة المؤمنة بالمسيح على الطائفة التي كفرت به، حتى النصر المبين؛ فكان النصارى من بني إسرائيل أنصار المسيح، وهم أيضاً أنصار محمد، والقرآن يؤيدهم على عدوهم اليهود.

فالطائفة النصرانية من بني إسرائيل هي التي يقول فيها : « **ومن قوم موسى أمة** يهدون بالحق وبه يعدلون » (الأعراف ١٥٨). فهذه الأمة من قوم موسى ليست يهودية الدين، لأن اليهود على الإطلاق « أول كافر به » ، وأول عدو للإسلام (المائدة ٨٥) : فهم النصارى من بني إسرائيل الذين آمنوا بالمسيح، ويؤمنون بمحمد.

وفي منطق القرآن جاء المسيح « رسولاً إلى بني إسرائيل » فآمن به الحواريون أنصار الله (آل عمران ٤٨ و٥٢) فكان النصارى من بني إسرائيل الطائفة التي آمنت بالمسيح (الصف ١٤).

والمبدأ الثالث : إن أولي العلم المقسطين هم في اصطلاح القرآن النصارى من بني إسرائيل، وأولي العلم الظالمين هم اليهود، لأنهم كفروا بالمسيح ويكفرون بمحمد. والنصارى « أولو العلم قائماً بالقسط » هم الذين يشهدون مع الله وملائكته : « إن الدين عند الله الإسلام. وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب (اليهود) إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » (آل عمران ١٧ ـ ١٨). فالقرآن يشهد للإسلام بشهادة النصارى أولي العلم المقسطين من بني إسرائيل، تلك الأمة « من قوم موسى يهدون بالحق وبه يعدلون » (الأعراف ١٥٨).

المبدأ الرابع : الأمة التي يؤمر محمد أن يقتدي بهداها، ليست اليهود، ولا المسيحيين؛ إنما هم النصارى من بني إسرائيل : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب

والحكم (الحكمة) النبوة ... أولئك الذين هدى الله ، **فبهداهم اقتده** » (الأنعام ٩٠). « الحكم » تعبير عبري أخذه على حرفه، وهو يعني الحكمة؛ وهي في اصطلاحه مرادف للإنجيل : « ويعلمه الكتاب والحكمة ـ والتوراة والإنجيل » (آل عمران ٤٨). والذين يقيمون أحكام التوراة والإنجيل ليسوا اليهود، ولا المسيحيين، إنما هم النصارى من بني إسرائيل : فهم الذين يؤمر محمد أن يقتدي بهداهم.

لذلك فقوله : « ولقد آتينا موسى الكتاب : فلا تكن في مرية من لقائه، وجعلناه هدى لبني إسرائيل، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » (السجدة ٢٣ ـ ٢٤) يقصد النصارى من بني إسرائيل، لا علماء اليهود، « أول كافر به » . فهم « من قوم موسى أمة يهدون بالحق » وعلى محمد أن يقتدي بهداهم.

المبدأ الخامس : الدعوة لإقامة أحكام التوراة والإنجيل معاً : « قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم » (المائدة ٧١). فليس اليهود، ولا المسيحيون، هم الذين يقيمون أحكام التوراة والإنجيل معاً؛ إنما النصارى من بني إسرائيل.

المبدأ السادس : القرآن يشرع للعرب دين موسى وعيسى معاً ديناً واحداً : « شرع لكم من الدين ... وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (الشورى ١٣). ليس هذا دين اليهودية، ولا المسيحية، إنما هو دين النصارى من بني إسرائيل، الذين يجمعون موسى وعيسى ديناً واحداً.

المبدأ السابع : عدم التفريق بين الأنبياء : « قولوا : آمنا بالله ... وما أوتي **موسى وعيسى**، وما أوتي النبيون من ربهم : لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم في شقاق » (البقرة ١٣٦ ـ١٣٧ قابل ٣ : ٨٤؛ ٤ : ١٥١). فالمسلمون حقاً هم الذين يؤمنون بموسى وعيسى معاً ويقيمون شرعهما معاً؛ وهم وحدهم النصارى من بني إسرائيل، الذين أُمر محمد أن يقتدي بهداهم.

تلك هي المبادئ السبعة التي بموجبها يجب تفسير متشابه القرآن في « بني إسرائيل ».

وجهل مفسّري القرآن بوجود النصارى من بني إسرائيل، قبل الإسلام، وقد آزروا دعوته وذابوا فيه، هو ما جعلهم يتخبطون في تفسير متشابه القرآن في « بني إسرائيل » .

فكل تأييد **أو استشهاد** بأهل الكتاب أو ببني إسرائيل هو للنصارى من بني إسرائيل. **وكل تكفير** لأهل الكتاب أو لبني إسرائيل هو لليهود. أما المسيحيون فليسوا من بني إسرائيل، وهم أهل « الغلو » في شأن المسيح، بحسب لغة القرآن، وإن سماهم أيضاً أهل الكتاب.

بناءً عليه، فالقرآن يقصد النصارى من بني إسرائيل في قوله :

- « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » (الشعراء ١٩٧) : إنهم علماء النصارى من بني إسرائيل، لا علماء اليهود الذين كانوا « أول كافر به » .

- « وهو آيات بينات في صدور **الذين أوتوا العلم** » (العنكبوت ٤٩) : إنهم النصارى من بني إسرائيل، أولو العلم المقسطون.

- ومتشابه القرآن « ما يعلم تأويله إلا الله، **والراسخون في العلم** يقولون : آمنا به، كلٌّ من عند ربنا » (آل عمران ٧). والراسخون في العلم اصطلاح مثل « أولي العلم قائماً بالقسط » (آل عمران ١٨) : إنهم النصارى من بني إسرائيل، الطائفة من بني إسرائيل المؤمنة بالمسيح والتي يؤيدها القرآن على عدوها، اليهود (الصف ١٤).

- « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » (الأحقاف ١٠). هذا الشاهد الإسرائيلي ليس يهودياً، إنما هو نصراني من بني إسرائيل. فما من أحد ممن كانوا « أول كافر به » يشهد بأن عندهم مثل « القرآن » الذي يشهد للمسيح! أو يشهد لمحمد!

ـ والنصارى، « أولو العلم قائماً بالقسط » هم « **من عنده علم الكتاب** » ، وشهادتهم للقرآن تكفي مع شهادة الله (الرعد ٤٥).

أهل الذكر المحسنون هم النصارى من بني إسرائيل الذين يستشهد بهم ـ لا باليهود « أول كافر به » ـ « واسألوا أهل الذكر ، إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر » (النحل ٤٣).

وهكذا ففي منطق القرآن، إن الذين كفروا من أهل الكتاب هم اليهود؛ والذين آمنوا من أهل الكتاب هم النصارى من بني إسرائيل : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل، على لسان داود، وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا، وكانوا يعتدون » (المائدة ٨١).

هذا الواقع هو الذي أشكل على المفسرين فاستنتجوا منه ما ليس بصحيح، كالأستاذ دروزة في كتابه (سيرة الرسول ١ : ٣٠٨ و٣١٢)، قال :

« والآيات ـ باستثناء آية الأحقاف[1] ـ لا تذكر هوية الكتابيين حيث تذكرهم مطلقين. أما الآية المذكورة، فإنها تذكر صفة المؤمن الشاهد صراحة « **وهو إسرائيلي** » . هذا ما وهم فيه حضرة الأستاذ : إن الشاهد المذكور إسرائيلي نصراني، لا يهودي، لأنه من جملة « من عنده علم الكتاب » (الرعد ٤٥)، وبهم يستشهد : « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » (الشعراء ١٩٧) النصارى، لا اليهود، « أول كافر به » ، لأن القرآن « هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » مقسطين (العنكبوت ٤٩).

من هذا الوهم نتج خطأه : « وقد استدللنا بها وبقرائن قرآنية أخرى في كتابنا (عصر النبي وبيئته) على **احتمال وجود جالية يهودية في مكة**، أو على

(١) آية الأحقاف المذكورة هي : « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم » (١٠)؛ وهو فرد من الذين قيل فيهم : « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » (الشعراء ١٩٧) فهم النصارى، لا اليهود، « أول كافر به » ، « شر البرية » ، أهل العداوة.

الأقل على تردّد يهود المدينة على مكة، ووجود علاقات تجارية أو غير تجارية بينهم وبين أهلها » . ـ هذا الاستدراك هو الصحيح : الجالية اليهودية كانت بالمدينة ولذلك استأصلها الرسول. ولا يذكر القرآن ولا الحديث ولا السيرة استئصال اليهود من مكة.

ونتيجة الأستاذ دروزة الصحيحة هي : « والمعروف **بإلهام القرآن**، على ما شرحناه في كتابنا الآنف الذكر، أنه كان **عدد غير يسير من جوالي النصارى مستوطنين مكة.** ولقد ذكرت **روايات السيرة، وكتب التراجم** أسماء كثيرين من الكتابيين الذين اندمجوا في الدعوة في مكة تحمل طابع الأسماء النصرانية. كما أن بعض الروايات ذكرت قدوم وفد نصراني إلى مكة بعد البعثة مستطلعاً نبأ النبي العربي وأعلن إيمانه به » . تصوروا هذا الوفد في صدد آية القصص : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله **هم به يؤمنون**، وإذ يتلى عليهم قالوا : آمنا به، أنه الحق من ربنا، **إنا كنا من قبله مسلمين** » (٥٣). قال الجلالان : « نزلت في جماعة أسلموا من اليهود كعبد الله بن سلمان، وغيره من النصارى قدموا من الحبشة أو من الشام » . وهذا وهم عظيم : لم يُسلم من اليهود « **جماعة** » ؛ وأهل الحبشة والشام كانوا مسيحيين مثل وفد نجران إلى النبي في المدينة، الذي باحثه ورجع ولم يؤمن. إن الذين يخاطبهم القرآن ويشهدون: « إنا كنا من قبله مسلمين » **هم النصارى من بني إسرائيل المقيمون بمكة**، والذين أُمر محمد بأن ينضم إليهم : « وأُمرت أن أكون من المسلمين، وأن أتلو القرآن » (النمل ٩٠ ـ ٩١)؛ لأنهم هم « أولو العلم قائماً بالقسط » الذين يشهدون مع الله وملائكته « أن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٧ ـ ١٨).

أما النتيجة غير الصحيحة عند الأستاذ دروزة فهي في قوله : « وهكذا يصح أن يقال: إن أهل الديانتين الكتابيتين، **اليهود والنصارى** قد قابلوا الدعوة النبوية في مكة مقابلة إيجابية، فشهدوا بصدقها وصدق التنزيل القرآني وآمنوا بها. وننبّه إلى أن الصيغ القرآنية تلهم **أن الكتابيين في مكة إطلاقاً** وقفوا

هذا الموقف، وهذه المقابلة كانت من كافتهم. وروايات السيرة لم تذكر فيما أطلعنا عليه أنه ظل في مكة كتابيون متمسكون بأديانهم ولم يندمجوا في الدعوة الإسلامية » ـ هذا وهم الأستاذ دروزة وأضرابه؛ وسبب الوهم هو **جهلهم لوجود النصارى من بني إسرائيل**، واشتباه معنى « علماء بني إسرائيل » (الشعراء ١٩٧) و « شاهد من بني إسرائيل » (الأحقاف ١٠)، « من عنده علم الكتاب » (الرعد ٤٥) عليهم. ويقضي على هذا الوهم، وعلى الاستنتاج منه بإيمان اليهود بمكة بالدعوة القرآنية، آية العنكبوت في آخر العهد بمكة (٤٦) : إن القرآن يبيح الجدال مع « الظالمين » من أهل الكتاب بغير الحسنى ـ وهم اليهود باصطلاح القرآن المتواتر ـ ولا يبيح الجدال إلا بالحسنى مع المقسطين، الراسخين في العلم، من أهل الكتاب، وهم النصارى من بني إسرائيل ـ لا اليهود ولا المسيحيون من كل الأمم، لأن هؤلاء النصارى وحدهم مع القرآن « أمة واحدة » على وحدة الإله ووحدة التنزيل ووحدة الإسلام. وهؤلاء النصارى من بني إسرائيل بمكة هم الذين اندمجوا اندماجاً مطلقاً بالدعوة القرآنية، لأنها دعوتهم : فهم وحدهم من دون اليهود ولا المسيحيين قالوا للنبي العربي عند تلاوة القرآن عليهم : « آمنا به، إنه الحق من ربنا : إنا كنا من قبله مسلمين » (القصص ٥٣)؛ فهم المسلمون حصراً قبل القرآن وقد أُمر محمد في بعثته أن ينضم إليهم : « وأمرت أن أكون من المسلمين » (النمل ٩٠).

والنتيجة الأخرى غير الصحيحة هي قول الأستاذ دروزة أيضاً : « ولعل من الحق أن يقال : إنه كان لهذه التقريرات والدعوة القرآنية أثر فيما كان من تنبّه الكتابيين في مكة، في مبدإ الأمر، إلى ما وصل إليه أمرهم من خلاف ونزاع وانقسام لا يمت في أصله إلى مبادئ الدين وأهدافه السامية؛ **وفي إقبالهم على الإسلام**، ورؤيتهم في التقريرات القرآنية علاجاً شافياً لما هم فيه، وفي الإسلام **عهداً جديداً** يستقبلونه برضى وطمأنينة نفس. هذا ما كان من مطابقة بين التقريرات القرآنية، وما كان عليه **بعض الفرق** النصرانية من عقائد ومذاهب،

أو من مقاربة؛ إذ من المحتمل كثيراً **أن تكون الجاليات النصرانية في مكة في هذه الفرق.** فكان ذلك عاملاً في إقبال الذين أقبلوا منهم على الإسلام بيسر وارتياح وإخلاص » ـ نقول : أجل كانت الجزيرة العربية موئل الهاربين إليها من دين الدولة عند الروم. لكن كل الفرق المسيحية في مطلع القرن السابع م. كانت مسيحية، لا نصرانية : فالملكية واليعقوبية والنسطورية كلها تؤمن بإلهية المسيح من حيث هو كلمة الله ألقاها إلى مريم، مهما اختلفت في التفكير والتعبير على صيغة تلك العقيدة. ولعل الأستاذ دروزة وغيره يشيرون في تلك « المطابقة أو المقاربة » بين « بعض الفرق النصرانية » والقرآن، إلى **النسطورية**، كما يقول بذلك فريق كبير من المستشرقين[١]. ومن المعروف أن بعض النصارى من بني إسرائيل قد استوطنوا قبل هجرتهم إلى الحجاز، في سوريا الشرقية وأثرت عقيدتهم في المسيح بالمسيحية الشرقية التي انتهت إلى النسطورية التي تؤمن بأن في المسيح طبيعتين وأقنومين؛ وعيسى بن مريم بشر محض اتحد بالمسيح، كلمة الله. هنا نقطة القرابة. لكن النسطورية حتى اليوم تؤمن بإلهية المسيح، فليس هو فقط « روحاً منه » تعالى، كما يقول القرآن. فليس من قرابة جوهرية بين القرآن والفرق المسيحية. إنما القرابة و « الأمة الواحدة » هي بين القرآن والنصارى من بني إسرائيل المقيمين في مكة، الذين يشهدون: « إنا كنا من قبله مسلمين » (القصص ٥٣).

ولنا على ذلك شاهد، من عام الوفود، في أوج سلطان محمد على الجزيرة كلها؛ من حضور وفد نجران المسيحي إلى محمد في المدينة يباحثه في إيمانه بالمسيح، ابن الله. وكان خلافهم على بنوة المسيح من الله. وهي القصة التي تملأ سور آل عمران والنساء والمائدة. وحملة القرآن عليهم تدل على أنهم كانوا يؤمنون بإلهية المسيح، بخلاف النصارى من بني إسرائيل، كما سنرى.

فاليهود في الحجاز لم يؤمنوا بمحمد والقرآن على الإطلاق؛ والمسيحيون في

---

(١) Tor Andrae : Les Origines de l'Islam et le Christianisme

نجران وادعه وفدهم ورجع غير مؤمن. إنما آمن بها النصارى من بني إسرائيل وحدهم، الذين يقيمون التوراة والإنجيل معاً، في مكة والحجاز،لأن الدعوة القرآنية كانت دعوتهم في « أمة واحدة » هي « الأمة الوسط » بين اليهودية والمسيحية. وهذا المزيج من اليهودية والمسيحية، في « النصرانية » هو الذي حيّر المستشرقين فما اهتدوا إلى حل سوي. ولقب « بني إسرائيل » و « من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » ، وقد حيّر مفسرّي القرآن من أهله، فما اهتدوا إلى حقيقتهم. مع أن القرآن صرّح بها وبسره، في قوله : « فآمنت **طائفة من بني إسرائيل** (بالمسيح)، وكفرت طائفة : فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (الصف ١٤) : إن الدعوة القرآنية هي تأييد للنصارى من بني إسرائيل. وهذه هي الشهادة القرآنية على وجودهم بمكة والحجاز، وعلى وحدة الدعوة والأمة والإسلام بينهم وبين النبي العربي.

*

خامساً : « الحنفاء » بحسب القرآن

في كتابنا (القرآن والكتاب ١٤١ ـ ١٥٤)، فصلان في الحركة الحنيفية في مكة والحجاز قُبيل الإسلام؛ الحنيفية والإسلام؛ وصفنا فيهما **الحنيفية** بأنها حركة توحيدية عربية مستقلة، قد تكون كتابية على هامش اليهودية والمسيحية.

واليوم نكشف عن هوية الحنيفية، من القرآن، أصدق المصادر لمعرفتها. والسيرة تعتبر ورقة بن نوفل أحد الحنفاء؛ بينما صحيح البخاري وصحيح مسلم يعتبرانه « امرءاً تنصّر في الجاهلية » ، وهذه هي الحقيقة التاريخية التي أظهرنا بعض التردّد فيها في كتابنا المذكور.

يظن بعض الناس أن الحنفاء كانوا **أفراداً مستقلين،** لا جماعة. والقرآن يصفهم بكونهم « **ملة إبراهيم حنيفاً** » في خمسة مواضع (٢ : ١٣٥؛ ٣ : ٩٥؛ ٤ : ١٢٤؛ ٦ : ١٦٢؛ ١٦ : ١٢٣). فهم « **ملة** » أي مذهب وجماعة. يقول

الأستاذ دروزة[1] : بأنهم « لم يكونوا عدداً قليلاً. فلو لم يكونوا **كثرة محسوسة** لما عدّهم القرآن **فئة خاصة**، وأشار إليهم بهذه الحفاوة وسلكهم مع أهل الكتاب والمؤمنين، ثم مع أهل الأديان المستقلة عامة، في سلك واحد وتحت اسم مستقل » .

وقد كانوا « ملة إبراهيم حنيفاً » . فهل هم ملة مستقلة عن أهل الكتاب من يهود ومسيحيين؟ إن القرآن صريح في هوية دينهم : « وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا! قلْ: بل ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين » (البقرة ١٣٥)، فالحنيف على مثال إبراهيم ليس يهودياً ولا مسيحيّاً ـ وهنا يأخذ « نصراني » بمعنى مسيحي.

والحنيف غير اليهودي وغير المسيحي، على مثال إبراهيم، كيف يكون؟ يكون حنيفاً مسلماً : « ما كان إبراهيم يهوديّاً، ولا نصرانيّاً (أي مسيحياً)، ولكن كان **حنيفاً مسلماً** ـ وما كان من المشركين » (آل عمران ٦٧). فملة إبراهيم، الحنيفية التي يتبعونها هي الإسلام. **فقد كان الحنفاء مسلمون قبل القرآن.**

وهذا هو **التعريف الوافي** للحنيف على ملة إبراهيم : « ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله، وهو محسن، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً، واتخذ الله إبراهيم خليلاً » (النساء ١٢٥). **فالحنيف هو المسلم**، الذي « أسلم وجهه لله » . ولكن المسلم، بنوع عام، هو كل كتابي يقول بالتوحيد المنزل. فمن هو بين أهل الكتاب جميعاً الحنيف المسلم؟ في آية (النساء ١٢٥) **صفة تميّزه عنهم جميعاً** : « وهو محسن » ؛ يزيدها بياناً في قوله : « ومن يُسلم وجهه لله، وهو محسن، فقد استمسك بالعروة الوثقى » (لقمان ٢٢)؛ « وباركنا عليه (إبراهيم) وعلى إسحاق؛ ومن ذريتهما **محسن وظالم لنفسه** مبين » (الصافات ١١٣). فتعبير « محسن وظالم » في ذرية إبراهيم من إسحاق، ليس تعبيراً لغوياً، إنما هو اصطلاح متواتر يعني اليهود الظالمين (الجمعة ٥ ـ ٦؛ النحل ١١٨)، والنصارى من بني إسرائيل المحسنين. فصفة « المحسن » للحنيف المسلم تدل على أنه من النصارى من بني إسرائيل.

---

(١) عصر النبي وبيئته ص ٤٣٢.

يؤيد هذا التخريج الصادق قوله بأن القرآن « هدى ورحمة للمحسنين » (لقمان ٣)، « بشرى للمحسنين » (الأحقاف ١٢)، بالترادف مع كونه « هدى وبشرى للمسلمين » (النحل ١٠٢). وقد رأينا أن « المسلمين » من قبل القرآن هم النصارى من بني إسرائيل. يؤيده أيضاً قوله بالتمييز الصريح : « وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً : لينذر **الذين ظلموا، وبشرى للمحسنين** » (الأحقاف ١٢)، فهو إنذار لليهود للظالمين وبشرى للنصارى المحسنين. وذلك مثل قوله أيضاً : « قل : نزّله روح القدس من ربك بالحق : **ليثبت الذين آمنوا**، وهدى وبشرى للمسلمين » (النحل ١٠٢). فالمحسنون والمسلمون هم غير « الذين ظلموا » ، وغير « الذين آمنوا » .

فالمسلمون المحسنون، المسلمون على الإطلاق قبل القرآن، هم النصارى من بني إسرائيل. فهم الحنفاء الذين يشيد بهم القرآن ويفضلهم على اليهود، وعلى النصارى المسيحيين.

والأمر الذي جاء محمداً في بعثته : « وأمرتُ أن أكون من المسلمين » (النمل ٩٠) **يفسّر الأمر المتواتر بأن يكون حنيفاً** : « ثم أوحينا إليك أن أتبع ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين » (النحل ١٢٣)؛ « وأن أقم وجهلك للدين حنيفاً، ولا تكونن من المشركين » (يونس ١٠٥)؛ « فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ، **ذلك الدين القيّم**، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم ٣٠)، فالحنيفية هي دين الفطرة، وهي الدين القيّم أي الإسلام : « قل : إني هداني ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قيّماً، ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين » (الأعراف ١٦١) : فالصراط المستقيم، والدين القيّم، والحنيفية ملة إبراهيم، هي كلها الإسلام، إسلام المحسنين، لا « الذين آمنوا » مع محمد من العرب، ولا « الذين ظلموا » من اليهود، ولا الذين « غلوا » في دينهم من المسيحيين، بل النصارى من بني إسرائيل.

وهذه هي النتيجة الحاسمة لتدبّر القرآن : إن النصارى من بني إسرائيل عند هجرتهم إلى مكة، سموا أنفسهم « الحنفاء » ، ملة إبراهيم؛ وذلك **إِيلافاً لأخوتهم العرب من وُلد إسماعيل.**

ولم يبتدعوا الاسم، بل حملوه معهم، من دولة الروم. كان أهل السُنّة من المسيحيين يسمون « شيعة النصارى » حنفاء أي هراطقة، منحرفين عن الدين القيّم. فأخذوا هم اللقب وجعلوه عنواناً لهم على دينهم القيّم. وصاروا يسمّون حنيفتهم الدين القيّم بين العرب[١] .

ففي هجرة النصارى من بني إسرائيل، إلى مكة والحجاز، في منتصف القرن الخامس م. أطلقوا على أنفسهم لقبهم الذي حملوه معهم إِيلافاً لبني عمومتهم. وقد نجحوا في هذه **المحاولة الأولى،** فأخذت حنيفيتهم النصرانية تستميل العرب، فكان الحنفاء العرب. وهذه المحاولة الأولى كانت للتغلب على **شرك العرب.** لذلك نجد لقب الحنيف، في القرآن، يقترن بنفي الشرك، في كل الآيات.

وطريقة الحنفاء من « نصارى » وعرب كأمة واحدة كانت التوحيد والزهد، « ممّا حمل أكثرهم (الحنفاء العرب) **- وهم في الغالب في مكة وأطرافها -** على الفرار من بلدتهم إلى أطرافها المنعزلة الآمنة ليكونوا في أمان من إيذاء قومهم لهم[٢] » .

وحياة الزهد عند الحنفاء « كان من مظاهرها تلك **الرياضات والاعتكافات الروحية السنوية** في رمضان، وفي غار حراء خاصة[٣] » . فعزلة رمضان للرياضة

---

(١) وهذا التبديل في معنى اللقب جرى بعدهم للملكيين : جعله خصومهم صفة لانحرافهم إلى دين ملك الروم، فأخذوه عنواناً لهم على أرثذكسيتهم، أي الدين القيّم.

(٢) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٥ ص ٣٩٩.

(٣) دروزة : سيرة الرسول ١ : ٣١.

الروحية السنوية هي عادة رهبان النصارى في الأجيال الأولى. فصوم رمضان على تلك الصورة كان صوم النصارى من بني إسرائيل قبل أن يشرعه القرآن.

وفي مطلع حركة الحنيفية كان العرب المهتدون إليها يقصدون إلى إخوانهم في ديار « النصرانية » قبل أن تتم هجرتهم إلى الحجاز : « وقد جعلوا وجهة أكثرهم أعالي الحجاز، وبلاد الشام وأعالي العراق أي المواضع التي كانت غالبية أهلها على النصرانية يومئذٍ، وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع الرهبان[٣] » . وهذا ما رأيناه في خبر سلمان الفارسي في طوافه على مواطن النصارى من بني إسرائيل.

ونتيجة حركة النصارى باسم الحنيفية كانت **القضاء على روح الشرك** بين العرب. والشعر الجاهلي، زهرة العصر، ليس من الشرك في شيء. بل هو يميل إلى التوحيد، والتوحيد الكتابي.

ولمّا استتب الأمر للنصارى من بني إسرائيل، قاموا **بالمحاولة الثانية** وهي **الدعوة لحنيفتهم باسم الإسلام**، للتمييز عن أهل الإنجيل في دولة الفرس، ودولة الروم، وعن اليهودية، للوقوف على الحياد السياسي والديني، في الصراع الدائم بين الدولتين، بالشعارين اللذين نقلهما القرآن : « لا تتخذوا إلهين اثنين » (النمل ٥١) مثل الفرس؛ « ولا تقولوا ثلاثة » (النساء ١٧٠) مثل الروم؛ « إنما هو إله واحد » .

ولا نعرف أن اليهود أخذوا اسم الإسلام في تاريخهم؛ ولا المسيحيون في جميع فرقهم انتحلوه. ونشهد من القرآن أن النصارى من بني إسرائيل، أولي العلم المقسطين، هم الذين يشهدون مع الله وملائكته « أن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٧ ـ ١٨). لذلك فقوله : « هو سماكم المسلمين من قبلُ وفي هذا » القرآن (الحج ٧٨) لا يشير إلا إلى النصارى من بني إسرائيل : فهم الحنفاء، وهم المسلمون، الذين انضم إليهم محمد نفسه، بأمر الله، في حنيفيته وفي إسلامه.

*

(٣) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٥ : ٣٩٩.

سادساً : هجرة « النصارى » إلى الحجاز، والنهضة الجاهلية

في منتصف القرن الخامس، في الدستور التيوضوسي، أصبحت المسيحية دين الدولة عند الروم. فكان على اليهود أن يرحلوا منها، فهاجروا بمعظمهم إلى دولة الفرس، عدو الروم، ليكونوا في أمن عندهم، وعوناً وعيوناً لهم بين العرب وبين الروم. والنصارى من بني إسرائيل، « الحنفاء » شيعةً عن بني دينهم، والواقعون بين نارين، نارِ بني قومهم اليهود وقد سبقوهم إلى فارس، ونار بني دينهم في دولة الروم، لم يجدوا سبيلاً لأمنهم إلا في الهجرة إلى الحجاز المحجوز عن الفرس والروم بصحاريه، فهاجروا إلى مكة نفسها، أم القرى في الحجاز، واستوطنوا واستعربوا.

وكانت هجرة « النصارى » إلى الحجاز مبدأ النهضة الجاهلية فيه.

فسر قيام النهضة الجاهلية في الحجاز منذ منتصف القرن الخامس م. لم يزل مغلقاً على الباحثين. ولم نطّلع على سبب كافٍ وافٍ من الأسباب التاريخية والاجتماعية والسياسية يحق أن يكون أساساً للنهضة الجاهلية في القومية والتجارة والأدب والدين التي تتميز بها.

لقد ظل الحجاز المحجوز بالصحاري عن اليمن وعن الشمال **مغموراً حتى منتصف القرن الخامس** : فمن أين جاءته فجأةً نهضته القومية والتجارية والأدبية والدينية؟

قد هدتنا أبحاثنا، وفي هذا الفصل موجزها، إلى أن هجرة « النصارى » إلى مكة والحجاز هي الأساس الذي قامت عليه النهضة الجاهلية : فبدؤها كان مع بدء هجرة « النصارى » إلى مكة؛ ولا نعرف حدثاً آخر رافق مبعثها.

فهجرة « النصارى » إلى الحجاز كان بدء **نهضة قومية** تقوم على الحياد بين الجبارين. وكل جبار اصطنع له دويلة في الحيرة أم في بصرى، لصدّ هجمات الأعراب عن أرض المملكة. وقد حاول الجباران اقتحام الحجاز من الجنوب

ومن الشمال، ففشلا بسبب يقظة القومية العربية. وبنو إسماعيل وبنو إسرائيل متى تنصّروا، كانوا أبناء عمومة في القومية والدين.

وهجرة « النصارى » إلى مكة كانت بدء **نهضة تجارية** سيطرت على طريقة القوافل بين الشرق والغرب، بين الشمال والجنوب. ونعرف من الآثار والأخبار أن رأس تجار العرب، المهيمنين على طريق القوافل في النهضة الجاهلية كانوا من قريش؛ وأن سيدة تجار قريش كانت خديجة بنت خويلد، ابنة عم ورقة ابن نوفل، « رئيس النصارى » ، وكانت تجارتها وحدها تعدّل تجارة قريش كلها. فكان لآل نوفل « النصارى » زعامة الدين والتجارة بمكة. والقرآن يشيد بهذه النهضة التجارية، في رحلتي الشتاء والصيف، إلى اليمن والشام، كأكبر نعم الله على أهل مكة، « لإيلاف قريش » . وهذا التذكير القرآني إشارة لطيفة إلى مصدر النعمة عند « الطائفة من بني إسرائيل » التي تؤيدها الدعوة القرآنية (الصف ١٤). ولمّا دعاهم القرآن إلى الهدى، على طريقة « الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » ، « قالوا : إن نتّبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا ـ أوَلم نمكّن لهم حرماً آمناً يُجبى إليه **ثمرات كل شيء** رزقاً من لدنا، ولكن أكثرهم لا يعلمون » (القصص ٥٧).

وهجرة « النصارى » إلى مكة والحجاز كانت مبعث **النهضة الأدبية** في الشعر الجاهلي، وتنشيط أسواق الأدب في مكة والحجاز. والنهضة الثقافية لا تقوم إلاّ على نهضة قومية وتجارية تمهّد لها وتحتضنها. والواقع التاريخي أن الشعر الجاهلي خلو من الشرك العربي. ولم يكن في مكة والحجاز **طائفة** تعمل لتحويل شعر العرب **شطر التوحيد الإنجيلي** إلا النصارى من بني إسرائيل. فالتعابير الدينية التي تخلله كلها « نصرانية » ، مع ما لتأثير اليهودية من يد؛ ولتأثير المسيحية من اليمن أو من الشمال في الحيرة وبصرى، وفي نجد نفسه مع آل كندة، من عوامل ودوافع.

وهجرة « النصارى » إلى مكة والحجاز كانت خصوصاً مصدر **النهضة الدينية**.

إن ‹‹ النصرانية ›› بمكة هي التي حولت العرب فيها من الوثنية إلى الشرك، حتى أمسى هذا الشرك ظاهرياً، لا جوهريّاً، بنص القرآن القاطع : ‹‹ ألا لله الدين الخالص! ـ والذين اتخذوا من دونه أولياء : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله **زلفى** ›› (الزمر ٣). فالشركاء في نظر القرآن الداعي إلى التوحيد الخالص، كانوا في نظر العرب حين الدعوة القرآنية ‹‹ أولياء ›› لهم عند الله يتقربون بهم إليه تعالى، عن طريق الزلفى، لا عن طريق العبادة. وعبادة ‹‹ الغرانيق العلى، اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى ›› أمست زلفى **ملائكية**، لا عبادة وثنية : ‹‹ أفأصفاكم ربكم بالبنين، واتخذ من الملائكة إناثاً ـ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ›› (الإسراء ٤٠)، ‹‹ أم خلقنا الملائكة إناثاً ـ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ›› (الإسراء ٤٠)، ‹‹ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ... فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ›› (الصافات ١٤٥ ـ١٥٧)، ‹‹ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثاً ... وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم! ـ ما لهم بذلك من علم، إنْ هم إلا يخرصون! أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون؟ بل قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنّا على آثارهم لمهتدون ›› (الزخرف ١٩ ـ٢١). لقد أمسى العرب الوثنيون على شرك أقرب إلى التوحيد؛ لذلك تقتصر دعوة القرآن لهم إلى ‹‹ التوحيد الخالص ›› . يقول الدكتور جواد علي[١] : ‹‹ **فعبادة أهل مكة هي عبادة محمد، وتوحيدهم توحيد إسلامي، أو توحيد قرب من التوحيد الإسلامي** ›› . وهذا بفضل الدعوة ‹‹ النصرانية ›› خصوصاً، في مكة والحجاز.

وقد توصلت ‹‹ النصرانية ›› إلى هذه النهضة الدينية أولاً **بحركتها الحنيفية** ـ التي كانت شبيهة بمؤسسة ‹‹ الموعظين ›› في المسيحية استعداداً للإيمان الكامل ـ التي عاش فيها محمد نفسه مدة خمس عشرة سنة، منذ زواجه من خديجة إلى مبعثه، يتحنّف في غار حراء شهر رمضان من كل عام، حتى جاءه اليقين، والأمر بالهداية إلى إيمان الكتاب (الشورى ٥٢ و١٥) والدعوة له بين العرب، ‹‹ على شريعة من الأمر ›› هي أمر الدين عند ‹‹ الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ›› الذين

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٤٢٨.

وآتيناهم بينات من الأمر » (الجاثية ١٦ -١٧). **ثم بحركتها الإسلامية،** فقد أطلقوا على دعوتهم اسم « الإسلام » لمّا استتب لهم أمر الدين بمكة، تمييزاً لها من اليهودية ومن المسيحية.

وهذه الدعوة الإسلامية « النصرانية » انتشرت « باسم الله الرحمان الرحيم » المتواتر عن أهل الكتاب، كما يشهد كتاب سليمان إلى ملكة سبأ : « إنه من سليمان، وانه باسم الله الرحمان الرحيم » (النمل ٢٠). وهذا النص شاهد على ان هذه الصيغة **من قبل القرآن،** وعليها قام القرآن كله، فقد ورثها عن « الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » الذين أُمر محمد بأن يقتدي بهداهم (الأنعام ٩٠). وهذه الدعوة الإسلامية « النصرانية » قد سيطرت على عباة الكعبة نفسها، فلم يبق هُبَل إله البيت العتيق، بل صار الله، إله النصارى المسلمين، كما جاء في الأمر إلى محمد : « إنما أُمرت أن أعبد **رب هذه البلدة** الذي حرّمها وله كل شيء؛ وأمرت أن أكون من المسلمين » (النمل ٩٠). فعبادة رب البيت عند محمد ناجمة عن انضمامه إلى « النصارى » المسلمين؛ فقد تحول الشرك فيها إلى التوحيد، « باسم الله الرحمان الرحيم » ، قبل الدعوة بالقرآن الكريم. ولنا في آخر آي نزلت منه شهادة على وحدة الدعوة « بالتوراة والإنجيل والقرآن » يقوم بها رهبان النصارى « **السائحون** » : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة ... وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ... (كما يقول) التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون، الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله. وبشر المؤمنين » على مثالهم (التوبة ١١٢ ـ ١١٣). هذه صورة صادقة عن نشاط الرهبان « السائحين » للدعوة للإسلام « النصراني » .

وإلى هذا الإسلام «النصراني » ، أُمر محمد أن ينضم : وأُمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن » (النمل ٩٠) قرآن الكتاب بلسان عربي مبين، يفصله للعرب عن الأصل الإسرائيلي، كما «شهد شاهد من بني إسرائيل **على مثله** » (الأحقاف ١٠).

((فالنصرانية)) هي التي أعدت عرب الحجاز، وهيأت محمداً، للدعوة القرآنية، حتى جاءه أمر الله في رؤيا غار حراء. هذا هو سر النهضة الدينية في الجاهلية، والتي أدّت إلى نشر الإسلام. يقول دروزة[١] : ((إن ظهور هؤلاء (الحنفاء) في غير مكان واحد، وربما في غير وقت واحد، يحمل معنى **ظهور فكرة جديدة** أخذت تقوى في أدمغة المستنيرين من العرب، في عصر النبي ص وبيئته؛ وهي فكرة الاتجاه إلى ما هو أقرب إلى الحق والسداد في أمر العقيدة والتقاليد الدينية. وبكلمة أخرى، إن هذا يمكن أن يعدّ **خطوة أخرى عظيمة** من خطوات التطور الديني والفكري التي أدت إليها **الحركة العقلية والدينية التي ظهرت قبل البعثة النبوية، وقويت قُبيلها**)) .

لقد كانت هجرة النصارى من بني إسرائيل إلى مكة، على أساس النهضة الجاهلية بالحجاز، في القومية والتجارة والأدب والدين، فأدت إلى قيام الدعوة القرآنية، تأييداً للدعوة ((النصرانية)) (الصف ١٤).

* * *

بحث ثالث

إنجيل ((النصارى)) هو ((الإنجيل بحسب العبرانيين))

إن القرآن لا يذكر الإنجيل إلا بالمفرد المعلم، وهذا دليل على أنه واحد لا يتعدّد (٣ : ٣ و٦٥ و٤٨؛ ٥ : ٤٩ و٥٠ و٦٩ و٧١ و١١٣؛ ٧ : ١٥٦؛ ٩ : ١١٢؛ ٤٨ : ٤٩؛ ٥٧ : ٢٧).

والحديث في صحيح البخاري (١ : ١٨ ـ ٢٣) وصحيح مسلم (١ : ٩٧ ـ

---

(١) عصر النبي وبيئته ٤٣٢.

٩٨) عن عائشة نفسها في قصة بدء الوحي أن « ورقة بن نوفل ـ وهو ابن عم خديجة ـ كان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، **فيكتب من الإنجيل بالعبرانية** ما شاء الله أن يكتب » . وقوله « يكتب الكتاب العبراني » هو مصدر كالكتابة، أي الكتابة العبرانية. وشهادة الحديث الصحيح أن ورقة نصراني ويكتب الإنجيل بالعبرانية، ويترجمه إلى العربية. فالإنجيل الذي بيد ورقة بن نوفل، « رئيس النصارى » بمكة هو **الإنجيل بالحرف العبراني**. ولا نعرف من الأناجيل القانونية إنجيلاً دوّن بالعبرانية إلا الإنجيل بحسب متى الذي تُرجم إلى اليونانية. وسنرى من شهادة الآثار المسيحية أن هذا الإنجيل كتب بالحرف العبراني المقدس، لكن باللغة الأرامية السريانية، وهو **إنجيل « النصارى »** . وهذه هي الشهادة الأثرية التاريخية التي لا ترد بأن أهل الإنجيل بمكة كانوا النصارى من بني إسرائيل.

فالمصادر المسيحية كلها، في عهد الفترة، تشهد بأن النصارى من بني إسرائيل كانوا وحدهم يتلون ولا يقبلون إلا « الإنجيل بحسب العبرانيين » ، أو « الإنجيل العبراني » ، أو « الإنجيل السرياني » ؛ وهو إنجيل النصارى الذي اكتسب تلك التسمية بحسب المتعبدين به، أو بحسب حرفه، أو بحسب لغته. والنصارى من بني إسرائيل وحدهم كانوا يستخدمونه، من دون غيره، وهو الإنجيل بحسب متى؛ أما المسيحيون فكانوا يستخدمونه بترجمته اليونانية القانونية، مع الإنجيل بحسب مرقس، وبحسب لوقا، وبحسب يوحنا، لأن الإنجيل واحد عندهم، لكن بأحرفه الأربعة. وبسبب تشيّع النصارى من بني إسرائيل، كان إنجيل النصارى موضع شبهة عند المسيحيين، فلم يتعبّدوا بتلاوته.

وهذه هي شهادة الآثار والأخبار، بعهد الفترة، في إنجيل النصارى.

١ـ منذ مطلع القرن الثاني لدينا شهادة **هجسيب**، نصراني من بني إسرائيل : « إنه ينقل أشياء من الإنجيل بحسب العبرانيين، الإنجيل السرياني،

الذي هو بالحرف العبراني »[١] . هذا هو الوصف الكامل لإنجيل النصارى كما سيتواتر من بعده.

٢- في منتصف القرن الثاني، لدينا شهادة العلامة الشهيد **يستين**، وهو من نابلس عاش في رومة وأسس فيها مدرسة لتعليم الفلسفة، وكتب فيها « حوارات » لهداية المثقفين برومة. فهو يذكر إنجيل النصارى، ويقول إنهم يتميزون عن المسيحيين بأنهم يقيمون أحكام التوراة والإنجيل معاً[٢] .

٣- في أواخر القرن الثاني، شهادة العالم **ايريناوس**، أسقف ليون، وهو من المشرق. يقول في الأبيونيين، فرقة من النصارى المتهودين : « **إنهم يستخدمون الإنجيل بحسب متى وحده**. وينكرون الرسول بولس، ويعتبرونه (المرتد) عن الشريعة[٣] » . ويضيف : « إن الأبيونيين يستخدمون الإنجيل بحسب متى وحده، لكنهم لا يعتقدون الاعتقاد الصحيح في الرب بموجبه[٤] » .

٤- في القرن الثالث تأتي شهادة العلامة أوريجين. فهو يذكر الإنجيل بحسب العبرانيين في تفسيره على يوحنا (ك ٢ ف ١٢) وفي تفسيره على أرميا (الحديث ١٥ ع ٤) وذلك بمناسبة الإنجيل بحسب متى : « وأخذه إبليس إلى جبل عالٍ » (٤ : ٨)، فيقول : « من يقبل الإنجيل بحسب العبرانيين يجد هذه الآية فيه : « إن أمي، الروح القدس، خطفني بشعرة من شعر رأسي إلى الجبل، إلى ثابور العظيم » .

ويعلق الأستاذ الكتابي لاغرنج عليه بقوله[٥] : « إن أوريجين لا يعتبر الكتاب المذكور مشبوهاً، ولا مخصوصاً بأهل البدعة » ففي نظره أنه إنجيل صحيح.

---

(١) أوسابيوس : تاريخ الكنيسة ك ٤ ف ٢٢ ع ٨.
(٢) الحوار٤٧ في مجموعة الآباء اليونان ك ٦ ص ٥٧٦.
(٣) الرد على الهرطقات ك ١ ف ٢٦ ع ٢.
(٤) الرد على الهرطقات ك ٣ ف ١١ ع ٧.
(٥) Revue biblique 1922 ; T 31 p. 173

٥- في أوائل القرن الرابع نجد شهادة **أوسابيوس**، أبي التاريخ الكنسي الذي جمعه من مؤلفات العلماء المحفوظة في مكتبة المطرانية.

أولاً في (تاريخ الكنيسة) الذي انتهى منه عام ٣٢٤ يذكر إنجيل النصارى الذي بحسب العبرانيين ثلاث مرات :

في (ك ٣ ف ٢٥ ع ٢) يجعل الإنجيل بحسب العبرانيين من الكتب المختلف فيها، مع أنه « الأصح في نظر العبرانيين الذين آمنوا بالمسيح » . ويعلق عليه لاغرنج بقوله[١] : « إن بعضهم إذن لا يعتبرونه بدعاً، وهم وإن لم يضعوه في مرتبة الأناجيل الأربعة القانونية، فأنهم ينزلونه منزلة الكتب المعتبرة في الكنيسة » .

وفي (ك ٣ ف ٢٧ ع ١ -٢) يقسم الأبيونيين إلى متطرفين ومعتدلين - وهؤلاء هم النصارى، ويقول : « إن المتطرفين - وهم الأبيونيين حصراً - يعتبرون المسيح بشراً مولوداً ولادة طبيعية من رجل ومريم، ويعتبرون أن الخلاص يقوم، لا على الإيمان بالمسيح وحده، بل على إقامة شريعة موسى أيضاً. ولكن إلى جانب هؤلاء، هناك غيرهم يحملون اسمهم، لكنهم يتبرؤون من حماقتهم : فلا ينكرون أن المسيح الرب ولد من بتول، بالروح القدس. لكنهم مثل أولئك لا يشهدون بأزليته، مع أنه الإله والكلمة والحكمة؛ وهكذا يرجعون إلى كفر الأولين. ومثلهم كذلك يغارون على إقامة أحكام التوراة الجسدية. ويرون أنه يجب نبذ وسائل الرسول (بولس) الذي يسمونه (المرتد) عن الشريعة. **فيستخدمون فقط الإنجيل المسمى بحسب العبرانيين؛ وقلما يكترثون بالآخرين.** وهم يحفظون السبت وسائر العادات اليهودية، مثل أولئك؛ لكنهم يكرمون الأحد مثلنا تقريباً، ذكرى لقيامة المسيح.

---

(١) Revue biblique 1922 ; T 31 p. 175

والبحاثة لاغرنج[١] يعلق على قوله « قلما يكترثون بغيره » بهذا الاستنتاج : « هذا يعني أنهم **لا يستعملون غيره** في صلاتهم، **وما كانوا يعتبرون غيره منزلاً**». فهم في موقف متقابل على طرفي نقيض مع المسيحيين الذين يعتبرون إنجيلهم من الكتب المختلف فيها. فإذا كان أوسابيوس يذكر الإنجيل بحسب العبرانيين بتلك الأوصاف، فهذا يعني أنه كان ينص على المولد المعجز لذلك يعتبره أوسابيوس كتاباً كنسيّاً، وإن لم يكن قانونياً. وهذه شهادة بصحته التاريخية.

وفي (ك ٤ ف ٢٢ ع ٨) يقول عن هجسيب : « وكتب أشياء أخرى كثيرة نقلناها آنفاً بحسب سياق الرواية. وينقل أشياء من الإنجيل بحسب العبرانيين، الإنجيل السرياني، وهو بالحرف العبراني » . فإن أوسابيوس الذي عنده في مكتبة المطرانية نسخة من إنجيل النصارى يوافق على شهادة هجسيب فيه قبل قرنين ونيف.

وفي كتاب (التجلّيات) من العام ٣٣٣ يقول (ك ٤ ف ١٢) : إن المسيح ذكر الشقاق الذي ستتعرض له النفوس في العائلات، كما نجده في الإنجيل بحسب العبرانيين، وبالحرف العبري، حيث يقول : « إني أختار لي الأخيار الذين يعطيهم لي أبي الذي في السماوات » . يعلق عليه لاغرنج : « كان أوسابيوس يميل إلى اعتبار الإنجيل بحسب العبرانيين **أصل الإنجيل بحسب متى** اليوناني القانوني » .

٦ـ ومن القرن الرابع شهادة المطران أبيفان من فلسطين في (الشامل في الهرطقات) فهو يميّز بين إنجيل النصارى الذي يعتبره « **كاملاً**[٢] » وأنه الإنجيل بحسب متى الأرامي؛ وبين إنجيل الأبيونيين الذي يعتبره « **غير كامل**[٣] » ، ويسميه الإنجيل بحسب العبرانيين، وهو في نظره أيضاً الإنجيل بحسب متى. ومعروف أن الأبيونيين أي النصارى المتطرفين ينكرون مولد المسيح المعجز،

---

(٥) Revue biblique 1922 ; T 31 p. 176
(٢) كامل πληρέστατου (ك ٢٩ ف ٩ ع ٤). قابل مجموعة الآباء اليونان ك ١٢ ص ٤٠٥.
(٣) غير كامل οὐχ όλω δε πληρεστάτου (ك ٣٠ ف ١٣ ع ٢). قابل مجموعة الآباء اليونان ك ١٢ ص ٤٠٥.

فلا غرو إذا أسقطوا من الإنجيل قصة المولد المعجز. ويعلق لاغرنج على ذلك بقوله : « إنه الإنجيل، كما وضع منذ البدء، محفوظاً بالحرف العبراني » . ويضيف : قد يسقط منه الأبيونيون قصة النسبة والمولد المعجز.

على كل حال فشهادة أبيفان لإنجيل النصارى ثلاثية : إنه الإنجيل الأصيل بحسب متى، وهو بالعبراني في خطه، وهو كامل. فالنصارى بحسب أبيفان يملكون الإنجيل بحسب متى كاملاً في لغته الأصلية الآرامية، بحرف عبراني، ولا يستخدمون غيره. هذا ما نراه في الإنجيل الذي يستخدمه ويترجمه بمكة ورقة بن نوفل.

٧ـ وفي أواخر القرن الرابع لدينا **شهادة جيروم** الجامعة، خاتمة المحققين. فهو أكثر الآباء استشهاداً بإنجيل النصارى. وعلى هامش الإنجيل بحسب متى ينقل القراءة العبرية من « الإنجيل العبراني »[١] . وهو في نظره أيضاً الإنجيل بحسب متى في حرفه العبراني ولغته الآرامية. والشواهد منه عديدة :

في تفسير الرسالة إلى الأفسسيين[٢]، من عام ٣٨٧ يفسر الآية (٥ : ٣) ويضيف : « كما نقرأ في الإنجيل العبراني أيضاً : قال الرب لتلاميذه، لا تفرحوا إلا متى حزنتم مع أخيكم حباً به » . فهو يستشهد به كمن يقبله.

في تفسير ميخا من عام ٣٩٢ يصرح لأول مرة أنه ترجم الإنجيل بحسب العبرانيين، « وفيه يقال عن شخص المخلص : حملتني أمي، الروح القدس، بشعرة من رأسي » تفسيراً لقول الإنجيل بحسب متى في (٤ : ٨). والروح بالعبرانية مؤنث، لذلك جعلوا الروح أنثى بمنزلة أم للمسيح. ولعلَّ في هذه النظرية « النصرانية » سر آية القرآن : « أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » (المائدة ١١٩) في استنكار إلهية المسيح والروح مع الله.

---

(١) يسميه τὸ Ἰουδαϊκόν ، وعن ترجمة جيروم نُقل إلى بعض المخطوطات اليونانية للإنجيل.
(٢) مجموعة الآباء اللاتين ك ٢٦ ص ٥٢٠.

في (مشاهير الرجال) يذكر مراراً الإنجيل بحسب العبرانيين، ويقول إنه ترجمة إلى اليونانية واللاتينية، ويشهد بأنه يستشهد به مراراً.

ينقل[1] عنه أن المسيح « ظهر ليعقوب. وكان يعقوب قد أقسم أنه لن يأكل خبزاً منذ تلك الساعة التي فيها شرب كأس الرب، حتى يراه قائماً من بين الموتى. فقال له الرب : قرّب المائدة والخبز. (ويضاف للحال) أخذ خبزاً وشكر وكسر وأعطى ليعقوب الصديق، وقال له: يا أخي كلْ خبزك لأن ابن البشر قام من بين الراقدين » .

وفيه[2] أيضاً يذكر : « أن متى أول من دوّن إنجيل المسيح، وفي بلاد اليهود، لأجل المؤمنين من أهل الختان، بالحروف العبرية. **وهذا الإنجيل نفسه موجود إلى اليوم في مكتبة قيصرية** التي جمعها بنشاط الشهيد بمفيلوس. وقد سمح لي كذلك نصارى بيريه (حلب)، مدينة في سوريا، أن أنسخ النسخة التي يستعملونها » . هذه شهادة قيمة : إن الإنجيل بحسب متى، المكتوب باللغة الآرامية السريانية، وبالحرف العبراني، ظل موجوداً حتى آخر القرن الرابع؛ وكانت منه نسخة في مكتبة قيصرية المسيحية، وجيروم نسخ نسخة أخرى عن نسخة النصارى بحلب.

وفيه[3] أيضاً ينقل : « وفي الإنجيل بحسب العبرانيين يقول : ولما جاء إلى بطرس والذين معهم قال لهم : هذا أنا، جسّوني، وانظروا أني لست شبحاً شيطانياً لا جسم له. وللحال جسوه وآمنوا » . وهو تفسير لكلمة « روح » عند لوقا (٢٤ : ٣٧ و٣٩). فإن جيروم يفسر ما تشابه من الإنجيل في اللغة اليونانية بإنجيل النصارى باللغة السريانية.

---

(١) مشاهير الرجال ف ٢؛ مجموعة الآباء اللاتين ك ٢٣ ص ٦١٣.
(٢) مشاهير الرجال ف ٣؛ مجموعة الآباء اللاتين ك ٢٣ ص ٦١٣.
(٣) مشاهير الرجال ف ١٦؛ مجموعة الآباء اللاتين ك ٢٣ ص ٦٣٣.

لكن أكثر استشهادات جيروم وشهاداته في إنجيل النصارى نجدها في تفسيره للإنجيل بحسب متى، وقد ألفه قبل الفصح عام ٣٩٨.

في (ك ١ ف ٢ ص ٢٦) ينقح لفظ الإنجيل اليوناني «في اليهودية» بلفظ «يهوذا، كما نقرأ في النص العبراني نفسه» .

وفي صلاة (أبانا) يقول : « إن الإنجيل بحسب العبرانيين يضع كلمة (مهَر) بدل (الجوهري) أي : خبزنا الآتي أعطنا اليوم » .

وفي تعليقه على معجزة اليد اليابسة (ك ٢ ف ١٢) يقول : « **في الإنجيل الذي يستعمله النصارى والأبيونيون**، الذي نقلناه مؤخراً إلى اليونانية من اللغة العبرية؛ والذي يعتبره الأكثرون الإنجيل بحسب متى الصحيح[١] » .

إن جيروم يعترف بصحة إنجيل النصارى التاريخية. وبخلاف ابيفان يقول بأن النصارى والأبيونيون يستعملونه واحداً. هذا لا يمنع أن يُسقط منه الأبيونيون قصة المولد المعجز، ولذلك يعتبره « غير كامل » . فالشهادتان لا تتعارضان.

وفي تفسير آية (متى ٢٣ : ٣٥) : « زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين المذبح والهيكل » ـ وهي من المضائق التاريخية ـ يقول جيروم[٢] : « إن الإنجيل العبراني بدل (ابن برخيا) يذكر (ابن يهويدا).

وفي تفسير اسم « بار عبّاس، يقول : « هو في الإنجيل المكتوب بحسب العبرانيين : ابن معلَم، منهم » .

---

(١) هذا هو نصه اللاتيني في مجموعة الآباء اللاتين (ك ٢٦ ص ٧٨) :
« In Evangelio quo utuntur Nazarei et Ebionitae, quod nuper in grecum de hebraïco sermone transtulimus, et quod a plerisque Matthei authenticum » .

(٢) تفسير متى ك ٤ ص ٢٣؛ مجموعة الآباء اللاتين ك ٢٦ ص ١٧٤.

وفي التفسير نفسه[١] يقول : « في الإنجيل بحسب العبرانيين الذي ذكرناه مراراً » فالعلامة جيروم يستشهد مراراً بإنجيل النصارى لتفسير ما اشتبه من الإنجيل بحسب متى اليوناني. وهذا دليل ثقته بصحة إنجيل النصارى التاريخية والعلمية.

وفي تفسير أشعيا من العام ٤٠٨، يستشهد جيروم « بالإنجيل العبراني، أو الإنجيل بحسب العبرانيين **الذي يتلوه النصارى** » ؛ كقوله أيضاً : « هذا مدون في النص العبراني الذي يتلوه النصارى : نزل عليه كل ينبوع الروح القدس[٢] » . هنا يذكر النصارى من دون الأبيونيين، ويعتبر النص العبراني كأنه أصل النص اليوناني، للإنجيل بحسب متى.

وفي تفسير المزمور ١٣٥ من العام ٤١٠ يقول : « في الإنجيل العبراني بحسب متى نجد هذا : خبزنا الآتي أعطنا اليوم[٣] » . ففي أواخر حياته يسمي جيروم إنجيل النصارى بكل بساطة وصراحة : الإنجيل بحسب متى.

وفي تفسيره على أشعيا (٤٠ : ٩) يقول جيروم مرة أخرى : « لكن في الإنجيل المكتوب بحسب العبرانيين، يقرأ النصارى » ...

وفي تفسيره على حزقيال ـ وهو من العام ٤١٠ ـ٤١٢ ـ يؤكد أيضاً ما صار عنده عقيدة : « وفي إنجيل العبرانيين أيضاً، الذي يتلوه النصارى[٤] » ...

أخيراً في (الرد على بيلاج)، من عام ٤١٥، قبل وفاته عام ٤١٩، نجد

---

(١) تفسير متى ك ٤ ف ٢٧؛ مجموعة الآباء اللاتين ك ٢٦ ص ٢١٣.

(٢) تفسير أشعيا (ك ١٤ ف ١١)؛ مجموعة الآباء اللاتين ك ٢٤ ص ١٤٤ ـ ١٤٥. وهذا نصه :

« quod hebreo sermone conscriptum legunt Nazarei : descendit super eum omnis fons spiritus sancti » .

(٣) « In hebraïco Evangelio secundum mattheum ita habet :panem nostrum crastitum da nobis hedie »

(٤) مجموعة الآباء اللاتين ك ٢٥ ص ١٣٧.

الشهادة الأخيرة عند جيروم : « إن الإنجيل بحسب العبرانيين، المكتوب باللغة الكلدانية والسريانية كذلك، لكن بأحرف عبرانية، والذي يستخدمه إلى اليوم، **النصرانيون**، وهو بحسب الرسل، أو كما يفكر الأكثرون بحسب متى، الموجود في مكتبة قيصرية » يُعلم أن الخطايا المكتسبة بعد العماد تُغفر[١] . هنا يستعمل اسم « نصرانيين » بدل نصارى، وهي صيغة نسبة إليهم ـ وهذه الإضافة قد أضلت كثيرين من الغربيين، كأنهما طائفتان ـ نلاحظ أن الاسم يرد أيضا أيضاً بلهجة « نصورو » أو بلهجة « نصورى » كما ينطق بها حتى اليوم بعضهم في جبال القلمون، شمال دمشق.

ففي شهادة جيروم المتواترة، إن إنجيل النصارى هو الإنجيل بحسب العبرانيين، (وقد يقول بعضهم بحسب الرسل)؛ ولكنه في الحقيقة هو الإنجيل بحسب متى، بالحرف العبراني واللغة الأرامية السريانية.

يقول العلامة الكبير لاغرنج : إن الخلاف قائم على **هوية إنجيل الأبيونيين**، « وبين النظريتين المختلفتين، أن النظرية التي لا يمكن بحال قبولها هي التي تطابق بين إنجيل العبرانيين ـ الذي اعتبره بعضهم قانونياً صحيحاً ـ وبين إنجيل الأبيونيين، وهو نص موصوف بالانحراف والبدعة[٢] » .

ويضيف أحد العلماء أن إنجيل الأبيونيين الذي يذكره أبيفان[٣] يصح

---

(١) الرد على بيلاج (٣ : ٢) في مجموعة الآباء اللاتين ك ٢٣ ص ٥٧٠ وهذا نصه :

« In Evangelio juxta Hebreos, quod a chaldaïco quidem syroque sermone, sed hebraïcis litteris scriptum est, quo utuntur usque hodie Nazareni, secundum apostolos, si ut plerique autumant juxta Mattheum, quod et in Caesariensi habetur Bibliotheca, narrat historia... »

(٢) Revue biblique 1922 T 31 p. 164 – cf. Supplément au Dictionnaire de la Bible T I p. 474.

(٣) الشامل في الهرطقات ف ٣٠، مجموعة الأباء اليونان ك ٤١ ص ٤٠٥ قابل :
Supplément au D. B. T I p. 474.

اعتباره إنجيل الاثني عشر رسولاً. وفيه تحريف مكشوف : لأنه يسقط الفصلين الأولين من الإنجيل بحسب متى في قصة المولد المعجز، ويرى في المسيح مصلح الموسوية لا غير الذي بدّل الذبائح بالعماد، وهو حلّ على عيسى ابن مريم يوم عماده وفارقه قبل استشهاده وارتفع إلى السماء، فلم يقتل اليهود سوى عيسى بن مريم لا مسيح الله. وفي ذلك توجيه لفهم قصة الرفع وقصة الشبه وقصة عبودية المسيح لله مثل الملائكة المقرّبين؛ لكن القرآن يتميّز بقصة المولد المعجز، كما في إنجيل النصارى.

*

من الشواهد التي نقلها علماء المسيحية نرى أن **الفوارق طفيفة** بين إنجيل النصارى، والإنجيل بحسب متى عند المسيحيين :

إنجيل النصارى يذكر أن المسيح بعد قيامته ظهر أولاً ليعقوب ـ وهذه إشارة إلى منزلة يعقوب الأولى بين صحابة المسيح. وفي تحقيق لوقا لا نرى هل ظهر أولاً ليعقوب الذي كان مع والده قلوبا على طريق عماوس، أم لبطرس (لوقا ٢٤ : ١٨ و٣٤)؛ وسكوت لوقا عن ذكر رفيق قلوبا مقصود. وبولس يضع الحق التاريخي في نصابه عندما يعلن أن المسيح ظهر أولاً لبطرس، وأخيراً ليعقوب (١ كو ١٥ : ٤ و٧).

إنجيل النصارى بتوكيداته المتواترة أن الإنجيل **تصديق وتفصيل** للتوراة يشعر بضرورة التوراة مع الإنجيل، لإقامة أحكام الإنجيل والتوراة معاً (قابل سورة المائدة ٧١).

في إنجيل النصارى يسوع يقبل العماد من يوحنا المعمدان، يحيى بن زكريا، بتحريض من أمه وذويه؛ بينما في الإنجيل بحسب متى، يسوع نفسه يحمل المعمدان على تعميده، « إذ هكذا يليق بنا أن نتم كل برّ » (متى ٣ : ١٥).

في تجربة إبليس للمسيح يقول الإنجيل بحسب متى : « أخذه إبليس إلى

المدينة المقدمة ... إلى جبل عال» (متى ٤ : ٥ و٨)؛ بينما إنجيل النصارى يقول «حمله الروح القدس» .

في خبر قيامة المسيح، لا ينقل إنجيل النصارى ما يحدّده الإنجيل بحسب متى (١٢ : ٤٠) من مكوث المسيح في جوف الأرض ثلاثة أيام. ويصرّح إنجيل النصارى بأن حراس القبر كانوا من الجند الروماني، بينما متى لا يفصح عن هويتهم (٢٧ : ٦٥). وفي ظهور المسيح ظن صحابته أنهم «يرون روحاً» ، بينما إنجيل النصارى يحدد «روحاً شيطانياً» .

إنجيل النصارى يزيد على الإنجيل بحسب متى كثرة الاستشهاد بالأنبياء. فلا يكتفي بنقل خبر انشقاق حجاب الهيكل عند موت المسيح مثل متى (١٥ : ٣٨)، بل يضيف الاستشهاد بأشعيا (٦ : ٤).

إنجيل النصارى يضيف إلى شرعة المحبة **شرعة الزكاة**، بينما متى يذكر الصدقة. ويوغل في الدعوة إلى الزهد أكثر من متى. ويقتصر في تكرار الغفران الأخوي إلى سبع مرات، بينما الإنجيل بحسب متى «إلى سبعين مرة سبعة مرات» (١٨ : ٢٢).

وهكذا نرى أن الفوارق أسلوبية، لا موضوعية؛ نجد أمثالها بين الأناجيل الصحيحة المؤتلفة، كما نجدها بين سور القرآن في القصة الواحدة.

*

بعد هذا الاستقراء للمصادر المسيحية، في إنجيل النصارى، نستنتج هذه الحقائق الثابتة :

أولاً : للنصارى من بني إسرائيل إنجيل خاص بهم، يسميه جيروم، خاتمة المحققين : الإنجيل العبراني، بحسب حرفه؛ أو الإنجيل السرياني، بحسب لغته؛ أو الإنجيل بحسب العبرانيين، بسبب أهله. وهذه هي صفة الإنجيل الذي يترجمه ورقة بن نوفل، كما في الحديث.

ثانياً : النصارى لا يقبلون رسمياً إلا هذا الإنجيل؛ وينكرون ما عداه. **فالإنجيل واحد عندهم**. يقول أبيفان فيهم : « يستعملون إنجيلاً وحيداً، هو الذي بحسب متى[1] » . وهذا هو موقف القرآن.

ثالثاً : إنجيل النصارى من بني إسرائيل كان مكتوباً باللغة الأرامية السريانية، لكن بالحرف العبراني المقدس عندهم. لذلك ترادف المصادر بين اللغة الأرامية السريانية التي بها يتكلمون، وبين اللغة العبرية لأن المتكلمين من العبرانيين، وإنجيلهم مكتوب بالحرف العبري. **فاسم الإنجيل المتواتر يدل على أن أهله هم النصارى من بني إسرائيل**، الذين ينطقون بالأرامية السريانية، مع لغة مهاجرهم.

رابعاً : كان الأبيونيين من النصارى يستعملون إنجيل النصارى نفسه بحسب شهادة جيروم. لكنهم يسقطون منه فاتحته في قصة المولد المعجز الذي لا يؤمنون به ـ كما أسقط بعضهم من القرآن فاتحته وخاتمته، المعوذتين. وربما كان للأبيونيين تأويلات أو قراءات هامشية دخلت النص مع الأيام، حتى كأنه صار إنجيلاً آخر.

خامساً : يؤكد النصارى من بني إسرائيل أن إنجيلهم بحسب متى عند المسيحيين، لكنه في **نصه الأصلي**[2]. ونقل عنهم علماء المسيحية هذا الاعتقاد، كما يشهد أوسابيوس وابيفان وجيروم. يقول لاغرنج[3] : « في نظر

---

(١) Panarion (30 : 16) : « Solo autem eo, quod est secundum Mattheum evangelio utuntur » .

(٢) كما يصرّح ابيفان : الشامل في الهرطقات ك ٢٩ ف ٩ ع ٤ ؛ قابل:
Bardy : Revue : mélanges de science religieuse 1949 « l'Evangile selon les Hébreux » .

(٣) Revue biblique 1922 T. 31 p. 163.

جيروم، إنه الإنجيل بحسب متى الأصيل » . ويفخر جيروم مراراً بأنه نقله عن نسخة حلب إلى اليونانية واللاتينية. لكن هذه الترجمة مفقودة، كما فقد الأصل.

سادساً : يؤكد ابيفان، وهو مطران مسيحي من فلسطين، أن إنجيل النصارى « كامل غير منقوص. ويعلّق العالم بَرْدي[١] : « إن ابيفان ينقل أن النصارى يملكون بالعبرية الإنجيل الكامل بحسب متى » ؛ ثم يضيف : « ونستغرب أن علاّمة بيت لحم (أي جيروم) يقبل بدون تردّد ويجزم بأن الإنجيل بحسب العبرانيين هو الإنجيل الأصيل بحسب متى. ويقول ذلك كأنه شيء طبيعي » . نشير بأنهم كانوا في وضع يمكنهم من الحكم الصحيح أكثر منا اليوم لمخالطة النصارى وامتلاك إنجيلهم. ويقول لاغرنج[٢] : «إن إنجيل النصارى له طابع خاص، لكنه يعتمد على النص العبراني الأصيل للإنجيل بحسب متى ... وقراءته لها غالباً صيغة أقدم من الحرف اليوناني بحسب متى » .

سابعاً : ليس تشيّع النصارى من بني إسرائيل سبباً وجيهاً للطعن في صحة إنجيل النصارى، التي يعترف بها علماء المسيحية في القرن الرابع. فالمسيحيون أنفسهم على اختلاف فرقهم يعتمدون نصاً واحداً للإنجيل بحسب متى، ومع ذلك فهم يختلفون في التأويل بحسب اختلافهم في العقيدة.

والنتيجة الحاسمة إن إنجيل النصارى تنطبق أوصافه على وصف الإنجيل **الأوحد** في القرآن، وعلى وصف الحديث للإنجيل الذي يملكه بالعبرية، ويترجمه إلى العربية، ورقة بن نوفل، « رئيس النصارى » بمكة. فإنجيل ورقة بن نوفل شاهد على وجود النصارى من بني إسرائيل في مكة.

* * *

(١) Revue : mélanges de science religieuse 1949 p. 18.
(٢) Revue biblique 1922 T. 31 p. 163.

بحث رابع

علم الكلام عند « النصارى »

علم الكلام هو الاجتهاد في الاعتقاد. والصراط المستقيم فيه هو الاقتصاد في الاجتهاد. وهذا ما يميّز عامة النصارى من بني إسرائيل عن سائر فرقهم ما بين إفراط في التهويد، وتفريط بتأثير الغنوصية الهلّنستية.

وعلم الكلام عند النصارى من بني إسرائيل يتطور بحسب أطوار تاريخهم. فلا بدّ من عودة لهذا التاريخ في عهد الفترة، لنستطلع فيه تطور علم الكلام عندهم.

تسرّبت الغنوص الهلّنستية إلى بني إسرائيل، لأنهم أرادوا استخدام الحكمة لبيان سمو الوحي الكتابي عليها بواسطة الغنوص الإسرائيلية. وورث النصارى من بني إسرائيل ذلك عنهم. وكانت الغنوص مزدهرة عند الأسينيين في قمران، كما نعرف من فيلون ومن مخطوطاتهم؛ فلمّا تنصّر أكثرهم تسلطت الغنوص على علم الكلام « النصراني » .

ويشهد هجسيب[1] في مطلع القرن الثاني بأن الغنوص ظهرت على أيام سمعان، أسقف أورشليم، خليفة يعقوب أخيه عام ٦٢؛ على يد **ظبوتس** « الذي أتى من الفرق القائمة في الشعب اليهودي » .

ومن فلسطين أتى **سيمون** الذي يعتبره جميع مؤرخي الهرطقات في المسيحية أبا الغنوص الطارئة عليها.

وظبوتس يمثل الغنوص « النصرانية » القويمة عندهم، وسيمون يمثل الغنوص المنحرفة في المسيحية.

---

(١) أوسابيوس : تاريخ الكنيسة ك ٤ ف ٢٢ ع ٥.

فالغنوص كانت عندهم مرادفاً لعلم الكلام وعلم السر في الوحي والرؤيا. وموضوعها علم الكونيات والأخرويات، كما نرى في صورة عنها في كونيات القرآن وأوصاف اليوم الآخر؛ وعلم سر المسيح في الكونيات والأخرويات، كما ذكر القرآن بأنه « كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » ؛ و « أنه لعَلَمٌ ـ لعِلْم ـ للساعة » .

فالظاهرة العامة هي في الغنوص « النصرانية » ، علم الكلام والوحي في الإلهيات والكونيات والأخرويات. وهذه الظاهرة صبغت « النصرانية » بصبغتها تجاه المسيحية.

فالظاهرة الكبرى على الاجتهاد في الاعتقاد عندهم أنه يقوم على الغنوص ـ أي « **العلم** » ـ المسيطرة على العالم الهلّنستي حينئذٍ، وقد تسرّبت إلى أهل الكتاب. فما انقضى العهد الرسولي، عهد صحابة المسيح، حتى كانت الغنوص مسيطرة على النصرانية، وباسمها يلاحقون المسيحية كما علمها بولس في كنائسه. فكانت رسالة الصوفية الثلاث ردّاً على الغنوص الهلّنستية واليهودية و « النصرانية » ، قائلاً إن « الغنوص السامية » ـ أي « العلم » المطلق ـ هي في المسيحية؛ لكن المسيحية تبني كلامها على الكتاب والسُنّة الرسولية، أما « النصرانية » **فبنت كلامها منذ البدء على الغنوص أي « العلم »** بحسب اصطلاحها، وقام هذا الاصطلاح **شعار الكلام « النصراني »** حتى القرآن، الذي يشيد به وبأهله : « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » النصارى (الشعراء ١٩٧)؛ « قلْ : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومَن عنده علم الكتاب » (الرعد ٤٥)؛ والقرآن نفسه هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » (العنكبوت ٤٩).

*

أولاً : الاجتهاد في الاعتقاد، على عهد الرسل الحواريين

١ ـ لم يكن الرسل، صحابة المسيح، من علماء الكلام؛ إنما كانوا حملة الإنجيل والدعوة إليه. وفي عهد الرسل الحواريين، قبل الحرب السبعينية،

ظلت العقيدة الإنجيلية على الصراط المستقيم، بحسب « حقيقة الإنجيل » (غلا ٢ : ٥). وكان لا بدّ من نشوب **المشكل الأول** في العقيدة الإنجيلية : هل شريعة التوراة لازمة لأهل الإنجيل أنفسهم؟

فتضاربت الآراء بين النصارى من بني إسرائيل، وبين المسيحيين من الأميين. قال النصارى بإقامة التوراة والإنجيل معاً. ونادى المسيحيون بتحرير المسيحية من الشريعة الموسوية. واستقطب الخلاف بين الفريقين، يعقوب، أسقف أورشليم، زعيم آل البيت، والنصارى من بني إسرائيل؛ وبولس، « رسول الأمم » زعيم الدعوة المسيحية بين «الأمّيين».

واحتكم الفريقان إلى مؤتمر الرسل في أورشليم عام ٤٩م. وبعد الشورى حسم بطرس، زعيم الرسل الخلاف، وأفتى بتحرير المسيحيين من الشريعة الموسوية، وأبقى النصارى من بني إسرائيل أحراراً في إقامة التوراة مع الإنجيل، فلم يتطرق المؤتمر لهذه الناحية. وأيده يعقوب وبولس، « فسكت الجمهور كله » (أع ١٥ : ١٢).

لكن غلاة النصارى من بني إسرائيل، بزعامة الفريسيين المتنصرين، ظلوا على موقفهم بفرض الشريعة الموسوية على المسيحية (أع ١٥ : ٥)، أو على الأقل بفرضها على أهل الإنجيل من بني إسرائيل (أع ٢١ : ١٧ ـ ٢٦). وكان همهم ملاحقة بولس لتعطيل دعوته. فكان على بولس أن يجاهد من داخل على جبهتين، ضد الفريسيين المتنصرين، « الأخوة الكذبة » (غلا ٢ : ٥) وضد اليهود، « أهل البتر » (فيل ٣ : ٢)؛ ومن خارج على جبهتين أيضاً ضد الحكمة اليونانية، وضد الغنوص ـ « العلم » ـ الهلّنستية.

٢ـ ففي **معركة تحرير المسيحية من اليهودية**، نرى أربع نزعات : اثنتين متطرفتين ما بين إفراط وتفريط، واثنتين معتدلتين ما بين يمين ويسار.

كانت **النزعة المتطرفة الأولى** عند بني إسرائيل « **الهلينيين** » ، من المسيحيين في المهاجر، الذين تذمروا على بني إسرائيل « **العبرانيين** » من النصارى

الفلسطينيين، في الحياة المشتركة. وكانت بزعامة الشهيد الأول اسطفان، ورفاقه الشمامسة (أع ٦ : ١ و١١)، القائلين بهجر الهيكل، عنوان الأمة، وترك الشريعة بروح الدين والدولة، بعد زوال مبرّراتها بظهور المسيح. وقد زالت هذه النزعة اليمينية المتطرفة باستشهاد أسطفان.

وكانت **النزعة المتطرفة الثانية**، على نقيض الأولى يسارية تتشيّع لشريعة موسى، وترغب فرضها على المسيحيين من الأمميّين. فهدفها الصريح تهويد المسيحية. وقد أفتى الرسل بإجماع مجمعهم في أورشليم بتحرير المسيحية من الموسوية، وترك النصارى من بني إسرائيل، أحراراً في إقامة التوراة والإنجيل معاً. فظلت هذه النزعة قائمة عند النصارى من بني إسرائيل، وتصلّبت وتجمدت بعد تنصّر الأسينيين ورهبانهم من قمران، فولدت الطرق المتطرفة في الكلام « النصراني » كما سنرى.

والنزعة الأولى المعتدلة كانت نزعة يعقوب، زعيم آل البيت، والنصارى من بني إسرائيل الفلسطينيين، الذين يؤمنون بالمسيح والإنجيل، ويقيمون أحكام التوراة، دون فرض سلوكهم على المسيحيين من الأمميين. وظلت هذه النزعة المعتدلة شعار النصارى من بني إسرائيل، طول عهد الفترة حتى القرآن؛ فجعلهم « شيعة النصارى » تجاه المسيحيين، أهل السُنّة الرسولية.

والنزعة الثانية المعتدلة كانت نزعة بولس وأعوانه وأنصاره المنادين بتحرير المسيحيين من الأميين من نير الشريعة الموسوية، ويسلكون بحسب أحكام الإنجيل وحده. لكنهم يحترمون الشريعة لأهلها، فلو يلتزمون بها، ولا يلزمون بها أحداً. وكان شعارهم : « ليس الختان بشيء، ولا القلف، بل الخليفة الجديدة » (غلا ٦ : ١٥)؛ « إذ لا قوة، في المسيح يسوع، للختان، ولا للقلف، بل للإيمان العامل بالمحبة » (٥ : ٦). وكان اعتمادهم على **سنة الرسل** في مجمع أورشليم عام ٤٩ م فكان المسيحيون من الأمميين، ومن « الهلينيين » الإسرائيليين.

المندمجين معهم « أمة واحدة » : **أهل السنة المسيحية**، بالنسبة لشيعة النصارى من بني إسرائيل.

٣ـ ومصدر الخلاف على « حقيقة الإنجيل » كان تعليم المسيح في مطلع دعوته، في الخطاب التأسيسي لملكوت الله : « لا تظنوا أني أتيت لأنسخ الشريعة والنبيين؛ أني ما أتيت لأنسخ بل لأكمّل » (متى ٥ : ١٧). **فهل هذا التكميل تعديل أم تبديل؟** هل هو تكميل يرقى من الحرف التوراتي إلى المعنى المقصود، أو تكميل على الحرف المعهود؟

لقد فهم المسيحيون أن **التكميل في الإنجيل تبديل**، من عهد قديم إلى عهد جديد (متى ١٩ : ٢٨؛ ٢٢ : ٢٧). فقد فسّر يسوع دعوته بتطوير الكلمات العشر من شرعة العدل إلى شرعة المحبة، ونسخ التحريم في الأطعمة، ونسخ الطلاق وتعدد الزوجات في الزواج المسيحي؛ أخيراً في نقل ملكوت الله « إلى أمة أخرى تؤدي ثماره » (متى ٢١ : ٤٣)، قائلاً « هو ذا بيتكم يُترك لكم خراباً » (متى ٢٣ : ٣٨). وفسر النبوءة لصحابته بقوله : « الحق أقول لكم : إنه لا يُترك ههنا حجر على حجر إلا ينقض » (متى ٢٤ : ٢). وحدّد الزمن بحصار الأمميين الآتي لأورشليم في الجيل الحاضر.

لكن النصارى من بني إسرائيل، في فلسطين، ومن دار في فلكهم في مهاجرهم، فقد فهموا أن **التكميل في الإنجيل تعديل**؛ فما الإنجيل سوى **تصديق للتوراة وتفصيل**. وذلك بسبب رواسبهم القومية والتوراتية، وبسبب مزجهم الدين والأمة في القومية والدولة : فالشريعة الموسوية باقية مهيمنة على الإنجيل. فعليهم أن يقيموا التوراة والإنجيل معاً، والختان والعماد معاً، والسبت والأحد معاً. ومتى طرأت عليهم نزعات كلامية متطرفة أقاموا التوراة على حساب الإنجيل. وهذه العقيدة « النصرانية » بأن الإنجيل تصديق التوراة وتفصيل هي التي **عبرت إلى القرآن** : « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم، مصدقاً لما بين يديه من التوراة » (المائدة ٤٦)؛ « وإذ قال عيسى ابن مريم : يا بني إسرائيل

إني رسول الله إليكم، مصدقاً لما بين يدي من التوراة » (الصف ٦)؛ « ومصدقاً لما بين يدي من التوراة، **ولأحل لكم بعض الذي حرّم عليكم** » (آل عمران ٥٠)؛ « قل : يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل » (المائدة ٧١).

وفي آخر العهد الرسولي، بعد أسر بولس (٥٨ ـ٦٣)، واستشهاد يعقوب عام ٦٢، تطور الخلاف من الشريعة إلى العقيدة في المسيح. وعبثاً حاول بولس في رسائل الأسر، وخلفاء يعقوب في « الرسائل الكاثوليكية » تثبيت التطور الثاني في العقيدة، على « حقيقة الإنجيل » . فلما وقعت الواقعة في الحرب السبعينية، كان أتباع المسيح قد انقسموا نهائياً إلى **سنة وشيعة : سنة المسيحيين** من الأمميين، العاملين في العقيدة والشريعة بحسب سنة الرسل؛ **وشيعة النصارى** من بني إسرائيل الذين يقيمون التوراة والإنجيل معاً، متشيعين للتوحيد التوراتي، والشريعة الموسوية، تحت زعامة آل البيت، ويرون لهم في ذلك فضلاً على المسيحيين.

*

ثانياً : ما بين النكبتين (٧٠ ـ١٣٥)، نشوء مدارس الكلام « النصراني »

بعد العهد الرسولي، وما بين النكبتين العظيمتين اللتين حلتا ببني إسرائيل عام ٧٠ وعام ١٣٥، فقضتا على بني إسرائيل في أمتهم ودولتهم ومدينتهم وهيكلهم، توطّد الانقسام إلى سُنّة وشيعة بين أتباع المسيح، وسار الشقاق في خطين متوازيين يتباعدان رويداً رويداً، بتأثير السنة الرسولية والثقافة الهلنستية على المسيحيين من الأمميين، وبتأثير القومية والثقافة اليهوديتين، وطغيان الغنوص الهلنستية، من دون السنة الرسولية، على النصارى من بني إسرائيل، فترسّخت فيهم روح الشيعة والنزعة التوراتية.

١ـ في هذه الفترة، بعد خراب أديرة قمران الأسينية، تنصّر كثيرون منهم، وحملوا معهم إلى « النصرانية » نظرياتهم اليهودية في التوحيد التوراتي، وفي

الشريعة الموسوية، وفي الكهنوت اللاوي. فازداد التيار الفريسي في « النصرانية » تهويداً بالتيار الأسيني القمراني. **وظهرت الأبيونية في النصرانية**، بتأثير كلام فيلون عليها، وبتأثير علم الغنوص الذي غزاها.

وصاروا يفسرون التثليث الإنجيلي بتعابير الكلام والغنوص، تفسيراً « ملائكياً » : فالمسيح، كلمة الله هو روح منه تعالى اسمه ميكائيل؛ وروح القدس هو روح منه تعالى اسمه جبرائيل، كما سنرى تفصيل ذلك. وصبغوا أحكام الإنجيل بأحكام التوراة، فقرنوا العماد بالختان، والأحد بالسبت، والصلاة الربية بالقبلة إلى أورشليم على مثال بني قومهم، لا إلى الشرق على مثال المسيحيين. ويقيمون الفصح المسيحي مع الفصح اليهودي. وقرنوا خصوصاً تكريم المسيح بتكريم موسى حتى كادوا يساوون بينهما. وأقاموا نهائياً على إقامة التوراة والإنجيل معاً.

٢ـ وتميّزوا خصوصاً بأمرين في مصادر الوحي الإنجيلي.

إنهم اعتمدوا، كما رأينا، الإنجيل بحسب متى وحده ـ من دون سائر أسفار العهد الجديد الذي تمّ جمعه وتدوينه في هذه الفترة ـ لأنه كتب لهم أولاً ونزل بلغتهم، ودوّن بحرفهم العبراني المقدس، ولغتهم الأرامية السريانية. **وقد أجمعت الشهادات على هذه الظاهرة** التي تميزهم عن المسيحيين. وقد نقل ابيفان في القرن الرابع شهادة إيريناوس فيهم منذ منتصف القرن الثاني : « يستعملون إنجيلاً وحيداً، هو الذي بحسب متى »[١]. وأهملوا الأناجيل الثلاثة الأخرى لأنها موجهة لغيرهم، وبلغة الأمميين؛ وأهملوا حتى « الرسائل الكاثوليكية » الموجهة إليهم، مع « الرسالة إلى العبرانيين » .

والظاهرة الأخرى، تنكّرهم المطلق لبولس وتعليمه ورسائله، وكانوا

---

(١) الشامل في الهرطقات (٣٠ : ١٦) :
« Solo autem eo, quod est secondum Mattheum, evangelio utuntur »

يسمونه « **المرتد**[1] » . وأخذوا يؤلفون في أصله وسيرته قصة خيالية زرية : فهو عندهم ابن جندي روماني ولد من زنى، ثم صار دخيلاً في إسرائيل. ولما طلب يد ابنة الحبر الأعظم ردّه رداً غير جميل، فارتد هو عن اليهودية، وانتحل المسيحية، وصار يحارب اليهودية، ويشنّع على الشريعة. إنه مرتدّ يستحق القتل شرعاً. وهذا ما حاولوه مراراً بإثارة المشركين عليه، وأخيراً لما أمسكوه في هيكل أورشليم كادوا يبطشون به (أع ٢١ : ٢٧ ـ٣١).

وتلكما الظاهرتان في « النصرانية » بتأثير الأبيونية، فقد رافقتنا النصارى حتى الحجاز، وعبرتا إلى القرآن : فهو لا يعرف إلا الإنجيل على المفرد المطلق، من دون إشارة إلى سائر العهد الجديد.

٣ـ وتميز النصارى من بني إسرائيل أخيراً، بتأثير الأبيونية، بالجمع بين **موسى وعيسى** على صعيد واحد، كما أقاموا التوراة والإنجيل معاً. فأنزلوا المسيح منزلة موسى لقوله فيه « النبي مثلي » (التثنية ١٨ : ١٥).

ونرى مطلع هذا التطور في رسائل العهد الجديد إليهم، حيث يحاول أصحابها الملهمون الوقوف بوجه تيار الفتنة فالبدعة فالردة، لكن بدون جدوى.

ونرى ختام هذا التطور، في منتصف القرن الثاني، عند يستين العالم الشهيد، ابن نابلس، والفيلسوف المسيحي في رومة. ففي (**الحوار مع تريفون**) يجادله في التوراة والإنجيل، ويقول : « يحق لليهودي المتنصر أن يعمل بالشريعة، شريطة أن لا يفرضها على المسيحيين من الأمم[2] » . وهذه سنة الرسل في مجمع أورشليم (أع ١٥ : ١ ـ ٣٤). ويصف تدهور العقيدة في المسيح عندهم بقوله : « من بني قومك من يعترفون بالمسيح، لكنهم يعلنون أنه **بشر من بين البشر**. وأنا لست من رأيهم، وكثيرون من الذين يفكرون مثلي لا يرضون برأيهم

(١) أوسابيوس : تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ٢٧؛ مجموعة الآباء اليونان ك ٢٠ ص ٢٧٣.
(٢) يستين : الحوار مع تريفون ٢٧ : ١ ـ ٣.

لأن المسيح نفسه أمرنا ألا نطيع تعاليم بشرية[1] » . فالمسيح عند النصارى من بني إسرائيل بشراً، وصار مسيحاً على الاصطفاء[2]. ويضيف الكلام الأبيوني أن المسيح نزل على عيسى يوم عماده وفارقه قبل استشهاده.

هذه شهادة قيمة على عقيدة النصارى من بني إسرائيل في المسيح، منذ منتصف القرن الثاني. وكان الحوار مع تريفون غداة النكبة الثانية. وهذه العقيدة « النصرانية » في المسيح هي التي انتقلت مع هؤلاء النصارى إلى الحجاز وعبرت إلى القرآن.

وفي أواخر القرن الأول ومطلع الثاني بدأ تياران آخران، **بتأثير الغنوص**، ينحرفان بالنصرانية : **دعوة الكيرنثية** التي تجنح إلى التهويد المتطرف، **والكسائية** المتطرفة التي تجنح إلى الهلنستية. لكن في هذه الفترة كان التأثير الأقوى للأبيونية فصبغ النصرانية بصبغته.

والتيارات الثلاثة، في الكلام النصراني أن المسيح « **بشر بين البشر** » كما ينقل يستين عنهم في منتصف القرن الثاني، وإن سموه كالمسيحيين « ابن الله » فهذا على الاصطفاء والمجاز.

هذا ما انتهى إليه الكلام النصراني بتأثير الروح التوراتية والغنوص الهلنستية، في نشوء مدارس الكلام النصراني.

*

ثالثاً : من هجرة النصارى من أورشليم، حتى هجرتهم إلى الحجاز
(١٣٥ ـ ٤٥٠)

العدو الأكبر والأول للمسيحية كانت الغنوص الهلنستية ـ « العلم » بحسب

---

(١) يستين : الحوار مع تريفون ٢٨ : ٩.
(٢) يستين : الحوار مع تريفون ٢٩ : ١.

اصطلاحهم ـ التي غزت الكلام اليهودي، وعبرت إلى الكلام النصراني منذ أوائله. وسيطرت الغنوص على الكلام النصراني في جميع فرقه، باتجاهات مختلفة.

وفي هذه الفترة الطويلة، من هجرة النصارى من أورشليم حتى هجرتهم الجماعية إلى الحجاز (١٣٥ ـ٤٥٠)، **تبلورت مدارس الكلام المختلفة في « النصرانية » .**

بدأت النصرانية المتشيعة للتوراة وإمامة آل البيت، تصطبغ بالصبغة الأبيونية، بتأثير الكلام الأبيوني والغنوص الهلنستية، حتى أخذ الناس يطلقون على النصارى من بني إسرائيل **صفة « أبيونيين » .**

ظن بعضهم قديماً وحديثاً أن اسمهم يأتي من « أبيون » ، اسم شخص صاحب البدعة، مثل كيرنثس أو الكسائي، مؤسّسي الكيرنثية والكسائية. لكن « أبيون » اسم لغة، لا اسم شخص. وهو يعني في اللغة الأرامية السريانية « الفقير » ، كما كان يعيش « أبيونيو » ـ فقراء ـ قمران على مثال فقراء الهند. وفي تنصّرهم اتخذوا اسم « أبيونيين » شعاراً لهم، من كلمة المسيح : « طوبى للفقراء » أي بلغتهم « طوبى للأبيونيين » . فزعموا أنهم يحققون المثال الإنجيلي.

وتأثير الروح القمرانية الرهبانية فيهم يظهر من دعوتهم إلى تحريم الذبائح الموسوية، مع إقامتهم لأحكام التوراة مع الإنجيل؛ ولممارستهم الوضوء الكامل اليومي مثل الصابئين، تلاميذ يحيى المعمدان ـ وكلا الفريقين متأثر بطريقة رهبان قمران؛ ولاستعمالهم الماء بدل الخمر، مع الخبز الفطير، في القربان[1]. فهل في **تحريم القرآن للخمر** ـ مع أن التوراة والإنجيل يبيحانها ـ صدى لتحريم النصرانية الأبيونية لها؟

وعلى تطور النصرانية إلى الأبيونية، لدينا في القرن الثالث شهادة أوريجين

(١) قابل ابيفان : الشامل في الهرطقات (٣٠ : ١٦).

في (الرد على كلسس[١]) : « إن كلسس لا يعرف أن الذين آمنوا بالمسيح من اليهود لم يتركوا شريعة آبائهم، بل هم يسلكون بموجب أحكامها حتى اليوم. واسمهم (أبيونيون) مشتق من فقر تلك الشريعة. فالفقير يقال له عند اليهود : أبيون. واليهود الذين يؤمنون أن يسوع هو المسيح اتخذوا اسم أبيونيين » . ويضيف : « بعضهم على رأي الأرثذكسيين، وبعضهم يعلمون أن يسوع ولد كسائر الناس[٢] » . ويقول فيهم أيضاً : « إن النصارى الأبيونيين فئتان : فئة تقول بمولد المسيح المعجز ؛ وفئة تقول بمولده الطبيعي من رجل ومريم. ولكن الفئتين تنكران أزليته » أي إلهيته[٣]. لذلك يميزهم ابيفان بصراحة إلى نصارى وأبيونيين كما سنرى. ألا ترى أن عقيدة النصارى من بني إسرائيل في المسيح هي **عقيدة القرآن** نفسه؟

في القرن الرابع يصفهم علماء المسيحية خير وصف. ونحن نكرر هنا نقل شهادتهم تتميماً للوحة التاريخية في تطور علم الكلام « النصراني » .

عقد أوسابيوس[٤] فصلاً في الأبيونيين، حيث يُغرق فيهم النصارى، ـ وهذا دليل على سيطرة الكلام الأبيوني على النصرانية ـ جاء فيه : « منذ البدء سموهم بحق أبيونيين، لأن لهم في المسيح آراء فقيرة وحقيرة. فهم يعتبرونه كسائر الناس رجلاً بشراً، تزكى بالنمو في الفضيلة. **قد ولد من رجل ومريم.** وهم يقيمون شريعة موسى، لأنه، في عرفهم، لا خلاص بالإيمان بالمسيح وحده، مع السلوك بموجب هذا الإيمان. لكن إلى أولئك، هناك قوم آخرون ـ (هم النصارى) ـ **يحملون اسمهم من دون حماقتهم.** فهؤلاء لا ينكرون أن الرب **ولد من العذراء**

---

(١) الرد على كلسس (ك ٢ ف ١)، مجموعة الآباء اليونان ك ١ ص ٧٩٣.
(٢) الرد على كلسس (ك ٥ : ف ٦١)، مجموعة الآباء اليونان ك ١١ ص ١٢٧٧.
(٣) الرد على كلسس (ك ٥ : ف ٦٥)، مجموعة الآباء اليونان ك ١١ ص ١٢٨٨.
(٤) تاريخ الكنيسة (ك ٣ ف ٢٧).

والروح القدس. مع ذلك فهم على مثالهم لا يشهدون بأزليته، مع أنه إله والكلمة والحكمة. وهكذا يرجعون **إلى كفر الأولين**. ويزيد ذلك بياناً أنهم على مثالهم يجعلون غيرتهم كلها في إقامة أحكام الشريعة الجسدية (أي التوراتية) بدقة ... فهم يحفظون السبت وسائر الأحكام اليهودية، لكنهم يحتفلون بالأحد مثلنا تقريباً، ذكراً لقيامة المخلص. فسبب هذا السلوك أطلق عليهم اسم (أبيونيين) الذي يُظهر فقر عقلهم. وهذا معنى كلمة فقراء عند العبرانيين » . إن أوسابيوس يجمع النصارى المحافظين والأبيونيين المنحرفين تحت اسم الأبيونيين، وهذه ظاهرة البدعة المسيطرة.

والعلامة جيروم من بعده يرادف أيضاً بين النصارى والأبيونيين مع تمييز لطيف. كتب إلى أغسطين[1] : « وماذا أقول في الأبيونيين؟ ... إنهم كما تسميهم العامة النصارى » . فالاسم الشعبي : نصارى؛ والاسم العلمي : أبيونيون. ويقول فيهم[2] : « إنهم يؤمنون بالمسيح، ابن الله، الذي ولد من العذراء مريم، ويقولون إنه هو الذي تألم على عهد بنطيوس بيلاطس وقام. وهذا عينه ما نؤمن به. لكنهم، بما أنهم يريدون أن يكونوا في الوقت عينه يهوداً ومسيحيين، **فهم ليسوا يهوداً وليسوا مسيحيين** » ـ بل « **أمة وسطاً** » كما سيقول القرآن. وإذا ما سمّوا المسيح « ابن الله » فهذا على سبيل المجاز، لا على سبيل الحقيقة والواقع. وجيروم يميز بينهم عند التدقيق، كقوله[3] : « هذا موجود في الإنجيل الذي نقلناه حديثاً **من العبرانية إلى اليونانية**، والذي يستعمله **النصارى والأبيونيون**. ويعتقد الكثيرون أنه الإنجيل الأصيل بحسب متى » .

وابيفان، الأسقف من فلسطين، يعقد في (الشامل في الهرطقات) فصلاً في

---

(١) الرسالة (٨٩ : ١٣). وهذا حرفها اللاتيني :

« Quid dicam de Ebionistis? ... quos vulgo Nazaraeos nuncupant »

(٢) الرسالة ١١٢ إلى أغسطين، مجموعة آباء اللاتين ٢٢ ص ٩٢٤.

(٣) في تفسير الإنجيل بحسب متى (١٢ : ١٣).

النصارى (٢٩) وفصلاً في الأبيونيين (٣٠). فهو يميز بعضهم عن بعض تمييزاً صريحاً. ويقول في النصارى[١] : « إن النصارى من بني إسرائيل **نزعتهم التهويد**. قضية واحدة تميزهم عن المسيحيين وعن اليهود : إنهم يتميزون من اليهود بإيمانهم بالمسيح، ويتميزون عن المسيحيين بإقامة الشريعة والختان والسبت وسائر الأحكام التوراتية » ـ فهم كانوا كما سيقول القرآن « **أمةً وسطاً** » بين اليهودية والمسيحية. ولكنه يتساءل في الموضع نفسه، هل هم يعتبرون المسيح مولوداً بشراً كما يقول كيرنثس وميرنثس، أم كما هي الحقيقة مولوداً من الروح القدس بواسطة مريم. ونعرف من سائر الشهادات أن النصارى يقولون بالمولد البتولي المعجز، بخلاف الأبيونيين. والقرآن على مقالة النصارى.

هكذا سيطر الكلام الأبيوني على العقيدة « النصرانية » فصبغها بصبغته التوراتية الغنوصية، ولغته « الملائكية » في التثليث المسيحي : فما كلمة الله، وروح القدس، عندهم سوى روحين من الملائكة المقربين؛ وكلمة الله هو روح من أمره تعالى ألقاها إلى مريم فولدت المسيح مولداً معجزاً، فكان عيسى ابن مريم. وتلك هي عقيدة القرآن في المسيح.

ووصلت هذه العقيدة إلى علماء رومة فنقل عنهم هيبوليت[٢] : « إنما سمّي مسيحاً، وإلهاً، تسميةً » أي على سبيل المجاز. ووصلت إلى المغرب، فقال فيهم ترتليان[٣] : « **المسيح في نظرهم بشر محض، لكنه أسمى من الأنبياء جميعاً، لأن فيه روحاً ملائكياً** » ـ وهذا أصح وصف لعقيدة القرآن في المسيح.

وعلى هامش الكلام الأبيوني في « النصرانية » ، كانت الكيرنثية والكسائية

---

(١) الشامل في الهرطقات (٢٩ : ٧)، مجموعة الآباء اليونان ك ٤١ ص ٤٠١.
(٢) هيبوليت : الفيلسوف ٧ : ٣٣ ـ ٣٤.
(٣) ترتليان : في جسد المسيح ف ١٤، مجموعة آباء اللاتين ك ٢ ص ٨٢٣.

تترعرعان **كبدعتين** في النصرانية نفسها. لكنه كان يتسرب منها شيء إلى النصرانية ذاتها، ويتفاعل معها في العقيدة الشعبية.

*

رابعاً : الفرق الكلامية النصرانية قبل الهجرة إلى الحجاز

قبل هجرة النصارى إلى الحجاز في منتصف القرن الخامس، بعد إعلان المسيحية دين الدولة، كانت تتنازع النصرانية ثلاث فرق مختلفة في علم الكلام المبني على الغنوص : الأبيونية المعتدلة نسبياً، والكيرنثية الموغلة في التهويد، والكسائية الموغلة في الغنوصية. وهذه لمحة عن عقائد كل فرقة.

١ـ الأبيونية

تمثل الأبيونية صيغة الكلام الأول المعتدل في انحرافه، الاقتصاد في الاعتقاد عند النصارى من بني إسرائيل. هذا الانحراف المقتصد، في الأبيونية، نشأ كما رأينا من تنصر بعض الفريسيين، ثم بعض الأسينيين القمرانيين، ومن تشيعهم المفرط للتوراة ولإمامة أهل البيت. وقد بنوا كلامهم « النصراني » على الغنوص التي نقلوها معهم من اليهودية[١]. وإجماع العلماء أن الأبيونية ظهرت مع تنصّر الأسينيين، بعد الحرب السبعينية.

ففي **عقيدة الخلق والخليقة**، يرون أن الله منذ البدء خلق عنصرين متضادين، عنصر الخير وعنصر الشر؛ وقسم الخليقة إلى دهرين، الدهر الحاضر وسيده إبليس، والدهر الآتي وسيده المسيح. وهذه النظرية تمتد من الغنوص الهلنستية إلى اليهودية فالنصرانية.

وأصل الشر في الإنسان، ليس من آدم، بل من زواج أبناء الله (بعض الملائكة) ببنات الناس. فهم ينكرون بصراحة وراثة خطيئة آدم، ويجعلونه النبي **الأول**

---

(١) Culmann : Christologie du Nouveau Testament p. 126 - 127.

في سلسلة أنبياء الله : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » (آل عمران ٣٣٥). وعقيدة **عصمة آدم ونبؤته** قد انتقلت مع النصارى إلى الحجاز وعبرت إلى القرآن : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم » (البقرة ٣٧)، « وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » (طه ١٢١ -١٢٢). فالأبيونية تنكر خطيئة آدم، لكن النصرانية تقول بخطيئته وتوبته مثل القرآن.

والنبوة وجدت منذ آدم. والنبي الحق ظهر في آدم ونوح وآل إبراهيم، وآل عمران، حتى استقر في المسيح[1]. لذلك، لكل قوم هاد، ولكل أجل كتاب، كما يقول القرآن أيضاً. لكن المسيح هو خاتمة النبوة والكتاب، فهو النبي الأعظم[2] كما وعد موسى (التثنية ١٨ : ١٥). فالنبوة كلها واحدة، والكتاب واحد مع النبيين (قابل البقرة ٢١٣).

والدين والتوحيد والإسلام واحد من آدم إلى نوح، إلى إبراهيم، إلى موسى إلى عيسى المسيح. لذلك ما شرعه الله من الدين، مع آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، يلزم أهل الكتاب، كما يلزم المتقين من الأمّيين (قابل الشورى ١٣).

ففي نظر النصارى الأبيونيين، يسوع هو ختام النبوة والكتاب، لكن يظل موسى بشريعته إماماً ورحمة للعالمين (قابل هود ١٧، الأحقاف ١٢).

وبشأن **مولد المسيح** حافظت النصرانية على الإيمان بمولده المعجز من أم بتول لم يمسها بشر؛ أما الكلام الأبيوني فقال بمولده الطبيعي من أب وأم كسائر البشر. وقد نقلنا شهادة أوسابيوس وابيفان في موقف الفريقين. وعقيدة القرآن هي شهادة النصارى.

ففي مولد المسيح المعجز، كما يقول النصارى؛ أو في عماده كما يقول الكلام

---

(١) ابيفان : الشامل في الهرطقات ٣٠ : ٣.

(٢) قابل بلاغات بطرس، Kerygmata Petrou وهو كتاب نصراني.

الأبيوني؛ اتحد كلمة الله بابن مريم. **فالمسيح في شخصيته** هو كلمة الله وروح منه تعالى، سيد الأرواح العلوية حلّ فيه، كما نقل عنهم أوريجين الذي عرفهم في مصر وفلسطين وسوريا[1] وهذه هي عقيدة القرآن (النساء ١٧٠).

ويرون **في موت السيد المسيح** وقيامته استشهاداً ورفعاً إلى السماء، أكثر منه فداءً من الخطيئة.

ويفسرون **التثليث الإنجيلي** بلغة ملائكية تقلب التثليث إلى توحيد توراتي. فروح القدس هو عندهم جبرائيل، ملاك الروح القدس؛ وكلمة الله هو عندهم ميخائيل، ملاك كلمة الله، زعيم الملائكة المقربين. وهذه هي صفة روح القدس، وصفة كلمة الله، في القرآن (النحل ١٠٥؛ النساء ١٧٠). بهذا التعبير الملائكي، ذاب التثليث الإنجيلي في التوحيد التوراتي.

لذلك كان ايريناوس يقول فيهم : « إنهم منحرفون في عقيدتهم بالمسيح[2] » . فالمسيح هو النبي الأعظم على « مثل » موسى، لكن ليس له صفة المخلص والفادي[3]. فلا بنوة حقيقة ولا إلهية صحيحة في المسيح، إنما هو ابن الله، وإله، على سبيل المجاز[4] .

ففي عرف الكلام النصراني الأبيوني، ليس من تثليث إنجيلي يأنف منه التوحيد التوراتي، ولا من بنوة حقيقية لله في المسيح تجعله « **إلهاً** من إله » ؛ ولا من فداء وخلاص بصلبه يغني عن ذبائح الشريعة. فنبوءة المسيح تصديق وتفصيل لنبوءات الكتاب، وإن كان المسيح النبي الأعظم؛ ورسالته تكميل رسالات

---

(١) أوريجين : الرد على كلسس (٥ : ٦١)، مجموعة الآباء اليونان ك ١١ ص ١٢٧٧.
(٢) الرد على الهرطقات (ك ٤ ف ١١ ع ٧)، مجموعة الآباء اليونان ك ٨ ص ٨٨٤.
(٣) الرد على الهرطقات (ك ٤ ف ٣٣؛ ك ٥ ف ٨)، مجموعة الآباء اليونان ك ٧ ص ١٠٧٤ وص ١١١٢.
(٤) الرد على الهرطقات (ك ٣ ف ٢١)، مجموعة الآباء اليونان ك ٧ ص ٩٤٦.

الكتاب، وإن كان الرسول الأعظم. لقد أفرغ الكلام الأبيوني في النصرانية الإنجيل من عقائده الثلاث، **التثليث والتجسد والفداء**، كما تنادي بها المسيحية. وتلك هي « النصرانية » التي ينسبها القرآن إلى المسيح.

يأخذ المسيح اسم « **المصطفى** » عند النصارى من بني إسرائيل : « في الجنة رأت عيوني مصطفى العدل والصدق. رأيت مقامه تحت أجنحة سيد الأرواح[1] » .

ويذكر الكلام النصراني **سجود الملائكة لآدم**، ورفض إبليس وملائكته السجود له، وطرد الله لهم من الجنة[2] . وترد هذه القصة سبع مرات في القرآن (٢ : ٢٤؛ ٧ : ١٠؛ ١٥ : ٣٠؛ ١٧ : ٦١؛ ١٨ : ٥١؛ ٢٠ : ١١٦؛ ٣٨ : ٧٣).

وكان الأبيونيون على العموم **يحرّمون التبتّل**، ويحرضون على الزواج[3] . وقد رشح هذا الاستنكار إلى القرآن في « رهبانية ابتدعوها » (الحديد ٢٧).

وكان الأبيونيون مثل كل النصارى من بني إسرائيل يمارسون الوضوء اليومي، والغسل من الجنابة، كما جاء في القرآن : « وإن كنتم جنباً فاطهروا » (المائدة ٧).

وسنتوسع في باب العقيدة والشريعة في هذه المطابقات.

نختم بهذه **الصورة للأبيونية** كما وصفها ابيفان في أواخر القرن الرابع : « إنهم يقبلون **الإنجيل بحسب متى** وحده، ويستعملونه من دون غيره، ويسمونه **الإنجيل بحسب** العبرانيين. وهو ناقص[4] . وعندهم، مع العماد وضوء شامل كل يوم للتطهير[5] . ويعيدون كل سنة لبعض الأحداث والأسرار مثل الكنيسة

---

(١) كتاب « أخنوخ » ٣٩ : ٣.
(٢) كتاب « آدم وحواء » ١٢ : ١٦.
(٣) ابيفان : الشامل في الهرطقات (٣٠ : ٢)، مجموعة الآباء اليونان ك ٤١ ص ٤٠٨.
(٤) لان الأبيونيين يسقطون منه فاتحته أي الفصلين الأولين في قصة المولد المعجز، لكن النصارى من بني إسرائيل على العموم يحتفظون بهما، ويؤمنون بالمولد المعجز، مثل القرآن نفسه.
(٥) وهذا يقربهم من المندائية المغتسلة أي الصابئة، جماعة يوحنا المعمدان.

والمسيحيين. وفي قداسهم يستعملون الخبز الفطير، مع الماء القراح (بدل الخمر[١]). ويقولون: إن الله خلق منذ البدء كائنين، المسيح وإبليس؛ للأول أخضع الدهر الآتي، وللثاني أخضع الدهر الحاضر[٢] . ويقولون أيضاً : إن المسيح ولد من زرع بشري[٣] ، ثم اصطفاه الله، فسمّي بهذا الاصطفاء « ابن الله » لأن روح القدس نزل على يسوع شبه حمامة. ذلك يقولون أيضاً: إن يسوع المسيح ليس مولوداً **من الله، بل مخلوقاً كأحد الملائكة المقربين وعظيمهم.** أتى إلى العالم وعلم قائلاً : إني أتيت إلى العالم لأنقض الذبائح، فإن لم تمتنعوا عن الذبح فغضب الله لا يتحول عنكم » (الشامل في الهرطقات ٣٠ : ١٦).

فموجز عقيدة الأبيونيين، مثل سائر النصارى من بني إسرائيل، أن المسيح هو رئيس الملائكة المقربين ألقي إلى مريم، « المسيح عيسى ابن مريم، رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ... لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون » (النساء ١٧٠ ـ١٧١). فهم ينكرون التثليث، وإلهية المسيح، والفداء بصلبه. فرسالة المسيح هي التعليم فقط بتفصيل التوراة.

*

٢ـ الكيرنثية التهويدية

على هامش الأبيونية، تمت حركة تهويدية للنصرانية، هي الكيرنثية. قام بها كيرنثس من فلسطين إلى أفسس، عاصمة آسيا الرومانية. فكان العدو الأكبر لتعليم بولس، ثم لتعليم يوحنا. كان كيرنثس قبل تنصّره تلميذاً لفيلون ولأفلاطون.

---

(١) هذا دليل على تحريم الخمر إطلاقاً عندهم، كما جاء في القرآن.
(٢) وهذا برهان سيطرة الغنوص على كلامهم.
(٣) وهذا تنكره النصرانية الشائعة.

فالكيرنثية تطرّف في الأبيونية، **لتهويد النصرانية**. هذه هي ميزتها الكبرى. يقول فيهم ايريناوس[١] : « ما يعتقده الأبيونيون بشأن الرب (أي المسيح) يشبه اعتقاد كيرنثس وكربوكراتس فيه » . وينقل هيبوليتس وتيودوريتس ما يقوله ايريناوس من وحدة العقيدة ما بين الكيرنثية والأبيونية المتطرفة. وأبيفان[٢] يجمع معاً كيرنثس وأبيون، ويجعل كيرنثس زعيم التهويد في كنيسة أورشليم على عهد الرسل، وخصم بولس الأكبر يتعقبه، مع قرينه طيبوتس، في كل مكان[٣] . ويذكر ابيفان وحدة العقيدة بين الكيرنثية والأبيونية المتطرفة[٤] ويقول : إنهم يعتمدون جميعاً إنجيلاً واحداً ناقصاً[٥] يسمونه (الإنجيل بحسب الاثني عشر رسولاً)[٦] . وهو في الأصل الإنجيل بحسب متى العبراني[٦] . لكن هذه التسمية مختصة بالكيرنثية.

ينقل أوسابيوس في (تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ٢٨ ع ٦) عن ايريناوس أن كيرنثس في آخر حياته وصل بدعوته إلى أفسس، وكان خصم يوحنا الرسول وزعيم الكافرين بتجسد كلمة الله، وعليه يرد يوحنا في الإنجيل والرسالة، وكان يأنف من حضوره، فلا يدخل مكاناً فيه كيرنثس.

ولم تتميز الكيرنثية عن الأبيونية إلا في القرن الثالث[٧] ، حيث أوغلت في التهويد. وأول من نوّه بذل كان ديونيسيوس الاسكندري، كما نقل عنه

---

(١) الرد على الهرطقات (١ : ١٦) مجموعة الآباء اليونان ك ٧ ص ٦٩٥.
(٢) الشامل في الهرطقات (٥١ : ٦)، مجموعة الآباء اليونان ك ٤١ ص ٨٩٨.
(٣) الشامل في الهرطقات (٢٨ : ٢ و٤)، مجموعة الآباء اليونان ك ٤١ ص ٣٨٠.
(٤) الشامل في الهرطقات (٣٠ : ١٨؛ ٥١ : ٦؛ ٦٩ : ٢٣) مجموعة الآباء اليونان ك ٤١ ص ٤٣٦ و٨٨٧؛ ك ٤٢ : ٢٣٧.
(٥) الشامل في الهرطقات (٣٠ : ٣) مجموعة الآباء اليونان ك ٤١ ص ٤٠٩.
(٦) الشامل في الهرطقات (٨٩ : ٤٣ ٦ـ٧)
(٧) D. T. C. T VIII p. 1703- 1707.

أوسابيوس[١] . فلم يكن كيرنثس من مواليد مصر، ولا من دعاة الغنوص، كما توهّم بعضهم. إنما هو نصراني متطرف أراد تهويد النصرانية مع « الغيورين » من اليهود الذين تنصّروا معه[٢]. فهؤلاء « الغيورون » نقلوا معهم نظريتهم اليهودية إلى النصرانية، في المسيح رسولاً قومياً يخضع العالم لسيطرة إسرائيل. وهذا لم يفعله يسوع في مجيئه الأول، لكن سيفعله في مجيئه الثاني **وحكمه ألف سنة** مع الصديقين قبل يوم الدين.

فتتميّز الكيرنثية عن الأبيونية بعقيدة **ملكوت المسيح الأرضي**، مدة ألف سنة، عند مجيئه الثاني. ويتصورونه جنة غناء، فيها من كل فاكهة زوجان، مع الحور العين كاللؤلؤ والمرجان، كما نقل أوسابيوس[٣] عن ديونيسيوس الاسكندري. يقول أيضاً[٤] : « وهذا موجز تعليمه : **ملكوت الله سيكون أرضياً**. وبما أنه هو نفسه يحبّ جسده، وكان شهوانياً، فهو يحلم أن هذا الملكوت يقوم على الأشياء التي يشتهيها، أي الطعام والشراب ولذة الجسد » . **فجنّة الله في أرضه**، مثل قوله : « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهارمن لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كلّ الثمرات، ومغفرة من ربهم » (محمد ١٥)؛ « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون » (يس ٥٥ ـ ٥٧)؛ « إن المتقين في مقام أمين، في جنات وعيون، يلبسون من سندس واستبرق متقابلين، كذلك وزوجناهم بحور عين » (الدخان ٥١ ـ٥٤). فجنتهم هي جنة القرآن.

---

(١) تاريخ الكنيسة ك ٧ ف ١٥.
(٢) قابل Daniélou : Théologie du Judéo- Christianisme p. 80.
(٣) تاريخ الكنيسة ك ٧ ف ٢٥، ٢٥ مجموعة الآباء اليونان ك ٢٠ ص ٢٧٦.
(٤) تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ٢٨ ع ٤.

وكان أتباع كيرنثس يحيون رجعة المسيح بولائم رمزية صاخبة. وقد قصدهم يهوذا الرسول بقوله : « لقد اندسّ منافقون يحوّلون نعمة إلهنا إلى عهارة. وينكرون سيدنا وربنا يسوع المسيح ... إن أولئك قوم دنسون، في مآدبكم الحبيّة التي تقيمون، حيث في وقاحة يرغدون، وأنفسهم يعلفون » (١٤ و١٢).

وعقيدتهم في المسيح يهودية : إنه رجل عادي كسائر الناس، حل المسيح على عيسى في عماده وفارقه قبل استشهاده، كما يبدو لهم من قول يسوع على الصليب : « إلهي! إلهي! لماذا تركتني؟ » . فالمسيح حي لا يموت، وما قتله اليهود وما صلبوه، إنما صلبوا وقتلوا يسوع، ابن يوسف ومريم. تلك نظرة اليهود التي يرد عليها الإنجيل بحسب يوحنا : قال يسوع لليهود « وأنا متى رُفعت عن الأرض جذبتُ إلي الجميع. فأجابه اليهود : لقد علمنا من الشريعة أن المسيح خالد إلى الأبد، فكيف تقول أنت : ينبغي أن يرفع ابن البشر! فمن هو ابن البشر هذا؟ » (٢ : ٣٢ ـ٣٣). فنشعر أن يوحنا الرسول يرد بهذا التعليم على كيرنثس وقصة الشبه في موت المسيح نفسه.

تلك كانت بدعتهم منذ ظهورهم كما نقل عنهم يستين[١] في منتصف القرن الثاني. ينقل عنهم أيضاً ايريناوس[٢] : « يسوع لم يولد من بتول ـ هذا الأمر يظهر له مستحيلا. بل كان، على زعمه، ابن يوسف ومريم، شبيهاً بسائر البشر، لكنه يفوقهم بقداسته وفطنته وحكمته. وفي عماده حلّ المسيح عليه شبه حمامة، نازلاً من المجد الأسمى. فبشر حينئذ بالآب المجهول، وعمل المعجزات. لكن في ختام دعوته ارتفع المسيح من يسوع، وقاسى يسوع الآلام والموت، ثم قام. بينما المسيح، وهو كائن روحي، لم يكن عرضة للآلام والموت » . ففي الكيرنثية « النصرانية » مصدر قصة الشبه في موت المسيح (قابل النساء ١٥٧).

---

(١) الحوار مع تريفون (ف ٤٧)، مجموعة الآباء اليونان ك ٦ ص ٥٧٦.
(٢) الرد على الهرطقات ك ٢ ف ٣ ع ٤.

ونقل عنهم أيضاً ابيفان[1] في أواخر القرن الرابع : يوم عماد يسوع حلّ عليه روح القدس شبه حمامة، فصار «ابن الله» بالتبني، على سبيل المجاز، أي المسيح. وروح القدس، أمه، تقول له : «أنت ابني، فيك رضاي، اليوم ولدتك» ! ففي العبرية والأرامية الروح مؤنث؛ وبإسناد هذا القول للروح القدس، يظهر الروح القدس أماً للمسيح في عماده. ولعل في هذه العقيدة الكيرنثية مصدر قوله : «أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله» (المائدة ١١٩)؛ فيكون المسيح المخلوق وروح القدس، أمه إلهين من دون الله.

وكان الكيرنثيون لا يقيمون القربان، عشاء الرب، إلا مرة واحدة في السنة، مع الفصح الموسوي، وللذكرى فقط ، لا للتجديد، وبالخبز والماء بدل الخمر. فتحريم الخمر يعم «النصرانية» قبل القرآن.

وهكذا تظهر الكيرنثية أكثر النزعات «النصرانية» تهويداً : فهم يوحدون بين موسى وعيسى، وبين التوراة والإنجيل، وبين الختان والعماد، والسبت والأحد، والفصح الموسوي والفصح المسيحي، في اليوم نفسه، ١٤ نيسان القمري. ففي عرفهم كتاب موسى هو الإمام، وما الإنجيل سوى تصديق له وتفصيل.

فالكيرنثية تهويد كامل للإنجيل. لذلك لم تسيطر على «النصرانية» . لكنه تسرّب منها «للنصرانية» أشياء. وخمدت حدتها قبل هجرة النصارى من بني إسرائيل إلى الحجاز.

*

٣ـ الكسائية الغنوصية

جاءت الكسائية، معتمدة على الغنوص الهلنستية، ردّة فعل على الكيرنثية المتطرفة في التهويد.

---

(١) الشامل في الهرطقات (٣٠ : ١٣)، مجموعة الآباء اليونان ك ٤١ ص ٤٢٩.

كان الكسائي « نصرانياً » من شرق الأردن. نقل هيبوليت[1] : إن الكسائي يصوّر الحياة المسيحية على صورة الشريعة الموسوية؛ ويقول بأن على المؤمنين أن يختتنوا، وأن يسلكوا بموجب أحكام التوراة. ويقول ابيفان[2] : إن الكسائي خرج من النصارى اليهود، وهو يفكر على طريقتهم. وكان يأمر أتباعه باتخاذ أورشليم قبلة لهم في الصلاة، على مثال اليهود، لكنه يتميز عنهم بتحريم الذبائح ضحية لله، ويجيزها للطعام.

وعقيدة الكسائية **في النبوة** تقوم على الظهور المتواتر عبر الدهور للنبي الحق، منذ آدم حتى المسيح. نفخ الله من روحه في آدم فكان **النبي الأول** على الدين الحق، لأن روح الله سكن فيه[3] . لكن الجنس البشري من بعده، بتأثير المادة الفاسدة ـ وهذه نظرية غنوصية ـ أفسد تلك الديانة. والمادة الفاسدة في الإنسان تمثلت خصوصاً **في المرأة**، علة الشهوة والضلال والإثم. من هنا كان القول المأثور : المرأة شر كلها وشر ما فيها أنه لا بدّ منها.

لكن الله، كأب حنون للجنس البشري، أنزل روحه على أنبيائه لعصمتهم وحفظ دين الحق، بشكل هابيل وأخنوخ وإدريس وإبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى. وموسى سلّم تعليمه لسبعين رجلاً كي يبلغوه لبني إسرائيل، وكان يُحفظ بالحديث. وبعد موسى بزمن طويل دوّن في الكتب، بعد أن تشوه بالنقل الشفوي، حتى لا يعرف صحيحه إلا الأمة الناجية من بني إسرائيل، وهي **جماعة الأسينيين**. فهم وحدهم حفظوا تعليم موسى الصحيح؛ أما سائر بني إسرائيل فلم يفهموا دين الحق، بل غرقوا في المحسوسات، وحوّلوا الدين إلى طقسيات، مثل ذبائح الهيكل، ورماد العجلة، وهو منها براء.

أخيراً أرسل الآب روحه القدس **فحلَّ على عيسى ابن مريم فصار المسيح.**

---

(١) المختارات ٩ : ١٤.
(٢) الشامل في الهرطقات ك ١٩ ف ١ ع ٥؛ ك ١٩ ف ٣ ع ٦ ـ ٧.
(٣) الشامل في الهرطقات ك ٥٣ ف ١ ع ٨.

يقول هيبوليت[١] : « بحسب الكسائي، **إن المسيح بشر كسائر البشر** » . وقد جاء ليطهر شريعة موسى من الجسديات وينقلها إلى الروحانيات، عبادة « بالروح والحق » . فما النصرانية عندهم سوى **أسينية روحية**. هكذا يبررون نصرهم، ويحولون الدعوة المسيحية إلى أسينيتهم الغنوصية.

وبما أن المسيح فارق يسوع قبل استشهاده، فليس لموت يسوع ابن مريم **معنى الفداء** في شيء. إنما هو استشهاد النبي الأعظم الذي له يعيّدون في فصحهم مع الفصح الموسوي. وسيرجع المسيح في يسوع القائم من بني الأموات، ليقيم ملكوت الله **في أرضه** مدة ألف سنة مع المتقين، قبل يوم الدين؛ وهؤلاء هم النصارى الأسينيون، أتباع موسى وعيسى الحقيقيون. وفي ذلك تتفق الكسائية مع الكيرنثية.

لكن الكسائية ترتد على الكيرنثية **في السلوك**، فتقول بالتزمت التي تدعو إليه الغنوص: إن السلوك الحق، حتى رجعة المسيح ليملك على الأرض فيملؤها عدلاً بعد أن امتلأت جوراً، يقوم على إزالة الشهوة بالنسك الصارم، لأن الشر هو في المادة والجسد ـ وهذه نظرية غنوصية ـ وما سمحوا بالزواج إلا للنسل بحسب وصية الله لآدم. وروح « النصرانية » هو الولاء بين أفراد الجماعة.

هكذا كانت الكسائية ردّاً على الكيرنثية. لكن السبب الأكبر في ظهورها أنها جاءت جواباً على السؤال الضخم الذي تعرّضت له « النصرانية » في بني إسرائيل، في **ثورة ابن كوكب** على الاستعمار الروماني، واضطهادها للنصارى لأنهم لم يثوروا معه ولم يعترفوا به أنه المسيح الموعود. فكثر المرتدون بين النصارى. ولما قضت رومة على الثورة وعلى الدولة وعلى الأمة وعلى المدينة المقدسة؛ ورجع الناس إلى ضمائرهم برز **المشكل الضخم** : هل من توبة للمرتد؟

كان الميل العام أن المرتد كافر فلا توبة له بعد العماد، ولا يُقبل في الجماعة.

---

(١) المختارات ٩ : ١٤.

وهذا المشكل واجهته المسيحية أيضاً في الاضطهادات الرومانية؛ وكلما كان الاضطهاد يفتر، ويظهر عدد المرتدين الهائل، الذين يطلبون الرجوع إلى دين الحق، كانت تبرز المشكلة من جديد تطلب حلاً.

ففي النصرانية عند بني إسرائيل، بعد ثورة ابن كوكب، جاءَ الكسائي بالحل المنشود. فكما يوجد عماد للتنصير، فهناك أيضاً **عماد للتطهير والتبرير**. بهذا العماد الثاني وجد الكسائي الحل لقبول توبة المرتدين.

في كتاب منزل عليه، كما ادعى، يقول بغفران الخطايا بعد العماد، وبقبول توبة المرتد، بشهادة الشهود السبعة : « السماء والماء والأرواح القدسية، وملائكته الصلاة، والزيت، والملح، والأرض[١] » . فالسماء والأرض هما الشاهدان المكانيان. والماء والزيت والملح من عناصر العماد. والروح إشارة إلى العماد « بالماء والروح » . وملائكة الصلاة يحملون صلاة المؤمنين إلى عرش الله.

هكذا نزل على الكسائي **كتاب الغفران**. إنه **نبوءة في أسلوب رؤيا : وتنزيل كتاب بواسطة ملاك**. فقد رأى، كما يقول، رؤيا سلمه فيها روح من الله كتاب الغفران. وكان طول الملاك ٩٦ ميلاً. « وكان مصحوباً بكائن أنثى مقياسه كذلك كما ذكرنا. الكائن الذكر هو ابن الله، والكائن الأنثى هو روح القدس[٢] » . فابن الله ملاك ذكر، وروح القدس ملاك أنثى، يرافقه كأمه كما جرى في عماد المسيح. ربما من هنا يأتي قوله : « أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » (المائدة ١١٩)، حيث « أمي » لا تعني السيدة مريم، بل « روح القدس » التي حلت على المسيح في العماد، وجعلت عيسى ابن مريم مسيح الله وكلمة الله، كما في كلامهم.

ففي الكلام « النصراني » يظهر روح القدس تارة أنثى، أمّاً للمسيح؛

(١) هيبوليت : الإشارات ٩ : ١٥.
(٢) هيبوليت : الإشارات ٩ : ١٣.

وتارة ذكراً هو جبريل الذي يؤيد المسيح، كقوله : « وأيدناه بروح القدس » (البقرة ٨٧ و٢٥٣).

ذاك الكلام للكسائي يلتقي مع الكلام النصراني العام في فهم **التثليث الإنجيلي**، والتعبير عنه **بلغة ملائكية** تحفظ التوحيد التوراتي الخالص : فكلمة الله هو ملاك، وروح القدس ملاك أيضاً، وهما من المقربين. فالله والكلمة والروح « ثلاثة » ، لكن الكلمة والروح مخلوقان لله. وهكذا يأتلف في نظر النصارى مع بني إسرائيل التثليث الإنجيلي مع التوحيد التوراتي. وهذه هي أيضاً نظرية القرآن، الذي يعتبر روح القدس جبريل، وكلمة الله روحاً منه تعالى، « كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » (النساء ١٧٠).

ففي هذه النظرة الغنوصية الكسائية للنبوة، تظهر وحدة النبوة ما بين الكتاب والإنجيل، ووحدة التوحيد والتثليث ما بين التوراة والإنجيل، في إمامة واحدة لموسى وعيسى.

ففي الكسائية عناصر غنوصية ظاهرة. وهي أيضاً لم تسيطر على النصرانية، خصوصاً في اعتبار المسيح بشراً من بشر، وإن تسرّب منها إلى النصرانية بعض العناصر، كنظريتها في النبوة، وفي التثليث.

تلك هي الفرق الكلامية في « النصرانية » ، كما نعرفها من المصادر « النصرانية » والمسيحية على السواء، قبل هجرة النصارى من بني إسرائيل إلى الحجاز، هرباً من دين الدولة عند الروم.

ظاهرتان تصفان الفرق الكلامية في « النصرانية » ، وهما على طرفي نقيض : **ظاهرة التشيّع للتوراة؛ وظاهرة الغنوص** - « العلم » - وتلكما الظاهرتان نالتا من « حقيقة الإنجيل[1] » ، بشهادة سائر الرسل بين بولس وجماعة يعقوب؛

---

(١) James A. Robinson : Le Kérygme de l'Eglise et le Jésus de l'Histoire p. 39 note : « le Judéo- christianisme a atténue ou déformé l'héritage reçu, parce qu'il lui apparaissait trop hardi » .

فحولتا « النصرانية » إلى شيعة، بالنسبة للسُنّة المسيحية، لكن الرسل الحواريين أيدوا بولس وبرنابا في مؤتمر أورشليم، عام ٤٩.

نقل أوسابيوس في (تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ٣٣ ع ٣) أنه « بعد زوال الرسل أخذ هؤلاء المنحرفون يتّحدون جهراً **بالغنوص**، ذات الاسم الخلاّب، دعوة الحق » . ودامت هذه الظاهرة حتى هجرة النصارى من بني إسرائيل إلى مكة والحجاز.

وفي هجرتهم إلى مكة والحجاز، ابتعدوا عن مراكز علم الكلام الهلّنستي واليهودي والمسيحي، وانحصروا على ذواتهم، **فانصهرت التيارات المختلفة عندهم، في عزلة الحجاز**، مدة قرنين، يطابقان نهضة الجاهلية قبل الإسلام.

وهكذا يظهر النصارى من بني إسرائيل قبل هجرتهم إلى الحجاز « **أمة وسطاً** » بين اليهودية والمسيحية :

فهم يؤمنون بموسى وعيسى على السواء.

ويدينون بالتوراة والإنجيل على السواء.

ويقيمون أحكام التوراة وأحكام الإنجيل على السواء.

ويمارسون الختان والعماد على السواء.

ويعيّدون السبت والأحد على السواء.

ويصلون الصلاة النصرانية في قبلة إلى بيت المقدس.

ويقيمون الفصح المسيحي مع الفصح الموسوي.

فهم بحق « الأمة الوسط » بين اليهودية والمسيحية. لذلك فهم يكفّرون اليهودية والمسيحية على السواء. وينادون مع القرآن : « قلْ : يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل » (المائدة ٧١).

* * *

بحث خامس

أسلوب الدعوة عند « النصارى »

يقوم الكلام « النصراني » ، والدعوة « النصرانية » على أساليب البيئة الإسرائيلية التي فيها يقيمون. وهذه الأساليب هي **الغنوص** في الكلام أي « **العلم** » على الإطلاق، ويسمّى « **علم الكتاب** » ؛ وعلى أسلوب **الرؤيا** في كتب الدعوة؛ وقمة الرؤيا هي **الإسراء** إلى عالم الغيب.

أولاً : « العلم » في الكلام النصراني

منذ نشأته اعتمد الكلام النصراني الغنوص أي « العلم » أسلوباً له وميزة. وكثيراً ما تسمّي المصادر النصرانية **علم الكلام عندهم « العلم » على الإطلاق**، وأهله « العلماء » أو « أولي العلم » .

وهذه هي الأوصاف التي بها يميزهم القرآن عن سائر أهل الكتاب.

فالكلام النصراني هو « علم الكتاب » ، كما يستشهد القرآن بالذي « عنده علم الكتاب » (الرعد ٤٥)؛ وما الإسلام القرآني سوى شهادة « أولي العلم قائماً بالقسط » (آل عمران ١٨)؛ والقرآن نفسه « هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم » (العنكبوت ٤٩).

فالكلام « النصراني » هو الغنوص أي « العلم » على الإطلاق[١] ، كما نتحققه من مصارده، في مؤلفاتهم.

ففي كتاب « الذيذخي » أي « تعليم الرسل » نقرأ : « أيها الآب، لك الحمد على **الحياة والعلم** اللذين أعطيتنا بيسوع عبدك » (٩ : ٣) : « نحمدك، أيها

---

(١) Daniélou : Théologie du Judéo- Christianisme p. 65.

الآب القدوس على العلم والإيمان والقيامة التي أوحيت إلينا بيسوع عبدك » (١٠ : ٢).

وفي كتاب (مواثيق الأجداد) نقرأ في (ميثاق لاوي) : « **نور العلم** يشع منك (المسيح)؛ وستكون شمساً لذرية إسرائيل كلها » (٤ : ٣)؛ « سيعلو نجم كنجم ملك في السماء، يشع **بنور العلم** مثل شمس النهار » (١٨ : ٣). وفي (ميثاق بنيامين) نجد : « في الأيام الأخيرة يقوم حبيب الرب، من أصل يهوذا ولاوي، منيراً الأمم كلها **بالعلم الجديد** » (٩: ٢).

وفي (رسالة برنابا) نرى أن العلم هو الكلام النصراني : « أكتب إليكم لكي تحصلوا مع الإيمان على **العلم الكامل** » (١ : ٥)، فهو ميزة أهل الصراط المستقيم : « يستحق الهلاك من كان عنده **العلم بالصراط المستقيم**، صراط الحق. وهو يسلك في صراط الضلال » (٥ : ٤).

وكتاب (أناشيد سليمان) « نصراني » كله حمد على نعمة « العلم » في المسيح : « إن الرب وسّع العلم، وهو يحرص بغيرة على أن نعلم الأشياء التي آتانا بنعمته » (٦ : ٥). **وعهد « النصرانية » هو عهد « العلم »** بالنسبة للجاهلية : « لقد انقضى عهد الجاهلية، وجاء العلم بواسطة الرب » أي المسيح (٧ : ٢٤). فالسيد المسيح هو الذي جاء « بالعلم » ، وهذا العلم المنزل في الإنجيل لا يناله إلا أتباع المسيح الحقيقيون (٨ : ٩ ـ١١). وهذا العلم ينالونه من العماد، لذلك فهم يسمون العماد الاستنارة (١١ : ٤). والعلم هو سبيل المؤمن بالمسيح إلى الحق والنور : « في صراط النور، نلت **وحي العلم** ... وهجرت سبيل الضلال، وحصلت على العلم » (٥ : ٥ و٦).

فالعلم ـ الغنوص ـ هو الوحي الإنجيلي، و « علم الكتاب » كله والكلام النصراني المبني عليه. وكل كتب النصارى من بني إسرائيل تعرض العقيدة والكلام باسم « العلم » ، وتسمّي أهله « أولي العلم » أو « العلماء » على التخصيص.

وهذا « العلم هو ما يميز النصرانية عن اليهودية وعن المسيحية. فالاسم والأسلوب والموضوع يختص بالنصارى من بني إسرائيل، الأمة الوسط، بين اليهودية والمسيحية اللتين تتنكران لهذا « العلم » .

وهذا ما نجده في القرآن نفسه. ففيه **الهدى** كناية عن اليهود، **والعلم** كناية عن النصرانية، **فعلماء النصرانية هم « الذين أوتوا العلم »** على التخصيص، « الراسخون في العلم » (٣ : ٧؛ ٤ : ١٦١) كما يسميهم بتواتر : « قال الذين أوتوا العلم » (١٦ : ٢٧؛ ٢٨ : ٨٠؛ ٣٠ : ٥٦)؛ « إن الذين أوتوا العلم » (١٧ : ١٠٧)، « وليعلم الذين أوتوا العلم » (٢٢ : ٥٤)؛ « في صدور الذين أوتوا العلم » (٢٩ : ٤٩)؛ « ويرى الذين أوتوا العلم » (٣٤ : ٦)؛ « يرفع الذين آمنوا منكم، والذين أوتوا العلم درجات » (٥٧ : ١١). فهم « **علماء بني إسرائيل** » على التخصيص (الشعراء ١٩٧).

ومحمد يرى وحيه وقرآنه في هذا « العلم » : « بعد الذي جاءك من العلم » (٢ : ١٢٠)، « من بعد ما جاءك من العلم » (٢ : ١٤٥؛ ٣ : ٦١)؛ « بعد ما جاءك من العلم » (١٣ : ٣٩)؛ « إني قد جاءني من العلم » (١٣ : ٤٣). وهذا « العلم » الذي أوتيه محمد هو علم أولي العلم الذين بهم يستشهد : « قلْ : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، ومَن عنده علم الكتاب » (الرعد ٤٥)؛ « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » النصارى (الرعد ٤٥)؛ والقرآن نفسه « هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم » (العنكبوت ٤٩).

« وما اختلف الذين، أوتوا الكتاب ـ من اليهود ـ إِلا من بعد ما جاءهم العلم، بغياً بينهم » (٣ : ١٩؛ ٤٢ : ١٤؛ ٤٥ : ١٦).

وهكذا « فالعلم » واحد بين القرآن والنصارى من بني إسرائيل. وبهذا « العلم » تتميّز الدعوة القرآنية والدعوة النصرانية عن اليهودية وعن المسيحية.

فالعلم على التخصيص هو الكلام النصراني الذي لم يصل منه إلى القرآن إلا القليل : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (الإسراء ٨٥). هذا « العلم » يجعل القرآن دعوة « نصرانية » .

*

ثانياً : أسلوب الدعوة « النصرانية » ، تنزيل كتاب في رؤيا

منذ (رسالة برنابا)، بعد العهد الرسولي مباشرة[1] ، نعرف أن مؤلفات النصارى من بني إسرائيل كان هدفها تعليم النصارى البالغين « **علم الأسرار** » أي الغيب بالوحي والكشف، في رؤيا يخطف فيها الرائي إلى السماوات العلى، ويطلع بواسطة ملاك على « الألواح » أو « الكتب » السماوية. هذا ما تسميه (رسالة برنابا) « **العلم** (ف ٢ ع ٣). وهذا « العلم » هو كشف « السر » الذي تنبّأ به الأنبياء، ويتم في عهد المسيح والنصرانية، التي هي « معرفة العلم » (١ : ٦).

إن كتاب (الراعي) الذي وضعه هرْمسْ بعد العهد الرسولي هو مثال الدعوة النصرانية. أسلوبه كله أسلوب الرؤيا. وغايته تنزيل كتاب الغفران من السماء. في الرؤيا الأولى يرى روحاً بشكل سيدة عجوز، رمزاً للكنيسة في تصميم الله؛ تحمل بيدها كتاباً تقرأه على هرمس، وفيه الكشف عن سر الكون وسر الكنيسة. في الرؤيا الثانية يراها وبيدها كتاب صغير، تقول له : « هل تقدر أن تنقل الكلمات إلى أصفياء الله؟ أجبت، يا سيدتي لا أستطيع أن أتذكر كل هذه الأشياء، فاعطني هذا الكتاب الصغير لأنسخه. قالت : خذه وردّه إلي. فأخذته. واعتزلت إلى البرية ونسخته كله، حرفاً حرفاً، لأنني لم أستطع أن أميّز الحروف. ولما انتهيت نم نسخ الحروف كلها، خُطف الكتاب من يدي فجأةً. فمن خطفه؟ هذا ما لم أره ». وبعد خمسة عشر يوماً من صوم متواصل كشف الوحي لهرمس موضوع الكتاب. فكان بلاغاً في التوبة.

هنا يبلغ التنزيل نسخ الكتاب المنزل في رؤيا، ثم يأتي الوحي فيكشف معناه.

في كتاب (أخنوخ الثاني)، « نادى الله إفرافيل، أحد رؤساء الملائكة

---

(١) لقد أجمع العلماء أن رسالة برنابا كتبت بين عام ٧٠ وعام ١٠٠؛ لكن الإشارة فيها إلى تجديد بناء الهيكل يجعلها من العام ١٢٠ على عهد القيصر هدريانس.

ـ أي أحد الملائكة المقربين ـ وكان نشيطاً يكتب أعمال الرب كلها. وقال الله لإفرافيل : خذ الكتب من محفوظاتها، واعطِ قلماً لأخنوخ، ولقنْه الكتب ... فكان يقول لي كل أعمال النساء والأرض والبحر (١٣ : ٤ ـ ١٠). فالتنزيل عندهم نسخ الكتب السماوية؛ وهذا يتم بواسطة ملاك التنزيل إلى الرائي.

وينقل أوسابيوس في (تاريخ الكنيسة ك ٦ ف ٣٨)، وكذلك هيبوليت في كتاب (الإشارات ٩ : ١٣) أن الكسائي « كان عنده كتاب منزل بواسطة ملاك » . وكان « ملاك كلمة الله » ، يكشف له علم الكتاب والإنجيل.

ويبلغ أسلوب الدعوة النصرانية ذروته في **أسلوب الإسراء**. ومثاله في (إسراء أشعياء) كتاب نصراني يكشف بأسلوب الإسراء والرؤيا سر المسيح كله (ف ٦ ـ ١١). ملاك الإسراء يقود أش،عياء في الس،ماوات السبع، حتى يصل إلى الحضرة الإلهية ويرى « ملاك كلمة الله » عن يمين المجد الأعظم « وملاك روح القدس » عن شماله، يتمتعان بعبادة المخلوقين، لكن « الرب وملاك الروح يعبدان الله ويحمدانه » (٩ : ٤٠). وهذه شهادة أخرى عندهم على أن الكلمة والروح هما ذروة المخلوقين. وأشعياء يشاهد رفع المسيح إلى مجد الله: « ورأيت كيف هما ذروة المخلوقين. وأشعياء يشاهد رفع المسيح إلى مجد الله : « ورأيت كيف صعد إلى السماء السابعة، فيما كل الصديقين والملائكة يمجدونه. حينئذٍ رأيته يجلس عن يمين المجد الأعظم، الذي قلت لكم عنه أني لم أكن أطيق سناه. ورأيت ملاك الروح القدس يجلس عن شماله. وهذا الروح قال لي : يا أشعيا ابن عاموص، إني أصرفك. ارجع إلى لباسك (أي جسدك) حتى تتم أيامك. وحينئذٍ ترجع إلى هنا » (١١ : ٣٢ ـ٣٥).

وهكذا نرى أن الدعوة النصرانية في كتبها تقوم على أسلوب الرؤيا والإسراء، حيث ملاك الوحي يُرى الرائي « من آيات ربه الكبرى » ، ويملي عليه تنزيل الله فينسخه نسخاً.

وهذا هو الأسلوب الذي نشاهده في الدعوة القرآنية : إن هو إِلا وحي يوحى علمه شديد القوى، ذو مِرَّة فاستوى، وهو بالأفق الأعلى ... فأوحى

إلى عبده فأوحى ... لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (النجم ١ ـ ١٨)؛ « إنا أنزلناه في ليلة القدر » (القدر ١)؛ « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » (الشعراء ١٩٣)؛ « قلْ : نزّله روح القدس » (النحل ١٠٢)؛ « ونزّلناه تنزيلاً » (الإسراء ١٠٦)؛ « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا » (الإسراء ١)؛ « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » (البروج ٢١ ـ ٢٢)؛ « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون » (الواقعة ٧٧ ـ ٧٨).

فقد جاءت الدعوة القرآنية بأسلوب الدعوة « النصرانية » : من رؤيا وتنزيل كتاب بواسطة ملاك « أوحى إلى عبده ما أوحى » من كتاب « في لوح محفوظ » في السماء. إنها أساليب دعوة في التفكير والتعبير لا يلزم منها صحة الواقع بحسب حرفها؛ يؤيد ذلك متشابهات القرآن في متشابه ألفاظ الوحي والتنزيل فيه.

*

ثالثاً : تفصيل الكتاب في لغة أخرى : « الترجوم »

منذ هجرة الهيود إلى العراق، في جلاء بابل في القرن الخامس قبل الميلاد، وتشتت اليهود في مهاجرهم، واستبدال العبرية بالأرامية السائدة في المشرق كله حتى فلسطين؛ شعر اليهود ثم النصارى منهم ترجمة الكتاب إلى اللغة الحديثة التي ينطق بها الشعب. فقامت فيهم مهمة « الترجوم » أي الترجمة، وكانت كتب « الترجوميم » أي الترجمات إلى الأرامية، وإلى اليونانية.

ويلاحظ العلماء أن تلك الترجمات لم تكن حرفية اللفظ والمعنى، بل أحياناً ما كانت تفسيراً توسّعياً أي تفصيلاً للكتاب[1] .

نجد هذه الظاهرة في الترجمات العلمية نفسها ـ فكم بالأحرى في الترجمات

---

(١) Daniélou : Théologie du Judéo- Christianisme p. 102 sq.

الشعبية! هكذا تتحول الترجمة إلى تفسير في السبعينية. لم تكن الدعوة لليوم الآخر ظاهرة في التوراة والنبيين قبل تدوين كتاب دانيال. مع ذلك نراها ظاهرة في الترجمة السبعينية (أيوب ٤٢ : ١٧؛ أشعيا ٢٦ : ١٩؛ دانيال ١٢ : ٢). تتضح فيها خصوصاً عقيدة الملائكة. ففي سفر التثنية يصير « بنو إيل » ملائكة الله (٣٢ : ٨). يقول المزمور : « أنقصته قليلاً عن الله » (٨ : ٦) فترجموا : « أنقصته قليلاً عن الملائكة » .

وقد وضع الأبيونيون ترجمة جديدة في اليونانية، هي ترجمة سيمَّاك؛ تظهر من خلالها عقيدتهم. هكذا قد ترجمت السبعينية نبؤة أشعيا : « ها أن العذراء تحبل وتلد ابناً، تدعو اسمه عمانوئيل » (٧ : ١٤)؛ فترجم سيمَّاك : « ها أن الفتاة » ، وهذا يزيل صفة المعجزة في مولدها. يقول أرميا : « اختتنوا في قلبكم » (٤ : ٤)، فيترجم سيمّاك : « طهّروا قلوبكم » .

نجد هذا الأسلوب في العهد الجديد نفسه، خصوصاً في الإنجيل بحسب متى. فليست استشهاداته بحسب الحرف العبراني، ولا دائماً بحسب الحرف اليوناني في السبعينية الشهيرة. قابل (متى ٤ : ١٥ مع أشعيا ٨ : ٢٣؛ متى ١٢ : ١٧ مع أشعيا ٤٢ : ١).

وقد وضع اليهود، وتابعهم النصارى منهم، مجموعات من الاستشهادات الكتابية، في مواضيع مختلفة. وقد أثبت ذلك اكتشاف مخطوطات قمران. فالمسيح يُكنى عنه باستعارة « الصخر » أو « الحجر » الأساسي (متى ٢١ : ٤٢؛ لوقا ٢٠ : ١٧ ــ ١٨؛ أعمال ٤ : ١١؛ رومية ٧ : ٣٢؛ أفسس ٢ : ٢٠؛ ١ بطرس ٢ : ٦) حيث جمعوا في استشهاد واحد (أشعيا ٢٨ : ١٦؛ ٨ : ١٤؛ المزمور ١١٧ : ٢٢). ورسالة برنابا تجمع في نص واحد « صخرة الشك » (أشعيا ٨ : ١٤) وحجر الزاوية (أشعيا ٢٨ : ١٦). نجد استشهاداً جامعاً في (مرقس ١ : ٢ ـ٣) حيث يجمع آية ملاخيا (٣ : ١) إلى آية أشعيا (٢٩ : ٣)

باسم المشهور منهما أشعيا. وأسلوب جمع الاستشهادات الكتابية في واحد مضطرد في كتب النصارى من بني إسرائيل. وهذا يسمى أيضاً « تفصيل الكتاب » .

هكذا نرى أن « تفصيل الكتاب » ليس ترجمة، بل **قراءة جديدة في لغة أخرى**، تأخذ اسم « مقرا » بالعبرية، « قريانا » بالسريانية، قرآن بالعربية. وهذه القراءة الجديدة في لغة أخرى قد تسمى تنزيلاً، لأنها تفصيل التنزيل.

وهكذا نرى القرآن يسمي « تفصيل الكتاب » بلسان عربي مبين تنزيلاً. فقوله « أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً » (الأنعام ١١٤) يعني « إنه تنزيل رب العالمين، بلسان عربي مبين. وإنه لفي زبر الأولين » (الشعراء ١٩٣ ـ١٩٧). وقوله : « أوَلم يكن لهم آية أن يعلم علماء بني إسرائيل » (الشعراء ١٩٨) شاهد على أن القرآن يتبع أسلوب النصارى أولي العلم في « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧). فالقرآن العربي : « كتاب أحكمت آياته (في أمّ الكتاب) ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير : ألا تعبدوا إلا الله، إنني لكم منه نذير وبشير » (هود ١ ـ ٢). « وكذلك نفصّل الآيات » (٦ : ٥٥؛ ٧ : ٣١؛ و١٧٣؛ ١٠ : ٢٤؛ ٣٠ : ٢٨). فالقرآن يجمع شهادة الكتاب للتوحيد وللمسيح في سوره، على مثال « المِثْل » الذي عند النصارى من بني إسرائيل : « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » (الأحقاف ١٠). هذا القرآن « تفصيل الكتاب » .

*

رابعاً : الكتب السماوية، والكتاب المنزل

إن نظرية القرآن في الكتب السماوية، وفي الكتاب المنزل، هي نظرية النصارى من بني إسرائيل.

فالكلام النصراني يقول **بوحدة النبوة** من آدم إلى نوح، إلى إبراهيم، إلى موسى، إلى عيسى؛ **وبوحدة الكتاب** في النبوات المتعاقبة المتواترة.

ويوجز القرآن النظرية بقوله : « كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين

مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم. فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » (البقرة ٢١٣)؛ كما هُدي محمد نفسه : « ما كنت تدري ما الكتاب والإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتُهدى إلى صراط مستقيم » (الشورى ٥٢)، على طريقة النصارى أولي العلم المقسطين الذين يشهدون مع الله وملائكته « إن الدين عند الله الإسلام. وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » (آل عمران ١٧ ـ ١٨).

وهذا الكتاب المنزل على النبيين أجمعين هو نسخة عن الكتب السماوية. وهي ثلاثة : **كتاب القضاء والقدر**، حيث أعمال البشر مقدَّرة؛ **وكتاب الحياة**، حيث أسماء الخالصين مسجلة؛ **وكتاب الأعمال** حيث يسجل الملائكة أعمال المخلوقين. يضاف إليها **كتاب الوحي والتنزيل.**

ففي كتاب (أخنوخ الثاني) ثم في (إسراء أشعيا) نجد أن الوحي والتنزيل هو نسخة عن هذه الكتب السماوية، يقوم بتنزيلها على الرائي ملاك من الله. وقد نقلنا نصهما سابقاً. ففي (عهود الأسباط الاثني عشر) نقرأ في (عهد أشير) : « لقد علمت من **ألواح السماء** أنكم ستكونون عصاة وكفرة » (٧ : ٥). وفي (عهد لاوي) نقرأ : « لقد أتممتُ في حينه الانتقام من بني عمون، على حسب ما هو مكتوب في ألواح السماء » (٥ : ٤). كذلك في (إسراء أشعيا) يدخل النبي إلى السماء السابعة، وهناك « أراني أحد الملائكة المقيمين فيها الكتب ثم فتحها. وكانت الكتب مسطورة، لكن لم تكن على مثل كتب هذا العالم. ودفعها إليّ، وقرأتها، فإذا فيها : إن أعمال بني إسرائيل مكتوبة فيها، وكذلك أعمال الذين لا تعلمهم. قلت : بالحقيقة، لا يجري شيء على الأرض، ويخفى على السماء السابعة » (٩ : ٢٢ ـ ٢٣). وبما أن أعمال الإنسان تجري بحسب ما هو مكتوب، « فلكل أجل كتاب » (الرعد ٤٠).

نجد هذه النظرية في العهد الجديد. يقول السيد المسيح : « افرحوا بأن أسماءكم مكتوبة في السماوات » (لوقا ١٠ : ٢٠). ويقول بولس : « سائر معاوني الذين أسماؤهم في كتاب الحياة » (فيل ٤ : ٣). والنظرية متواترة في رؤيا يوحنا : « وسيسجد له (للوحش رمز المسيح الدجال) جميع سكان الأرض، كل من لم يُكتب اسمه، منذ إنشاء الكون، في سفر الحياة، للحمل المذبوح » (١٣ : ٨ قابل ١٧ : ٨). ولا يدخل الجنة « إلا الذين كُتبوا في سفر الحياة للحمل » (٢١ : ٢٧).

وكتاب الوحي والتنزيل له المقام الأول في تصوّرهم. فهو تارة كتاب مفتوح يقرأه النبي الرائي؛ وتارة درج مبسوط يريه المسيح لصحابته؛ وهو طوراً لوح تقدمه يد مبسوطة من السماء؛ وطوراً درج ينزل على صحابة المسيح من السماء.

وتلك النظرية النصرانية في الكتب السماوية نجدها في القرآن نفسه : « وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين » (النمل ٧٥)؛ « ولا يغرب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، إلا في كتاب مبين » (سبأ ٣)؛ « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة من ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس، إلا في كتاب مبين » (الأنعام ٥٩)؛ « وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن، ولا تعملون من عمل، إلا كنَّا عليكم شهوداً، إذ تفيضون فيه؛ وما يغرب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، إلا في كتاب مبين » (يونس ٦١).

والقرآن هو كتاب الوحي والتنزيل : « إنه لقرآن كريم، في كتاب مكنون، لا يمسّه إلا المطهّرون، تنزيل من رب العالمين » (الواقعة ٧٧ ـ ٨٠)؛ « بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ » (البروج ٢١ ـ٢٢). وهذا القرآن، « إنه لقول رسول كريم ... ولقد رآه بالأفق المبين، وما هو على الغيب

بضنين ... إن هو إلا ذكر للعالمين » (التكوير ٩ -٢٧)؛ « علمه شديد القوى، ذو مرة فاستوى، وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى ... لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (النجم ٦ ـ ١٨).

مع ذلك، « **إنه لفي زبر الأولين،** أوَلم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » من النصارى (الشعراء ١٩٦ ـ١٩٧). فقد جاء محمد « رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم **ويعلمكم الكتاب والحكمة،** ما لم تكونوا تعلمون » (البقرة ١٥١ قابل آل عمران ١٦٤؛ الجمعة ٢). والكتاب والحكمة هما التوراة والإنجيل (قابل آل عمران ٤٣؛ المائدة ١١٣).

فالقرآن « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٦) على طريقة النصارى من بني إسرائيل، « إذ هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » (العنكبوت ٤٩)؛ ومعهم « مِثْل » القرآن الذي يفصله : « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » (الأحقاف ١٠).

*

فالقرآن نفسه شاهد عدل على أن دعوته للإسلام هي دعوة النصارى أولي العلم المقسطين (آل عمران ١٧ ـ ١٨). لذلك فهو يمنع الجدل معهم إلا بالحسنى أي الأمر بالتسليم معهم بوحدة الإله، ووحدة التنزيل ووحدة الإسلام (العنكبوت ٤٦).

وفي هذا البحث الموضوعي لأسلوب الدعوة رأينا أن الكلام النصراني والكلام القرآني هو « **العلم** » نفسه الذي عليه يقومان؛ وأن أسلوب الدعوة النصرانية في الرؤيا وتنزيل كتاب بواسطة ملاك هو أسلوب الدعوة القرآنية؛ وأن « تفصيل الكتاب » بلغة أخرى هو « ترجمة » على أساس قراءة جديدة للكتاب؛ وأن نظرية القرآن للكتب السماوية ولكتاب الوحي والتنزيل هي نظرية الكلام النصراني.

فواقع القرآن، وشهادته الصريحة، يشهدان بأن أسلوب الدعوة القرآنية هو أسلوب الدعوة « النصرانية » : « قلْ : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، ومَن عنده علم الكتاب » (الرعد ٤٥)؛ « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » (الأحقاف ١٠).

والنتيجة الحاسمة أن أسلوب الدعوة عند النصارى من بني إسرائيل يقوم على نبوءة في رؤيا وتنزيل، من دون أن يكون ذلك حقيقة الواقع والتاريخ. وهذا هو أسلوب الدعوة القرآنية التي أُمر بها محمد في « رؤيا » غار حراء الصحيحة الموجهة، حيث « **جعلناك على شريعة من الأمر** » (الجاثية ١٧)، « فبهداهم اقتدهْ » (الأنعام ٩٠) : فاقتدى بهداهم في الدعوة وفي أسلوبها، من نبوءة في رؤيا وتنزيل.

* * *

بحث سادس

عقيدة « النصارى »

كانت « النصرانية » ، بسبب تشيعها للتوراة مع الإنجيل، ولإِمامة أهل البيت من دون صحابة المسيح، الرسل الاثني عشر؛ وبسبب سيطرة الغنوص ـ أي « العلم » ـ على الكلام « النصراني » فتهوّد في الأبيونية، وتفرَّق ما بين تفريط الكيرنثية المتهوّدة، وإفراط الكسائية الغنوصية؛ **كانت تهويداً للمسيح والإنجيل**، كما يقول فيهم جيروم، قبيل هجرتهم إلى مكة والحجاز : « بما أنهم يريدون أن يكونوا يهوداً ومسيحيين معاً، فهم ليسوا يهوداً، وليسوا مسيحيين » . إنهم « **شيعة النصارى** » ؛ « **الأمة الوسط** » بين اليهودية والمسيحية، كما نرى أيضاً في عقيدتهم وفي شريعتهم.

نقدر أن نستخلص **عقيدة النصارى** من كتب أجمع العلماء على مصدرها

« النصراني »[١] . وقد كتبها علماء الكلام والدعوة **منحولة** إلى بعض الأنبياء الأقدمين، مثل كتاب أخنوخ، وإسراء أشعيا، أو إلى بعض الرسل الحواريين، مثل « إنجيل بطرس » و« بلاغات بطرس » و « إسراء بطرس » ، و « إنجيل يعقوب » ، و « إنجيل توما » ، و« إنجيل الاثني عشر رسولاً » ؛ مع رسالة برنابا، والذيذاخي أي تعليم الرسل. ونجد استشهادات منها عند علماء المسيحية الأقدمين المعاصرين لها.

*

أولاً : عقيدتهم في النبوة والكتاب ـ المسيح هو « النبي »

في « الإنجيل بحسب العبرانيين » ، وهو إنجيل النصارى من بني إسرائيل، مصدر دعوتهم وكلامهم، تظهر **وحدة النبوة والكتاب** من آدم إلى يسوع المسيح، لأنهم جميعاً بأسماء مختلفة، في عهود مختلفة، دعوا دعوة واحدة لله الأحد. فكان « لكل أجل كتاب » و « لكل أمة رسول » كما سيقول القرآن بقولهم.

تلك هي نظرية « النبي الحق[٢] » التي يقول بها كتاب « بلاغات بطرس » ، الذي تجسّد أولاً في آدم، ثم حلَّ على النبيين من بعده، واستقر في الختام على النبي الأعظم، المسيح، باسم « ابن البشر » الموعود.

منذ الفصل الأول، تشبه « بلاغات بطرس » العالم والبشرية بغرفة ملأى بالدخان حيث الجميع يطلبون الحقيقة والعلم. ولا أحد يستطيع أن يزيل عنها الديجور. وحده، النبي الحق، يقدر أن يفتح الباب ويدخل الحقيقة إلى ظلمة الغرفة. وهذا « النبي الحق » هو المسيح، الذي ظهر أولاً في آدم، وعبر الأجيال في أخنوخ (أدريس) ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى. موسى جدّد الشريعة الأزلية التي نزلت على آدم؛ وسمح لهم بالذبائح الحيوانية؛ وبشر برسول

---

(١) Daniélou : Théologie du Judéo- Christianisme p. 17-55.

(٢) δ άληθής προφήτης

يأتي من بعده في آخر الزمان. وهنا تنقل « البلاغات » نبوءة موسى فيه : « سيقيم لك الله إلهك من وسطك، من بين إخوانك، **نبيّاً مثلي**، له تسمعون » (التثنية ١٨ : ١٥). هذا النبي الأعظم، « النبي الحق » ، ظهر أخيراً في شخص المسيح، وصدّق النبوة والكتاب، وفصّل شريعة موسى بنسخ الذبائح الحيوانية.

ولما ظهر عيسى ابن مريم على ضفاف الأردن، حل عليه روح القدس، قائلاً له : « لقد انتظرتك في كل الأنبياء حتى تأتي وأستريح فيك[١] » . فإن إنجيل النصارى يرى في المسيح **النبي الأعظم**، **خاتمة النبيين**. ويرى في **رسالته نبوة الحقيقة**، لا رسالة الفداء، فقتل المسيح استشهاد، لا فداء؛ ولا يشكل محور رسالته[٢] .

هاتان النظرية العامة في النبوة والكتاب، والنظرية الخاصة في المسيح كنبي « رسولاً إلى بني إسرائيل » ، لا كفادي ومخلص، هما التعليم الذي سنجده في القرآن.

*

ثانياً : صورة الكون عند « النصارى »

كان اليهود يتصورون الكون **ثلاث سماوات** : سماء الشهب، وسماء النجوم، وسماء الله حيث العرش والمجد الإلهي.

وقد جاراهم بولس في إسرائه إلى السماء الثالثة، الفردوس، حيث رأى مجد الله « وسمع كلمات معجزة لا يحق لإنسان أن يبوح بها » (٢ كور ١٢ : ١ ـ ٦). وجرت المسيحية القديمة على هذه النظرية في أن السماوات ثلاث.

وحدها « النصرانية » تعتبر الكون **سبع سماوات**، بخلاف اليهودية والمسيحية.

---

(١) الإنجيل بحسب العبرانيين (إنجيل النصارى)؛ كما نقل عنه جيروم في تفسير أشعيا (ك٤ ف١١ ع٢).
(٢) Culmann : Christologie du Nouveau Testament p. 47.

كتاب (إسراء أشعيا) النصراني المنحول، يذكر هذه النظرية في قصة إسراء أشعيا، وفي نزول المسيح إلى الأرض، وفي صعود المسيح إلى السماء السابعة، إلى عرش الله. فالكون عنده سبع سماوات، أعلاها سماء الله، والملائكة يسكنون السماوات السبع حسب منزلتهم ووظائفهم. ففي سماء الله يحف بالعرش الملائكة المقربون السبعة. وتحت السماء الدنيا يوجد الهواء، مسكن الأرواح الشريرة، والشياطين.

وسفر أخنوخ الثاني (ك ٢ و٩)، وهو نصرني منحول أيضاً، يعرض النظرية نفسها بتفصيل أوسع : السماء الدنيا فيها المياه العالية، ومستودع المطر والثلج مع الملائكة الذين يقيمون عليها، **وفيها النجوم مع الملائكة الذين يسيّرونها**. والسماء الثانية مسكن الملائكة الخاطئين الذين هبطوا من السماء الخامسة. السماء الثالثة فيها **الفردوس** حيث نفوس الصديقين تنتظر القيامة، وفيها **الشيئول** حيث الكافرون ينتظرون يوم الدين. السماء الرابعة مكان الشمس والقمر والملائكة الذين يقيمون عليهما. السماء الخامسة مسكن الملائكة الساهرين. السماء السادسة مسكن الملائكة الأعظمين، حيث سبعة رؤساء ملائكة، وسبعة كروبين، وسبعة سروفين، وسبعة سفنكس. السماء السابعة هي مقام الله.

وفي سفر (عهود الأسباط الأثني عشر)، نجد النظرية ذاتها في (عهد لاوي) : السماء الدنيا حزينة لأنها ترى آثام البشر. السماء الثانية والثالثة مسكن الملائكة المعدّين لعذاب البشر والملائكة الآثمين. السماء الرابعة والخامسة مسكن الملائكة الذين يشفعون بالبشر. السماء السادسة مسكن العروش والقوات. السماء السابعة مقام مجد الله.

تلك هي نظرة **السماوات السبع** التي تقول بها ((النصرانية)) وترفضها المسيحية كما نرى عند أوريجين في ردّه على كلسس (ك ٦ ف ٢١). ومصدرها الغنوص الهلنستية.

وهذه النظرية « النصرانية » لا نجدها **إلا في القرآن والإسلام** ومن دون تفصيل : « فسواهن سبع سماوات » (٤١ : ١٢)؛ « الذي خلق سبع سماوات » (٦٥؛ ١٢؛ ٦٧ : ٣)؛ « خلق الله سبع سماوات » (٧١ : ١٥)، « سبعاً شداداً » (٧٨ : ١٢)؛ « تسبح له السماوات السبع » (٢٣ : ٨٧).

ونجد فيه أيضاً صدى لنظرية « النصارى » في وظيفة السماء الدنيا، سماء الشهب والكواكب : « إنا زيّنا السماء بزينة الكواكب » (٣٧ : ٦)، « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين، واعتدنا لهم عذاب السعير » (٦٧ : ٥). فإبليس وملائكته هم « من المنْظَرين لعذاب السعير إلى يوم يبعثون » (٧ : ١٤ ـ ١٥). فهم ينتظَرون مع البشر يوم الحشر والحساب : « فوربك لنحشرنّهم والشياطين، ثم لنحشرنّهم حول جهنم جثيّاً ... ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيّاً » (مريم ٦٨ و٧٢).

فنظرية القرآن في تأليف الكون ووظيفة السماء الدنيا مثل نظرية النصارى من بني إسرائيل.

*

ثالثاً : عقيدة « النصارى » في الملائكة

لقد ورثت « النصرانية » عقيدة الملائكة والروح عن الكلام الإسرائيلي، كما نراه عند فيلون، وعن الكلام الأسيني كما نراه في مخطوطات قمران. ونعرف أن كثيرين من الأسينيين قد تنصروا بعد الحرب السبعينية، وشكلوا « الأبيونيين » بين النصارى من بني إسرائيل.

لقد وصلت عقيدة الملائكة عند اليهود **حتى التربيب**. وقد كفرتها المسيحية في مجمع اللاذقية، وسمتها « الخرافة اليهودية[1] » ، قبل أن يكفرها القرآن : « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً : أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون »

---

(١) في منتصف القرن الرابع، القانون ٣٥ يسميها superstitio judaïca

(آل عمران ٨٠). لذلك لم يتسرب ترتيب الملائكة إلى « النصرانية » ، لكنها ورثت التعليم في طبيعتهم ووظائفهم.

فالملائكة ليسوا أرواحاً مجردة عن الجسد والهيولى أي المادة. **طبيعتهم من نار** : لما خلق الله الكون، « من الحجار فجرّت ناراً، ومن النار برأت الجند السماوي كله، وكل جند النجوم، والكروبيم والساروفيم والأوفانيم » (أخنوخ الثاني ك ١٦ ف ٢ ع ٤). فالملائكة من نار مثل النجوم.

وهذه هي نظرية القرآن في طبيعة الملائكة : « قال (الله لإبليس) : ما منعك ألَا تسجد إذ أمرتك؟ قال : أنا خير منه، خلقتني من نار، وخلقته من طين » (الأعراف ١٢ قابل ص ٧٦)؛ « خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار » (الرحمان ١٤ ـ١٥).

بينما المسيحية كانت تصف الملائكة الأخيار والأشرار في زمن الدعوة القرآنية : الأرواح المجردة، اللاَّ جسدية، اللامادية[١] .

وميزة الملائكة الثانية هي **طول قامتهم** الأسطورية. ففي (إنجيل بطرس ف ٤٠) المنحول، رأس الملاكين اللذين يرفعان المسيح عند بعثه، « رأسهما يصل إلى السماء[٢] » . وفي (عهد رأوبين) المنحول، طول الملائكة كطول السماء (ك ٥ ف ٧). وعند الكسائية يبلغ طول ملاكي القيامة في بعث المسيح « ٩٦ ميلاً » وهذه الصفة التي نجدها في كتب الحديث والقصص والتفسير.

والملائكة مراتب ووظائف، ملائكة الحضرة في السماوات الثلاث العليا، وملائكة الخليقة في الأربع الدنيا. ووظيفتهم جميعاً التسبيح بحمد ربهم : « إن

---

(١) باليونانية : ἀσώματοι
(٢) هيبوليت : المختارات ٩ : ١٣.
(٣) C D C, II, 19

الأمجاد (كناية عن الملائكة) يقدسن له، ولا يتحولون ليل نهار، مائلين بحضرة الرب » ؛ « وكل جند الكروبين حول العرش يرنمون بحضرة الرب » (٢ أخنوخ ١١ : ٩ - ١٠؛ و١١ -١٢)؛ كما في القرآن : « والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض » (٤٢ : ٥)؛ الذين يحملون العرش، ومن حوله، يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا » (٤٠ : ٧)؛ « ونحن نسبح بحمدك، ونقدس لك » (البقرة ٣٠). و (عهد لاوي) يخصص جماعة من الملائكة للاستغفار للبشر؛ كما يخصص سفر أخنوخ جماعة الملائكة « الساهرين » للسهر على حفظ الإنسان، كقول القرآن : « ويرسل عليكم حفظة » (الأنعام ٦١). وفي (عهد لاوي) نجد الملائكة المعدين لعذاب الهالكين، كقول القرآن : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة، يضربون وجوههم وأدبارهم، وذوقوا عذاب الحريق » (٨ : ٥٠)، « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » (٧٤ : ٣١). وهذه نظرية خاصة بالنصرانية والقرآن. ونقل معهم الأسينيون الذين تنصروا نظرية الروحَين، الصالح والشرير، اللذين يلاحقان الإنسان يحملانه على الخير أو على الشر، كما في رسالة برنابا (١: ١) وراعي هرمس (ك ٦ ف ٢ ع ٢ -٥). هذا ما يقول به القرآن أيضاً : « إذ يتلقى المتلقّيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » (٥٠ -١٧). ونظرية أخرى خاصة بالنصرانية أن الملائكة، خصوصاً « ملائكة السلام » يقودون النفوس إلى الجنة (عهود الآباء ك ٦ ف ١ ع ٥)؛ كما في القرآن : « الذين تتوفاهم الملائكة طيّبين يقولون : سلام عليكم، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » (النحل ٣٢).

وفي النصرانية، يمتاز « **الملائكة المقربون** » بالمرتبة والقربى من الله. ففي (إسراء أشعيا) المنحول نرى الملائكة المقربون السبعة مع الله في السماء السابعة. وهرمس في كتابه (الراعي ٩ : ٧ -١٢) يعطينا أسماءهم؛ فهم « غفريل ورنيل وأوريل - وإخثيس - وميخائيل وجبرائيل وعزرائيل » . إنهم ملائكة الحضرة الإلهية. نلاحظ أن أسماءهم كلها أرامية، إلا الاسم الذي يتوسطهم فهو يوناني :

« إخثيس » . ونعرف أن « إخثيس » يعني لغةً « السمكة » وكان النصارى في زمن الاضطهاد الروماني قد اتخذوه اصطلاحاً لمجموعة حروف متقطعة تعني : « يسوع المسيح، ابن الله، المخلص » . فهو يتوسط الملائكة المقربين، ويمتاز عنهم باسمهم كنايةً عن شخصيته: فهو سيدهم، لكنه منهم لأنه محشور معهم، فهو إذن مخلوق مثلهم. ونجد صدى لهذه العقيدة القرآنية في قوله : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون » (النساء ١٧١). فهي عقيدة نصرانية قرآنية.

وعقيدة نصرانية قرآنية أخرى هي **سجود الملائكة لآدم**، ويرفض إبليس وملائكته أمر الله بالسجود له. نجد تفصيلها في (سيرة آدم وحواء ك ١٢ ف ١٦) : وقال إبليس متنهداً : يا آدم، كل عداوتي وحقدي وألمي تتجه إليك، فإنه بسببك طُردت، وانتزعت مني كل العظمة التي كنت أتمتع بها بين الملائكة، وبسببك أسقطت إلى الأرض. أجاب آدم : ماذا عملت لك؟ ما هو ذنبي معك؟ لماذا تلاحقني أنا الذي لم أهنك ولم أجرحك في شيء؟ أجاب إبليس : لما كوّنت، نُفيت من حضرة الله، ورذلت من صحبة الملائكة. لما نفخ الله فيك نسمة الحياة، وخلق وجهك ومثالك على صورة الله، جاء بك ميخائيل وأمر بعبادتك بحضرة الله. وقال الله : هو ذا آدم، لقد خلقتك على صورتي كمثالي! وصعد ميخائيل وقال للملائكة : اعبدوا مثال الله الرب، كما أمر الرب. وميخائيل هو الأول عبد؛ ثم صرخ بي قائلاً : اعبد مثال الله الأزلي. فأجبت : ما لي أن أعبد آدم، إنه أصغر مني وأحدث مني؛ قبل خلقه، كنت مخلوقاً، فهو الذي عليه أن يعبدني. ولما سمع الملائكة الذين أحكمتهم أقوالي أبوا أن يعبدوه. فقال ميخائيل : اعبد مثال الله! وإذا لم تفعل، يغضب الله عليك. فقلت : إذا غضب عليّ، أنصب عرشي فوق نجوم السماء، وأصير عديل العلي! فغضب الله الرب عليّ وطردني من سنائه، مع ملائكتي. فهكذا بسببك، طردنا من مساكننا، وسقطنا إلى الأرض[١] » . نجد القصة نفسها في (٢ باروخ ك ٥٦ ف ١٠).

(١) نقلاً عن Martiniano Roncaglia : Histoire de l'Eglise Copt T I p. 297

وهذه هي قصة سجود الملائكة لآدم وثورة إبليس عليها في القرآن. ترد سبع مرات (٢ : ٣٤؛ ٧ : ١١؛ ١٥ : ٢٨ ــــ ٤٣؛ ١٧ : ٦١؛ ١٨ : ٥٠؛ ٢٠ : ١١٦؛ ٣٨ : ٧١). ونجد تفصيلها في سورة الحجر (٢٨ ـ٤٣) وفي سورة ص (٧١ ـ٨٥) بتعابير متقاربة؛ وفي غيرهما موجزة.

ولا ذكر لهذه القصة في اليهودية ولا في المسيحية، وهذا دليل من دلائل الوحدة بين النصرانية والدعوة القرآنية.

فتلك النظريات النصرانية تسربت إليها من الغنوص الهلنستية في الأسينية، وعبرت من النصرانية إلى الدعوة القرآنية. وبها تتميزان عن اليهودية وعن المسيحية.

*

رابعاً : المسيح في العقيدة ((النصرانية))

في قصة المولد، حافظت النصرانية على مولد المسيح المعجز من أم بتول، بشهادة جيروم التي نقلناها. بينما الكلام النصراني في الأبيونية والكيرنثية والكسائية انحرف إلى القول بأنه بشر مولود من أب وأم كسائر البشر، ولو كان سيد الخلق.

وفي شخصية المسيح، نرى من مصادر الوحي الإنجيلي انحراف النصارى من بني إسرائيل ((العبرانيين)) بأنه سيد الملائكة المقربين، فهو مثلهم مخلوق، لا مولود من الله كما تقول المسيحية عن المصادر الإنجيلية.

إن هرمس في (الراعي ك ٩ ف ١٢ ع ٧) يقول بصراحة : ((إن الله، لما أراد أن **يخلق** الملائكة المقربين **من نار**، على عدد سبعة، قضى أن يجعل أحدهم ابنه)) . فالمسيح عندهم هو ((ابن الله)) على المجاز، وعلى الاصطفاء، لا على الولادة والبنوة الذاتية.

هذا ما يردده ابيفان[١] في أواخر القرن الرابع : « المسيح عندهم ليس مولوداً من الله الآب، بل مخلوقاً، وهو **أحد رؤساء الملائكة،** المالك على الملائكة وعلى كل أعمال القدير » .

فالمسيح، في عقيدتهم، مع كونه سيد الخلق ورب العالمين، هو مخلوق، لا مولود[٢]. فهو كما رأينا عند هرمس « **أحد الملائكة السبعة المقربين** » . وفي (المؤلفات الكليمنتية) المنحولة : ليس المسيح سوى **ملاك** (العظة ٨ : ٤٢)؛ إنه « أول رؤساء الملائكة » (التعريف ٢ : ٤٢).

وفي القرآن نجد العقيدة « النصرانية » ذاتها في المسيح، في التعريف به على التخصيص : « إنما المسيح، عيسى، ابن مريم : رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم **وروح منه... لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون »** (النساء ١٧٠ ـ ١٧١)، فكان « وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقربين » (آل عمران ٤٥). فالمسيح هو « من المقربين » على الإطلاق، بل من « الملائكة المقربين » . تلك هي **الازدواجية** القائمة في شخصية المسيح بحسب القرآن. إنه « عيسى، ابن مريم » ؛ وإنه أيضاً من الملائكة المقربين (النساء ١٧١)، فهو « كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » (النساء ١٧٠). قال الرازي : « وقوله (روح) أدخل التنكير في لفظ (روح) ولذلك يفيد التعظيم. فكان المعنى : **روح من الأرواح الشريفة القدسية العالية** » ، أي من الملائكة المقربين. فالمسيح بحسب القرآن هو ملاك أسمى وبشر أسمى معاً. وهذه هي العقيدة « النصرانية » عينها؛ بخلاف العقيدة اليهودية، والعقيدة المسيحية.

فعقيدة القرآن في المسيح هي عقيدة « النصرانية » عينها.

*

---

(١) الشامل في الهرطقات ك ٣٠ ف ٦ ع ٤.

(٢) وعنهم ورث الأريوسيون عقيدتهم، كانوا يتحدون الأرثذكسيين بالتلاعب على حرف واحد من كلمة واحدة، فيقولون : المسيح γενητός مخلوق، لا γεννητός مولود. وقد حدّد المجمع المسكوني الأول في المسيحية أنه « مولود غير مخلوق » ضد الأريوسيين.

خامساً : أسماء المسيح الحسنى في الكلام «النصراني»

هنـاك بعـض تعـابير متـواترة بـين الموسـوية والنصـرانية والإسـلام، لهـا دلالتهـا علـى شخصية المسيح : الاسم، الناموس، العهد، المبدأ.

١ـ المسيح هو «الاسم»

في التوراة، «الاسم» كناية عن الله، اسم الجلالة؛ بديلاً من «ياهو» أو «يهوه» أي «هو الله» كما ترجم القرآن (سورة الإخلاص). ورد في لغة التنزيل (الخروج ٢٣ : ٢١)، وفي «سكينة» الله في الهيكل (التثنية ١٢ : ١١)، وفـي صـفات الله مـن قداسـة وجـلال (طوبيـا ٨ : ٥). وانتهى التعبير فصار في الكلام العبري **كناية عن ذات الله** : «فالاسم» هو الله ذاته.

وتطور فصار عند فيلون كناية عن «كلمة الله» .

وبهذين المعنيين ورد تعبير «**الاسم**» **في العهد الجديد**. «فالاسم» كناية عـن ذات الله، كما في الصلاة الربية : «**تقدس اسمك**» ، أي تقدست في ذاتك؛ وكما في الإنجيل بحسب يوحنا : «إني أعلنت اسمك للناس» (١٧ : ٦)، أي ذاتك وشخصيتك. و «الاسم» كنايـة أيضـاً عن المسـيح، كما في قوله : «أيها الآب مجدّ اسـمك» (يوحنـا ١٢ : ٢٨) أي «أيهـا الآب مجدني بالمجد الذي كان لي عندك قبل إنشاء الكون» (يوحنـا ١٧ : ٥). وجـاء فـي سفر الأعمـال : «فرحين أنهم حسبوا أهلاً لأن يهانوا **لأجل الاسم**» (١٥ : ١٤). ومن هنا درج تعبير «الاسم» كناية عن المسيح في الكلام النصراني. قال بولس : «وآتاه **الاسم الأعظم ...** الرب» (فيل ٢ : ٦ ـ١١).

فصار تعبير «الاسم» تارة كناية عن الله، وطوراً كناية عن المسيح.

ويرد ذكر «اسم الله» مراراً في القرآن؛ ولا يرد كناية عن المسيح، لأن فـي ذلـك شبـهة في إلهيته.

٢ـ المسيح هو « البدء » أو « المبدأ » .

فـي الإنجيل بحسب يوحنا : « في البدء كان الكلمة » (١ : ١). وفي سفر الرؤيا : المسيح هو بدء ـ مبدأ كل خليقة » (٣ : ١٤). وعند بولس، المسيح : « هو المبدأ » أي « بكر كل خليقة » ، و « بكر المبعوثين من الموت » (كولوسي ١ : ١٥ ـ٢١). وهذا كله تطبيقاً لقول سفر الحكمة : « الحكمة هي البدء ـ أو : المبدأ » لكل شيء (٨ : ٢٢). فالمسيح هو بدايات الخليقة وبدايات تجديدها.

ويرد في القرآن مراراً : « إنه يبدأ الخلق ... من يبدأ الخلق؟ الله يبدأ الخلق » (يونس ٤ و٣٤)؛ « والله يبدأ الخلق ثم يعيده » (الروم ١١)، « إنه هو يبدئ ويعيد » (البروج ١٣). ولكن لا يرد التعبير كناية عن المسيح، لأن في ذلك شبهة في إلهيته.

٣ـ المسيح هو « العهد »

في الكتاب يرد مراراً تعبير « عهد الله » . ويرد في أشعيا كناية عن المسيح في قوله: « جعلتك عهداً للشعوب » (١٤ : ٣).

فصار تعبير « العهد » في النصرانية كناية عن المسيح نفسه. قال الشهيد يستين : « من هو عهد الله ... إنه المسيح[1] » .

وفي القرآن يتواتر تعبير « عهد الله » . لكن التعبير لا يرد بحق المسيح.

٤ـ المسيح هو « الناموس »

لفظ « الناموس » يوناني، وهو ترجمة : توراة أي شريعة. وصار عندهم كناية عن كتاب موسى. وفي تشخيصهم المتصاعد للتوراة، صار « الناموس » عندهم ذاتاً أكثر منه كتاباً. فكان الناموس تجسد كلام الله في حرف التوراة، مثل تنزيل كلام الله في حرف القرآن.

---

(١) يستين : الحوار ٢٢ : ٤ و٥ ؛ ١٢٨ : ٣.

وفي الكلام اليهودي والنصراني، صار الناموس أيضاً كناية عن « كلمة الله » . فعند فيلون[١] صار « الناموس » كناية عن « كلمة الله » . فالناموس هو الكلمة، والكلمة هو الناموس، استناداً إلى قول أشعيا : « من صهيون يطلع الناموس ـ الشريعة ـ ومن أورشليم كلمة الله » (٢ : ٣).

وفي النصرانية يصير « الناموس » كناية عن المسيح. قال هرمس[٢] : « ترى هذه الشجرة التي تظلّل السهول والجبال والأرض كلها، إنها **ناموس الله** المعطى للعالم أجمع. وهذا الناموس هو ابن الله، المبشر به إلى أقاصي الأرض » . ونقل أيضاً أكليمنضوس الاسكندري[٣]: « في (بلاغات بطرس) يسمى المسيح : الناموس ، والكلمة » .

وانتقلت كناية المسيح « الناموس » إلى الحديث الإسلامي. ففي حديث عائشة عن بدء الوحي، يقول قسّ مكة، ورقة بن نوفل، في السيرة الهاشمية « لقد جاءه الناموس الأعظم » أي ناموس عيسى، كما يفسرون.

ونفهم من ذلك مذهب ورقة النصراني، ومعنى هداية محمد في غار حراء.

*

سادساً : التثليث الإنجيلي، في عقيدة « النصارى »

لم يكن النصارى من بني إسرائيل يقبلون سوى الإنجيل بحسب متى، المسمى « الإنجيل بحسب العبرانيين » . وفي خاتمته جاء أمر المسيح قبل رفعه إلى السماء : « وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » (متى ٢٨ : ١٩). فكان ذلك لأهل الإنجيل عقيدة وشريعة وصوفية.

ولم يكن لدى النصارى من بني إسرائيل لصياغة هذا التثليث الإنجيلي

(١) مسائل التكوين ٤ : ٢٤٠.
(٢) كتاب الراعي : المشابهة السابعة ٣ : ٢.
(٣) في كتاب Stromates I. 29

سوى لغة « الروح » ، فصاغوه بتعبير ملائكي، فقالوا : « **ملاك كلمة الله، وملاك روح القدس** » .

وفي الأصل لم يكن هذا التعبير « الملائكي » للتثليث الإنجيلي، انحرافاً في العقيدة، لأن مصدره يرتقي إلى الكتاب نفسه الذي يسمي الله في ظهوره « **ملاك الله** » ؛ والنبي ملاخيا يسمي المسيح الموعود : « ملاك العهد » (٣ : ١ ـ٢). وكلام النصرانية الأولى في تسمية « ملاك كلمة الله » ، و « ملاك روح القدس » يدل على الروحانية في شخصيتهما، لا على خلقهما. لكن التعبير متشابه، وسيجرّهم إلى القول بخلقهما.

وساعد النصارى من بني إسرائيل في إطلاق اسم « ملاك » على المسيح والروح القدس، تعبّد اليهود للملائكة، الذين يسميهم الكتاب مجازاً « أبناء الله » . فصار ذلك عندهم حقيقة، كفرتها المسيحية، ثم القرآن من بعدها.

وكان فيلون سيد علم الكلام في عصر المسيح عند بني إسرائيل. فنقل الفريسيون ثم الأسينيون القمرانيون الذين تنصّروا كلامه إلى « النصرانية » . وكان فيلون يسمي كلمة الله « الملاك الأول » ، و « رئيس الملائكة » : فصار « ملاك كلمة الله » عندهم ملاكاً مخلوقاً، وصار « ملاك الروح القدس » عندهم أيضاً ملاكاً مخلوقاً.

وظلت حيرة النصارى من بني إسرائيل في إلهية الكلمة والروح، أو خلقهما، سائدة طوال عهد الفترة، حتى الدعوة القرآنية، فقال : « ويسألونك عن الروح؟ قل : الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (الإسراء ٨٥).

*

١ـ « ملاك كلمة الله » هو ميكال

يتطور معنى « كلمة الله » من صفة إلهية إلى صفة ملائكية شيئاً فشيئاً، في الكلام النصراني. ففي (الراعي) لهرمس، يمتاز « كلمة الله » على سائر الملائكة

« الأمجـاد » . عنـده « كلمـة الله » هـو « المـلاك المجيـد[١] » ، « المـلاك الحميـد[٢] » ، « المـلاك القدوس[٣] » .

والشبهة على شخصيته تأتي من قوله تارة : « أنت الذي ألبسه **الملاك القدوس** القوة، لماذا لا تطلب منه نعمة الصلاة؟ لماذا لا تطلب إلى الرب الفهم » (ك ٥ ف ٤ ع ٤)؟ حيث يرادف بين الملاك القدوس والرب، وطوراً من قوله : « يجب أن تشقى، هكذا قضى الملاك المجيد » (٧ : ١)، « يجب أن تتعذب، هكذا أمر **ملاك الرب** الذي ائتمنني عليك » (٧ : ٤). فكلمة الله هو حيناً الرب، وحيناً ملاك الرب : فالصفة الملائكة عند هرمس آخذة في التغلب على الإلهية.

يظهر ذلك من الأوصاف المتواترة التي يصف بها وفيها « كلمة الله » . فهو تارة يسميه بين الملائكة المقرّبين السبعة، باسم يختلف عنهم وطول يتميّز عليهم وسلطان يسمو عليهم[٤] . وهذا يدل على أنه، وإن كان فيما بينهم، فهو أسمى منهم. يؤيد ذلك دوره في إدخال الخالصين إلى الجنة : « وأراني الراعي (ملاك الوحي) صفصافاً عظيماً يغطي السهول والجبال. وكان ملاك الرب المجيد، ذو الطول الباسق، يقف تحته. وهو يحمل بيده منجلاً كبيراً يقطع به الأغصان ويوزعها على الجمهور المحتشد » (ك ٨ ف ١ ع ١ ـ٢). ثم يطلب الأغصان ، فيأخذها ويفحصها. « ثم أمر **ملاك الرب** أن يُؤتى بالأكاليل. فجيء بها. كأنها من سعف النخل. فكلّل بها الذين قدموا أغصاناً موشاة بالسعف والثمار، ثم أدخلهم البرج. أما الآخرون الذين قدموا أغصاناً خضراء، لكن بدون ثمر، فقد أرسلهم إلى البرج، بعد ما ختمهم بختم. فكل الداخلين إلى البرج

(١) هرمس : الراعي ٧ : ١ و٢ و٣؛ ك ١١ ف ١ ع ٣.
(٢) هرمس : الراعي ٥ : ٢؛ ٧ : ٢ و٣؛ ٩ : ١ و٣.
(٣) هرمس : الراعي ٥ : ١ و٧.
(٤) هرمس : الراعي ك ٩ ف ١٢ ع ٧.

كانوا يلبسون الحلل نفسها، بيضاء كالثلج » (ك ٨ ف ٢ ع ١ ـ٢). هنا يظهر ملاك كلمة الله ملك يوم الدين، وهذه صفة إلهية، كما نراها في رؤيا يوحنا حيث الإكليل (٢ : ١٠) والختم (٧ : ٣) والسربال الأبيض (٧ : ٩) وسعف النخل (٧ : ٩) علامات الخالصين بدم الحمل.

لكن عند هرمس، الملائكة المقربون الستة، هم « الملائكة القديسون أول المخلوقين » (ك ٣ ف ٤ ع ١ ـ ٢؛ ك ٣ ف ١٠ ع ١)، ويجعل منهم صراحة « ابن الله » : « لما خلق الله الملائكة من نار، على عدد سبعة، **قضى أن يكون أحدهم ابنه**. هو الذي يسميه أشعيا : الرب الصبئوت » . فنرى أنه يبقى ستة ملائكة **مخلوقين مع الابن** (ك ٩ ف ١٢ ع ٧). هنا يصرح بخلق كلمة الله، الابن، ابن الله. يؤيد ذلك **الوحدة القائمة بين « كلمة الله » وبين الملاك ميخائيل.** فعلى دوره في يوم الدين يعقب بقوله : « الملاك الضخم المجيد هو ميخائيل الذي له السلطان على الشعب ويحكمه » (ك ٧ ف ٣ ع ٣).

وهكذا يصير « كلمة الله » الملاك ميخائيل، كما نرى ذلك أيضاً في (أخنوخ الثاني ك ١٢ ف ٤ ع ١٦) : « ناداني الله بفمه وقال لي : تشجّع، يا أخنوخ، ولا تخف. قف بحضرتي إلى الأبد. حينئذٍ، ميخائيل الملاك الزعيم العظيم لدى الرب أقامني وقادني إلى حضرة الرب. فسجد الأمجاد (الملائكة) وقالوا : ليصعد. وقال الرب لميخائيل : خذْ أخنوخ وانزع عنه ثيابه الأرضية، وادهنه بالزيت الطيب، وألبسه ثياب المجد » . وهذا هو الدور الذي يلعبه « كلمة الله » في إسراء أشعيا (ك ٩ ف ٤ ع ٥؛ ك ٩ ف ٣٩) حيث « ملاك الرب » ، « الملاك العظيم » هو ميخائيل. يؤيد ذلك (عهد دان) الكتاب النصراني المنحول : « فتقربوا من الله، من الملاك الذي يشفع فيكم، لأنه الوسيط بين الله والناس ». فكلمة الله هو الملاك ميخائيل الوسيط بين الله والناس. بينما عند بولس هذه الوساطة الإنسانية دليل إلهيته : « فالله واحد، والوسيط بين الله والناس واحد، وهو المسيح يسوع من حيث هو إنسان » (١ تم ٢ : ٥) لأنه « المسيح يسوع ربنا » (١ تم ١ : ٢).

وفي الكلام الأبيوني تصير **الوحدة بين « كلمة الله » والملاك ميخائيل** مطلقة. فالمسيح عندهم « روح من الله » ، ملاك. نقل عنهم ترتليان[١] : « يجعلونه بشراً سويّاً، لكنه أعظم من الأنبياء، إذ يقولون إن فيه ملاكاً » . وابيفان يقول بصراحة : « إنهم ينكرون أن الكلمة مولود من الآب، لكنهم يقولون بأنه **مخلوق كأحد رؤساء الملائكة،** وهو يحكم على الملائكة وعلى كل ما صنعه القدير » . فكون المسيح كلمة الله ورب العالمين لا يجعله إلهاً، إنما هو زعيم الملائكة، ميخائيل؛ إنه بشر رسول، « **يسكنه ملاك** » ، على حد تعبير ترتليان.

وهكذا، بسبب التفسير الملائكي للتثليث الإنجيلي عند النصارى من بني إسرائيل، **يصير « كلمة الله » ؛ « ملاك كلمة الله » ميكال** (كما يقولون بالحرف العربي)؛ فهو « روح منه » تعالى، أحد الملائكة المقربين وزعيمهم.

وهذه العقيدة النصرانية هي التي عبرت إلى القرآن : « إنما المسيح عيسى ابن مريم، رسول الله : وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ... لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » (النساء ١٧٠ ـ١٧١). فالشبهة التي تجعل عيسى بن مريم بشراً وملاكاً في آن واحد، قد سرت من « النصرانية » إلى القرآن. وهذه الازدواجية هي التي جعلت « النصرانية » شيعة، بالنسبة للسنة المسيحية.

*

٢ـ « ملاك الروح القدس » هو جبريل

جبريل، له في الكلام النصراني كما في القرآن، صورتان.

١) في الصورة الأولى هو « ملاك الروح القدس » .

إن (إسراء أشعياء) المنحول يسمي جبريل « ملاك الروح القدس » بتواتر. ويظهر أنه يجعل الروح القدس ملاكاً، كما جعل « كلمة الله » ملاكاً

---

(١) في جسد المسيح ١٤ : ٥.

(٣ : ١٥ ـ ١٦). فهو يصرح : « افرح فرحاً عظيماً لأن الذين يودّون العلي وحبيبه يصعدون إلى هنا (السماء السابعة)، في آخرتهم، بواسطة ملاك الروح القدس » (٧ : ٢٣). وفي نص آخر (٩ : ٢٧ ـ ٣٦) يضع « ملاك الروح القدس » عن شمال الرب العلي، مقابل الكائن المجيد الذي عن يمينه، ويسميه « الرب » بلقب المسيح المتواتر.

والدور الذي يقوم به ملاك كلمة الله، في (إسراء أشعيا)، يقوم به جبريل في (٢ أخنوخ ٩ : ١٥ ـ١٢ : ١٣) : « أرسل الرب أحد الأمجاد لديه، جبريل، فقال لي : تشجع يا أخنوخ، ولا تخف. قم واتبعني، وقف بحضرة الرب إلى الأبد. فأجبته : آه يا ربي، لقد ذابت نفسي فيَّ من الهلع. نادِ لي الذين قادوني إلى هذا المكان. فخطفني جبريل وأقامني بحضرة الرب. ورأيت الرب، ووجهه المجيد الرهيب ... والرب ذاته، بفمه نفسه، ناداني وقال لي : تشجّع يا أخنوخ ولا تخف، قف وقم بحضرتي إلى الأبد » . فوحدة الدور تدل على أن ملاك الروح القدس » هو جبريل. وكما يجلس « ملاك الروح القدس » عن شمال الله، في (إسراء أشعياء) يجلس جبريل عند (أخنوخ الثاني) : « ناداني الرب، وأقامني عن شماله، قرب جبرائيل، وأخذت أعبد الرب » (١٤ : ٣ ـ ٤). والمقصود عندهم جميعاً أن **الروح القدس هو جبريل**، قوله (إسراء أشعياء) في البشارة المنسوبة دائماً إلى جبريل : « وظهر **ملاك الروح** في هذا العالم، وبعد ذلك لم يبعد يوسف مريم، بل احتفظ بها » (١١ : ٤). لاحظ تعبير « الروح » على الإطلاق؛ ولاحظ صفة الخلق عليه بإضافته إلى الملاك.

هذا ما يفسر لنا تعبير « الروح » المطلق في القرآن : « ويسألونك عن **الروح**؟ ـ قل : الروح من أمر ربي » (الإسراء ٨٥)، فقد يعني « الروح » هنا الملاك، لأنه « من أمر ربي » أي من عالم المخلوق. والقرآن يسمي « روح القدس » الذي نزّل القرآن على محمد (النحل ١٠٢) جبريل (البقرة ٩٧). فعقيدة القرآن هي العقيدة « النصرانية » .

٢) في الصورة الثانية، جبريل هو أيضاً « كلمة الله » نفسه

في (رسالة الرسل) ـ كتاب نصراني منحول ـ يقول المسيح الكلمة : « في صورة **الملاك جبريل**، ظهرتُ أنا نفسي للعذراء مريم، وخاطبتها فخفق قلبها. وآمنت وضحكت. حينئذٍ **أنا الكلمة** دخلتُ فيها وصرت بشراً. فكنت أنا ذاتي سفيراً لذاتي. وعملتُ ما عملت في هيئة ملاك. ثم رجعت إلى أبي » (ف ٢٥). هنا يصير جبريل كلمة الله، وكلمة الله يظهر بهيئة جبريل ويتأنس من مريم العذراء.

وفي كتاب نصرني آخر منحول[١] نجد : إن الكلمة « نزل إلى الأرض في الأيام الأخيرة، ولما تنازل نَفَخ (أو : نُفِخ) في رحم مريم العذراء نوراً جديداً. فبنزوله من السماوات اتخذ صورة مائتٍ. فظهر أولاً في جبريل بصورة منزهة قديرة. وكملاك رئيس خاطب الفتاة بهذه الكلمات : يا عذراء اقبلي الله في حشاك البتولي » .

كأننا نقرأ قصص البشارة في القرآن : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً ... قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ... قال : (هو) كذلك! قال ربك : هو عليّ هين ... وكان أمراً مقضيّاً » (مريم ١٥ ـ ٢٠). فروح الله هو الذي يهب لمريم غلاماً زكياً، كأنه هو نفسه، وكان أمراً مقضياً. هذا ما أوجزه بقوله : « والتي أحصنت فرجها، فنفخنا **فيها** من روحنا، وجعلناها وابنها آية للعالمين » (الأنبياء ٩١)؛ « ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا **فيه** من روحنا » (التحريم ١٢)؛ كأن النافخ في مريم، والمنفوخ فيها هو روح الله الواحد. وهذه الصورة تختلف عن صورة البشارة في آل عمران. فكأن الصورتين في « النصرانية » عبرتا إلى القرآن.

*

---

(١) Oracles sybillins VIII P. 456- 461

٣ـ صيغة التثليث المتشابهة في « النصرانية »

كان تصوير النصارى من بني إسرائيل للتثليث الإنجيلي، **بتعابير ملائكية**، على نور التوحيد التوراتي، تذويباً تدريجياً للعقيدة المسيحية، وتشبيهاً في التنزيه، حتى أمسى « كلمة الله » و « الروح القدس » ملاكين، وروحين من « الملائكة المقربين » في الحضرة الإلهية.

لكن هذا التطور في الكلام النصراني ترك في الآثار الباقية آثار التردد بين صورتين متعارضتين : فتارة نرى « كلمة الله » و « الروح القدس » معبودين مع الله؛ وتارة نراهما عابدين.

في (إسراء أشعياء) النصراني المنحول، يرى النبي صعود المسيح إلى السماء، وجلسوه على العرش عن يمين القدرة : « ورأيت كيف صعد الحبيب إلى السماء السابعة بينما كان يسبح بحمده الصديقون والملائكة أجمعون. ورأيت كيف جلس عن يمين المجد الأعظم، ذاك الذي قلت عنه إني لم أكن لأتحمّل سناه : ثم رأيت **ملاك الروح القدس** يجلس عن الشمال. فقال لي **هذا الملاك** : يا أشعيا بن عاموص إني أصرفك الآن، فعدْ إلى ثوبك (أي بشريتك) حتى تتم أيامك، وحينئذ تعود إلى ههنا » (ك ١١ ف ٣٢ ع ٣٥). فقيام « الحبيب » ـ وهو لقب المسيح، كلمة الله ـ عن يمين المجد الأعظم؛ وقيام الروح القدس عن شمال المجد الأعظم، بين تسابيح الملائكة والبشر الخالصين، برهان على أن كلمة الله والروح القدس يشتركان في المجد الإلهي وعبادة المخلوقين. هذا تصوير صحيح للتثليث المسيحي. لكن التعبير عنه بلغة ملائكية يدخل التشبيه في التنزيه؛ وهذا الأسلوب مرتعه وخيم.

وفي لوحة أخرى من (إسراء أشعيا) يرى النبي صورة التثليث المسيحي : « ورأيت ثمة (في السماء السابعة) كائناً واقفاً، مجده يعلو على كل مجد، لأنه المجد الأعظم الأسنى. وكل الملائكة تقدموا لديه وعبدوه وسبحوا بحمده. وقال لي الملاك : هذا هو رب الآيات الكبرى التي شاهدتها. وفيما هو يخاطبني، رأيت

كائناً آخر، **مثله في المجد**، فتقدم الملائكة أيضاً لديه وعبدوه وسبحوا بحمده. أما الكائن الآخر الذي رأيته فكان قائماً عن شمال الرب فسألت : من هذا؟ فقال لي الملاك : اسجد له، فهو **ملاك الروح القدس** الذي نزل عليك كما نطق في سائر الصديقين » (ك ٩ ف ٢٧ ع ٣٦). هذه أيضاً صورة شعبية للتثليث المسيحي نشاهد فيها كلمة الله والروح القدس معبودين مع الله. لكن وصفهما **بصفة ملاك يحمل على التشبيه في التنزيه**، ويقود إلى الاعتقاد بخلقهما مع رفعهما.

وهذا ما نراه في فصل لاحق من (إسراء أشعيا) : « **والرب وملاك الروح يعبدان الله ويحمدانه** » (ك ٩ ف ٢٧ ع ٤٠).

فهذا تثليث مشبوه ثار عليه الكلام الأبيوني : فلا يكون كائن معبود وعابد معاً أي خالق ومخلوق معاً. أجل إن التعبير بلغة ملائكية عن ذات كلمة الله، وذات الروح القدس، لا يقتضي القول بالخلق والتشبيه، فالكتاب يسمي الله في ظهوره « **ملاك يهوه** » . لكن تسمية كلمة الله والروح القدس باسم « ملاك » ، وتمثيلهما يعبدان الله، بعد عبادة الخلق له، دليل التشبيه في التنزيه، والتجسيد في التجريد. **والنتيجة الحاسمة** أن عقيدة النصارى من بني إسرائيل في « الروح » كانت متشابهة، ودامت حيرتهم حتى القرآن الذي جاء بها : « ويسألونك عن الروح؟ قل : **الروح من أمر ربي**، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (الإسراء ٨٥). فالقرآن لا يعرف من أمر « الروح » إلا أنه « من أمر ربي » أي مخلوق.

لذلك وصل إليه الكلام النصراني بأن كلمة الله وروح القدس هما روحان من الملائكة: فسمى « روح القدس » (النحل ١٠٢) جبريل[1] (البقرة ٩٧)؛ ووصف كلمة الله بأنه « روح منه » (النساء ١٧٠)؛ وقد نجد إشارة إلى أن اسمه « ميكال » في قوله : « قل : من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله ... من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال، فإن الله عدو

---

(١) جبريل « بكسر الجيم وفتحها بلا همز، وبه بياء (جبرائيل) وبدونها (جبرائل) » (الجلالان).

للكافرين » (البقرة ٩٧ ـ٩٨). فجبريل هو روح القدس، ملاك الوحي؛ وبالمقارنة يكون ميكال كلمة الله، إذ لا يسمي القرآن سواهما من الملائكة أجمعين. وهو هنا يكفر الكفر بهما أو بأحدهما، كما يكفر تربيبهما (آل عمران ٨٠). هذه هي **الصيغة الكلامية الملائكية** التي يكفرها القرآن.

وبما أن « الروح » في العبرية والأرامية مؤنث، فقد رأى بعض النصارى من بني إسرائيل في الروح القدس الذي حلّ على المسيح يوم عماده **أمه الملاكية**[1] . وفي إنجيل النصارى نفسه[2] يخاطب الروح يسوع في عماده : « أنت ابني الحبيب » ، مما يدل على اعتقاد النصارى بالروح القدس أمّاً للمسيح. فكان التثليث « النصراني » في **صيغة أخرى شعبية** : الله والمسيح ابن الله، والروح القدس أمه. فثارت ثائرة الكلام الأبيوني على هذا التصور، وبلغت الثورة إلى القرآن : « أأنت قلت للناس : اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » (المائدة ١١٩).

هذا هو التثليث الإنجيلي، بالتعبير الملائكي، في صيغته الكلامية، وفي صيغته الشعبية، كما قال به النصارى من بني إسرائيل، وكما نراه في القرآن. وهو ليس من التثليث الصحيح في شيء. إنه تثليث « شيعة النصارى » التي فهمت الإنجيل على ضوء التوراة ، كأن كلمة الله الذاتية لم يُنزل لنا معه كلمة الله المنزلة الأخيرة، بل جاء « مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة » (آل عمران ٥٠).

*

سابعاً : تجسد « كلمة الله » بحسب الكلام « النصراني »

يتميز الكلام « النصراني » عن الكلام المسيحي، بأنه يأخذ تعابيره من الكتاب والغنوص؛ بينما يأخذها الكلام المسيحي من الكتاب والفلسفة الهلنستية.

---

(١) كما نقل عنهم جيروم في تفسير الإنجيل بحسب يوحنا (٢ : ١٢).
(٢) كما نقل عنهم جيروم في تفسير أشعيا (١١ : ٢).

ولنا مثال على الكلام المسيحي الجامع للكتاب والحكمة في تعريف الإنجيل بحسب يوحنا بسر تجسد كلمة الله. وتعبير «« الكلمة »» أفلاطوني هلنستي فيلوني إنجيلي؛ لكن يمتاز في الإنجيل بإلهية «« الكلمة »» وتجسده : «« في البدء كان الكلمة، والكلمة كان في الله، والله كان الكلمة، فهو منذ البدء في الله ... والكلمة صار بشراً وسكن ما بيننا »» (١ : ١ و١٤). فنزول «« الكلمة »» في الإنسان هو تأنس وتجسد، وهذا تعبير فلسفي؛ وهو أيضاً «« سكنى »» ـ بالعبرية «« شخينة »» ـ وهو تعبير كتابي.

أما النصارى من بني إسرائيل فيعبرون عنه بلغة «« النزول »» أو «« التنزيل »»[1] . وهذا التعبير سيقودهم إلى شبهتين ضخمتين في تحريف العقيدة.

الشبهة الأولى، مقابلة تأنس «« كلمة الله »» ، بتنزيل «« كلام الله »» . وهذا يقودهم إلى اعتبار «« كلام الله »» المنزل في الكتاب غير مخلوق، كما جرى في الكلام اليهودي و «« النصراني »» والإسلامي. وينتج عن ذلك شبهة على حقيقة التأنس تؤدي إلى إنكار إلهية «« كلمة الله »» في تأنسه. يزيد في ذلك اعتبارهم «« كلمة الله »» ملاكاً، «« روحاً منه »» تعالى. فصار المسيح «« بشراً يسكنه ملاك »» على حد تعبير ترتليان عن عقيدة النصارى من بني إسرائيل؛ كما جاء في القرآن. «« كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه »» (النساء ١٧٠) أي البشر عيسى ابن مريم يسكنه «« ملاك كلمة الله »» .

الشبهة الثانية، اعتبار التأنس حالة طارئة وظاهرة عابرة، على يسوع؛ لا حقيقة قائمة، وحالة دائمة. وتوغل الشبهة في التشبيه في أسلوب وصفهم «« لنزول »» كلمة الله : في نزوله إلى الإنسان تدرّع صورة جميع المراتب الملائكية في السماوات الخمس الدنيا، حتى وصل إلى الأرض فتدرع بالطبيعة البشرية من مريم. فكان ملاكاً مع الملائكة، وبشراً مع البشر. يقول في (إسراء أشعيا ١١ :

---

(١) باليونانية χατάβασις

١٧) : « كان مخفياً عن كل السماوات وكل السلاطين. ورأيته في الناصرة يرضع كطفل، بحسب الفطرة العامة، كي لا يكون معروفاً » . ونقل عنهم ايريناوس[1] قولهم : « المسيح يتغير بحسب رضاه » .

هذا الأسلوب في التعبير يقود الكلام « النصراني » المتطرف إلى نظرية « **التشبّه** » في شخصية المسيح وسيرته وآخرته، لا في صلبه فقط.

كان في الكلام « النصراني » ، في أمر نزول الروح القدس، مدرستان : فالشرقية السورية تقول بحلوله على مريم في المولد المعجز؛ والمدرسة المصرية الإيطالية تقول بحلوله على المسيح نفسه يوم عماده[2] . جاء في خبر النصارى الأبيونيين عند ابيفان[3] أنهم يقولون : بأن « يسوع سمي ابن الله على الاصطفاء لأن المسيح حل عليه من علُ في هيئة حمامة. فهو، كما يقولون، ليس مولوداً من الله الآب، بل مخلوقاً كأحد رؤساء الملائكة، لكن أعظم منهم » . وفي إنجيلهم : إن الروح القدس نزل بهيئة حمامة على يسوع ودخل فيه فصار المسيح. لكنه فارقه قبل استشهاده، فما قتل اليهود إلا يسوع، ابن مريم.

فقصة « الشبه » تتناول عند فريق من « النصارى » شخصية المسيح وسيرته كلها. لكنها تتضح في قصة الصلب.

*

ثامناً : قصة « الشبه » في صلب المسيح

كان المسيح، في نظر الكلام اليهودي الذي ورثه النصارى من بني إسرائيل، خالداً لا يموت، كما أشار يوحنا إلى ذلك (١٢ : ٣٤). لذلك يميل الكلام

---

(١) الرد على الهرطقات ك ١ ف ٢٤ ع ٤.
(٢) كتاب « المختارات » ك ٦ ف ٣٥.
(٣) الشامل في الهرطقات ك ٣٠ ف ١٦.

النصراني إلى القول بأن المسيح فارق يسوع قبل استشهاده. يقول باسيليذ أحدهم : « بما أن المسيح يتحول برضاه من صورة إلى صورة، فقد ألقى في صلبه شِبْهَه على سمعان، وصلب سمعان بدلاً عنه؛ في ما هو يرتفع حياً إلى الذي أرسله، هازئاً بجميع الذين مكروا به للقبض عليه، لأنه كان غير منظور للجميع » .

كأننا نقرأ في هذا النص القرآن نفسه : وقولهم (اليهود) : إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم! ـ وما قتلوه، وما صلبوه، ولكن شبّه لهم. وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا إتباع الظن. وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً » (النساء ١٥٦ ـ ١٥٧). فقصة « الشبه » في القرآن إرث « نصراني » .

فالصلب، في « النصرانية » لم يبق قضية تاريخ وعقيدة فداء، بل **مسألة رمزية** : إنها صليب المجد، يتبع المسيح في مجده كأن الصليب كائن حي : إنه « **الصليب النوراني** » كنجم المجوس في المولد، أو كالنار الملتهبة فوق الأردن تحل مع الروح على المسيح؛ إنه رمز **قدرة المسيح** الشاملة؛ إنه **الصليب الكوني** الذي يرون مظاهره في جنبات الكون. أما الصليب الخشبي رمز صلب المسيح واستشهاده فلا عبرة له عندهم.

جاء في كتاب (أعمال يوحنا ف ٩٩) المنحول : « هذا الصليب المنير الذي تراه ليس بصليب الخشب الذي ستراه عند رجوعك إلى الأرض. على ذاك الصليب الخشبي لم أكن إياي، الذي تسمعه الآن ولا تراه : لقد أخذوني من لست إياه، إذ لم أكن حينئذ من كنت بين الجماهير » . من هنا كان نفور النصارى من بني إسرائيل من الصليب الخشبي للمسيح. **وقد ورث الإسلام عنهم هذا النفور.**

وعقيدة « **شبه المسيح في صلبه** » نظرية « نصرانية » متأصلة في كلامهم كما نراها في كتبهم مثل (أعمال يوحنا) و (إنجيل بطرس) المنحولين.

وهذه العقيدة لها صيغتان : الأولى إن المسيح، كلمة الله، فارق يسوع ابن مريم قبل استشهاده، **فصلب يسوع نفسه**؛ لكن المسيح ذاته لم يصلب ولم يقتل.

والثانية أن يسوع المسيح رُفع إلى السماء، فلم يصلب ولم يقتل؛ إنما ألقى شبهه على غيره من تلاميذه، سمعان أم يهوذا، فصلب هذا الغير المشبوه بدل يسوع.

فكان عندهم « الصليب النوراني[1] » المعبود، والصليب الخشبي المنبوذ.

وكان النصارى من بني إسرائيل يعيدون لذكرى صلب يسوع، لا لذكرى صلب المسيح؛ ولبعث يسوع، لا لبعث المسيح.

وفي يوم القيامة رجع المسيح إلى يسوع فقام حياً وارتفع إلى السماء.

فقصة الشبه في صلب المسيح، في القرآن، موروثة عن الدعوة « النصرانية » .

*

تاسعاً : قصة « رفع المسيح » إلى السماء في الدعوة « النصرانية »

إن « النصرانية » والمسيحية تؤمنان على السواء بقيامة المسيح ورفعه حياً إلى المجد الإلهي، كما يشهد بذلك ايريناوس[2] وجيروم الذي يقول : « إنهم يؤمنون بابن الله الذي ولد من العذراء مريم. ويقولون بأنه استشهد على عهد بنطيوس بيلاطس. وهذا عينه ما نؤمن به نحن[3] » . ولكن لا يذكر أن لقب « ابن الله » كان عندهم مجازاً لاصطفائه على العالمين، وقد سقط في الاستعمال الكلامي.

لكن « النصرانية » تركّز على **رفع المسيح أكثر من قيامته**. فهم يرون البعث والرفع عملاً واحداً، ويصرحون بالرفع وحده. فكما سمّوا التجسد « نزولاً » يسمون القيامة إلى المجد الإلهي « رفعاً[4] » بحرف واحد في اليونانية، مع تبديل أوله بأداة مختلفة. وفي هذا التعبير لفظاً ومعنى يُطوى على الصلب والقيامة؛ فلا

---

(١) كما يسميه كيرللس الأورشليمي (١٥ : ٢٢) : φωτοείδης

(٢) الرد على الهرطقات ك ١ ف ٢٦؛ مجموعة الآباء اليونان ك ٧ ص ١٨٦.

(٣) الرسالة ٨٩ : ١٣ إلى اغسطين؛ مجموعة الآباء اليونان ك ٢٢ ص ٩٢٤.

(٤) وبالحرف اليوناني ἀνάβασις - κατάβασις أي Catabase- anabase

يظهر إلا « نزول الكلمة » و « رفع الكلمة » . وقد يكون هذا هو التعبير الموجز للحقيقة الإنجيلية، كما ورد عند بولس : « فكونه (ارتفع) هل يعني إلا أنه (نزل) أيضاً إلى أعماق الأرض » (أفسس ٤ : ٩). والنشيد الفيلبي عند بولس أيضاً لأمجاد المسيح، لا ينص إلا على النزول في حال عبد، والرفع إلى المجد الإلهي مع الاسم الأعظم (فيل ٢ : ٦ ـ١١). وزادت الغنوص « النصرانية » في التركيز على « النزول » وعلى « الرفع » وحدهما. وهذه هي **الصورة القرآنية في** إلقاء كلمة الله إلى مريم، ورفعه إليه تعالى (النساء ١٧٠ و١٥٧).

نجد في « النصرانية » **صورتين لآخرة المسيح.** الأولى تدمج القيامة بالرفع ولا تذكر إلا الرفع؛ ففي (عهد بنيامين[١]) نقرأ : « لما صعد من « الهادس » ارتفع من الأرض إلى السماء، فعلمت كيف كان وديعاً على الأرض، رفيعاً في السماء » . كذلك في (إنجيل بطرس ك ٣٦ ف ٤٠) المنحول، حيث يصف مشهد القيامة والرفع كأنه فعل رفع إلى السماء فقط : « انفتحت السماوات ونزل منها رجلان نورانيان. ورأيت ثلاثة يصعدون من القبر، والشابان يرفعان الآخر؛ ورأس المرفوع كانت تتجاوز السماوات » . فما القيامة سوى رفع المسيح إلى السماء على المركبة الملائكية، كما يحمل عرش الله ثمانية من المقربين. والصورة الثانية تؤكد القيامة والرفع معاً مع فاصل زمني بينهما، كما في (رسالة برنابا ١٥ : ٩) المنحولة : « إننا نحتفل في الفرح باليوم الثامن، لأن يسوع المسيح فيه قام وظهر وارتفع إلى السماوات » ؛ لكن الأعمال الثلاثة في يوم واحد. هذا ما يوجزه أرستيد في (الدفاع ١٥): « بعد ثلاثة أيام قام وارتفع إلى السماء » . وفي صلاة عيد الفصح عند الشرقيين، حفلة تعرف (بالهَجْمة) تمثل على باب الكنيسة البعث والرفع والدخول إلى السماء في آن واحد، صبيحة عيد القيامة. وهذا هو الأثر الذي تتركه مصادر الوحي الإنجيلي. وبما أن البعث والرفع والدخول إلى

---

(١) عهود الأسباط : عهد بنيامين ك ٧ ف ٥.

المجد الإلهي في السماء، تتم كلها في آن واحد، أو يوم واحد؛ فنرجع إلى موجز الصورة الأولى : **آخرة المسيح كانت رفعا إلى الله في السماء**[1] .

وهذه هي **الصورة القرآنية** لآخرة المسيح كما وردت عند النصارى من بني إسرائيل: « والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أُبعث حياً » (مريم ٣٣)؛ « إذ قال الله، يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ » (آل عمران ٥٥)؛ « وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه » (النساء ١٥٧). فليس بعد الوفاة والموت إِلا البعث والرفع حياً إلى الله في السماء.

*

عاشراً : رجعة المسيح واليوم الآخر في عقيدة « النصارى »

يذكر الإنجيل للمسيح رجعة إلى الأرض ليوم الدين في اليوم الآخر.

وجاء سفر الرؤيا، فذكر في أسلوب رمزي، للمسيح حكم ألف سنة مع الصديقين على الأرض، بعد انتصار المسيحية على الوثنية الرومانية، باسم « بابل العظيمة » . ومدة ألف سنة تعني في الأسلوب الرمزي مدة طويلة غير محدودة. ويتضح أن الرؤيا تقصد سيطرة المسيحية ما بين اضطهادها الأول عند نشأتها، واضطهادها الآخَر في اليوم الآخِر بواسطة المسيح الدجال، من قولها برجعة المسيح بعد حكم ألف سنة، لقيام الساعة ويوم الدين. ويسمي السفر حكم الألف سنة من سيطرة المسيحية « القيامة الأولى » تنويها بخلاص المسيحية من الاضطهاد الأكبر الذي جعلها كمائتة، وذلك على سبيل الاستعارة والرمز. أما القيامة الحقيقية ليوم الدين فهي « القيامة الثانية » للحياة الأبدية، و « الموت الثاني » للهالكين في جهنم مع إبليس من شياطين الجن والأنس (الرؤيا ٢٠ : ٤ ـ١٥).

---

(١) ولا عبرة باختلاق الصوفيين من « النصارى » فترة ما بين القيامة والرفع إلى السماء، تدوم أياماً أو شهوراً أو أعواماً، يعطي فيها المسيح لتلاميذه تعاليم سرية ينقلونها لنا. وربما هذا ما حدا بيوحنا إلى نقل حديث يسوع لتلاميذه قبل رفعه، ودمجه بحديثه في العشاء الفصحي قبل استشهاده (يوحنا ف ١٥ ـ ١٦ بين ١٤ و١٧).

لكن النصارى من بني إسرائيل، في دعوتهم، قرنوا حكم الألف سنة الرمزي للمسيح والمسيحية برجعة المسيح في اليوم الآخر؛ وجعلوهما « القيامة الأولى » الحقيقية إلى جنة على الأرض، كجنة آدم، تعود فيها البشرية في آخرتها كما كانت في أولاها : فاختلطت أوصاف جنة الأرض بأوصاف جنة السماء.

نقل جيروم[1] نظريتهم في قوله : « إن اليهود والأبيونيين (مرادف للنصارى)، الوريثين لضلال اليهود - والذين اتخذوا اسم أبيونين (أي فقراء) عن تواضع - **يفهمون بالمعنى الحرفي كل لذات الألف سنة** » ، في رجعة المسيح لليوم الآخر. وهكذا صارت عند هؤلاء النصارى **اللذات الرمزية في حكم الألف سنة لذات حسية حقيقية للجنة في اليوم الآخر.**

واستخدموا لذلك أوصاف الكتاب لليوم الآخر، بنقل المعنى من الرمزية إلى الواقعية المحسوسة؛ مثل خصب الأرض المفرط الذي يفيض على الصديقين خيرات ولذات لم يحلموا بها (عاموص ٩ : ١٣)؛ ومثل بهاء سني لا حدّ له في الشمس والقمر ينير أهل هذا النعيم (أشعياء ٣٠ : ٢٦)؛ ومثل مصالحة الحيوانات في ما بينهما، ومع الإنسان (أشعيا ٦٥ : ٢٥).

وقد نقل ايريناوس[2] مثلاً من ذلك من بابياس : « سيأتي يوم ينبت فيه الكرم بشكل عجيب : كل جفنة يكون لها عشرة آلاف غصن؛ وكل غصن عشرة آلاف فرع؛ وعلى كل فرع عشرة آلاف عنقود؛ وفي كل عنقود عشرة آلاف حبة؛ وكل حبة تقطر خمسة وعشرين برميلاً من الخمر » ! هذه هي أنهار الخمر لذةً للشاربين!

وفي تلك الجنة يبقى الزواج قائماً، لكن بدون حدود ولا قيود كما في الدنيا؛ ويكون مع خيرات حسان كأنهن اللؤلؤ والمرجان. وكلمة « حورية » ،

---

(١) في تفسير أراميا ٦٥ : ٢٠ مجموعة آباء اللاتين ك ٢٤ ص ٨٢٣.
(٢) في الرد على الهرطقات ك ٥ ف ٣ ع ٣.

« حوريات » أرامية من لغتهم. جاء في تعليم كيرنتش[١] إنه يقول : « بعد القيامة، ملك المسيح سيكون أرضياً، والجسد يكون أسير الشهوات واللذات. وكعدو لكتب الله، يقول إنه يكون حينئذ فترة ألف سنة في عرس بهيج » . ويكون اليوم الآخر لهم « مائدة هيأها الله لهم ليطعمهم من كل ما يشتهون[٢] » .

فبينما كان اليوم الآخر عند اليهود حكم المسيح في أورشليم الجديدة المسيطرة على العالم. نرى اليوم الآخر عند النصارى من بني إسرائيل حكم المسيح مع الصديقين في تجديد جنة آدم بما لم يكن يحلم به آدم نفسه. كأن الجنة عند النصارى من بني إسرائيل، قبل هجرتهم إلى مكة والحجاز، عرس دائم في غوطة دمشق التي كان يحن كل بدوي إلى رؤيتها وقطف لذاتها.

وهذا التصوير الحسي « النصراني » لليوم الآخر، نجد صداه وصورته في القرآن. وصلة الوصل هي أن اليوم الآخر يكون في **جنات عدن،** اسم جنة آدم المتجددة : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومساكن طيبة في جنات عدن، ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم » (التوبة ٧٣). فالقرآن ينتهي في وصف جنة اليوم الآخر، كما بدأ؛ فالملائكة من السماء يطلبون : « ربنا، وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، إنك أنت العزيز الحكيم » (غافر ٨). هذه هي البشرى بها : « هذا ذكر، وإن للمتقين لحسن مآب، جنات عدن مفتحةً لهم الأبواب، متكئين فيها، يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب. وعندهم قاصرات الطرف أتراب. هذا ما توعدون ليوم الحساب » (ص ٤٩ ـ٥٣). إنها « جنات عدن تجري من تحتها الأنهار » (طه ٧٦؛ البينة ٨). فالثواب على الإيمان **هو جنات عدن** : « أولئك لهم جنات تجري من تحتهم الأنهار يحلون

---

(١) ايريناوس : الرد على الهرطقات ك ٣ ف ٣ ع ٤.
(٢) ايريناوس : الرد على الهرطقات ك ٥ ف ٣٣ ع ٢.

فيها من أساور من ذهب، ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق[1] متكئين فيها على الأرائك. نعم الثواب وحسنت مرتفقاً » (الكهف ٣٠). قال الجلالان : « الأرائك جمع أريكة، وهي السرير في الحجلة، وهي بيت يزيّن بالثياب والستور للعروس » . إنها « جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ، ولباسهم فيها حرير » (فاطر ٣٣). هذا هو الفوز العظيم : « ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة، في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم » (الصف ١٢). وبما أنها جنات عدن، « مثل الجنة التي وُعد المتقون : فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يغير طعمه، وأنها من خمر لذة للشاربين، ولهم فيها من كل الثمرات، ومغفرة من ربهم » (محمد ١٥).

ونقطة التلاقي الثانية هي رجعة المسيح لليوم الآخر : « وأنه (ابن مريم) لعَلَم ـ لعِلْم ـ للساعة فلا تمترن بها » (الزخرف ٦١). فالقرآن يقرن رجعة المسيح قبل قيام الساعة باليوم الآخر؛ ويجعل رجعته علَماً لها، وعلْماً بها. فهو الرسول الأعظم في اليوم الآخر يقود المتقين إلى الجنة.

وتعبير « اليوم الآخر » يشير أيضاً إلى النظرية « النصرانية » التي تقسم أيام الخليقة، كأيام الخلق، إلى سبعة أيام، كل يوم « بألف سنة مما تعدون » ؛ واليوم الآخر هو اليوم السابع الألفي الذي يقضيه المتقون الخالصون مع رسول « الساعة » ، بتدبير الله : « الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش ... يدبر الأمر من السماوات إلى الأرض، **ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** » (السجدة ٤ ـ ٥). فاليوم الآخر، أي السابع، مقداره ألف سنة؛ به تتم الخليقة السبعة، الأسبوع الكوني، كأيام الخلق.

---

(١) « السندس : فارق من الديباج (واستبرق) ما غلظ منه؛ وفي آية الرحمان : بطائنها من استبرق » (الجلالان).

تلك التصوّرات الثلاثة : رجعة المسيح لقيام الساعة، واليوم الآخر الذي مقداره ألف سنة، في جنات عدن، تجعل بدء الآخرة في القرآن، كما نراها عند النصارى من بني إسرائيل: التصورات واحدة، والعقيدة واحدة، بخلاف اليهودية والمسيحية.

* * *

بحث سابع

الشريعة والصوفية عند « النصارى »

هذا هو **مبدأ القرآن في تشريعه** : « يريد الله ليبيّن لكم، ويهديكم سُنن الذين من قبلكم ... يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » (النساء ٢٥ ـ٢٧). فمبدأه في التشريع الهداية إلى « سنن الذين من قبلكم » أي « الأنبياء في التحليل والتحريم فتتبعوهم » (الجلالان)؛ لكن مع تخفيف قرآني لأحكامها.

وبما أن القرآن « يقتدي بهدى » « الأمة الوسط » في العقيدة وفي الشريعة، نرى فيه أحكام « النصرانية » بين اليهودية والمسيحية، مع تخفيف قرآني لها.

أولاً : بعض الأحكام الشرعية

١ـ التبنّي :

إن اليهودية لم تعرف التبني في التوراة. ولما انتشرت المسيحية قالت بالتبني بين الناس، بناءً على عقيدة التبني الإلهي للمؤمنين بالمسيح (غلاطية ٤ : ٦).

لكن النصارى من بني إسرائيل، الذين يقيمون أحكام التوراة والإنجيل معاً، إذ لم يجدوا في التوراة والإنجيل حكماً شرعياً بالتبني، لم يقولوا به. ونقلوا هذا الموقف السلبي معهم إلى مكة والحجاز.

فلما قامت الدعوة القرآنية على آثار « النصرانية » **ألغت التبني** الذي كان شائعاً بين العرب : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم، ذلكم قولكم بأفواهكم، والله يقول الحق ويهدي السبيل » (الأحزاب ٤). فسّره الجلالان : « أدعياءكم جمع دعي : وهو ما يُدعى لغير أبيه ابناً له. قال اليهود والمنافقون لما تزوج النبي ص امرأة زيد بن حارثة **الذي تبنَّاه النبي ص**، قالوا : تزوج محمد امرأة ابنه! فأكذبهم الله تعالى » . فرجع محمد في دعوته إلى شرعة « النصرانية » .

٢ـ تحريم الخمر

كان الخمر مباحاً في اليهودية، وفي المسيحية، من دون السكر منه. لكنَّ النصارى من بني إسرائيل بتأثير الاسينيين المتنصرين، قالوا بتحريمه؛ حتى أنهم حرّموا استعماله في القربان من خبز وخمر، فقالوا باستعاضة الخمر بالماء في القربان. نقل عنهم ايريناوس[١] : « إن الأبيونيين يحرمون مزج الخمر السماوي بالماء، ويريدون فقط ماء هذا الدهر » .

وكتاب (أعمال توما) المنحول يقول : « إن القربان من خبز وماء، لا خمر فيه » . كذلك في كتاب (أعمال بطرس). بينما العادة المسيحية تجعل القربان من خبز وخمر. وهذه هي شهادة اكليمنضوس الاسكندري[٢] التي تميز بين عادة المسيحيين وعادة النصارى : « إن بعض الخوارج يستعملون في القربان الخبز والماء، بدل الخبز والخمر، وذلك على خلاف قانون الكنيسة » .

وكانت الخمر مباحة عند العرب أيضاً. لذلك ظلّ تحريمها « النصراني » في القرآن يتطور مدة الدعوة القرآنية كلها، حتى تمكن في آخر أمره من تحريمها. ابتدأ فاعتبر « السكر » ـ وهو لفظة عبرية تعني المسكر؛ وهذا دلالة على مصدر تشريعه « النصراني » ـ آية من الله : « ومن ثمرات النخيل والأعناب

(١) الرد على الهرطقات ك ٥ ف ١ ع ٣.
(٢) السترومات ك ١ ف ١٩.

تتخذون منه سكَراً ورزقاً حسناً، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون » (النحل ٦٧)، « سكراً : **خمراً يُسكر**، سميت بالمصدر؛ وهذا قبل تحريمها » (الجلالان). كان هذا طول العهد بمكة. ولما تحرّر في المدينة أخذ يميّز فيها : « يسألونك عن الخمر والميسر؟ ـ قلْ : فيهما إثم كبير، ومنافع للناس؛ وإثمهما أكبر من نفعهما » (البقرة ٢١٩). لاحظ أنه بدأ يقرن الخمر بالميسر أي القمار. وتطور إلى تحريمها عند الصلاة : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلوة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (النساء ٤٢). كتبوا « الصلوة » بحرفها الأرامي دليلاً على مصدرها الأرامي السرياني، وهذا أيضاً دليل على مصدر التحريم. ودليل آخر معنى « الصلوة » هنا : وهو الصلاة نفسها أو موضع الصلاة أي المسجد؛ واللفظة العربية لا تحمل معنى مكان الصلاة، إلا في هذا التشريع القرآني « النصراني » . وفي آخر العهد بالمدينة، لما تمت السيادة للإسلام، ثمّ التحريم القرآني « النصراني » . « يا أيها الذين آمنوا، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه » (المائدة ٩٣). قال الجلالان : « الأنصاب، الأصنام، الأزلام، قداح الاستقسام، **الخمر، المسكر الذي يخمّر العقل** » ، إذن فهو يحرّم السكر من الخمر، لا الخمْر في حد ذاتها على الإطلاق. فتحريم الخمر أثر « نصراني » وهذا هو التشريع القرآني للخمر.

٣ـ تحريم الخنزير

كان النصارى من بني إسرائيل ـ بخلاف المسيحيين ـ يقيمون أحكام التوراة والإنجيل معاً. وكان الخنزير رجساً في أحكام التوراة، فأخذوا هم أيضاً بتحريمه، وتحريم كل لحم يُقدّم للأصنام أي يُذبح لغير الله.

وبعد تحرير المسيحيين من شريعة موسى، قام النصارى من بني إسرائيل بتبليغ جماعتهم : « بما رسمنا أن يجتنبوا ما ذُبح للأصنام، والدم، والمخنوق،

والفحشاء[1] » (الأعمال ٢١ : ٢٥). وألحقوا هذا القرار، بقرار مؤتمر الرسل، صحابة المسيح : « فلقد رأى الروح القدس ونحن أن لا نحمّلكم إصراً فوق هذه التي لا بدّ منها : أن تجتنبوا ما ذُبح للأصنام، والدم، والمخنوق، والفحشاء » (الأعمال ١٥ : ٢٨ ـ٢٩). أما بولس فكان يعلّم : « إن كل خليقة الله مباحة، ولا شيء رجس مما يُتناول بشكر، لأنه يقدّس بكلمة الله وبالصلاة » (١ تيم ٤ : ٢)؛ وهذا تعليم المسيح نفسه في إباحة كل طعام (مرقس ٧ : ١٤ ـ٢٣).

وإنك لتسمع التشريع « النصراني » في التشريع القرآني : « قلْ : لا أجد في ما أوحي إليَّ محرّماً على طاعم يطعَمُه إلا أن يكون ميتةً، أو دماً مسفوحاً، أو لحم خنزير فإنه رجس، أو فسقاً أُهلّ لغير الله به. فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد، فإن ربك غفور رحيم » (الأنعام ١٤٥). فالتعبير واحد في التحريم، مع تحديد أوفى للشرع[2] : أضاف القرآن تحريم « الميتة » وهو متواتر عند اليهود والنصارى؛ وأسقط ذكر « الفحشاء » لأنه تشريع كتابي عام؛ وحدّد « الدم المسفوح » تمييزاً له من « المخنوق » ؛ ووصف لحم الخنزير بصفته المتواترة عندهم : « فإنه رجس » . والجميع يأتي بلفظ التحريم « النصراني » : « اجتنبوه » أي امتنعوا عنه » .

---

(١) الفحشاء، لا تعني الزنى فقط، فهذا بدهي؛ قد يراد بها كل علاقة نكاح غير شرعية؛ وبحسب بعضهم عدم الاغتسال من الجنابة بعد الجماع.

(٢) هذا التحديد الأوفى للشرع يأتي أيضاً في قوله : « إنما حُرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهّل به لغير الله : فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم » (البقرة ١٧٣) كذلك (النحل ١١٥). فهذه الصيغة أقرب إلى صيغة « النصارى » . والتكرار دليل التعليم الموروث المتواتر. ويفصّل أحوال « الميتة » بقوله : « حرّمت عليكم الميتة، والدم، ولحم الخنزير وما أهّل لغير الله به، والمنخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، إلا ما ذكّيتم » أي أدركتم فيه الروح فذبحتموه (المائدة ٤).

٤ـ الغسل من الجنابة والوضوء للصلاة

كان الغسل لكامل الجسم من الجنابة شرعة توراتية (الأحبار ٨ : ٦؛ ١٦ : ١٤؛ ١٧ كله) والوضوء لليدين والرجلين قبل كل صلاة أيضاً شرعة توراتية : « اصنع مغتسلاً ... فيغسل هارون وبنوه أيديهم وأرجلهم، إذا دخلوا خباء المحضر، فليغتسلوا بماء لئلا يموتوا ... فليغسلوا أيديهم وأرجلهم لئلا يموتوا. يكون ذلك لهم رسم الدهر، له ولبنيه مدى أجيالهم » (الخروج ٣٠ : ١٧ ـ ٢١). وعمّم الأسينيون الغسل والوضوء على اتباعهم؛ ولما تنصّروا عمّت الشرعة « النصرانية » .

إن الاغتسال من الجنابة، بإيلاج أو بإنزال، كانت شرعة عند النصارى من بني إسرائيل، خصوصاً الأبيونيين[1] منهم والكسائيين. ويرى بعضهم أن المقصود « بالفحشاء » في نص التحريم السابق (الأعمال ١٥ : ٢٨؛ ٢١ : ٢٥) هو عدم الاغتسال بعد الجنابة. وكانوا يسمونه « الطهور » ، تمييزاً له من « الوضوء » للصلاة. وكان الغسل بعد الجماع فرضاً عند النصارى. ولم يكن ذلك فرضاً في المسيحية؛ ونرى اكليمنضوس الاسكندري[2] يحمل على عادة التطهير اليهودية بعد الجماع عند المسيحيين.

وجاء القرآن بالتشريع « النصراني » في ذلك : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة ... ولا جُنباً ـ إلا عابري سبيل ـ **حتى تغتسلوا** ... أو لمستم (لامستم) النساء، فلم تجدوا ماءً، فتيمّموا صعيداً طيّباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم، إن الله كان عفوّاً غفوراً » (النساء ٤٢). فسّره الجلالان : « جُنُباً : بإيلاج أو إنزال، وهو يطلق على المفرد وغيره ... لامستم وفي قراءَة بلا ألف، وكلاهما بمعنى اللمس أي **الجسّ باليد**، قاله أبو عمرو الشافعي؛ وأُلحق به الجسّ

---

(١) قابل ابيفان : الشامل في الهرطقات (ك ٣٠ ف ١٦).

(٢) Stromates III, 33.

بباقي البشرة؛ وعن ابن عباس **هو الجماع**. (فتيمّموا صعيداً طيّباً) أي تراباً طاهراً » . ميّز بعضهم بين الجنب واللمس، وابن عباس لم يميّز بينهما. ولضرورة الاغتسال بعد الجنابة، أمر بالتيمّم بتراب طاهر، إذا تعذّر الماء.

وكرّره في قوله : « يا أيها الذين آمنوا، إذا قمتم إلى الصلاة، **فاغسلوا** وجوهكم وأيديكم إلى المرافق؛ وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين؛ **وإن كنتم جنباً فاطهروا** ... أو لمستم النساء، فلم تجدوا ماءً، فتيمّموا صعيداً طيّباً، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه؛ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهّركم » (المائدة ٧). هنا يعطي سبب الاستعاضة عن الماء بالتيمم. وتكرار التشريع بحرفه تقريباً دليل على أنه متواتر موروث بحرفه. وتشريع الغسل من الجنابة، التطهير، توراتي (الأحبار ف ١٥ كله) عبر مع النصارى من بني إسرائيل إلى الدعوة القرآنية.

وقد حفظ القرآن التعبير « النصراني » نفسه : « والله يحب المطهّرين » (التوبة ١٠٩)؛ « ويحب المتطهّرين » (البقرة ٢٢٣)؛ وهو باليونانية الشائعة في كتبهم : καθαροί

٥ـ تحريم « الرهبانية » عند « النصارى »

كان الزواج سُنّة توراتية. ونادى بها الإنجيل بعد تعديلها لجهة منع التعدّد ومنع الطلاق؛ مع الدعوة إلى البتولية عند الذين يتخصصون بالدعوة « إلى ملكوت الله » ؛ وهذه هي الرهبانية.

وكان الأسينيون من اليهود ينادون بالبتولية، ولا يفرضونها إلا على المريدين من رهبانهم في أديرة قمران. ولما تنصّروا أدخلوا معهم دعوتهم إلى البتولية في « النصرانية » . فظهرت عند النصارى من بني إسرائيل نزعتان : إحداهما معتدلة تقول بالزواج وتحرّض على البتولية! والثانية متزمتة متطرفة تريد فرض البتولية على الجميع. وهذه النزعة المتطرفة هي التي يقاومها بولس الرسول في آخر عهده : « والروح يقول صريحاً : إن بعضاً سيرتدون عن الإيمان

في الأزمنة الأخيرة، ليتـبّعوا أرواحاً مضلة **وتعاليم شيطانية**، من رئاء أناس متخرصين، ضمائرهم موسومة. فإنهم **يمنعون عن الزواج**، وعن أطعمة خلقها الله لكي يتناولها في شكر المؤمنون والعارفون للحق » (١ تيم ٤ : ١ -٥).

وقد حدّدت « النصرانية[١] » الشرعة الصحيحة : « **إن النبي الحق قد شرع الزواج، وأذن بالإمساك عنه** » . ومع الزمن وتناقص عدد « النصارى » ، فرضوا الزواج، ومنعوا من الإمساك عنه ـ إلا ما شذّ عن مجتمعهم من رهبانهم؛ لكنّ القسَّ عندهم، حتى برتبة أسقف، كان متزوجاً. وهذه هي الصورة التي نقلها عنهم ابيفان[٢]، في ختام تطورها : « اليوم يحرّمون البتولية والإمساك عن الزواج، كما في سائر الشيع التي تشبههم. ولكن قديماً كانوا يحترمون البتولية، لا شك على غرار يعقوب، أخي الرب، الذي ينسبون إليه كتباً إلى القسيسين والعذارى » . ويضيف[٣] بأن التبتّل محرّم عند الكسائيين منهم، والزواج فرض.

هكذا قبل هجرتهم إلى مكة والحجاز، كان شعارهم : **لا رهبانية في « النصرانية » !** في هذا الزمن كانت ديار المسيحيين تغص بالرهابين. ومعروف أن رفض الرهبانية في اليهودية ـ ما عدا الأسينية ـ كان فطرة وشريعة.

وفي هجرتهم بمكة والحجاز أشاع « النصارى » شعارهم، حتى عبر إلى الإسلام، فقيل : **لا رهبانية في الإسلام**[٤] . فكان الإسلام، على مثال « النصرانية » « أمة وسط » بين اليهودية والمسيحية.

---

(١) Homélies Clémentines III, 26
(٢) الشامل في الهرطقات ك ٣٠ ف ٢ ع ٦.
(٣) الشامل في الهرطقات ك ١٩ ف ١ ع ١.
(٤) حديث شريف في مسند أحمد بن حنبل، الجزء السادس، صفحة ٢٢٦.

٦ـ الختان عند « النصارى »

كان الختان شعار اليهودية والتهويد؛ ويقسمون العالم إلى « أهل الختان » و « أهل القلف » .

ولما بدأت الدعوة الإنجيلية تغزو الأمميين في سوريا والعالم الهلّنستي، من « أهل القلف » ، تنصر بعض الفريسيين وأرادوا فرض الختان على المسيحيين من الأمميين، على خلاف تعليم بولس وبرنابا (أعمال الرسل ١٥ : ٥). فأفتى مجمع الرسل، صحابة المسيح، بتحرير المسيحيين من الختان ومن سائر أحكام التوراة (أعمال الرسل ١٥ كله).

لكن النصارى من بني إسرائيل ظلوا يمارسون الختان مع العماد، كما رأينا في كل الأخبار المدونة عنهم. جاء في (رسالة برنابا) إن الختان عادة شائعة « بين السوريين والعرب، وكهان الأصنام أنفسهم. والمصريون أنفسهم يمارسون الختان » .

وبما أن الختان كان عادة عربية ساميّة، فلم يجدوا جهداً في ممارسته وإشاعته بدعوتهم في مكة والحجاز. وسرت العادة إلى الإسلام، بدون تشريع قرآني لها؛ لكنه سُنّة عن الرسول : « الختان من خصال الفطرة[1] » ؛ « الختان **سُنّة للرجال**، مكرمة للنساء[2] » .

وبهذا يتميز الإسلام، على غرار « النصرانية » ، عن المسيحية.

٧ـ الصيام عند « النصارى » ، من تشريع القرآن نفسه

شرعة الصوم في القرآن شرعة كتابية : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون، أياماً معدودات » (البقرة ١٨٣ ـ١٨٤). وهي

---

(١) صحيح البخاري ك ٧٧ ب ٦٣؛ ك ٧٩ ب ٥١ ؛ صحيح مسلم ك ٢ الحديث ٤٩ و٥٠.
(٢) مسند أحمد بن حنبل : الجزء الخامس، صفحة ٧٥.

أيضاً **شرعة « نصرانية »** في قوله : « شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن » (البقرة ١٨٤). قال البيضاوي : « أياماً معدوادات : موقتات بعدد معلوم! أو قلائل ... والمراد بها شهر رمضان، أو ما وجب صومه قبل وجوبه ونسخ به : وهو عاشوراء أو ثلاثة أيام من كل شهر ... وقيل صومكم كصومهم في عدد الأيام، لما روي أن **رمضان كتب على النصارى**، فوقع في برد أو حرّ شديد، فحوّلوه إلى الربيع، وزادوا عليه عشرين كفارة لتحويله » .

كان صيام النصارى الأول « أياماً معدوداتٍ » مختلف فيها، بشهادة ايرناوس[١] . ثم تطور إلى الوضع الباقي. فرجع القرآن إلى عادة « النصارى » .

يمزج البيضاوي بين صوم « النصارى » شهر رمضان؛ وصوم المسيحيين أربعين يوماً في مدة خمسين لامتناعهم عن الصوم من دون انقطاعة في يومي السبت والأحد. وفي تحويل رمضان إلى الربيع يخلط بين رمضان النصارى على حساب الشهر القمري؛ وصيام المسيحيين على الحساب الشمسي.

وقرينة أخرى على أن النصارى كانوا يصومون على طريقة قومهم بني إسرائيل هي الإشارة إلى بدء الصوم كل يوم : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتموا الصيام إلى الليل » ، إلى المغرب (البقرة ١٨٧). وهذا تشريع تلمودي عمل به اليهود، والنصارى من بني إسرائيل : « أول النهار (للصيام) هو الوقت الذي يقدر فيه المرء أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأزرق » (المشنة : برخوت ١ : ٢).

وقرينة تاريخية، أن الصيام عند أهل الإنجيل كان مفصولاً عن أسبوع الآلام قبل الفصح، والفصح ثابت؛ والصيام القمري متنقل. فجمع المسيحيون الصيام والأسبوع؛ وظل النصارى على التفريق : فكان صيامهم شهراً قمرياً.

---

(١) عند أوسابيوس : تاريخ الكنيسة ك ٥ ف ٢٤ ع ١٢ ـ١٣.

هكذا يظهر لنا أن تشريع صيام رمضان تشريع « نصراني » عبر إلى القرآن لقوله : « كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم .. أياماً معدودات ... شهر رمضان » . بدأ بالاختيار، ونسخه بالوجوب، لما تمّ له السلطان.

*

ثانياً ـ الحياة الاجتماعية

١ـ المجتمع « النصراني » : الحجر على الابنة والمرأة في البيت.

كان المجتمع « النصراني » ، بحسب العقلية التوراتية الموروثة، مجتمع رجال في ظاهره، لا مكان ولا مكانة للمرأة فيه. فكان على الإسرائيلي أن يصلّي ثلاث مرات في النهار ليشكر الله « لأنك لم تخلقني وثنيّاً ولا عبداً ولا امرأة[1] » .

وفيلون[2] ، المتكلم اليهودي، الذي عاصر بدء « النصرانية » يقول في مجتمع اليهود والنصارى من بني إسرائيل : « الحياة العامة للرجال، فيليق أن تبقى النساء في البيوت، ويعشن محتجبات » . وفي (المكابيين)، الكتاب الرابع المنحول (١٨ : ٧) تقول أمهم : « كنت فتاة عذراء لا أجتاز عتبة البيت الوالدي » . والمرأة المتزوجة لا تخرج إلى الشارع إلا بحجاب يحجب وجهها.

مرتان في السنة كانت الفتيات يخرجن إلى الكروم ويرقصن، في الخامس عشر من آب، وفي يوم التكفير بعد الصلاة. وكانتا الفرصتين الوحيدتين التي يسمح فيهما باختلاط الشبان والصبايا للتعارف في سبيل بناء بيت. وفي عيد الخيام كان النساء والفتيات يقتحمن ساحة النساء في الهيكل، لكن بدون اختلاط مع الرجال. وبدهي أنه في الريف كان النساء والبنات يشاركن الزوج والأب في الحقل والسوق؛ مع الحظر الشديد في أن يكلمن الغريب. ويذكر التلمود[3] أن

---

(١) التلمود : فرقة الآباء ٢ : ٦.
(٢) في الشرائع ك ٣ مقطع ١٦٩.
(٣) سفر الخطوبة ٧ : ٦.

كشف المرأة عن رأسها في الشارع سبب طلاق لها، بدون دفع المؤجل من المهر؛ كذلك هرولتها في الشارع؛ كذلك محادثة العابرين؛ كذلك إذا لعنت أولاد زوجها بحضوره؛ كذلك إذا صاحت وسمع الجيران صوتها! خمس حالات طلاق لا مؤجل فيها.

هذا المجتمع المغلق يفسر لنا لماذا استغرب التلاميذ أن يتحدث يسوع إلى سامرية عند بئر يعقوب (يوحنا ٤ : ٢٧). وعلى هذا المجتمع المغلق ثار السيد المسيح، فاصطحب مع صحابته بعض النساء، « وكنّ يبذلن من أموالهن في خدمته » (لوقا ٨ : ١ ـ٣). لكن هذه الثورة الإنجيلية على المجتمع المغلق خفّفت من الأحكام التلمودية عند النصارى من بني إسرائيل، لكنها لم تتغلب عليها.

ومع التخفيف الذي جاء به القرآن، كان **المجتمع الإسلامي صورة عن المجتمع « النصراني »** . **فالحجر في البيت شرعة** : « وقرن في بيوتكن، ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى » (الأحزاب ٣٣)، أي قبل هجرة النصارى إلى مكة والحجاز. « وقل للمؤمنات يُغْضِضْنَ من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمارهن على جيوبهن، ولا يبدين زينتهن إلا ... » (النور ٣١).

لذلك كانت **ولادة الابنة** سبب هم وغم للأب في التلمود[1] كما في القرآن : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون، أم يدسه في التراب؟ ألا ساء ما يعملون » (النحل ٥٨ ـ٥٩). وثورة القرآن على ذلك كثورة النصارى عليها[2] .

وفي (تعليم الرسل ف ٢) أيضاً ـ وهو كتاب نصراني منحول ـ يقول :

---

(١) ك ٦ ف ٧ في « الندة » ع ٣١.

(٢) تعليم الرسل ف ٢.

« **لا تقتل أبداً أولادك**، بإسقاط، أو بعد الولادة » . وهذا هو أيضاً تعليم القرآن : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً » (الإسراء ٣١، الأنعام ١٥١). وهذه العادة كانت قائمة خصوصاً في وأد البنات (التكوير ٨). تلك هي صورة المجتمع « النصراني » القرآني.

٢- الحجاب على النساء

كان النساء العربيات في الجاهلية سافرات : « ولا تبرجن تبرّج الجاهلية الأولى » (الأحزاب ٣٣).

ولا تشرع التوراة الحجاب أو الخمار. لكنه ظهر أخيراً بينهم، بشهادة المؤرخ اليهودي يوسيف[١]. وانتقل إلى النصارى من بني إسرائيل. وقد حاول بولس إدخاله في المجتمع الهلنستي (١ كو ١١ : ٥)، فلم يفلح لأنه ليس من الدين في شيء. فكان الحجاب فارقاً بين نساء النصارى من بني إسرائيل، والنساء المسيحيات في العالم الهلنستي.

وانتقلت عادة الحجاب إلى مكة والحجاز، مع هجرة النصارى من بني إسرائيل؛ ونزل بها القرآن. والحجاب في لغة القرآن يعني حجاب الباب (٣٣ : ٥٣؛ ٤٢ : ٥١؛ ٣٨ : ٣٢). وحجاب الوجه، أو العنق والصدر، يسمى الخمار : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ... ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » ! (النور ٣١). ويجب ذلك على نساء النبي وبناته، قدوة نساء المسلمين وبناتهن : « يا أيها النبي، قل لأزواجك وبناتك، ونساء المؤمنين، يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن، فلا يؤذين » (الأحزاب ٥٩). وإن لم يكن الوجه بعورة في الشرع فالآية تشير إلى غطاء الوجه نفسه، لأنها بالوجه تعرف : « ذلك أدنى أن يعرفن » . فالحجاب أو الخمار، في القرآن، من رواسب « النصرانية » .

---

(١) العاديات اليهودية ك ٣ ف ١١ ع ٤.

٣ـ أحكام الزواج

١) سن الزواج للابنة كان بعد بلوغها الثانية عشرة ونصف السنة، عند بني إسرائيل. وقد يرتقي عندهم إلى سن السابعة لظروف خاصة. وهذا ما جرى للنبي العربي في زواجه من عائشة بنت أبي بكر.

٢) لا تتزوج الفتاة إلا بولي ومهْر في «النصرانية» وفي القرآن. وتعبير «المهر» لفظة عبرية (موهر) توراتية (التكوين ٣٤ : ١٢؛ الخروج ٢٢ : ١٦؛ صموئيل الأول ١٨: ٢٥)، عبرت إلى القرآن بلفظها ومعناها. وفي التلمود يرادف المهر «الخطوبة» .

وتقسيم المهر إلى معجّل ومؤجّل شرعة تلمودية[١] غايتها التضييق في الطلاق : «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنّ» (النساء ١٩).

٣) تعدد الزوجات مباح في التوراة. وفي تطور التشريع في التلمود رأي بعضهم الاقتصار على أربع معاً : «لا يحق له أكثر من أربع[٢]» . وكانت فرقة الأسينين تثور على تفسير اليهود لإباحة الطلاق «لعيب أنكره عليها» (التثنية ٢٤ : ١)؛ ويعتمدون في تحريمه على آية التوراة (التكوين ١ : ٢٧) التي يعتمد عليها الإنجيل (مرقس ١٠ : ٦؛ متى ١٩ : ٣٤). ولما تنصّر بعض الأسينيين، عمد النصارى من بني إسرائيل الذين يقيمون التوراة والإنجيل معاً إلى الحل الوسط الذي يقول به بعضهم في التلمود : «لا يحق له أكثر من أربع» . فجاء في القرآن : «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى ثلاث ورُباع» (النساء ٣).

---

(١) قابل ك ٣ في النساء؛ ف ١ «يبموت» ع ٦٣.
(٢) التلمود : ك ٣ «في النساء» ؛ ف ١ «يبموت» ؛ ع ٤٤ ؛ يلقوت شمعوني ١ : ٨٢.
(٣) قابل (وثيقة دمشق) ٤ : ٢١.

لكن التلمود كان يسمح **للملك بالجمع بين ثماني عشرة معاً**. ويظهر أن النبي العربي أخذ بهذه الرخصة في تجاوز العدد المحدود في القرآن.

٤) الرجل وحده سيد الطلاق، فهو « الذي بيده **عقدة النكاح** » (البقرة ٢٣٧). إنها شرعة توراتية، تلمودية، « نصرانية » ، قرآنية.

وكان الأنبياء يحرّضون على الإقلال منه، كقول ملاخيا : « وهو (الله) يبغض الطلاق » (٢ : ١٦). فجاء في الحديث الشريف : « ابغض الحلال إلى الله الطلاق[١] » .

٥) كان الزوجة **حق التملك** لما تأتي به من أبيها، أو وليها (يشوع ١٥ : ١٩؛ القضاة ١ : ١٥) ولما تحصل عليه من هبات وإرث. لكن لم يكن لها **حق التصرّف فيه**.

ويعدد التلمود سبعة حقوق للزوجة على زوجها، لقاء ذلك : حق الغذاء، وحق اللباس، وحق المسكن، وحق الدواء، وحق الزوجية، وحق الفدية في غزو أو أسر، وحق الدفن. سبعة حقوق لقاء خدمته وخدمة أولاده، لكن أجرة عملها كانت لزوجها.

وفي الشرع، للزوجة المسلمة كذلك حق التملك، لا حق التصرف.

تلك الأحكام في الحياة الاجتماعية تظهر القربى بين التشريع « النصراني » والقرآني، في « أمة وسط » بين اليهودية والمسيحية.

*

ثالثاً : الحياة الدينية والصوفية

أركان الدين في الكتاب والقرآن واحدة، وهي هذه الخمسة : الشهادة بالتوحيد (مع الإيمان بالنبوة والكتاب)، الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج إلى بيت الله على من استطاع إليه سبيلاً.

---

(١) سنن أبي داود كتاب ١٣؛ باب ٣؛ سنن ابن ماجة، كتاب ١٠، باب ١.

١ـ الإيمان الجامع بين « النصرانية » والإسلام

الإيمان الجامع بين « النصرانية » والإسلام، في « أمة وسط » بين اليهودية الكافرة به، والمسيحية « المغالية » هو الإيمان بالمسيح، كلمة الله وروح منه : « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق : إنما المسيح عيسى ابن مريم، رسول الله، **وكلمته** ألقاها إلى مريم **وروح منه** ... لن يستنكف المسيح أن يكون **عبداً لله**، ولا الملائكة المقربون » (النساء ١٧٠ ـ١٧١).

فالمسيح، مع كونه كلمة الله وروحاً منه، هو عبد مثل الملائكة المقربين.

وهذه المقابلة مع « الملائكة المقربين » تجعل المسيح « من المقرّبين » (آل عمران ٤٥).

والقرآن يجمع في التكريم إلى المسيح أمه، فقد « اصطفاك على نساء العالمين » (آل عمران ٤٢)؛ « وجعلناها وابنها آية للعالمين » (الأنبياء ٩١). وهذه هي عقيدة « النصارى » كما رأينا.

٢ـ الصلاة عند « النصارى »

الصلاة شعار الدين، وهي التي تدل على ميزته عن سواه.

كان اليهود يفتتحون النهار بصلاة الصبح ويختمونه بصلاة المغرب. وقد أشار القرآن مراراً إلى هذه العادة : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً، وسبحوه بكرة وأصيلاً » (الأحزاب ٤١ ـ ٤٢)؛ « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » (ق ٣٩) ...

وجاءت فرقة الاسينيين، ورهبانهم في أديرة قمران، فاستنّوا لأنفسهم « الصلاة الوسطى » عند الظهر. نقرأ عندهم في (كتاب السلوك[١]) : « تقام

---

(١) Manuel de discipline 15 : 1

الصلاة عند فجر النهار؛ وعندما تتوسط شمس النهار؛ وعند مغرب الشمس في مقرّها المعدّ لها.

ولما تنصّر قسم من الأسينيين ورهبانهم أخلوا في « النصرانية » عادة « الصلاة الوسطى » . جاء في (أخنوخ الثاني ك ١٦ ف ١ ع ٣)، وهو نصراني منحول : « ينبغي علينا أن نذهب إلى بيت الرب عند الصبح، وعند الظهر، وعند المغرب، لحمد الرب على كل شيء » .

فاستنّ القرآن في المدينة الصلاة الوسطى : « حافظوا على الصلوات، والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين » (البقرة ٢٣٨).

ومع الصلوات النهارية أخذ صحابة المسيح عنه **قيام الليل** للصلاة وترتيل الكتاب والزبور (الأعمال ٢١ : ٧). وكانت أيضاً عادة رهبان قمران الاسينيين[١] : « يقوم بعض أعضاء الجمعية الليل للصلاة وتلاوة الكتاب وتكبير الله » . فجلبوا معهم عادتهم لما تنصروا. وتخبرنا (سُنّة الرسل[٢]) أن النصارى الأولين أخذوا عن الرسل، صحابة المسيح، سُنّة قيام الليل للصلاة.

وقد بدأ محمد بقيام الليل وترتيل قرآن الكتاب : « يا أيها المزمّل، قم الليل ... ورتّل القرآن ترتيلاً » (المزمّل ١ ـ ٤). ثم نُسخ الأمر (المزمل ٢٠). وظل قيام الليل نافلة للنبي : « ومن الليل فتهجد به **نافلةً لك**، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » (الإسراء ٧٩). ولم يكن قيام الليل عادة عربية ولا يهودية.

وكانت **قبلة النصارى** في صلاتهم إلى بيت المقدس، بخلاف المسيحيين إلى الشرق. هذا ما يشهد به ايريناوس[٣] . وفي مكة اعتمد النبي العربي قبلة النصارى

---

(١) Manuel de discipline 6- 7
(٢) Hyppolite de Rome : Tradition apostolique 35
(٣) الرد على الهرطقات ك ١ ف ٢٦ ع ٢.

إلى بيت المقدس؛ لكن في المدينة اقتضت مصلحة الدعوة لإيلاف العرب وتحريض المهاجرين والأنصار على فتح مكة، إلى تحويل القبلة إلى كعبة مكة؛ وقد أثار هذا التحويل جدلاً كثيراً (البقرة ١١٥ ـ١٤٥).

وكانت **لغة الصلاة** عند النصارى لغتهم القومية، الأرامية السريانية، لا اليونانية كما عند المسيحيين، بشهادة ايريناوس[١] . فكانت صلاة العرب المسلمين بلغة القرآن القومية، « **الصلاة الربية** » ثلاث مرات في النهار[٢].

واستقر أتقياء اليهود على الصلاة ثلاث مرات في النهار؛ ورهبان المسيحيين على سبع مرات بحسب إشارة المزمور : « سبع مرات في اليوم أسبح بمحمدك » (١١٨ ـ ١٦٤)؛ واستقر المسلمون على الصلوات الخمس، بناءً على بعض إشارات في القرآن، فكانوا مثل النصارى أمة وسطاً بين اليهودية والمسيحية.

٣ـ العماد والختان عند « النصارى »

نعرف أن النصارى من بني إسرائيل كانوا يقيمون العماد والختان معاً؛ وبذلك يتميزون عن اليهود وعن المسيحيين.

والقرآن نفسه لا يشرع الختان، لكنه سُنّة نبوية، كما رأينا.

فهل من ذكر للعماد في القرآن؟ في جدال « قالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » (البقرة ١٣٥). فأجاب إن الهداية هي في الإيمان بموسى وعيسى معاً، « لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون : فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولّوا فإنما هم في شقاق (أي هراطقة)؛ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » (البقرة ١٣٦ ـ ١٣٧). ويأتي قوله : « **صبغة الله، ومن أحسن**

---

(١) الرد على الهرطقات ك ٢٩ ف ٧.

(٢) La Didaché ch. 8

من الله صبغة، ونحن له عابدون. قلْ : أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ونحن له مخلصون » (البقرة ١٣٨ ـ١٣٩).

فسّره البيضاوي : « **صبغة الله** أي صبغنا الله صبغته، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها ... أو للمشاكلة : فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم بماء أصفر[1] يسمونه **المعمودية**، ويقولون : هو تطهير لهم، وبه تتحقّق نصرانيتهم. ونصبها على أنه مصدر مؤكد لقوله (آمنا)؛ وقيل على الإغراء؛ وقيل على البدل من (ملة إبراهيم). (ومن أحسن من الله صبغة) لا صبغة أحسن من صبغته. (ونحن له عابدون) تعريض لهم ... وهو عطف على (آمنا) وذلك يقتضي دخول قوله (صبغة) في مفعول (قولوا). ولمن نصبها على الإغراء والبدل أن يضمر (قولوا) معطوفاً على (الزموا واتبعوا ملة إبراهيم، وقولوا : آمنا، بدل اتبعوا) حتى لا يلزم فك النظم وسوء الترتيب » .

فنرى الخلاف القائم في فهم نصب « صبغة الله » . فالبدل بعيد؛ والأضمار غريب؛ وإدخالها في مفعول (قولوا) بعيد أيضاً. فلا يبقى إلا (**الإغراء**). ونحن نرى أن « صبغة الله » **جواب معترض من النصارى**؛ فأجابهم : « ومن أحسن من الله صبغة، ونحن له عابدون » ؛ ويؤيد ذلك بقوله : إن اختلاف الأعمال التعبدية، لا يمنع وحدة الإيمان بالله، وهو ربنا وربكم (١٣٨ ـ١٣٩) فالقرآن يكتفي **بصبغة الإيمان من دون صبغة العماد.**

لقد اتبع محمد صيام النصارى: « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » (البقرة ١٨٣)؛ وخفف في القصاص: « ذلك تخفيف من ربكم » (البقرة ١٧٨). فقد رأى لحكمة تخفي علينا **التخفيف في العماد** الذي تذكره الآية (١٣٨)، كما حوّل قبلة الصلاة من بيت المقدس إلى كعبة مكة

---

(١) ليس الماء أصفر، لكنه مصبوغ بزيت يُسكب عليه، مأخوذ من شجرة الزيتون « تنبت بالدهن وصبْغ » (المؤمنون ٢٠).

(البقرة ١١٥ ـ١٤٥). ربما كان لإخفاء « نصرانية » الدعوة القرآنية تأليفاً للعرب كلهم؛ وجمعهم على شعار الختان الذي يمارسونه كلهم.

٤ـ المائدة والقربان، ما بين « النصرانية » والقرآن

لما قضى الرومان على هيكل سليمان، انقضى عند اليهود قربان الضحايا. وباتوا ينتظرون المسيح الذي سيأتيهم « بقربان تأكله النار » (آل عمران ١٨٢).

وكانت فرقة الأسينيين تقول بفضل ذبائح الحمد على ذبائح الدم. ولما تنصّروا وجدوا في قربان « النصرانية » تحقيق مقالتهم.

وكان أهل الإنجيل يردّدون لليهود بأن الله تعالى، بواسطة السيد المسيح، قد أبدل قربان الدم بقربان الخبز والخمر، كما يقول المسيحيون؛ أو الخبز والماء، كما يقول النصارى.

وكان صحابة المسيح والتابعين لهم بإحسان يقدّمون القربان في حفلة « عشاء المحبة » على مثال المعلم. ويسمونه « الافخارستيا » أي « الحمد » أو « المائدة المقدسة » أو « مائدة الرب » (١ كو ١٠ : ٢١). وكانت الافخارستيا تقام في حفلة تسمّى « عشاء الرب » (١ كو ١١ : ٢٠). لكن المسيحيين أقلعوا عن عادة العشاء « للشقاقات » التي كانت تجري فيها، منذ تنديد بولس بها (١ كو ١١ : ١٧ ـ٢٢). لكن العادة ظلت سارية المفعول عند النصارى، وغلب عليها اسم « مائدة الرب » ، ومع انحراف إيمانهم « بالرب يسوع » اسم « **المائدة** » على العلمية والإطلاق. وكانت حفلة العشاء، بعد تقديم القربان، تقتصر على الحليب والعسل والفواكه، كما نرى في المصادر « النصرانية[١] » .

ونرى في القرآن أن الصراع على حقيقة المسيح الموعود، وعلى دلالته بشعار القربان لم يزل قائماً : فهم ينتظرون النبي الآتي « بقربان تأكله النار »

---

(١) رسالة برنابا ك ٦ ف ٨ ع ١٧؛ أناشيد سليمان ٤ : ١٠؛ تعليم الرسل ف ١٠.

(آل عمران ١٨٢)، **والنصارى مع القرآن** يرون أن المسيح هو عيسى ابن مريم، وأن آيته الكبرى هي قربان المائدة (المائدة ١١٥ ـ١١٨). ونشعر من قول عيسى ابن مريم : « اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً، لأولنا وآخرنا، وآية منك » ، إنه يشير إلى القربان الذي يعيّد به النصارى كلّ أحد؛ وأن هذا القربان وهذه المائدة لم يزالا يتجدّدان إلى يوم : « آخرنا » .

لكن، بما أنه يحتفي بسر المائدة تلك الحفاوة البالغة التي تجعله آية المسيح العظمى، كيف اختفى من الإسلام، والقرآن « يقتدي بهداهم » ؟ إن الحكمة الخفية التي أملت نسخ العماد، هي نفسها ألغت القربان الروحي، للاعتماد على الضحية السنوية على عرفات في موسم الحج. إنها تعريب « النصرانية » أكثر مما فعل النصارى من قبله. وإلغاء القربان والعماد يقوم على إلغاء الكهنوت.

* * *

خاتمة الأبحاث السابقة

« النصرانية » هي « أمة وسط » بين اليهودية والمسيحية

منذ نشأتها، انقسمت الدعوة الإنجيلية إلى سُنّة المسيحيين من الأمميين، وإلى شيعة النصارى من بني إسرائيل، للخلاف الأكبر والأول بينهم على صلة الإنجيل بالتوراة وشريعتها. وزاد الخلاف باختلاف القومية فيما بينهم، واختلاف الثقافة.

لقد حسم مؤتمر الرسل، صحابة المسيح، الخلاف بتحرير المسيحيين من الشريعة والختان، وترك النصارى من بني إسرائيل أحراراً في **إقامة التوراة والإنجيل معاً**. فأقاموا التوراة والإنجيل معاً، معتبرين موسى وعيسى واحداً في الدعوة. ورأوا في الإنجيل **تصديقاً للتوراة وتفصيلاً** : بخلاف المسيحيين الذين

رأوا فيه **تأويلاً وتعديلاً**، يطوّرها من السلبية إلى الإيجابية، ومن الظاهرية إلى الباطنية، ومن الحرفية إلى الروحية، ومن التشريعية إلى الحياتية.

١ـ ولانحراف النصارى من بني إسرائيل عن سُنّة الرسل في مؤتمر أورشليم عام ٤٩، أصبحوا في نظر أهل الإنجيل بجميع فرقهم « **شيعة النصارى** » . فهم يهود بحسب قوميتهم، ونصارى بحسب دينهم. لذلك يعرفون بالتاريخ باسم « **اليهود النصارى** » . فلا اليهود اعترفوا بهم، ولا المسيحيون شهدوا لهم. قال فيهم جيروم، علامة القرن الرابع، كما نقلنا : « أرادوا أن يكونوا يهوداً ومسيحيين : فلا هم يهود، ولا هم مسيحيون » ! وأيده ابيفان الأسقف، كما نقلنا أيضاً : « إنما هم يهود، لا غير » ! وذلك بسبب التهويد المتواتر والمتصاعد للإنجيل، في العقيدة والشريعة والصوفية.

هكذا عرفتهم الدعوة القرآنية : إنهم « طائفة من بني إسرائيل آمنت بالمسيح » (الصف ١٤)؛ « من قوم موسى، أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (الأعراف ١٥٨). وبما أن القرآن، في انتسابه المطلق إلى الكتاب وأهله، يكفر باليهودية، وينعت المسيحية « بالغلو في دينكم » ، فهو ينتسب إلى هذه « الأمة الوسط » بين اليهودية والمسيحية، النصارى من بني إسرائيل. **وجاءت الدعوة القرآنية تأييداً لها** : « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (الصف ١٤). لذلك يسميهم بإطراء « الراسخين في العلم » (آل عمران ٧)، « أولي العلم قائماً بالقسط » (آل عمران ١٨)، « المقسطين » ، « المحسنين » في العلم والإيمان ـ وأساء مَن فهمها تعابير لغوية؛ إنها تعابير اصطلاحية. ومصدر آخر، من متشابه القرآن : فهو يسمي النصارى من بني إسرائيل، والمسيحيين من الأمميين جميعاً « نصارى » ؛ لكن الفرق يُعرف من القرائن، حيث يأتلف معهم، أو يختلف. ومصدر ثالث للتشابه في فهم القرآن هو أنه يسمي اليهود والنصارى جميعاً « بني إسرائيل » ، ويتضح المعنى من القرائن، بحسب التنديد أو التأييد. وتلك المتشابهات الثلاث في فهم القرآن فاتت المفسرين والمستشرقين على السواء.

٢ـ وفي دولة الروم، قبل هجرة النصارى إلى الحجاز، **كانوا بين نارين** : نار اليهود، بني قومهم؛ ونار المسيحيين، بني دينهم. فانزووا على أنفسهم يتمادون في تهويد الإنجيل. وزادهم في ذلك النكبات التي حلت بهم.

فبعد نكبة بني إسرائيل الأولى عام ٧٠ ميلادية، رأى الأسينيون من اليهود تحقيق نبوءة المسيح في خراب الهيكل والمدينة المقدسة، فتنصر أكثرهم. وجمعوا معهم إلى « النصرانية » علم الكلام الذي يميّزهم، الغنوص، « العلم » على الإطلاق ـ كما ثبت من مخطوطات قمران ـ وصار النصارى يقرنون « العلم والإيمان[١] » كما في القرآن الذي يسمّيهم « **الذين أوتوا العلم والإيمان** » (الروم ٥٦).

وبعد النكبة الثانية عام ١٣٥، وتحريم بيت المقدس على جميع بني إسرائيل من يهود ونصارى، تشتتوا في الدولة الرومانية، خصوصاً في سوريا ومصر والأناضول. وزالت عند اليهود دولة الفريسيين، وقامت دولة الربانيين الذين جمعوا التلمود. فزاد البغض والحقد على النصارى من بني إسرائيل ـ ومن ورائهم على المسيحيين. وقد وضع أهل التلمود في الصلاة اليومية، « الثماني عشرة » **لعنة خاصة بهم**، كما نقلها الكاتب اليهودي سيمون[٢] : إن النصارى ـ ومن ورائهم المسيحيين ـ هم من أنجس الأمم : فخبزهم خبز السامريين؛ وخمرهم خمر الفريسيين؛ وكتبهم كلها سحر! **فلا يحق التعامل معهم على الإطلاق.** فلا بيع ولا شراء! لا أخذ ولا عطاء! لا تعلّم ولا تعليم! لا تطبّب ولا تطبيب! وعند الحاجة القصوى، يمكن أكل ذبيحة المشركين، أما ذبيحة النصراني فلا تحلّ على الإطلاق. وهذا التحريم المطلق الذي ينم على الحقد المطبق، يفسّر لنا ـ بالإضافة إلى مؤامراتهم على الدعوة القرآنية ـ عداء القرآن الساحق الماحق لليهود، في تأييده المطلق « للنصرانية » (الصف ١٤).

---

(١) Clément d'Alexandrie : Stromates III, 4, 24

(٢) M. Simon : Verus Israël; Paris 1948

مع ذلك فقد تأثر النصارى من بني إسرائيل بالتلمود وربَّانييه، بسبب مبدئهم في إقامة الإنجيل والتوراة معاً. ففي عهد الهيكل، كان الكهنوت وعلم الكتاب محور الدين، ولكن بعد خراب الهيكل، وتحريم إيلياء (أورشليم القديمة)، على بني إسرائيل جميعاً، **صارت الشريعة التوراتية محور الدين والقومية**، وصار فقهاء التلمود حملة الشريعة وحماتها. وسيطرت على القوم من يهود ونصارى الروح الفقهية في الشريعة. فقد تسرّبت تلك الروح الفقهية التشريعية إلى « النصرانية » ، فجعلت أحكام التوراة تسيطر على إيمان الإنجيل، حتى التهويد وحمل القوم معهم إلى الحجاز تلك الروح الفقهية التشريعية التي نرى آثارها في القرآن.

هكذا وجدت « النصرانية » نفسها بين نارين، نار اليهودية ونار المسيحية. وبسبب تأثير النصرانية على المسيحية، كما يظهر من الجدل الديني في القرنين الرابع والخامس، عندما أعلنت المسيحية دين الدولة بين الروم، بالدستور التيوضوسي، في منتصف القرن الخامس، اضطر النصارى من بني إسرائيل ـ وقد سبقهم اليهود إلى دولة الفرس حيث صاروا عيوناً لها وأعواناً ـ إلى **الهجرة إلى مكة والحجاز**، ملجأ جميع الفارين من دين الدولة. هذا ما سنراه بعد الآن **في المصادر الإسلامية**.

٣ـ فكل الأبحاث التي تقدمت أظهرت لنا أن **النصرانية** « **أمة وسط** » بين اليهودية والمسيحية، تقيم بخلافهما الإنجيل والتوراة معاً، باعتماد عيسى وموسى معاً، في إيمان واحد وشرع واحد، في عقيدتها وشريعتها وصوفيتها.

فاعتبر النصارى الإنجيل تصديقاً للتوراة وتفصيلاً؛ لا تأويلاً وتبديلاً.

وجمعت الإيمان بموسى وعيسى على صعيد واحد، بلا فرق ولا تفريق.

وفهمت التثليث الإنجيلي على ضوء التوحيد التوراتي؛ وفي تعبيرها عنه **بلغة ملائكية** صار الروح القدس جبريل؛ وكلمة الله « روحاً منه » ، من « الملائكة المقربين » ، يسمونه أحياناً ميكال.

وصلّت لله، بالمسيح، في قبلة إلى أورشليم، بخلاف المسيحيين، إلى الشرق.

وتلك « الأمة الوسط » بين اليهودية والمسيحية كانت تعتبر نفسها أمة عيسى الناصري، وتتسمّى « النصرانية » باسمه، خير أمة أخرجت للناس. ومنذ هجرتهم إلى مكة والحجاز، بدأوا بالدعوة، فكانوا على أساس نهضة الجاهلية في التجارة والأدب والدين، حتى انتهوا إلى الدعوة القرآنية.

والنبي العربي « أُمر بأن يكون من المسلمين » من قبله (النحل ٩٠)، « وبهداهم اقتدهْ » (الأنعام)؛ فكانت الدعوة القرآنية تأييداً لهذه النصرانية حتى الظهور المبين (الصف ١٤). وقد وارى عن تلك « **الأمة الوسط** » بمكة بالدعوة « **للأمة الواحدة** » التي تؤمن بالمسيح وأمه آية للعالمين (الأنبياء ٩٢؛ المؤمنون ٥٣). ولما استتب الأمر في المدينة، صرّح « بالأمة الوسط » في الدعوة القرآنية « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » (البقرة ١٤٣)، مع النصارى من بني إسرائيل، أولي العلم قائماً بالقسط، الذين يشهدون مع الله وملائكته « أن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٨ ـ١٩).

تلك هي « النصرانية » ، « الأمة الوسط » بين اليهودية والمسيحية، كما سنراها في المصادر الإسلامية، القرآن والحديث والسيرة.

[Blank Page]

الفصْل الثّالِث

((النصرانية)) في مكة والحجاز، قبل الإسلام
(من وحي القرآن والحديث والسيرة)

توطئة : المسيحية و ((النصرانية)) في جزيرة العرب ، قبل الإسلام

بحث أول : الدعوة الإنجيلية في الحجاز ـ من وحي القرآن والتاريخ

بحث ثان : ((النصرانية)) في الحجاز ـ من وحي السيرة

بحث ثالث : محمد على درب ((النصرانية)) ـ من وحي السيرة

بحث رابع : مبعث محمد ودور أئمة ((النصارى)) فيه ـ من وحي الحديث والسيرة

بحث خامس : أثر ورقة بن نوفل في النبي والقرآن ـ من وحي الحديث

بحث سادس : انتساب الدعوة القرآنية إلى ((النصرانية)) ، بنص القرآن نفسه

خاتمة : هل الدعوة القرآنية ((نصرانية)) ؟

[Blank Page]

توطئة

المسيحية و « النصرانية » في جزيرة العرب قبل الإسلام

زعم حسين هيكل في (حياة محمد ص ٤١) أنه « قد بقيت بلاد العرب كلها، واليمن معها، على الوثنية، دين آبائها وأجدادها، إلا قليلاً من القبائل التي لانت للدعوة المسيحية » . وهذا زعم متواتر عند القوم. وقد يجاريهم في ذلك بعض المستشرقين[١] ، بأنه لم ينفذ إلى مكة إلا نفر قليل من المسيحيين.

والشاهد الأكبر على هذه الفرية التاريخية هو **الشعر الجاهلي**، ديوان العرب، والمبتدأ والخبر عنهم : فالشعر الجاهلي لا أثر للوثنية فيه. وهو أقرب إلى التوحيد منه إلى الشرك نفسه[٢] .

فالدعوة الكتابية كانت مسيطرة على الجزيرة كلها، وعلى الحجاز نفسه. وقد ختم الدكتور جواد علي، عضو المجلس العلمي العراقي، كتابه القيّم « تاريخ العرب قبل الإسلام » بهذه النتيجة الحاسمة : « **فعبادة أهل مكة هي عبادة محمد، وتوحيدهم توحيد إسلامي، أو توحيد قريب من التوحيد الإسلامي**[٣] » .

وفي الجاهلية التي سبقت الإسلام كان **الصراع بين اليهودية والمسيحية**، للسيطرة على الجزيرة العربية، قائماً على قدم وساق، بين اليهودية، تؤيدها دولة الفرس، وبين المسيحية، تؤيدها دولة الروم من الشمال، مستعينة بالحبشة من الجنوب. هذا الصراع الذي يروي التاريخ ظواهره في اليمن، كان قد انتقل قبيل الإسلام إلى الحجاز نفسه.

---

(١) Blachère : le Problème de Mahomet, p. 25
(٢) قابل كتابنا : القرآن والكتاب ـ القسم الأول : بيئة القرآن الكتابية ص ١١١ ـ ١١٧.
(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٢٤٢ و٤٢٨ .

فسيطرت **الدعوة اليهودية** في يثرب (المدينة) ثم في منطقة خيبر وفدك؛ وسيطرت **المسيحية** في مكة نفسها، وأنشأت في نجد الحجاز دولة آل كندة، أسرة امرئ القيس المالكة. وتطاول الصراع حتى جاء الإسلام وحسمه لصالح « النصرانية » ، تلك الأمة الوسط بين اليهودية والمسيحية، كما نراه في هذا الكتاب.

١ـ سيطرة المسيحية على أطراف الجزيرة

قبل الإسلام، كانت المسيحية مسيطرة على الجزيرة العربية من الشمال مع دولة الغساسنة في بصرى، ودولة المناذرة في الحيرة، ومن الجنوب في اليمن مع الحكم الحبشي. وكان على الساحل الشرقي من الجزيرة خمس أسقفيات. ودخلت اليهودية في الجزيرة من الشمال ومن اليمن لتنافس المسيحية، بحماية الفرس. وكان المشهد الأول من الصراع، في اليمن؛ والمشهد الثاني في الحجاز مع الدعوة القرآنية.

نرى صدى ذلك في القرآن نفسه. فقد خلـّد، في سورة (البروج) ذكرى شهداء نجران من المسيحيين عام ٤٣٣. ويذكر القرآن أيضاً محاولة الحبشة غزو مكة في عام الفيل ٥٧٠، فقاوم أهلها بدافع العصبية القومية، ولا شك أيضاً بتحريض « النصارى » فيها، وكانوا هاجروا إليها من دولة الروم. فأمطر الله عليهم برداً، كأنه « حجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول » (سورة الفيل).

ويذكر القرآن أيضاً، في سور (الروم) فرح المشركين بانتصار الفرس على الروم، ويعد بانتصار الروم على الفرس، « وحينئذٍ يفرح المؤمنون » . فالنفوذ المسيحي يخيّم على الحجاز من أطراف الجزيرة.

وعن المسيحية في اليمن وتغلغلها في قبائله، لدينا شهادة اليعقوبي في تاريخه (١ : ٢٩٨): « وأما من تنصر من اليمن فطيء وبهواء وسليح وتنوخ وغسان ولخم » .

وقد امتدت المسيحية من الأمصار إلى الأعراب. يذكر المؤرخ الرومي

سوزومين[١] أنه منذ القرن الرابع « كان في بعض قرى العرب ودساكرهم أساقفة » . ولا يقصد سوزومين الولاية العربية الرومانية التي قامت محل دولة الأنباط، فحسب؛ بل الأعراب الضاربين في الصحراء العربية؛ وكان الروم يسمونهم « أساقفة المضارب »[٢] . وقد وقّع بعضهم على أعمال المجامع المسكونية الأولى؛ في زمن الجاهلية باسم « فلان أسقف أهل الوبر » ، أو « فلان أسقف القبائل الشرقية المتحالفة » ، أو « فلان أسقف عرب البادية » . وهذا يعني أوساطاً مسيحية منظمة بين أعراب الصحراء أنفسهم.

وتلك القرائن التاريخية والقرآنية تدل على أن المسيحية المسيطرة على أطراف الجزيرة، بدأت تتغلغل في الحجاز، وتتحفز للسيطرة عليه، قبل اليهودية، التي كانت في القرن السادس تتداول الحكم في اليمن مع الحبشة. لكن « النصرانية » كانت هاجرت إلى مكة والحجاز، ودخلت « أمة وسطاً » بين اليهودية والمسيحية، وتغلبت عليهما بفضل الدعوة القرآنية.

٢- « النصرانية » في مكة والحجاز، تبعث النهضة الجاهلية

بعد أن أصبحت المسيحية دين الدولة عند الروم، هاجر اليهود إلى دولة الفرس يعتصمون بها، ويعملون لها بين العرب. ووقع النصارى من بني إسرائيل بين نارين، نار بني قومهم اليهود، ونار بني دينهم المسيحيين؛ فلم يبق لهم من ملجإٍ سوى الحجاز الذي تحميه صحاريه من استعمار الدولتين، كما عصمته حكمة بنيه في وقوفهم على الحياد الإيجابي بين العملاقين؛ وهذا الحياد هو الذي حمل أهل مكة على ردّ الدعوة القرآنية : « إن نتبع الهدى معك ونتخطف من أرضنا » (القصص ٥٧)؛ لأن الدين والدولة متلازمان في عرف الأقدمين، والناس على دين ملوكهم، فالولاء الديني دليل الولاء السياسي.

---

(١) تاريخ الكنيسة، في مجموعة آباء اليونان ك ٦٧ ص ١٤٢٦.
(٢) باليونانية ἐπίσκοποι τῶν παραμβολῶν ؛ واسمهم يدل على تنقلهم مع عربهم في مضاربهم.

لقد صادفت هجرة النصارى من بني إسرائيل إلى مكة والحجاز، في منتصف القرن الخامس، **بدء النهضة الجاهلية.** ولا نعرف سبباً في التاريخ، ولا في الأدب العربي، يفسّر لغز النهضة الجاهلية في الحجاز : فلا ولادة ولا مخاض بدون سبب. فكل الآثار والأخبار عند العرب أنفسهم تدل على نوم أهل الحجاز نومة أهل الكهف، قبل هجرة النصارى من بني إسرائيل إليهم. ولا سبب في التاريخ يدل على يقظتهم ونهضتهم إلا هجرة هؤلاء النصارى : فكانوا على أساس النهضة الجاهلية في السياسة والتجارة والثقافة والديانة.

ومن القرائن القرآية نرى أن النصارى من بني إسرائيل أطلقوا في مكة والحجاز لنشر دعوتهم **ثلاث حركات :**

أولاً : الحركة الحنيفية. كان المسيحيون في سوريا يسمون النصارى من بني إسرائيل « **حنفاء** » أي منحرفين عن دين الأمة، بلغة السريان. فاتخذوا هم اللقب شعاراً لهم على « دين الحق » الذي يزعمونه لأنفسهم. فأطلقوا في الحجاز الدعوة « النصرانية » باسم « الحنيفية » ، وربطوها باسم إبراهيم جدّ إسرائيل وإسماعيل، وأسموها « ملة إبراهيم » . ونرى « نصرانية » الحركة الحنيفية، وتخبط الناس في موضوعها ومعناها، مما يقولونه في زعيمها ورقة بن نوفل، قس مكة. فتارة يجعلونه يهودياً، وتارة مسيحياً، وأخرى مستقلاً. وكان ذلك كله لأنه « تنصّر » مع النصارى من بني إسرائيل. فتاه الناس بين القومية والمذهب في تعبير « النصارى من بني إسرائيل » . فكان « الحنفاء » العرب متنصرين، مستقلين عن اليهودية والمسيحية، في « أمة وسط » بينهما.

ثانياً : الحركة الإسلامية. ثم سمى النصارى من بني إسرائيل دعوتهم « **الإسلام** » ، وذلك قبل القرآن الذي يشهد : « هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا » القرآن (الحج ٧٨). وذلك في محاولة منهم **لتعريب « النصرانية »** باسم الإسلام، وتأليف العرب إليها، بحجة أنها ليست اليهودية، ولا المسيحية؛ فلا يتعرضون فيها لغضب الفرس مع اليهود، ولا لغضب الروم مع المسيحيين.

ونرى اقتران الصفتين بتواتر في القرآن، في إمامة إبراهيم : «ما كان إبراهيم يهودياً، ولا نصرانياً (مسيحياً) ولكن كان **حنيفاً مسلماً**، وما كان من المشركين» (آل عمران ٦٧). ومحمد في هدايته يقول عن نفسه: «وأُمرت أن أكون من المسلمين» الموجودين قبله (النمل ٩٠)، كما جاءه الأمر : «أقم وجهك للدين حنيفاً» (يونس ١٠٥؛ الروم ٣٠). فالحنيفية والإسلام صيغتان «للنصرانية» .

ثالثاً : الدعوة القرآنية. سنرى في هذا الكتاب أن الدعوة القرآنية هي دعوة النصارى من بني إسرائيل ومَن «تنصّر» معهم من العرب؛ فهم «أولو العلم قائماً بالقسط» الذين يشهدون مع الله وملائكته «أن الدين عند الله الإسلام» (آل عمران ١٨ ـ١٩). والدعوة القرآنية «تأييد» **للطائفة من بني إسرائيل** التي آمنت بالمسيح، على «عدوهم» الطائفة اليهودية التي كفرت به : «فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين» (الصف ١٤). وإليك تفصيل ذلك.

*

بحث أول

الدعوة الإنجيلية في الحجاز
من وحي القرآن والتاريخ

مصادرنا، لمعرفة شيوع الدعوة الإنجيلية في مكة والحجاز، ثلاثة : التاريخ والشعر الجاهلي والقرآن.

لم يحفظ لنا **التاريخ**، الذي ذهبت آثاره في غمرة الثورات والفتوحات، إلا النذر اليسير عن حقيقة الوضع في الجاهلية العربية. والصورة القاتمة التي تذكرها **المصادر الإسلامية** عن الجاهلية القائمة على الشرك الحاكم المتحكم فيها، شرك

الوثنية وعبادة الأصنام، صورة مغرضة غير صحيحة. وقد نقلنا شهادة الدكتور جواد علي في ختام كتابه القيم « تاريخ العرب قبل الإسلام » أن توحيد أهل مكة كان قريباً من التوحيد الإسلامي » . وهذا بفضل الدعوة الكتابية، من مسيحية ويهودية و « نصرانية » التي نقلتهم من الوثنية إلى التوحيد. وإذا سمى القرآن توحيدهم « شركاً » بالله، فما ذلك إلا لأنهم كانوا يتخذون الملائكة « شفعاء » أو « أولياء » لهم، « زلفى » إلى الله (الزمر ٣).

والشاهد الأول على توحيد أهل مكة والحجاز هو الشعر الجاهلي، الذي « يُهمل ذكر الأصنام فيه »[١] . وحديث شريف يقول : « أصدق كلمة قال شاعر كلمة لبيد » : ألا كل شيء ملا خلا الله باطل » . فالنزعة التوحيدية هي الظاهرة الدينية التي تظهر عليه، متى حضرت.

أما **الشاهد الأكبر** فهو القرآن. وبيئة القرآن نفسه بيئة كتابية : فحديث القرآن المتواصل مع أهل الكتاب شهادة قاطعة على وجودهم بمكة، وعلى استعلائهم على العرب بالتوحيد الكتابي. والقرآن ينتسب انتساباً كاملاً مطلقاً إلى الكتاب وأهله، حتى ليعدّ نفسه « تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب » (يونس ٣٧).

وهدف القرآن، بعد تعليم العرب « الكتاب والحكمة » ، بشرعه لهم دين « إبراهيم وموسى وعيسى » ديناً واحداً بلا تفريق (الشورى ١٣) هو أنه « يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » (النمل ٧٦) أي المسيح والإنجيل وهذا إشعار بأنه يدخل فريقاً في الصراع الديني بين أهل الكتاب.

كان الصراع بين اليهودية والمسيحية. فاستقلت اليهودية بيثرب (المدينة)؛ وعبرت المسيحية إلى مكة، **حتى استولت على الكعبة نفسها**. والذين يجهلون التاريخ يستغربون هذا التصريح. فقد نقل الأصفهاني في (الأغاني ١٣ : ١٠٩)

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٤١٥.

أن البيت الحرام، على أيام عبد المسيح بن باقية بن جرهم، سادس ملوكهم في مكة، ((**كان يومئذ لأسقف عليه**)) .

ولما هاجر النصارى من بني إسرائيل إلى مكة والحجاز تحوّل **الصراع الأكبر** إلى بني إسرائيل أنفسهم، فكان بين اليهود والنصارى من بني إسرائيل. هذا هو الصراع الذي نرى مشاهده في القرآن بمكة والمدينة. فإن الدعوة القرآنية قامت لتأييد النصرانية على اليهودية (الصف ١٤)، ومن بعد في آخر العهد المدني على المسيحية العربية كما نرى من جدال وفد نجران، ومن غزوتي مؤتة وتبوك ضد عرب الشمال المسيحيين، وكان أولاء وأولئك أهل بدعة في المسيحية الرسمية، في دولة الروم.

هذا الواقع التاريخي **لسيطرة الدعوة الإنجيلية في مكة والحجاز**، قبل الإسلام، نرى آثارها في القرآن نفسه. لقد استخلص الأستاذ دروزة، من الآثار الإسلامية، والقرائن القرآنية، هذه الشهادة التاريخية لانتشار النصرانية في الجزيرة العربية حتى بلغت الحجاز ومكة ـ وهو لا يميّز بين المسيحية، والنصرانية الإسرائيلية.

قال في كتابه (عصر النبي ص وبيئته قبل البعثة) : ((أما النصرانية فقد وصلنا في الاستدلال إلى القول : **بوجود جالية أعجمية نصرانية في مكة، واحتمال وجود جالية أعجمية نصرانية في يثرب؛** وبترجيح **وجود عرب متنصرين** مستقرين في بيئة النبي ص وعصره أيضاً)) (ص ٤٥٢). وسنرى عن قريب تفصيل هذا التعميم.

وقال : ((إذا كان مدى انتشار النصرانية في **بيئة النبي ص الخاصة ضيّقاً**، فإن هذا لا يعني أن تأثيرها كان ضعيفاً فيها. فنحن نعتقد أن النصرانية ـ كاليهودية ـ كانت مصدراً من **مصادر المعارف والأفكار الدينية** التي كانت عند عرب الحجاز، والتي استدللناه عليها من آيات عديدة أوردناها ... دلائل على ما كان عند عرب الحجاز، **وعرب مكة خاصة**، من إلمام غير يسير بالنصرانية وعقائدها وقصصها

وإشكالات ولادة المسيح ص وبنوته وصلبه، وما كان فيها من مذاهب وآراء. وطبيعي أن يكون لهذا كله ردّ فعل في نفوسهم ومعارفهم وعقولهم وعقائدهم ... وأن مشركي مكة ذهبوا على أن النبي ص نفسه قد تعلّم وتأثر بهم على ما حكته آيتا (النحل ١٠٣) و (الفرقان ٤).

« ولا ننسى كذلك تلك **الألوف المؤلفة من متنصرة العرب**، الذين كان الحجازيون خاصة يفدون ويروحون إليهم في أسفارهم ورحلاتهم، ويخالطونهم مخالطة الشقيق، ويتفاهمون معهم بلسانهم العربي المشترك. ولا ننسى أن كثيراً منهم كانوا يشاهدون موسم الحج وأسواقه، ومنهم من كان يبشر ويخطب كقس بن ساعدة.

« وإن الصلات والتقاليد القبلية كانت تجمع النصراني من العرب برابطة الآباء والأجداد جمعاً وثيقاً تتصل أواصره وتستمر مظاهره. وأنه كان كثير من العرب غير النصارى، وخاصة الحجازيون، يصهرون إلى العرب النصارى، وبالعكس، فتزداد هذه الأواصر والمظاهر قوة ولحمة. وأن كل هذا من شأنه أن يهيّئ **لعرب الحجاز** الفرص الكثيرة للاطلاع والاستماع والدرس والتأثر » (ص ٤٥٧).

« ولقد استلهمنا من ذلك أن من بين الذين اتصلوا بالنبي ص عرباً، كما أن غير العرب كانوا يفهمون العربية. والقرائن القرآنية تلهمنا من جهة، والتاريخ المتصل بالمشاهدة من جهة أخرى، يخبرنا بأن **آلافاً مؤلفة من العرب كانوا نصارى**، ومنهم البدو ومنهم الحضر. **وأنهم كان لهم دول** وشأن على مسرح بلاد الشام والعراق؛ **ولهم أساقفتهم ورهبانهم وقسيسوهم وكنائسهم وأديارهم الكثيرة.**

« واستتباعاً لذلك، فإن من السائغ أن يقال أنه لا بدّ من أن يكون بعض أسفار العهد القديم والجديد، وإن لم يكن جميعها، **قد ترجمت إلى العربية قبل الإسلام**، وضاعت فيما ضاع من آثار عربية مدوّنة، في غمرات الثورات والفتن والفتوح ... ونرى أن **هذا هو الذي يستقيم مع وجود عشرات ألوف**

النصارى، وآلاف الرهبان والقسيسين العرب، ومئات الكنائس والأدبار العربية ›› (ص ٤٦٨).

نزيد على الأستاذ أن الحديث الصحيح للشيخين يؤكد بأن ورقة بن نوفل، قس مكة، كان يترجم الكتاب والإنجيل من العبرانية إلى العربية، وذلك بجوار محمد وحضوره. وسنرى تقييم هذه الشهادة. لذلك نستغرب أن يكرّر في الطبعة الرابعة لكتابه (روح الدين الإسلامي) السيد عفيف عبد الفتاح طبارة، بكل جهل للتاريخ والحديث والقرآن نفسه قوله : ‹‹ ومن ناحية أخرى فقد ثبت تاريخياً أنه لم تكن توجد هناك ترجمة عربية للإنجيل والتوراة في عصر النبي ص ›› (ص ٤٣١). ألا يستحي من شهادة القرآن، وهو يتحدى اليهود : ‹‹ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها، إن كنتم صادقين ›› (آل عمران ٩٣). فهل يتحداهم أن يتلوها أمام العرب بالعبرية أم بالعربية؟ لا شك بالعربية، و إلا لم يكن التحدي حاسماً مفحماً. وعدم بقاء ترجمة عربية من قبل الإسلام، لا يدل على أنها لم تكن، فقد ذهبت ‹‹ في غمرات الثورات والفتن والفتوح ›› ، كما يقول دروزة.

وفي عدد النصارى بمكة، أم القرى، عاصمة الشرك العربي، يضيف دروزة : ‹‹ ونرجح أن **عددهم لم يكن يتجاوز المئات القليلة** ›› . سنأتي على تقييم هذه الشهادة. هنا نقول : هل كان عدد أهل مكة يتجاوز آلافاً قليلة جداً ؟ وعدد ‹‹ مئات قليلة ›› من نصارى صناع وتجار ومبشرين، وعلى رأسهم أسقفان أو قسَّان، ورقة بن نوفل، وعداس من نينوى، كما تشهد جميع السير النبوية؛ يؤيدهم الحصار المسيحي للحجاز، من أطراف الجزيرة كلها؛ كما يؤيدهم قيام دولة آل كندة المسيحية في نجد؛ كما يعزز دعوتهم وجود الأحابيش، أولئك الجنود المرتزقة؛ ألا يكفي لعمل انقلاب اجتماعي ديني نصراني في مكة والحجاز مع الوقت؟ بلى، وقد تمّ هذا الانقلاب الديني أولاً بتغلغل المسيحية؛ وثانياً وخصوصاً بهجرة النصارى من بني إسرائيل إلى مكة والحجاز، على مراحل، حتى تسلم محمد نفسه إمامة ‹‹ النصارى ›› بمكة، خلفاً لنسيبه قس مكة،

ورقة بن نوفل، فكان « أول المسلمين » ، ففرض « النصرانية » على العرب، بالدعوة القرآنية.

هذا الواقع الثلاثي الثلاثي يدعم صحته **الوضع السياسي في الحجاز** ـ والناس على دين ملوكهم عند الأقدمين. كانت عمارة البيت العتيق في بني جرهم. وفي زمن عبد المسيح بن باقية، سادس ملوكهم بمكة، كانت عمارة البيت « يومئذٍ لأسقف عليه » (الأغاني ١٣ : ١٠٩). فالوالي الزمني بمكة اسمه عبد المسيح؛ والوالي الديني على الكعبة أسقف. وأهل التواريخ يغفلون عن هذا الواقع التاريخي.

ثم غلب بنو قريش على عمارة البيت. وهنا ننقل عن ابن خلدون[١] الإشارات السياسية التي تدل على سيطرة المسيحية على مكة والكعبة على زمن قريش. قال : « إن ولاية الغوث بن مرة على البيت كانت قبل ملوك كندة » . **وكان والي الحجاز للتبابعة حجر آكل المرار** (ص ٥٨٠).

والتبابعة من حمير، ما بين الغزو الحبشي الأول، والغزو الحبشي الثاني عام ٥٢٣ لليمن على دين سادتهم من الحبشة، أي على المسيحية. كان الحارث الرائش جدّ الملوك التبابعة (ص ٨٩)؛ وكان يسمى تبعاً (أي إمبراطوراً بلغة العصر)؛ « **وكان مؤمناً**، فيما قال السهيلي » (ص ٩٥). وتبّع الآخر، تبان أسعد، هو حسّان تبّع، وهو أول من كسا الكعبة، وجعل لها باباً ومفتاحاً (ص ١٠٠). وكان حسان تبع قد زوج بنته من عمرو بن حجر آكل المرار، من ملوك كندة، في شرق اليمن؛ فولدت له الحارث بن عمرو. « وملك بعده تبع بن حسّان، وهو الذي بعث ابن أخيه الحارث بن عمرو الكندي إلى أرض بني معد بن عدنان بالحجاز فملك عليهم » (ص ١٠٩).

« وكان التبابعة يصاهرون بني كندة، ويولونهم على بني معد من عدنان بالحجاز. فأول من ولي منهم حجر آكل المرار، ابن عمرو بن معاوية الأكبر.

---

(١) التاريخ : نشر دار الكتاب اللبناني، المجلد الثاني.

ولاه تبع بن كرب الذي كسا الكعبة. وولّي بعده ابنه عمرو بن حجر. ثم ابنه الحارث المقصور، **وهو الذي أبى أن يتزندق مع قباذ ملك الفرس.** فقتل في بني كلب، ونُهب ماله. وكان قد ولى أولاده على بني معد، فقتل أكثرهم. وكان على بني أسد منهم حجر بن الحارث. فجار عليهم فقتلوه. وتجرّد للطلب بثأره ابنه امرؤ القيس. وسار إلى قيصر » يستنصره (ص ٥٧٦). وامرؤ القيس، صاحب المعلقة الأولى، ينضح شعره بالتوحيد والميل إلى المسيحية؛ واستنصاره بقيصر يؤيد ذلك. وقيل بأن قيصر ولاه على فلسطين ومات فيها.

فكل تلك الإشارات تدل على مسيحية ملوك كندة، وهم ملوك الحجاز؛ ولاية البيت العتيق كانت من قبل ملوك كندة (ص ٥٨٠). **فكانت الحالة السياسية تؤيد سيطرة المسيحية على الكعبة.** وآخر برهان هو تجديد صور الملائكة والأنبياء والمسيح وأمه على جدرانه الداخلية، عند تجديد البناء قبل البعثة بخمسة أعوام.

تلك هي **الصورة التاريخية الحقيقية** التي يدل عليها القرآن نفسه، والمصادر الإسلامية الموثوقة، والتاريخ المقرون بالمشاهدة العيان، لسيطرة الدعوة الإنجيلية على مكة والحجاز، قبل الإسلام.

* * *

بحث ثان

« النصرانية » في مكة والمدينة والحجاز - من وحي السيرة

رأينا أن أهل الإنجيل قد انقسموا إلى **سنة وشيعة :** سنّة المسيحيين من الأمميين، بجميع فرقهم من ملكية ويعقوبية ونسطورية، وشيعة النصارى من بني إسرائيل الذين تشيعوا للتوراة فأقاموا أحكامها مع الإنجيل، ولإمامة آل

بيت المسيح فأمروهم قسيسين عليهم من دون الرسل صحابة المسيح وخلفائهم. ورأينا أن المسيحية قد أحاطت بجزيرة العرب من أطرافها إحاطة السوار بالمعصم، تجهد في اقتحام الحجاز، تارة بالغزو كحملة الحبشة على مكة في عام الفيل، وتارة بالتغلغل التبشيري، من اليمن في نجران، أو من الشمال في بصرى والحيرة. ورأينا أن النصارى من بني إسرائيل، الواقعين بين نارين، نار اليهود بني قومهم، ونار المسيحيين بني دينهم، لم يبق أمامهم سوى الحجاز، ملجإٍ الهاربين من دين الدولة، بعد إعلان المسيحية دين الدولة عند الروم ـ وقد سبقهم اليهود إلى دولةً الفرس فكانوا أعواناً لها وعيوناً على الروم والعرب ـ فهاجروا إلى الحجاز واستوطن أكثرهم في مكة. وهذه هي الدلائل، من وحي السيرة، على تغلغل الدعوة الإنجيلية إلى يثرب ونجران والطائف ومكة أم القرى.

أولاً : « النصرانية » والمسيحية في يثرب (المدينة)

تأسست يثرب أولاً بهجرة الأوس والخزرج إليها من اليمن؛ ثم بهجرة بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع من اليهود، بعد إعلان المسيحية دين الدولة عند الروم : « واليهود الذين استقروا في المدينة وأرباضها، هبطوا صحراء الجزيرة، فارين بدينهم من الاضطهاد الصليبي الذي عمل ـ من قديم ـ على تنصيرهم أو إفنائهم، ذلك لأن رأي اليهود في عيسى وأمه شنيع ... وقد ألفوا أنفسهم قلة بين أصحاب البلاد، وخشوا أن يفنوا إذا اشتبكوا معهم في صراع سافر فاحتالوا حتى زرعوا الضغائن بين الأقرباء ... وقبل الهجرة ببضع سنين وقعت بين الأوس والخزرج معركة (بعاث)، كان النصر فيها للخزرج ثم عاد للأوس ... وكان أهل يثرب يمتازون عن سائر العرب بجوارهم لليهود وإلفهم عقيدة التوحيد. وربما حاورهم اليهود في شؤون الأديان، ونعوا عليهم عبادة الأوثان »[١] .

---

(١) محمد الغزالي : فقه السيرة ١٥٣ و ١٥٠.

نقل الشهرستاني[١] : « والفرقتان المتقابلتان قبل المبعث هم أهل الكتاب والأميون - والأمي من لا يعرف الكتابة - **فكانت اليهود والنصارى في المدينة**، والأميون بمكة » . إن تفسيره « الأمي من لا يعرف الكتابة » يصح لغة، ولا يصح اصطلاحاً؛ فالأمي في اصطلاح القرآن من ليس له كتاب منزل. وشهادته على وجود « اليهود والنصارى في المدينة » قيمة، قائمة.

فقد توطن النصارى من بني إسرائيل المدينة، بعد مكة وكان في المدينة أيضاً جماعة مسيحية، يقيمها ويقودها الراهب أبو عامر صاحب « مسجد الضرار » (التوبة ١٠٨). وسنرى أنه قد يكون من النساطرة؛ الذين تقرب عقيدتهم في المسيح من « النصرانية » ، ولذلك وقفوا على الحياد من الدعوة القرآنية، حتى ظهر لهم خطرها عليهم آخر الأمر.

١- « النصرانية » في المدينة، من خبر سلمان الفارسي

لقد فصلناه سابقاً للاستشهاد به على هجرة « النصارى » إلى الحجاز. ونوجزه هنا للاستدلال به على وجود « النصارى » بيثرب، وقد كان سلمان قسّهم.

جاء في السيرة الهاشمية[٢] والحلبية[٣] والمكية[٤] خبر سلمان الفارسي. ويعنينا منه رمزه أكثر من تاريخيته كما يفصلونها : فهو في نظرنا دليل على لجوء « النصارى » من الديار المسيحية إلى الحجاز.

قالوا : إن سلمان قد تنصّر على يد رهبان دير من النصارى في بلدته، بدولة الفرس. وكان ذلك سبب جلائهم معه عن البلاد. فالتحق سلمان بقسّ دمشق، فالموصل، فنصبين، فعمورية. وفي كل بلد، عند وفاة أستاذه الذي « انتهى

---

(١) الملل والنحل ص ١٦٣.
(٢) السيرة الهاشمية، نشر مطبعة مصطفى الباني الحلبي بمصر ١ : ٢٢٨ - ٢٣٦.
(٣) السيرة الحلبية، نشر مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١ : ٢٠٥.
(٤) السيرة المكية، بهامش السيرة الحلبية.

إليه علم النصرانية » فيه ـ **وهي كلها في الشام والعراق والأناضول على المسيحية** ـ يقول سلمان لآخر راهب نصراني يحتضر : « لقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصيني؟ قال : أي بني، والله ما أعلم أحداً **على ما كنت عليه**. ولقد هلك الناس؛ وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه » . هذا القول المتواتر في خبر سلمان دليل على انقراض « النصرانية » في الديار المسيحية، وانسحابها منها.

وآخر قسّ تتلمذ له سلمان، في عمورية، لما وافته منيته، وسأله السؤال المتواتر، قال لتلميذه سلمان : « أي بني، والله ما أعلم أحداً أصبح **على ما كنا عليه** من الناس، آمرك أن تأتيه » . ونصحه بالذهاب إلى ديار العرب في الحجاز، فقد أطل زمان محمد. وهذه النصيحة دليل على انسحاب « النصارى » ، من بني المسيحيين، إلى الحجاز؛ ودليل على اعتبارهم محمداً نبيّاً لهم يوجهون إليه من أطراف البلاد.

وختم صاحب السيرة الحلبية بقوله : « وهذا السياق يدل على أن الذين اجتمع بهم سلمان من النصارى على دين عيسى أربعة. وفي كلام السهيلي (الروض الأنف) أنهم ثلاثون. وفي (النور) أنهم بضعة عشر. وأن هذا أظهر والله أعلم » . فلم يبق إلى زمن سلمان إلا هؤلاء. وقد عاصر سلمان انقراضهم وانسحاب آخر « النصارى » إلى الحجاز.

والقوم يوردون الخبر ليجعلوا من أولئك الرهابين أنبياء يدلون سلمان الفارسي على النبي العربي قبل مبعثه. والتهافت على هذا التفسير ظاهر على الرواية : فما كان الرهبان أنبياء ليطّلعوا على الغيب. لكن دلالته التاريخية لانسحاب النصارى من بين المسيحيين إلى الحجاز بادية قائمة. فأتى سلمان مثل سائر النصارى إلى الحجاز، واستقر بالمدينة، واتصل بمحمد، وانضم إلى صحابته. ويبرز دوره في وقعة الخندق التي كادت تؤدي بالإسلام المحاصر، لولا الخندق الذي أشار سلمان بإقامته حول المدينة من الجنوب لحمايتها من غزو مشركي مكة. و (أسباب النزول) تشير مراراً إلى دوره في الدعوة القرآنية.

والذي يعنينا هنا من خبر سلمان قول السيرة الحلبية (١ : ٢١٥) فيه : « ونقل بعضهم **الإجماع على أن سلمان كان حبراً عالماً فاضلاً زاهداً متقشفاً، على النصرانية دين عيسى** » . فسلمان كان « حبراً عالماً » أي **قسّ النصارى بالمدينة**.

وشهادة القرآن على وجودهم بالمدينة، وجهادهم في سبيل الدعوة القرآنية حتى اضطهاد اليهود لهم، متواترة (آل عمران ١٨ ـ٢١؛ ١١٣؛ المائدة ٨٥ ـ ٨٨). والقرآن المدني كله حوار متواصل مع اليهود والنصارى، فهو القول الفصل في وجودهم بالمدينة.

فمن القرآن والسيرة يصح أن نستنتج أنه كان في المدينة جماعة من النصارى وعلى رأسهم القس سلمان، « الحبر العالم » الذي يعيش عيشة الرهبان. هؤلاء النصارى كانوا أهل « المودة » لجماعة محمد، المتقين من العرب، « ترى أعينهم تفيض من الدمع، مما عرفوا من الحق. يقولون : ربنا آمنا، فاكتبنا مع الشاهدين » (المائدة ٨٦).

ووجود « النصارى » بالمدينة كان ذا أثر فعَّال في الناس، ينبثق من كيان قائم منظّم، مع عدد كبير من القسيسين والرهبان، كما يشهد القرآن المدني نفسه.

في مقاومة الدعوة القرآنية منذ بدئها بالمدينة، « قالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ـ بل ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين ... فإن آمنوا بمثل ما آمنتم فقد اهتدوا؛ وإن تولوا، فإنما هم في شقاق، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » (البقرة ١٣٥ ـ١٣٧). لم يكن « النصارى » على شقاق مع النبي؛ إنما المسيحيون. وكان هؤلاء مع اليهود يتحدّون محمداً بصحة الهداية، لكن على طرفي نقيض.

ويصف مثال « النصارى » الرائع في المدينة. فبعد ذكر جماعة محمد (آل عمران ١١٠)، وذكر اليهود (١١١) ، يقول : « ليسوا سواءً : من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون : يؤمنون بالله واليوم

الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ ويسارعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه، والله عليم بالمتقين » (آل عمران ١١٣ ـ ١١٥). « المتقون » في اصطلاح القرآن هم جماعة محمد من العرب؛ أما أهل تلك الصلاة وتلك الدعوة اللتين يشيد بهما القرآن فهم « أمة من أهل الكتاب » (١١٣)؛ وليسوا اليهود الذين « ضربت عليهم الذلة والمسكنة » (١١١ ـ ١١٢) فهم النصارى بالإجمال. لكن قوله : « ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم : **منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون** » (١١٠) يجعل المؤمنين بمحمد من أهل الكتاب، النصارى من بني إسرائيل؛ والفاسقين، اليهود.

فهم كانوا أهل « المودة » من دون اليهود والمشركين (المائدة ٨٤)، ولا المسيحيين أهل الشقاق، وأهل « الغلو في دينهم » : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا قالوا : (إنا نصارى) ذلك بأن منهم **قسيسين ورهباناً**، وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق. يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » (آل عمران ٨٥ ـ ٨٦). فوجود قسيسين ورهبان في المدينة، يدل على قيام كنيسة « نصرانية » منظمة ذات أثر فعَّال في المدينة. وهي التي تشهد للدعوة القرآنية، لأنها دعوتها.

*

٢ـ المسيحية في المدينة، من خبر الراهب أبي عامر، و « مسجد الضرار »

يقول الأستاذ دروزة[١] : « وفي الآيات المدنية[٢] ، جاء ذكر النصارى

---

(١) عصر النبي ص وبيئته قبل البعثة ص ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٢) البقرة ١١١ و١١٣ و١٢٠ و١٣٥؛ آل عمران ٥٩ ـ ٦٢؛ النساء ١٧١ ـ ١٧٢؛ المائدة ١٥ و١٧ و١٨ و١٩ و٥١ و٧٢ ـ ٧٦ و٨٢ ـ ٨٣ و١١٦؛ الحديد ٢٧؛ التوبة ٢٩ ـ ٣٤.

استطراداً أو تعبيراً على لسان حال، فإن أكثرها يحتوي دلالة قوية وصريحة على أن النبي ص **قد التقى في المدينة أيضاً بطوائف مختلفة من النصارى**، في أوقات متفاوتة، ودعاهم. فمنهم من بدا منه من مشهد تصديقي رائع (المائدة ٨٤ ـ٨٥)، ومنهم من جادل وكابر[١] . وإذا كان من المرويات أن وفوداً نصرانية قدمت إلى المدينة من نجران واليمن، ومن الحبشة، ومن الشام، واتصلت بالنبي ص، ومنها مَن تناظر معه وبقي على دينه، ومنهم مَن آمن؛ فإن **ذكر أقوال ومواقف وعقائد النصارى في هذه الفصول** ليسوغ القول بأنه كان **في المدينة طائفة مستقرة من النصارى**، ومنهم من كان **عرباً متنصرين** من أهل المدينة أو عرباً من غير أهلها، ومنهم من هو أجنبي الجنس. وإذا كانت ظروف الشام قد حملت **بعض النصارى غير العرب على النزوح إلى مكة** فالإقامة فيها، فالمتبادر أن لا يكون هذا قاصراً على مكة، لاسيما والمدينة أقرب إلى الشام من مكة، وإقليمها أكثر احتمالاً على النازحين من الشام من إقليم مكة. وقد كانت هذه الميزات مما جعل الإسرائيليين النازحين عن الشام يفضلون الإقامة فيها » .

ويضيف : « أما النصرانية فقد وصلنا في الاستدلال (في الفصل الثالث) إلى القول بوجود **جالية أعجمية نصرانية في مكة**، وباحتمال وجود **جالية أعجمية نصرانية في يثرب** أيضاً؛ وبترجيح وجود **عرب متنصرين** مستقرين في بيئة النبي ص وعصره » .

نقول : إن وجود جالية نصرانية في يثرب، وطائفة نصرانية من العرب، ليس مجال احتمال وترجيح فحسب، إنما هو واقع يشهد به القرآن المدني الذي هو حوار متواصل بين القرآن واليهود والنصارى. وكان اليهود « أول كافر به » (البقرة ٤١). وقوله في النصاررى : « فمنهم من بدا منه من مشهد تصديقي رائع (المائدة ٨٤ ـ٨٥)، ومنهم من جادل وكابر » ، يعود إلى خلط الأستاذ دروزة،

---

(١) خلط المسيحيين بالنصارى جعل الأستاذ يفرق هذه التفرقة. أما من جادل وكابر فهم المسيحيون؛ أما النصارى فكلهم مسلمون، لشمول آية المائدة.

مثل غيره من المفسرين، بين النصارى والمسيحيين : فالمسيحيون « منهم من جادل وكابر » ؛ أما النصارى من بني إسرائيل فقد أعلن القرآن المدني بتواتر انضمامهم إلى النبي العربي، واحتمال الأذى من اليهود في سبيل تأييد الدعوة القرآنية، ووحدة الدعوة بينهم وبين القرآن : « فاكتبنا مع الشاهدين » (المائدة ٨٥)؛ والقرآن « تأييد » للنصرانية على اليهودية (الصف ١٤).

وقد نجحت الدعوة « النصرانية » بالمدينة؛ لكن الدعوة المسيحية كانت أقلّ نجاحاً. يظهر لنا حالها من خبر الراهب أبي عامر، وقصة مسجد الضرار (التوبة ١٠٨).

إن الراهب أبا عامر كان اسمه النعمان، ابن الصيفي[١] . وتورد كل التفاسير قصته بمناسبة بناء « مسجد الضرار » الذي أوعز ببنائه، لمنافسة مسجد قباء الذي بناه محمد عند هجرته إلى المدينة. تروي السيرة الهاشمية[٢] ، و (أسباب النزول) للسيوطي، أن اثني عشر رجلاً من عرب المدينة، بتوجيه الراهب أبي عامر، بنوا مسجداً ينافسون به مسجد محمد « **حتى إذا قدم الراهب يكون أمامهم فيه** » .

ويروي أيضاً كتاب (روح المعاني ٩ : ١١١ ــ ١١٢) جدال الأسقف[٣] المسيحي، النعمان ابن الصيفي، أبي عامر، مع محمد، في صحة انتساب كل منهما إلى الحنيفية الحقة، في مطلع الدعوة القرآنية بالمدينة : « قال النعمان لمحمد : ما هذا الذي جئت به؟ قال : الحنيفية دين إبراهيم. قال : فأنا عليها. فقال : لست عليها، ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها. فقال : أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً ـ فمات النعمان في الشام طريداً وحيداً » .

---

(١) كتاب : روح المعاني ٩ : ١١١ ـ ١١٢.
(٢) السيرة لابن هشام ٤ : ١٧٣ ـ ١٧٥؛ قابل كتابنا : أطوار الدعوة القرآنية ص ٩٥٩.
(٣) يسمونه « الراهب أبا عامر » : والراهب لا يكون متزوجاً، ولقبه (أبو عامر) يدل على أنه كان كاهناً أو أسقفاً عربيّاً؛ ونرجح أنه كان أسقفاً من جرأته على الذهاب إلى قيصر يستعديه على حركة محمد قبل أن تستفحل وتقضي على المسيحية.

فمحمد يجادل « الراهب أبا عامر » بجدال النصرانية للمسيحية. وقد رفض الأسقف المسيحي الدعوة القرآنية بسبب « نصرانيتها » .

فقد كان إذن في المدينة نواة كنيسة مسيحية يرأسها الأسقف نعمان الصيفي، الملقب بالراهب أبي عامر. وكان لهم مسجد يضاهي مسجد جماعة محمد.

ولما استفحل أمر محمد في المدينة والحجاز، وتحوّل بعد ظهوره على اليهودية، تأييداً « للنصرانية » (الصف ١٤)، إلى منازلة المسيحية في مشارف الشام؛ خشي نعمان الصيفي على نفسه وعلى جماعته، فذهب إلى القسطنطينية، إلى قيصر، يستنصره على محمد، قبل أن يكتسح المسيحية في جزيرة العرب، كما تروي كل التفاسير وكل السيَر. لكنه عند رجوعه إلى الشام وجد أن الأمر قد استتب لمحمد في الجزيرة، فمكث بالشام « ومات طريداً وحيداً » .

أما محمد، فعند رجوعه من غزوة تبوك، نزل « بذي أوان » ، على ساعة من المدينة، وبعث برجال من جماعته، فهدموا « مسجد الضرار » المسيحي في المدينة، وأحرقوه. وقد لقبه القرآن « مسجد الضرار » (التوبة ١٠٨)، لا مسجد الكفر، لأنه كان ضرراً على الدعوة القرآنية.

وفي تقويم قديم للكنيسة المسيحية النسطورية، إن النساطرة أقاموا أسقفاً في يثرب، **إذ كان لهم فيها ثلاث كنائس** على اسم إبراهيم الخليل، موسى الكليم، وأيوب الصديق. ووجود ثلاث كنائس في بلدة صغيرة كيثرب **برهان على انتشار المسيحية فيها** بين العرب بتأثير الجالية النسطورية، الهاربة من دين الدولة عند الروم. ولعل أسقف يثرب هو الراهب أبو عامر.

ولا غرابة في ذلك فقد كان في الحيرة أسقفان وديران، أسقف ودير الكنيسة اليعقوبية، وأسقف ودير الكنيسة النسطورية، يعيشون بعيداً عن دين الدولة عند الروم، في حماية الفرس والعرب.

ولنا أيضاً خبر من أثر، في شعر حسان بن ثابت يرثي به النبي العربي :

فرحت نصارى يثرب ويهودها   لما توارى في الضريح الملحد !

وكلمة « نصارى » في هذا الشعر تعني المسيحيين، جماعة « الراهب أبي عامر » . الذين أفرحهم موت محمد؛ لا « النصارى » ، جماعة سلمان الفارسي، أحد صحابته.

فعند وفاة محمد بقي إذن في المدينة جماعة من المسيحيين، وجماعة من اليهود، ذوي عدد وشوكة، حتى يتظاهروا بالفرح لوفاة النبي العربي. لذلك يجب تنقيح جميع المعلومات التي ينقلونها في كتب الأدب والتفسير والتاريخ عن المسيحية وعن النصرانية، في المدينة والحجاز، في عصر الدعوة القرآنية.

*

ثانياً : « النصرانية » والمسيحية في نجران

كما كان في المدينة طائفة « نصرانية » ، وأخرى مسيحية، قبل البعثة؛ كذلك كان في نجران على حدود اليمن والحجاز. وكانتا على صلة متواترة بمكة.

يقول الأستاذ دروزة[١] ، من مستلهمات القرآن والمصادر الإسلامية، « أن لا ننسى كذلك تلك **الألوف المؤلفة من متنصرة العرب** الذين كان الحجازيون خاصة يفدون ويروحون إليهم في إسفارهم ورحلاتهم، ويخالطونهم مخالطة الشقيق، ويتفاهمون معهم بلسانهم القومي المشترك ... وأن لا ننسى أيضاً أن كثيراً منهم كانوا يشهدون موسم الحج وأسواقه، ومنهم من كان يبشر ويخطب كقس بن ساعدة ... وأن الصلات والتقاليد القبلية كانت تجمع النصراني من العرب، برباط الآباء والأجداد ربطاً وثيقاً تتصل أواصره وتستمر مظاهره ... وأنه كان كثير من العرب، وخاصة الحجازيين يصهرون إلى عرب النصارى، وبالعكس فتزداد هذه الأواصر والمظاهر قوة ولحمة. وأن كل هذا من شأنه أن يهيئ لعرب الحجاز **الفرص الكثيرة الوافية** للاطلاع والاستماع، والدرس والتأثر » . ويضيف : « والقرائن القرآنية تلهمنا من جهة، والتاريخ المتصل

---

(١) عصر النبي ص وبيئته قبل البعثة ص ٤٥٦ ـ ٤٥٨ مع ٤٦٨.

بالمشاهدة من جهة أخرى يخبرنا بأن **آلافاً مؤلفة من العرب كانوا نصارى، ومنهم البدو، ومنهم الحضر**؛ وأنهم كان لهم دول وشأن على مسرح بلاد الشام والعراق؛ ولهم أساقفتهم ورهبانهم وقسيسوهم وكنائسهم وأديارهم الكثيرة » .

كان « النصارى آلافاً مؤلفة » ليس فقط « على مسرح الشام والعراق » . إنما أكثر من ذلك في اليمن، لعلاقاته التاريخية المتواصلة بالحبشة.

١ـ الكنيسة المسيحية في اليمن ونجران[١]

في بحث عن المسيحية والنصرانية في الحجاز، نخص بالذكر نجران لأنها تقع على حدود اليمن والحجاز. وموقعها دليل شأنها في الحجاز قديماً وحديثاً.

دخلت اليهودية إلى اليمن قبل المسيحية. وفي القرن الثالث بدأ التبشير المسيحي باليمن. وينقل الإخباريون أن حامل الإنجيل إلى نجران سوري اسمه « فيميون[٢] » . وتذكر سيرة ابن هشام (١ : ٣٥ ـ ٣٦) أن عبد الله بن التامر « كان يسمع من فيميون حتى أسلم ووحد الله، وعبده، وجعل يسأل عن شرائع الإسلام. فجعل عبد الله بن التامر يدعو إلى دين الله ... **واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن التامر**. وكان على ما جاء به عيسى، ابن مريم، من الإنجيل والحكمة » وازدهرت المسيحية في نجران أيّما ازدهار. وكان بنو الحارث بن كعب رؤساء المسيحيين في نجران. ويذكر الإخباريون[٣] أن بني عبد المدان بن الديان الحارثي أقاموا « **كعبة نجران** » مضاهاة لكعبة مكة. وكعبة نجران كانت كنيسة لأن سدنتها أساقفة ورهبان. فنشطت اليهودية وتهوّد تبّع معدي كرب، ملك الحميريين.

---

(١) راجع كتابنا : القرآن والكتاب؛ القسم الأول : بيئة القرآن الكتابية ص٥٣ ـ ٥٧.
(٢) ابن هشام في السيرة ١ : ٣٢؛ الطبري : تاريخ الملوك ١ : ٩١٩، ويسميه « فيمئون » ؛ والروض الآنف : « نيمئون » .
(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ٨ : ٢٦٢؛ قابل جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ١٧٥.

فقام الصراع الأول بين المسيحية واليهودية في القرن الثالث. فكان غزو الحبشة الأول لليمن. وانتشرت المسيحية في طول البلاد وعرضها.

وفي القرن الخامس، لما أُعلنت المسيحية دين الدولة عند الروم، بدأت هجرة اليهود والنصارى من بني إسرائيل. فهاجر اليهود بكثرتهم إلى فارس، ووصل قسم منهم إلى اليمن. كما هاجر النصارى إلى مكة والحجاز، وبلغ بعضهم نجران. فتجدد الصراع بين المسيحية واليهودية للسيطرة على اليمن. حينئذٍ تهوّد يوسف، ذو نواس، ملك الدولة التبعية، الحميرية الثالثة، واشتعلت نار الاضطهاد للمسيحيين (٥١٠ ــ ٥٢٣). فقامت مذابح صنعاء وظفر ونجران. وكان أشهرها مذبحة نجران في تشرين الأول عام ٥٢٣. فذهب ضحية الاضطهاد العنصري والديني أكثر من **عشرين ألف شهيد**، ونحو **أربعة آلاف راهب**، كما تذكر سيرة ابن هشام (١ : ٢٧)؛ وفي نجران وحدها نحو ٤٢٧ راهباً بحسب سيرة الشهداء في المصادر المسيحية. وذاعت بطولة شهداء نجران بين العرب، باسم « أصحاب الأخدود » . وقد شهد لهم القرآن الشهادة الجميلة في (سورة البروج ١ ـ٩)؛ « قيل لما تنصّر نجران غزاهم ذو نواس اليهودي من حميّر فأحرق في الأخاديد مَن لم يرتد » (البيضاوي)؛ كما سيقتل محمد في خنادق المدينة بني قريظة، بعد غزوة الخندق. فكان غزو الحبشة الثاني لليمن عام ٥٢٥.

وابتنى عامل النجاشي، أبرهة الأشرم، كاتدرائية في صنعاء، من أفخم الكنائس، سماها بحرف يوناني معرب « القليص » . وكتب فيها إلى مليكه الحبشي[1] : « إني قد بنيت لك، أيها الملك، كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك؛ ولست بمنته **حتى أصرف إليها حج العرب** » . وهذا يدل على عزم الحبشة والمسيحيين من العرب على هداية العرب كلهم، حتى الحجاز.

---

(١) السيرة لابن هشام ١ : ٤٤.

وسيطرت المسيحية الحبشية على اليمن في القرن السادس. وحاولت السيطرة من اليمن على مكة والحجاز، في عام ٥٧٠. فقصد أبرهة بجيش كبير مكة، راكباً على فيله. فابتدره وجيشه الجدري وفتك بهم فتكاً ذريعاً. تقول السيرة (١ : ٥٦) : « إن أول ما رُؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب، ذلك العام » . يظهر أنه أصابهم برَدٌ مثل « حجارة من سجيل » ، فارتحلوا عن مكة والبيت العتيق. وخلّد القرآن الحدث في (سورة الفيل). وكان ذلك العام سنة مولد محمد، الذي ربطته السيرة به. ولا نشك بأن « نصارى » مكة قد اشتركوا في رد الحملة المسيحية عن مكة والحجاز لتسلم السيطرة لهم.

ثم قامت الدعوة القرآنية، واشترك فيها النصارى من بني إسرائيل ومَن تابعهم من العرب كالقس ورقة بن نوفل، وابنة عمه خديجة، التي كانت « تجارتها تعدل نصف تجارة قريش[1] » ، فلاقى أولئك النصارى من بني إسرائيل، من اليهود عنتا كبيراً واضطهاداً مريراً، أدّى ببعضهم إلى الاستشهاد : « إِن الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، **ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس**، فبشرهم بعذاب أليم » (آل عمران ٢١). وأهل القسط هم « أولو العلم قائماً بالقسط، الذين يشهدون مع الله وملائكته « إن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٨ ـ ١٩) أي النصارى من بني إسرائيل. فالإشارة صريحة إلى استشهاد بعض هؤلاء « النصارى » في سبيل الدعوة القرآنية؛ بالمدينة، وسائر الحجاز.

ولما سيطر الإسلام القرآني « النصراني » على الحجاز، وكان عام الوفود، تنبّه أهل نجران المسيحيون لمصيرهم، فقرروا الاتصال بالنبي العربي الذي أخذ يسيطر على الجزيرة. فألفوا أضخم وفد أمَّ المدينة، في عام الوفود، ليباحثوا محمداً في المسيح ويطلعوا على حقيقة دينه في دعوته للمسيح والإنجيل. وقد ذكر

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ : ١٧٦.

القاسم بن سلام في (كتاب الأموال ص ٩٨) أن **نصارى نجران هم عرب من بني الحارث بن كعب**. وكان وفدهم مؤلفاً من ستين شخصاً، منهم أربعة وعشرون من أشرافهم[١] ، وثلاثة من رؤساء دينهم، الأسقف والسيد والعاقب وياقوت الحموي[٢] يسمي الأسقف أبا حارثة، والسيد وهباً، والعاقب عبد المسيح. وابن العربي يسمي الأسقف: يشوع. فيكون يشوع الملقب « أبا حارثة بن علقمة، أحد بني بكر وائل، وكان أسقفهم وحبرهم وإمامهم » كما تقول السيرة لابن هشام. وكان عليهم « الحبرات » ، شارات رجال الدين. فاجتمعوا إلى النبي في مسجده بالمدينة. وأدركتهم الصلاة، فصلوا في مسجد النبي، وبحضرته وحضرة صحابته - يا لها من عبرة للأجيال القادمة! - ثم باحثوا النبي في إلهية السيد المسيح وبنوته لله التي يؤمن بها المسيحيون. فجادلهم محمد بجدال « النصرانية » لها، في التعريف الذي نقله القرآن : إن المسيح « كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ... لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله » (النساء ١٧٠ ـ ١٧١): **فهو وإن يكن كلمة الله** وروح الله، فهو عبد الله أي مخلوق، لا مولود. وهذه عقيدة النصارى من بني إسرائيل. ففهموا معنى دعوته واختلفوا فيها. فدعاهم إلى المباهلة (آل عمران ٦١). فاعتذروا، ووادعوه، وقالو له[٣] : « يا أيها القاسم، قد رأينا أن لا نلاعنك، وأن نتركك على دينك، ونرجع على ديننا، فإنك عندنا رضى » . ونفهم من التكفير الذي عقّب به القرآن على هذا الحوار بقوله : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم » (المائدة ١٩ و٧٥) أنهم كانوا على مذهب « اليعقوبية » (الجلالان).

---

(١) السيرة لابن هشام (٤ : ١٦٥ ـ ١٦٧) تسمي بعض هؤلاء الأشراف: أوس والحارث وزيد وقيس ويزيد ونبيه وخويلة وعمرو وخالد وعبد الله وعبد المسيح. وهي، كما ترى أسماء عربية خالصة.
(٢) معجم البلدان ك ٨ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤.
(٣) السيرة لابن هشام.

وكان هذا الحوار هو الوحيد بين القرآن والمسيحية العربية « اليعقوبية » ؛ لا حوار غيره مع المسيحية العامة. ولخطورته، عند جمع القرآن في زحمة الفتوحات الإسلامية، نثروا فصوله في سور القرآن (آل عمران والنساء والمائدة).

هذا هو الجدال الأكبر بين القرآن والمسيحية، وبما أن « اليعقوبية » بدعة في المسيحية، فالقرآن لم يتصل بالمسيحية الصحيحة، ولم يكفّرها. فكم يرتكب أهل القرآن من خطإ بحق المسيحية، باسم القرآن، وهم لا يعلمون ؟! وعذرهم في ذلك أن الأقباط بمصر وهم على مذهب « اليعقوبية » يمثلون المسيحية، بجوار الأزهر؛ فظن علماؤه وتلامذتهم في الأقطار الإسلامية، أن مقالتهم في المسيح هي المسيحية كلها؛ وسها عنهم أن يطلعوا على عقيدة مليار من المسيحيين في العالم، وهم على غير عقيدة بضعة ملايين. ليس أن العدد هو فيصل الحق؛ إنما هو التواتر والإجماع منذ حرمت المسيحية تلك المقالة عام ٤٥١م، قبل القرآن بنحو مئتي سنة.

هكذا تدل أحداث القرن السادس على سيطرة المسيحية على الجزيرة العربية من أطرافها، وهي تتحفز لغزو الحجاز بدين المسيح :

منها مذابح اليمن بالألوف، ومذبحة نجران سنة ٥٢٣ التي ذهب ضحيتها فيها وحدها من الرهبان أربعماية ونيّف.

ومنها مذابح الحيرة، بعد « يوم حليمة » سنة ٥٥٤، التي ذهبت ضحيتها أربع مئة راهبة ونيف.

وهذا الجيش من الرهبان والراهبات، والقسيسين وأساقفتهم، ألا يكفي وحده لفتح الحجاز للمسيح، لو أمهلهم الزمن؟

وتأتي السياسة لدعم الحركة الدينية، فيقوم غزو أبرهة الأشرم للحجاز ومكة، عام ٥٧٠. لكنه فشل.

فقامت الدعوة « النصرانية » ، وجاءت تدعمها الدعوة القرآنية، في مكة والحجاز. فانقلبت الموازين، كما رأينا مع وفد نجران المسيحي إلى النبي العربي.

وقد خلـّد القرآن تلك الأحداث، في سورتي (البروج والفيل). وظلّت نجران في مخيلة العرب معقل المسيحيين فيما بينهم. فنقلوا عن النبي العربي هذا الحديث[1] : « القرى المحفوظة أربع : مكة والمدينة وإيلياء (بيت المقدس) ونجران. وما من ليلة إلا ينزل على نجران سبعون ألف ملاك يسلمون على أصحاب الأخدود، ولا يرجعون إليها أبداً » .

وكان آخر من خضع للإسلام، بسيف علي وخالد، المسيحيون في اليمن. ثم كانوا أول مَن ثار في حروب الردّة، حتى أخضعوهم من جديد. وعام ٦٣٥ أجلى الخليفة عمر بن الخطاب إلى العراق من لم يعتنق منهم الإسلام[2] . وقال غيره : في نجران « كثروا حتى بلغوا **أربعين ألف مقاتل؛** فكره عمر أن يميلوا على المسلمين فيفرّقوا بينهم ... فأجلاهم إلى الشام[3] » . وظل للمسيحيين في اليمن، حتى سنة ٩٤٠، أسقف في صنعاء، يدعى مار بطرس.

فتلك القرائن القرآنية والتاريخية تدل على أنه كان في اليمن، خصوصاً في صنعاء وظفر ونجران، كنائس مسيحية منظمة كامل التنظيم، قبل الإسلام. وكانت نجران تسعى لهداية الحجاز.

*

٢- « النصرانية » في نجران

كانت المسيحية هي المسيطرة في نجران، منذ شهداء نجران عام ٤٢٣ م.

لكن ألا يدلّ الصراع المحتدم الذي قام بين اليهودية والمسيحية باليمن،

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ك ٨ ص ٢٦٤.
(٢) البلاذري : فتوح الشام ١٠١.
(٣) أبو جعفر النحاس : الناسخ والمنسوخ ١٦٢.

في أوائل القرن الخامس على أن أفواجاً جديدة من اليهود والمسيحيين والنصارى قد أمّت اليمن، فأشعلت النار؟

نرى أن القرآن ما كان ليحتفي ذاك الاحتفاء الكبير بشهداء نجران، أهل الأخدود، في (سورة البروج)، لو لم يكن بينهم « نصارى » على مذهبه في المسيح.

ولنا دليل على وجود « النصارى » بنجران، خبر **القس بن ساعدة الأيادي.** وإياد قبيلة من عرب اليمن دخلتها « النصرانية » مع ابن ساعدة. ويسمونه « القس » بلغة النصارى، أي الأسقف بلغة المسيحيين. فهم يصفونه يخطب وعلى صدره صليب، وهو يتوكأ على عصا : وهذه شارات الأسقفية حتى اليوم.

كان القس ابن ساعدة يغشى سوق عكاظ، في موسم الحج، على جمله؛ ويقف بين الحجيج يخطب العرب في أشهر سوق لهم، وفي أكبر موسم لهم؛ ويدعو إلى التوحيد « النصراني » . وكان النبي العربي يقول[1] لوفد عبد القيس، ولوفد إياد : « ما أنساه بعكاظ وهو يقول : « أيها الناس ... إن لله ديناً أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه ... كلاّ، بل الله الواحد المعبود، ليس بوالد ولا مولوداً ! » . وهذا هو توحيد القرآن في (سورة الإخلاص)؛ « قل : هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد » .

إن خبر القس ابن ساعدة يدل على أن « النصارى » في هجرتهم بلغوا إلى اليمن. وما كان ابن ساعدة ليكون « **قس** » **النصارى** بين بني إياد وبني عبد القيس، لو لم يكن فيهم متنصرون.

وجرأته على اقتحام سوق عكاظ والدعوة فيه ـ ولا تذكر الأخبار ولا

---

(١) السيرة الحلبية ١ : ٢١٦ ـ ٢١٧.

الآثار أن محمداً في أوج عظمته وقف موقفه في عكاظ[١] ؛ ربما كي لا ينزل بالدعوة القرآنية منزلة الناس والأدب ـ قد تدل على استنصاره بنصارى مكة بني مذهبه.

واستماع محمد، وهو شاب إلى القس ابن ساعدة، والحفظ له، على ما يروون، دليل أيضاً على ميل محمد منذ شبابه إلى « النصرانية » وأهلها.

وكان أثر « النصرانية » بين العرب من نجران، إلى الطائف، إلى مكة، إلى يثرب، إلى وادي القرى في الشمال، كبيراً، بسبب **وحدة الختان** بين العرب واليهود و « النصارى ».

والدعوة لإله التوحيد، المشتركة بين اليهود والنصارى من بني إسرائيل، باسم « **الرحمان** » قد امتدت من اليمن، إلى الحجاز، إلى الشمال. وفي مدائن صالح، كما في تدمر، وعند الأنباط، تحمل الآثار اسم « **رب العالمين** » .

كان الأنباط، ومعهم العرب، يعتمدون الحساب الشمسي. لكن بتأثير النصارى من بني إسرائيل اعتمد أهل القرآن الحساب القمري.

وكل هذه دلائل على شيوع « النصرانية » بين العرب قبل الإسلام.

يقول الأستاذ دروزة[٢] : « ومما يلوح لنا من أسلوب الآيات القرآنية من جهة، ومن الروايات التي ذكرت أن الدعوة الإسلامية قد لاقت عند أفراد الجالية الكتابية النصرانية قبولاً حسناً، كما لاقت مثل ذلك في الأوساط النصرانية الأخرى، وخاصة في الحبشة، من جهة أخرى : إن هذه الفرق **لم تكن قليلة العدد، أو شاذة، وإنها كانت تشغل حيّزاً غير يسير**. ولعل

---

(١) وقف موقفاً أعظم منه يوم فتح مكة. لكنها خطبة الفتح، لا خطبة الدعوة في سوق عكاظ. ووقف محمد موقفاً أعظم يوم حجة الوداع، بين الألوف المؤلفة، لكنها وقفة الإمام في الحج الأكبر، لا دعوة في عكاظ.
(٢) عصر النبي ص وبيئته قبل البعثة ص ٤٦١.

هذا مما يفسّر لنا إقبال النصارى في بلاد الشام ومصر على الإسلام، في الأدوار الإسلامية الأولى » .

*

ثالثاً :هل دخلت المسيحية أو « النصرانية » إلى الطائف قبل الإسلام؟

الطائف، في شرق الحجاز، على منتصف الطريق بين نجران والحيرة المسيحيتين. وكان على ساحل الخليج الفارسي ـ كما كانوا يقولون ـ أو كما نقول الخليج العربي، **أربع كراسي أسقفية** : البحرين والهفوف وقطر ومسقط. وهذه كلها تحيط بالطائف وتتعامل معها. ولا شك أنها حملت هداية الطائف إلى المسيحية، قبل الإسلام.

ظهور التوحيد في الطائف عند بني ثقيف أمر ثابت من آثار **أمية بن أبي الصلت**، مهما كان فيها من انتحال[1]. إننا نشك بتوحيد مستقل في ذلك الزمان : فإلى أي توحيد كان أمية بن أبي الصلت يدعو؟ كان تاجراً يذهب مع القوافل في تجارته، في رحلتي الشتاء والصيف، ويعود منها غنياً بالمال والدين. وفي أسفاره كان يأوي مراراً إلى الأديرة يسأل الرهبان عن التوحيد والمعاد. وكان واسع الاطلاع على الكتاب وأخبار الأمم. ويحسن فهم العبرانية ولغة بني أَرَم (الأرامية). جاء في السيرة لابن هشام (٢ : ٤٠١) : « **كان قد قرأ الكتب القديمة**، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً، فرجا أن يكون هو **ذلك الرسول**. فاتفق أن خرج إلى **البحرين**، وتنبأ رسول الله ص، **فأقام هناك ثماني سنين** » .

ونعرف أن في البحرين، وسكانها من قبائل ربيعة، التي منها تميم وبكر، كنيسة مسيحية على رأسها أسقف. وهذه قرينة قوية على أن توحيد أمية كان مسيحياً. ورجع بعد ثماني سنوات من البحرين إلى الطائف يدعو إلى التوحيد المسيحي.

---

(١) راجع كتابنا : القرآن والكتاب ـ القسم الأول ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

ثم أتى مكة، وقابل فيها محمداً. لكنه اتفق سراً مع أبي سفيان بن حرب على مفاتحة الروم بالاستيلاء على السلطة في مكة، لذلك كان جوابه المبهم لأهل مكة في أمر محمد. وسافر أمية مع أبي سفيان إلى الشام[1] . وربما التقوا بوفد الراهب أبي عامر هناك.

ولنا قرينة أخرى على **اتصال أمية بمحمد**. جاء في سيرة ابن هشام أيضاً (٢ : ٤٠١): « ثم قدم (أمية) ولقي رسول الله ص في جماعة من أصحابه. فدعاه إلى الإسلام وقرأ عليه سورة يسن حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجرّ رجليه، فتبعته قريش تقول : ما تقول يا أمية؟ فقال : أشهد أنه على الحق. قالوا : فهل نتبعه؟ قال : حتى أنظر في أمره. فخرج إلى الشام[2] . وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم (؟). فلمّا أُخبر بها ترك الإسلام وقال : **لو كان نبياً ما قتل ذوي قرابته!** فذهب إلى الطائف ومات فيها » . وهذا الرفض للدعوة القرآنية، على مثال الدعوة « النصرانية » ، دليل على جهة التوحيد المسيحي عند أمية، في بني ثقيف بالطائف. وهذا ما يدل عليه قول انبي فيه : « كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم[3] » .

وكان أمية نداً لمحمد في شخصيته وقومه وقريته ودينه. لكن النبي العربي فاز عليه بإعجاز القرآن، وبالجهاد؛ بينما كان أمية يدعو على طريقة محمد الأولى بمكة « بالحكمة والموعظة الحسنة » ؛ لأن المسيحية تأبى الدعوة بالجهاد، بخلاف « النصرانية » الإسرائيلية. وفات أمية أنّ

السيف أصدق إنباءً من الكتب ‏ ‏ ‏ بحدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

ولنا دليل آخر على أن التوحيد في لطائف كان مسيحياً ـ على قدر ما

---

(١) تاريخ العلامة ابن خلدون. نشر دار الكتاب اللبناني ج ٢ ص ٧٠٩.
(٢) هل خرج إلى الشام مثل الراهب أبي عامر، من المدينة، ليطلب معونة والي قيصر قبل أن تستفحل حركة الدعوة القرآنية « النصرانية » ؟
(٣) صحيح مسلم : ك ٧، باب ٤٨ كتاب الشعر.

يكون في بلد بدائي ناءٍ عن الأوساط المسيحية ـ من استقبال المشركين وأهل التوحيد المسيحي لمحمد، لما هاجر إلى الطائف ـ يستجير ببني ثقيف من أذى قريش، بني قومه وعشيرته. ولو كانت الطائف كلها على الشرك لما استجار بها محمد. وأمره إلى جماعته بالهجرة إلى الحبشة، دليل على أن محمداً في هجرته الشخصية إلى الطائف كان يأمل أن يأمن عند بني دينه. وربما فكر بنقل دعوته إلى الطائف، قبل نقلها إلى يثرب.

دخل الطائف وجعل يتردّد مدة عشرة أيام على منازلهم. فلم يجرهْ أحد. وردّوه رداً غير جميل. قالو له : « اخرج من بلدنا » ! وحرشوا عليه الصبيان والرعاع فوقفوا له صفين يرمونه بالحجارة، وزيد بن حارثة، متبنّاه، يحاول الرد عنه حتى شجّ رأس الدعيّ، وأُصيب النبي في أقدامه. فاضطره المطاردون أن يلجأ إلى بستان لعتبة وشيبة، ابني ربيعة، ينتظر الأمن والفرج. فصرف أصحاب البستان الصبية عنه[1]. وهذا المشهد يدل على قيام الشرك في الطائف، ويدل أيضاً على أن من كان فيها من أهل الإنجيل لم يكن على « نصرانية » محمد . وقد تكون حماية ابني ربيعة لمحمد، إشارة إلى وحدة الدين بينهم.

وتنقل السيرة أن محمداً لفي في بستان ابني ربيعة غلاماً لهما **اسمه عداس**. فقدم له طعاماً، فقال محمد : « باسم الله؛ ثم أكل » . فاستغرب عداس التسمية. فسأله محمد : من أيّ البلاد أنت؟ قال : « **أنا نصراني من نينوى** » . وعداس هذا غير القس عداس في مكة. وأمر عداس هذا، مثل أمر سلمان الفارسي. لكن سلمان كان حبراً، وكان من الأشراف، فكان من أمره ما كان. أما عداس فكان فقيراً شرد بدينه إلى الطائف يعمل غلاماً في بستان ابني ربيعة. فهل كان « النصراني » الوحيد في الطائف، وسائر أهل الإنجيل فيها على المسيحية؟

ونعرف دخول المسيحية إلى الطائف من ذهاب أناس منها مع الراهب أبي عامر في المدينة يستنصرون قيصر على « نصرانية » محمد، قبل أن تغزو الحجاز.

---

(١) السيرة لابن هشام ١ : ٢٦٠ ـ ٢٦٢؛ كذلك الطبري ٢ : ٨٠ ـ ٨١.

كل هذه، قرائن ودلائل على وجود المسيحية في الطائف، وربما المسيحية النسطورية كما في المدينة مع الراهب أبي عامر الذي امتدت دعوته إلى الطائف، لكن ليس لدينا الوثائق التاريخية التي تقطع بالخبر اليقين. وقد تكون قد درست كلها بعد سيطرة الإسلام. أما تلك الدلائل فلها دلالتها.

إن اجتماع أمية بن أبي الصلت من الطائف، والراهب أبي عامر في المدينة، بالتواطؤ مع زعيم المعارضة لمحمد ودعوته في مكة، أبي سفيان بن حرب، زعيم بني أمية، يدل على أن الدعوة المسيحية كانت قد تغلغلت إلى الطائف وإلى يثرب، وبدأت تجتذب بني أمية في مكة؛ وأنها كانت على اتصال بدولة الروم. فكانت الحركة المسيحية متصلة الحلقات في الحجاز.

فهل كان في منافسة بني أمية لبني هاشم، ومقاومة أمية للدعوة القرآنية، وتواطؤ أبي سفيان مع الوفود التي ذهبت من المدينة ومن الطائف تستنصر قيصر على محمد ودعوته، دليل على **ميل بني أمية في مكة إلى المسيحية**، وقد تبنّى زعيم بني هاشم، عبد المطلب، جد محمد، « النصرانية » ؟ فيكون في ميل بني أمية للمسيحية، وميل بني هاشم « للنصرانية » سر من أسرار السيرة.

تلك الحركة بين أمية بن أبي الصلت، والراهب أبي عامر، وأبي سفيان زعيم المعارضة لمحمد، تدل على أن المسيحية قد تأصلت في الطائف، وترسخت في يثرب، وتحاول اجتذاب بني أمية في مكة إلى المسيحية.

وهذه صورة تاريخية لا تشير إليها، في ما نعلم، الكتب التي تدرس تاريخ العرب قبل الإسلام.

*

رابعاً : النصارى من بني إسرائيل بمكة قبل الإسلام

في أذهان الناس، عن الحالة الدينية بمكة، قبل الإسلام، تصورات خاطئة وأوهام من رواسب الأيام. وقد آن لنا في عصر العلم والتاريخ أن نقلع عنها يتوهم الناس أن أهل مكة كانوا وثنيين، يعبدون الأصنام، حتى جاءت الدعوة

القرآنية ونقلتهم من الوثنية إلى التوحيد. وهذا هو إعجاز الإسلام الذي لا تفسير له في بيئة النبي وعصره.

والقرآن نفسه شاهد عادل على أن ذلك افتراء على القرآن، وعلى التاريخ.

لقد أظهرنا في كتابنا (القرآن والكتاب؛ القسم الأول : بيئة القرآن الكتابية)، قيام التوحيد الكتابي في مكة (ص ٦٤). ونودّ اليوم أن نستشهد القرآن نفسه ـ وهو خير شاهد على بني قومه ـ لنرى مدى هذا التوحيد الكتابي ومعناه، وفضل النصارى من بني إسرائيل عليه.

*

١ـ التوحيد الكتابي بمكة قبل الإسلام

١) شهادة التاريخ على توحيد أهل مكة قبل الإسلام

نجدها عند الدكتور جواد علي، عضو المجمع العلمي العراقي، في كتابه القيّم (تاريخ العرب قبل الإسلام) الذي ختمه بهذه النتيجة الحاسمة : « **فعبادة أهل مكة هي عبادة محمد، وتوحيدهم توحيد إسلامي، أو قريب من التوحيد الإسلامي** » (ك ٥ : ٤٢٤ ـ ٤٢٨). فالتاريخ ينقض أسطورة نقل العرب من الوثنية إلى التوحيد، بواسطة الدعوة القرآنية.

والقرآن نفسه يؤيد هذه الشهادة، بتعريفه لما يسميه « الشرك » عند العرب : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (الزمر ٣). وسيرة ابن هشام (١ : ٣٢٣) تبين معنى هذه الزلفى في التعبّد « لشركائهم » . فهي تعلّق على قوله (وينذر الذين قالوا: اتخذ الله ولداً) بقولها : « يعني قريشاً في قولهم : **إنا نعبد الملائكة**، وهي بنات الله » . فالزلفى إلى الله، بواسطة الملائكة، ليست شركاً حقيقاً في الله؛ إنما هي استشفاع بهم لديه تعالى. فتأثير الدعوة الكتابية في هذا التوحيد ظاهر.

وجمد أهل مكة على هذا التوحيد الكتابي، فلم يدخلوا في توحيد توراتي أو

إنجيلي، باعتناق طائفة من أهل الكتاب ـ ولا مجال لتوحيد عقلي عند القوم، دون انتماء إلى طائفة ـ ومردّ ذلك إلى **الموقف السياسي المحايد** بين الشرق الفارسي الذي يدعم اليهودية بين العرب، كما يظهر من تدخله لصالحها في اليمن؛ وبين الغرب الرومي، حامي المسيحية بين العرب، كما يظهر أيضاً من تدخله، بواسطة الحبشة، لحماية المسيحية في اليمن. وهذا الموقف السياسي المحايد نراه في ردهم على دعوة القرآن : « إن نتبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا » (القصص ٥٧)، لأن الانتماء الديني كان عندهم عنوان الانتماء السياسي؛ والناس على دين ملوكهم، في تلك الأيام.

٢) شهادة القرآن لأهل مكة بالتوحيد

من الواضح أن القرآن حملة على الشرك العربي. لكن التصاريح القرآنية المتواترة تدل على أنه لم يكن شرك الوثنية، بل شركاً في التوحيد. فهو يدعو أهل مكة : « ألا لله **الدين الخالص!** والذين اتخذوا من دونه أولياء : **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى!** ـ إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون » (الزمر ٣). فالصراع هو على الإخلاص في التوحيد، لا على الشرك بالمعنى الحصري. وينقل عنهم معنى عقيدتهم في عبادة الأولياء: إنها « زلفى » إلى الله ، أي استشفاع بهم لديه تعالى.

فما يسميه القرآن « شركاء » ، يسميه عرب مكة « أولياء » أو « شفعاء » .

يقول : « أم اتخذوا من دونه أولياء، فالله هو الولي » (٤٢ : ٩)، « ولا تتبعوا من دونه أولياء » (٧ : ٢)؛ « أفاتخذتم من دونه أولياء » (١٣ : ١٧)؛ « اتخذوا من دون الله أولياء » (٢٩ : ٤١)؛ « والذين اتخذوا من دونه أولياء » (٢٩ : ٣؛ ٤٢ : ٦)؛ « من دون الله أولياء » (٤٥ : ٩).

ويقول : من شركائهم شفعاء » (٣٠ : ١٣)؛ « من دون الله شفعاء » (٣٩ : ٤٢)؛ « هؤلاء شفعاؤنا » (١٠ : ١٨)؛ « وما نرى معكم شفعاءكم » (٦ : ٩٤). « فليس من دونه ولي ولا شفيع » (٦ : ٥١ و٧٠).

فشرك العرب ولاية وشفاعة. يردّ عليهم : « لله الشفاعة جميعاً » (٣٩ : ٤٤)؛ « لا يملكون الشفاعة » (١٩ : ٨٨)؛ « لا تغني شفاعتهم شيئاً » (٥٣ : ٢٦) « لا تغني عني شفاعتهم » (٣٦ : ٢٣)؛ « ولا تنفع الشفاعة عنده » (٣٤ : ٢٣)؛ « يومئذ لا تنفع الشفاعة » (٢٠ : ١٠٩). ويرد أيضاً : « ما لكم من دون الله من ولي » (٢ : ١٠٧؛ ٩ : ١١٧؛ ٢٩ : ٢٢؛ ٤٢ : ٣١)؛ « وما لهم من دونه من والٍ » (١١ : ١٢)؛ « ما لهم من دونه من ولي » (١٨ : ٢٦)؛ « **من ولي ولا شفيع** » (٣٢ : ٤)؛ « ولا نجد له من دون الله وليّاً » (٤ : ١٢٢)، « وكفى بالله وليّاً » (٤ : ٤٤).

ومن هم هؤلاء الأولياء والشفعاء؟

مرة واحدة يذكر آلهتهم القديمة : « وقالوا : لا تذرنّ آلهتكم، ولا تذرنّ وداً ولا سواعاً، ولا يفوت ويغوث ونسراً » (نوح ٢٣). لكن هذا على أيام نوح، لا على أيام محمد (نوح ٢١ ـ ٢٧).

إن الأولياء والشفعاء عند عرب الحجاز، في عصر النبي وبيئته، **هم الملائكة** : « وقالوا : اتخذ الرحمان ولداً! ـ سبحانه، بل **عباد مكرَمون**، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون » (٢١ : ٢٦)؛ « ويجعلون لله البنات، سبحانه، ولهم ما يشتهون » (١٦ : ٥٧)؛ « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً » (١٧ : ٤٠)؛ « فاستفتهم : ألربك البنات، ولهم البنون؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون » (٣٧ : ١٤٩ ـ ١٥٠)؛ « **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثاً** : أشهدوا خلقهم ؟ **ستكتب شهادتهم ويسألون** » (٤٣ :١٩)؛ « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » (٥٣ : ٢٧).

فمن الجلي الصريح **أن الشفعاء والأولياء عند عرب مكة في زمن محمد هم الملائكة.** تلك هي شهادتهم التي سيسألون عنها (٤٣ : ١٩). ومن الجلي الصريح أيضاً، بسبب جعلهم الملائكة إناثاً، أن العرب حوّلوا عبادة « اللات

والعزى ومنـاة الثالثـة الأخـرى، تلك الغرانيق العلـى » إلـى الملائكة. ويعتبرونهم بنـات الله : « وقالوا : اتخذ الرحمان ولداً! ـ بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون » (٢١ : ٢٦). فالقرآن يؤكد نظريتهم، لكنه يخطئهم بعبادة الملائكة، ويتهكم كثيراً بجعلهم إناثاً؛ لكنه يقوّم عقيدتهم : « بل عباد مكرمون » .

وعبادة الملائكة تقوى يهودية تأثر بها العرب في توحيدهم، كما يصرح لليهود : « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً! أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » ! (آل عمران ٨٠). ويجادل عرب مكة محمداً الذي يدعوهم إلى الإيمان بالمسيح، بجدال اليهود : « ولما ضرب ابن مريم مثلاً، إذا قومك منه يصدون. وقالوا : **أآلهتنا خير أم هو؟** ما ضربوه لك إلا جدلاً، بل هم قوم خصمون! إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل » (الزخرف ٥٧ ـ ٥٩). فهم يسمون الملائكة « آلهتنا » أي أولياءهم وشفعاءهم.

تكفير القرآن لليهود والعرب بعبادة الملائكة هو تكفير المسيحية لها في مجمع اللاذقية، منذ القرن الخامس، الذي نعتها « **خرافة يهودية** » . ولا يمكن أن نتهم اليهود على الإطلاق بالشرك في التوحيد، فيبقى أنها الولاية والشفاعة.

فالقرآن في حربه لشرك العرب في ولاية الملائكة وشفاعتهم، يحاربهم بتعليم المسيحية نفسها؛ ويكفرهم بتكفيرها.

وموقف القرآن من **رفض الشفاعة لدى الله** هو مثل موقف البروتستنت المسيحيين، من تكفير سائر المسيحيين في القول بشفاعة الأولياء والقديسين والاستشفاع بهم. مع ذلك فلا فريق يقول عن فريق بأنه ليس مسيحياً. كذلك استشفاع العرب بالملائكة ليس معناه نكران التوحيد. فالقرآن يعتبر الشفاعة شركاً بالله ، لا نكراناً للتوحيد؛ وهو ينادي بالدين الخالص : « ألا لله الدين الخالص » (الزمر ٣). ويرد التعبد للملائكة والنبيين بالعقل (الأنبياء ٢٢) وبالنقل : « هذا ذكر من معي وذكر من قبلي » (الأنبياء ٢٤).

مع ذلك **فالقرآن نفسه يقول بشفاعة الملائكة** في اليوم الحاضر : « الذين يحملون العرش، ومن حوله، يسبحون بحمد ربهم، **ويستغفرون** للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً، **فاغفر للذين تابوا** واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » (غافر ٧)؛ « تكاد السماوات يتفطرن من فوقهنّ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرن لمن في الأرض؛ ألا أن الله هو الغفور الرحيم » (الشورى ٥). ويقول بشفاعة الملائكة، بإذن الله، في اليوم الآخر: « **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى**، وهم من خشية مشفقون » (الأنبياء ٢٨)؛ « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمان ورضي له قولاً » (طه ١٠٩)؛ « لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمان عهداً » (مريم ٨٨). فالشفاعة لمن عهد له الرحمان بها. وهكذا يتضح لنا أن القرآن يقول بالشفاعة كما يقول بها أهل الإنجيل، لا كما يقول بها اليهود، وعرب مكة عنهم.

ويتضح أيضاً أن القرآن يحارب اليهودية، ويقاوم دعوتها بين العرب (الصف ١٤). فهم قبل المشركين « شر البرية » (البينة) « وأشد عداوة » (٥ : ٨٥).

ويتضح موقف القرآن أيضاً من طمس رسوم الشركاء يوم فتح مكة. نقل الأزرقي في (أخبار مكة ١ : ١٠٤) : أن الكعبة « جُعلت في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة. فكان فيها صورة إبراهيم خليل الله يستقسم بالأزلام، وصورة عيسى ابن مريم وأمه، وصور الملائكة عليهم السلام أجمعين. فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله ص البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب، فجاء بماء زمزم، ثم أمر بثوب فبلّ بالماء، وأمر بطمس تلك الصور فطُمست ... ووضع كفّيه على صورة عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام. وقال : **امحوا جميع الصور إلا ما تحت يديّ.** فرفع يديه عن صورة عيسى ابن مريم وأمه » .

نقل الدكتور جواد علي في (تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ١٧٢) الرواية وأضاف: « وهي رواية للعلماء عنها حديث وكلام بخصوص استثناء صور مريم وابنها عيسى من الطمس » . كذلك السيد رشدي الصالح ملحس في تعليقاته على

الأزرقي. وهذا التردد المقصود في قبول الاستثناء في رواية الأزرقي لا يطعن في صحة الواقع[1] ، بسبب حفاوة القرآن بالتي « جعلناها وابنها آية للعالمين » ؛ إنما مرده عندهما إلى الخلاف الظاهر بين حادث الاستثناء الخاص، وموقف القرآن العام.

فاستثناء صورة مريم وابنها من الطمس دليل على بقاء المعنى الرمزي للصورة وهو الاستشفاع. ودلالة أخرى تاريخية، إن الأصنام كانت خارج الكعبة، أما صور الملائكة والأنبياء، والمسيح وأمه فكانت على جدران الكعبة من داخل : وهذا يدل على أن **المسيحية كانت مقدسة في الكعبة** ـ ولا نقول اليهودية، ولا « النصرانية » وكلاهما تعملان بأمر التوراة بتحريم الصور ـ وقد نقل الأصفهاني في (الأغاني ١٣ : ١٠٩) أن البيت الحرام، في عهد بني جرهم، وسادس ملوكهم يدعى عبد المسيح بن باقية بن جرهم، كان « **يومئذ لأسقف عليه** » . فقد تولت المسيحية على الكعبة، والصور شاهد حق وعدل. وهذا خير شاهد أيضاً على وجود مسيحيين في مكة؛ وأن الصراع كان قائماً بين المسيحيين وبين النصارى من بني إسرائيل على هداية أهل مكة، وعلى السيطرة عليها، أكثر ما يكون مع المشركين، كما تشير الآية المكية : « إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » (النمل ٧٦)، وبنو إسرائيل يهود ونصارى؛ والنبي أمر بالانضمام إلى « المسلمين » أي النصارى من بني إسرائيل (النمل ٩٠)؛ والقرآن « تأييد » للطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح، على الطائفة منهم التي كفرت به، حتى الظهور المبين (الصف ١٤).

وموقف النبي العربي، في تحطيم الأصنام خارج الكعبة، وطمس الصور داخلها، يشبه موقف محطمي الأيقونات وطامسي الصور عند الروم الذين تأثروا بالإسلام. وهذا لا يطعن في مسيحيتهم بالأساس. كما أن الصور والتماثيل التي

---

(١) جاء في (فقه السيرة) لمحمد الغزالي : « حديث صحيح، أخرجه أحمد (٣ : ٣٣٥؛ ٣٣٦؛ ٣٨٣؛ ٣٩٦) من حديث جابر، بسند صحيح؛ والطيالسي (١ : ٣٥٩) من حديث أسامة بن زيد، وسنده جيد، كما قال الحافظ في (الفتح ٣ : ٢٦٨). (ص ٤١٤ حاشية ٤) .

زال عنها معنى الوثنية ـ « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (الزمر ٣) ـ لا يطعن أساساً في **حقيقة توحيد أهل مكة.** فما يطلبه القرآن منهم، إنما هو « الدين الخالص » (الزمر ١ ـ٣)، من عبادة الملائكة، على طريقة اليهودية (آل عمران ٨٠). وقد حرمت المسيحية قبله بمئتي سنة « الهرطقة اليهودية » في عبادة الملائكة. والتصلب في تحريم الصور إنما هو عقيدة « نصرانية » ـ لا مسيحية ـ يدل على « نصرانية » النبي العربي.

وفي القرآن المكي، آية كاشفة لسر مقاومة أهل مكة للتوحيد الكتابي والقرآني ـ وهم أهل توحيد غير ملتزم في شركهم ـ « وقالوا : إنْ نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا! ـ أولم نمكن لهم حرماً آمناً؟ ... » (القصص ٥٧). كان الأقدمون يمزجون الدين والدولة، ويقولون : الناس على دين ملوكهم. فلو تبع أهل مكة هدى القرآن الذي يؤمن « بالمسيح وأمه آية للعالمين » ، لاتّهمهم الفرس واليهود، طابورهم الخامس بين العرب، بالولاء السياسي للروم، فيفعلون بهم كما فعلوا باليمن. لذلك فهم يقفون على الحياد من الدعوة القرآنية، لتوكيد حيادهم بين الروم والفرس. وهذا ما كان يعصمهم من الغزوين. فوحّدوا الله، بتأثير الدعوة الكتابية، دون ما انتماء إلى طائفة. فردّهم للدعوة القرآنية إنما كان قضية سياسية، أكثر منها دينية.

تلك هي شهادة القرآن للتوحيد، عند مشركي مكة والحجاز.

*

٣ـ القرآن يدعو إلى التوحيد الكتابي الإنجيلي، إلا إلى التوحيد العقلي المطلق

يحلو لكثيرين إظهار الإسلام بأنه التوحيد المطلق العقلي، أفضل من التوحيد الفلسفي اليوناني؛ وهذه سمة إعجازه في عقيدته؛ كما يحاول العقاد في كتابه « الله » ، والشيخ الجسر في كتابه « قصة الإيمان » .

وهذا **افتراء على القرآن نفسه،** لأن القرآن يدعو إلى التوحيد الكتابي الإنجيلي، وهذا هو الدين الذي يشرعه للعرب : « شرع لكم من الدين ... ما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » (الشورى ١٣). وهو يدعو إلى الإسلام الذي يشهد به « أولو العلم قائماً بالقسط ... إن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٨). وسنرى أنهم « النصارى » .

وهدف الدعوة القرآنية، نعرفه بعد القرآن نفسه، من **وصية محمد الأخيرة لأمته :** « لا يبق في جزيرة العرب دينان[١] » ؛ وعلى لسان أبي عبيد[٢] ، أن آخر كلام قاله رسول الله ص، أن اخرجوا اليهود من الحجاز، واخرجوا نصارى نجران اليمن من جزيرة العرب » . ويقصد من « نصارى نجران » المسيحيين فيها.

تلك الوصية الأخيرة هي **فصل الخطاب في فهم القرآن؛** فلا يصح إغفالها أبداً في تفسير ما تشابه من القرآن. **والمشكل الوحيد** في معنى « نصارى نجران اليمن » ، واختصاصهم بالطرد من الجزيرة من دون نصارى الحجاز. نقول : إن معناه واضح من جدال وفد نجران للنبي العربي، في عام الوفود، أي قبل سنة ونيّف من وفاته. ونفهم مما حفظ القرآن من ذلك الجدال الشهير الذي يملأ القرآن المدني أن « نصارى نجران » كانوا مسيحيين، يؤمنون بإلهية المسيح، من دون النصارى من بني إسرائيل الذين يؤمنون بإيمان القرآن في المسيح أنه « كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ... لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله » (النساء ١٧٠ ـ ١٧١). يؤيد ذلك القضاء على جماعة الراهب أبي عامر المسيحية في المدينة، مع هدم مسجدهم.

والنتيجة الحاسمة إن القرآن يكفر اليهودية (لا الموسوية)؛ ويستنكر

---

(١) الخازن ج ٢ ص ٢١٢؛ كتاب الأموال ص ٩٨.
(٢) كتاب الأموال ص ٩٩.

من المسيحية « الغلو » في الدين؛ ويردهما بمقالة « الأمة الوسط » بين اليهودية والمسيحية، التي يقول بها النصارى من بني إسرائيل. ونعلنها بصراحة : إن عدم التمييز في تعبير « نصارى » القرآني بين المسيحيين والنصارى من بني إسرائيل، جعل المفسرين والمستشرقين - الذين يترجمون « نصارى » بمسيحيين chrétiens ، يخبطون في فهم القرآن. وقرائنه تدل على التمييز بين الفريقين، كما سنرى.

فالقرآن **أولاً** ينتسب انتساباً مطلقاً إلى التوحيد الكتابي الإنجيلي وأهله :

في هدايته إليه : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا : وإنك لتُهدى إلى صراط مستقيم » (الشورى ٥٢)؛ « وقلْ : آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم » (الشورى ١٥). فاهتدى وأخذ يهدي إلى الإيمان بالكتاب، على عدل بين أهله.

في تنزيله : « أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً » (الأنعام ١١٤) فالقرآن إنما هو « الكتاب مفصلاً » ؛ وهذا التعبير أقوى من قوله بأنه « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧). إن القرآن نسخة عربية عن الكتاب، لا يتميز عنه إلا باللسان العربي : « ومن قبله كتاب موسى إِماماً ورحمة؛ وهذا كتاب مصدّق، لساناً عربيّاً » (الأحقاف ١٢). وسره في مطابقته لقرآن الكتاب الذي في « المِثْل » الذي « شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » (الأحقاف ١٠).

في **تشريع القرآن للعرب دين موسى وعيسى ديناً واحداً** (الشورى ١٣).

في **تعليم العرب « الكتاب والحكمة »** بالقرآن العربي (٢ : ١٢٩؛ ٣ : ١٦٤؛ ٦٢ : ٢) أي التوراة والإنجيل. فتعبير « الحكمة » في مثل هذه الآيات كناية عن الإنجيل : « ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة » (الزخرف ٦٣).

في **الاقتداء بهدى أهل الكتاب :** « وبهداهم اقتده » (الأنعام ٩٠)، في الدعوة القرآنية.

في **الاستشهاد المتواتر بالكتاب وأهله :** « فاسألوا أهل الذكر، إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر » (النحل ٤٣؛ الأنبياء ٧). والقرآن يحيل النبي نفسه، حين الشك من نفسه ومن أمره، إلى أهل الكتاب : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » (يونس ٩٤). ويكفيه حجة على صحة دعوته، شهادة علماء الكتاب : « قلْ : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » (الرعد ٤٥)؛ أولم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » النصارى (الشعراء ١٩٧).

فالقرآن يدعو إلى التوحيد الكتابي الإنجيلي، لا إلى توحيد جديد، أو إلى توحيد عقلي مطلق.

والقرآن **ثانياً** يدعو على التخصيص إلى **الإسلام « النصراني »** ، إسلام « الأمة الوسط » بين اليهودية والمسيحية. هذا ما نراه في هذا الكتاب كله. فدعوته هي الشهادة مع الله وملائكته، « وأولي العلم قائماً بالقسط : إن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٨ ـ١٩). وسنرى أنهم النصارى من بني إسرائيل، « الراسخون في العلم » من أهل الكتاب (آل عمران ٧). فهم « الأمة الوسط » التي على مثالها ينشئ « المتقين » من العرب (البقرة ١٤٣). وهم الذين يؤيدهم على المشركين وعلى أهل الكتاب حتى النصر المبين : « فأيدنا الذين آمنوا (بالمسيح من بني إسرائيل) على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (الصف ١٤).

*

٤) التفسير الصحيح لشهادة القرآن بتوحيد أهل مكة

نجدها في كتاب الأستاذ دروزة (عصر النبي ص وبيئته قبل البعثة).

أولاً في الفصل الثالث، من الباب الأول (٩٧ ـ ١٠٤). يستقرئ الآيات (الأنعام ٢٠ و١٥٧؛ يونس ٦٤؛ الرعد ٣٦؛ النحل ٤٣؛ الأنبياء ٧؛ الإسراء ١٠٧ ـ ١٠٨؛ مريم ٣٤ ـ ٣٧؛ الحج ٥٤؛ النمل ٧٦؛ القصص ٥٢

ـ ٥٥؛ العنكبوت ٤٦ ـ٤٧؛ الروم ١ و٥؛ سبأ ٦؛ الشورى ١٤؛ الزخرف ٥٧ ـ ٥٩؛ ٦٣ ـ ٦٥). ثم يستنتج : « فهذه الآيات يمكن أن تلهمنا ما يلي :

١) إنه كان في مكة أناس من أهل الكتب السماوية، وكانوا من جملة من اتصل بهم النبي ص ودعاهم إلى التصديق برسالته ومتابعته.

٢) إنهم لم يكونوا قليلين؛ وإن منهم من كان ذا سعة وثروة تمكنه من الإنفاق في سبيل البر والخير؛ كما أن منهم من كان قوي النفس والشخص؛ بحيث لا يبالي بلوم زعماء المشركين على متابعتهم للنبي ص (القصص ٥٢)؛ وهذا وذاك يلهمان أن منهم مَن كان **أرقى طبقة من أرقاء** في خدمة الزعماء والتجار وملك إيمانهم.

٣) إن منهم مَن كان **متميّزاً في ثقافتة ومعارفه الدينية**، بحيث كان أهلاً للرجوع إليه، واستشهاده في أمر رسالة النبي ص ... وإن **هذا الفريق لم يكن نكرة في أوساط مكة**، بل كان موضع اعتماد وثقة من العرب، **ومرجع استفتآتهم في الأمور والمعارف الدينية والدنيوية.**

٤) إنهم على العموم كانوا **رقيقي العاطفة دمثي الأخلاق** ـ (وهذه صفة النصارى في القرآن) ـ جريئين في إظهار عقيدتهم، وقد تجلت جرأتهم في متابعة النبي ص وسجودهم عند سماع القرآن وإعلانهم أنه الحق، وعدم مبالاتهم بما كان عليه أكثر أهل مكة وزعماؤهم الأقوياء من الموقف الجحودي.

٥) إن منهم من كان مجادلاً، حجَّاجاً، بل ومتطرفاً في الجدل والحجاج إلى درجة عدّه ظالماً، متجنّياً فيهما ـ سنرى أن هذا الفريق هم اليهود، كما في (العنكبوت ٤٦؛ البيّنة ١ ـ ٥؛ المائدة ٨٥).

٦) إن إيراد قصتي ولادة يحيى وعيسى ص بسبيل الرد على زعم ألوهية عيسى ص أو بنوته لله؛ وإيراد خبر انكسار الروم النصارى، مع بشرى انتصارهم بعد قليل؛ والجدل ثانيةً في أمر حقيقة عيسى ص ورسالته

(الزخرف ٥٧)، يمكن أن يلهم أن الكتابيين الذين انطوت الآيات على ملهمات وجودهم في مكة **هم، أو أكثرهم، من النصارى.**

« ومع أن من المرجح كثيراً أن من هؤلاء مَن كان **عربيّ الجنس** مستقراً في مكة، أو متردداً عليها من اليمن، وأطراف الجزيرة الشمالية، **حيث كانت النصرانية (أي المسيحية) سائدة بين حضر العرب وقبائلهم**[1]. والاتصال مستمراً؛ فإن مما لا يصح الشك فيه، وبالاستناد إلى صراحة آية (النحل ١٠٣) أن منهم مَن كان **غير عربي أيضاً ...** والذي نرجحه أن أكثر أفراد **الجالية الأجنبية** المقيمين في مكة هم من النصارى الروم والسريان والسوريين ... يفدون إليها من حين إلى آخر للأعمال الصناعية حيناً، والتجارية حيناً، والتبشيرية حيناً. (ويخص بالذكر أحابيش مكة).

« **وتنوّع جنسيات الأجانب** من رومية وحبشية وعراقية ومصرية وشامية وسريانية وفارسية، أحراراً وأرقاء، يمكن أن يكون من ناحية ما دليلاً على ما كان من صلات أهل الحجاز، ومكة خاصة، ببلاد الشام وفارس ومصر والحبشة والعراق، وصلات هذه البلاد بهما.

« ونريد أَن ننبّه على أمر مهم : وهو أننا، مع ما ذكرناه من احتمال **كثرة عدو الكتابيين والأجانب النصارى في مكة،** فإننا لا نعني أنهم يؤلفون **عدداً ضخماً،** وأنه كان لهم **كيان متكتّل** ذي أثر إيجابي واسع فيها، كما كان شأن الإسرائيليين (اليهود) في المدينة ... بل الصحيح هو العكس، حيث نرجح أن عددهم لم يكن يتجاوز **المئات القليلة.**

« وإذا كنّا رجّحنا **أن الكتابيين والأجانب كلهم، أو جلّهم نصارى،** فإن هذا لا يعني كذلك أنه لم يكن في مكة **إسرائيليون** (يهود). بل هناك آيتان (الشعراء ١٩٧؛ الأحقاف ١٠) فيهما ما يلهم ذلك ... (وخلتو القرآن

---

(١) لاحظ هذا التصريح التاريخي بسيادة المسيحية في اليمن والشمال بين حضر العرب وقبائلهم. وهذا لأمر المنكرين.

المكي من الجدل اليهودي) يجعل من السائغ أن يقال، بل أن يُجزم، بأنه لم يكن في مكة جالية إسرائيلية كبيرة، أو ذات شأن إيجابي في حياتها ومجتمعها وأن الذين كانوا مستقرين منهم (اليهود) لم يكونوا ليتجاوز **الافراد ...** وكان في المدينة ومناطقها جاليات إسرائيلية كبيرة، لا يُعقل أن تكون في عزلة عن مكة » (ص٩٧ ـ١٠٤).

لتقييم هذه الصورة التاريخية التي يلهمها القرآن نقول :

إن وجود يهود في مكة ثابت، ليس بالآيتين (الشعراء ١٩٧؛ الأحقاف ١٠) حيث وَهَم الأستاذ أن تعبير « بني إسرائيل » يعني اليهود؛ ففي القرآن كله لا يشهد اليهود للدعوة القرآنية؛ إنما تعني الآيتان النصارى من بني إسرائيل، أولي العلم المقسطين الذين يستشهد القرآن بهم على الدوام (قابل الأعراف ١٥٧ مع الصف ١٤). إنما وجودهم ظاهر من تصريحه « بأن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل (من يهود ونصارى) أكثر الذين هم فيه يختلفون » (النحل ٧٦)؛ ومن الأمر بالجدال بالحسنى مع النصارى، ومع اليهود بغير الحسنى، وأن الجدال بالحسنى مع النصارى هو الإيمان معهم بوحدة الإله ووحدة التنزيل، ووحدة الإسلام (العنكبوت ٤٦).

ونسجل الشهادة التاريخية الجميلة بأن النصارى بمكة كانوا « **مئات قليلة** » ؛ وهذا « عدد ضخم » في مكة قبل الإسلام. أما قوله بأنه لم يكن لهم « **كيان متكتل** » فسينقضه الحديث والسيرة اللذان يشهدان بأن ورقة بن نوفل كان قس مكة على العرب المتنصرين، والراهب عداس على الجالية الأجنبية، كما سنرى. والبيت الحرام على زمن عبد المسيح بن باقية، سادس ملوك بني جرهم، كان « **يومئذٍ لأسقف عليه** » (الأغاني ١٣ : ١٩٠)، كما تشهد صور الملائكة والأنبياء والسيدة مريم العذراء وابنها على جدران الكعبة من داخل، حتى عند تجديد بنائها قبل المبعث بخمس سنوات. فهذا الوضع في الكعبة يشهد بأن السيطرة عليها كانت للمسيحية قبل النصرانية، في تكتل مزدوج متنافس، برئاسة

أسقف مسيحي وقس نصراني. وما تغلب العنصر النصراني على العنصر المسيحي إِلا بالدعوة القرآنية، فكان طمس الصور المسيحية يوم فتح مكة.

ثانياً في الفصل السابع، « في اليهودية والنصرانية، ومدى انتشارهما، وأثرهما في عصر النبي ص وبيئته » يقول : « في الفصل الثالث، من الباب الأول، بحثنا عن اليهود والنصارى ... وكذلك أشرنا في فصول أخرى إلى ما كان من **تأثيرهم في معارف العرب وأفكارهم الدينية وغير الدينية**، وما يمكن أن يتسرب إلى العرب منهم، من عادات وتقاليد ومقتبسات وأفكار دينية وغير دينية أيضاً ...

« ولقد قررنا في الباب الأول **وجود اليهود** بكثرة في الحجاز وبتعبير أدق في يثرب ومنطقتها ... كما قررنا أن خطاب القرآن عنهم ببني إسرائيل يدل على أنهم كانوا **جوالي أجنبية نازحة**. ونقول الآن : إنه ليس في القرآن شيء صريح عن **وجود عرب يهود**، أو بكلمة أخرى عن **انتشار اليهودية بين عرب الحجاز**. وكل ما هناك آية تذكر أن من اليهود أميين : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وإنْ هم إلا يظنون » (البقرة ٧٨). وقد كان تعبير « الأمّيين » يطلق على غير الإسرائيليين (آل عمران ٧٥؛ الجمعة ٢). فهل عُني بها فريق متهوّد من العرب، أو عُني بها الفريق الجاهل من بني إسرائيل، حيث الكلمة تحتمل هذا المعنى؟ إن سياق الآية أكثر إِلهاماً لهذا المعنى من ذاك ... وعلى كل حال فمن السائغ أن يقال : إن اليهودية قد انتشرت بعض الشيء في عرب الحجاز. غير أن من الراجح جداً أن يكون هذا **إِفرادياً وضيّق النطاق**. ونكاد نكون على مثل اليقين استلهاماً من خطاب الآيات القرآنية، بأنه **لم يكن في الحجاز قبائل عربية متهوّدة ...**

(من قصة أصحاب الأخدود ـ البروج ٤ ـ ٨ ـ يستنتج) : « فيكون اليهود قد نجحوا في نشر دينهم بمقياس واسع في اليمن ... وننبّه على أن كتب السيَر والتاريخ القديمة لم تذكر أنه أجلي يهود عن اليمن في زمن عمر بن الخطاب، حينما أُجلي النصارى عنها، تنفيذاً لوصية النبي ص بأنه « **لا يبقى في**

جزيرة العرب دينان[1] » . بل روى أبو عبيد أن آخر كلام قال رسول الله ص هو وصيته أن « **أخرجوا اليهود من الحجاز، وأخرجوا نصارى نجران اليمن من جزيرة العرب**[2] » .

أما **النصرانية** فقد وصلنا ... إلى القول **بوجود جالية أعجمية نصرانية في مكة**، وباحتمال وجود جالية أعجمية نصرانية في يثرب؛ وبترجيح **وجود عرب متنصرين مستقرين** في بيئة النبي ص وعصره أيضاً. ونقول هنا : إن الذي نرجحه أن مدى **انتشار النصرانية في عرب الحجاز** كان ضيّقاً، وأنه لم يكن ليتجاوز **الحوادث الفردية**. وذلك استلهاماً من عدم وجود صدى قوي لاحتكاك النبي ص بالنصارى في القرآن الكريم، لا في الآيات المكية، ولا في الآيات المدنية، كما هو الأمر بالنسبة إلى اليهود في يثرب » ـ هنا يقول « **حوادث فردية** » ؛ أما في (الفصل الثاني) فيصفها بأنها في مكة وحدها « **مئات قليلة** » ؛ وعدم الاحتكاك يقوم على وحدة الدعوة بين القرآن و « النصرانية » السائدة بمكة بفضل « تنصّر » بني عبد المطلب، جدّ محمد، حيث كانت رئاسة قريش؛ وبفضل « تنصّر » جماعة من بني أسد كان منهم ورقة بن نوفل، قس مكة، وابنة أخيه السيدة خديجة زعيمة التجارة المكية الداخلية والخارجية. أمَّا مسيحيو مكة فقد لزموا الحياد في الصراع بين اليهود والنصارى من بني إسرائيل.

ويقول : « فهذه الإشارات القرآنية[3] (إلى وفود نصرانية يمانية وشامية) المفسرة بالروايات غير المتناقضة مع مضامينها تسوغ القول بأن **النصرانية كانت**

---

(١) الخازن ج ٢ ص ٢١٢؛ كتاب الأموال ص ٩٨.
(٢) كتاب الأموال ص ٩٩.
(٣) الإشارات القرآنية هي : الإسراء ١٠٧ ـ ١٠٩ والقصص ٥٢ ـ ٥٥ والأعراف ١٥٧ ومريم ١٦ ـ ٣٧ والتوبة ٣٥ والنساء ١٧١ ـ ١٧٢ والمائدة ٧٢ ـ ٧٩ و٨٢ ـ و ٨٤؛ وسلسلة آل عمران في وفد نجران ٣٥ ـ ٦٤؛ وآيات التوبة في غزوة تبوك ضد المسيحيين العرب ٢٩ و٣٤ و٣٨ و٤١ ـ ٤٢ و١١٧.

منتشرة بنطاق واسع بين عرب مشارف الشام، وأنها كانت منتشرة **في كتلة غير ضئيلة من عرب اليمن أيضاً.** والروايات المعتبرة المتصلة بالمشاهدات إلى درجة اليقين تؤيد ذلك من جهة؛ وتؤيد انتشارها كذلك في مدن وقرى وبوادي الشام والعراق وبين النهرين من جهة أخرى » (ص٤٥٣ ـ ٤٥٤).

« وإذ كان مدى انتشار النصرانية في بيئة النبي ص الخاصة **ضيقاً، فإن هذا لا يعني أن تأثيرها كان ضعيفاً فيها.** فنحن نعتقد أن النصرانية كانت كاليهودية مصدراً من مصادر المعارف والأفكار الدينية التي كانت عند عرب الحجاز، والتي استدللنا عليها من آيات عديدة ... دلائل على ما كان عند عرب الحجاز، وعرب مكة خاصة من إلمام غير يسير بالنصرانية وعقائدها وقصصها وإشكالات ولادة المسيح ص وبنوته وصلبه، وما كان فيها من مذاهب وآراء ... وحيث يدل على ما كان من ثقة العرب السامعين بالنصارى ومعارفهم كما هو الأمر بالنسبة لليهود، مما يستتبع التأثر بهم بطبيعة الحال.

« وإذا أُريد أن يُقال : إنه لم يكن في بيئة النبي ص الخاصة من النصارى ما يمكن أن يكون لهم تأثير بالغ في العرب، كالذي يمكن أن يكون لليهود بسبب كثرتهم، فينبغي أن لا ننسى : أنه كان في مكة من النصارى الذين هم مظنّة علم وتعليم[1] ... وأن لا ننسى كذلك **تلك الألوف المؤلفة من متنصرة العرب** الذين كان الحجازيون خاصة يفدون ويروحون إليهم في أسفارهم ورحلاتهم، ويخالطونهم مخالطة الشقيق، ويتفاهمون معهم بلسانهم القومي المشترك. وأن لا ننسى أيضاً أن كثيراً منهم كانوا يشهدون موسم الحج وأسواقه ومنهم مَن كان يبشر ويخطب كقس بن ساعدة. وأن الصلات والتقاليد القبلية كانت تجمع النصراني من العرب برابطة الآباء والأجداد جمعاً وثيقاً تتصل أواصره وتستمر مظاهره. وأنه كان كثير من العرب غير النصارى، وخاصة الحجازيين يصهرون إلى العرب النصارى، وبالعكس، فتزداد هذه الأواصر

---

(١) يكفي القس ورقة بن نوفل أستاذ محمد مدة خمس عشرة سنة قبل البعثة، كما سنرى.

والمظاهر قوة ولحمة. وان كل هذا من شأنه أن يهيئ لعرب الحجاز الفرص الكثيرة للإطلاع والاستماع، والدرس والتأثر » (ص٤٥٦ ـ٤٥٨).

فالقرآن في تفسيره الصحيح يشهد بوجود أهل الكتاب من نصارى ومسيحيين ويهود بمكة، وتأثيرهم في تحويل العرب إلى التوحيد.

*

٢ـ القرآن المكي يشهد بوجود اليهود والمسيحيين بمكة

في القرآن المكي **ظاهرة تستلفت النظر :** إنه يذكر « **أحزاب** » **المعارضة** للدعوة القرآنية. فمن استقرائها نعلم أنه يشهد بوجود اليهود والمسيحيين إلى جانب المعارضة مع المشركين ـ وإن وقف المسيحيون بمكة على الحياد في الصراع القائم بين اليهود والنصارى من بني إسرائيل ـ ضد « النصرانية » التي تؤيدها الدعوة القرآنية (الصف ١٤).

يرد ذكر « الأحزاب » أولاً في سورة (ص ١١ و١٣). فنرى فيه أن « الذين كفروا في **عزة وشقاق** ... أَجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ ... ما سمعنا بهذا في **الملة الآخرة**، إن هذا إلا اختلاق! ... جندٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب ... أولئك الأحزاب، إن كل إلا كذّب الرسل، فحق عقاب » (ص ١ ـ١٤). إن الذين يتحزبون على الدعوة القرآنية سينهزمون كما انهزم الأحزاب ضد الرسل من قبل. وتظهر هنا زعامة التحزّب للمشركين الذين يردّدون عليه توحيد الآلهة : « ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة » أي ملة المسيح الذين يؤلهونه؛ فالإشارة إلى المسيحيين ظاهرة. ويرد عليهم أيضاً في سورة (المؤمن ٥ و٣٠) بأن عاقبة أحزاب المعارضة للقرآن كعاقبة من تحزّب قبلهم على الرسل.

ثم يظهر تضامنه مع « النصرانية » ضد أحزاب المعارضة : إن « النصارى » يؤمنون بالقرآن، « ويتلوه شاهد منه » ؛ « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده : فلا تك في مرية منه، إنه الحق من ربك، **ولكن أكثر الناس لا**

يؤمنون » (هود ١٧). فأكثر الناس يتحزّبون على الدعوة القرآنية، بسبب « نصرانيتها » . هذا واقع الحال.

١) فالقرآن المكي يشهد بوجود اليهود بمكة بين أحزاب المعارضة :

يقول : « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك، **ومن الأحزاب من يُنكر بعضه** » (الرعد ٣٨). فالذين يفرحون هم « النصارى » ؛ ومن ينكر بعضه من الأحزاب، هم اليهود. فالشهادة صريحة بأن اليهود في مكة من أحزاب المعارضة للدعوة القرآنية التي يؤيدها « النصارى » . هذا هو الواقع القرآني الأول.

لذلك يصرّح : « إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذين هم فيه يختلفون » (النمل ٧٩). فغاية القرآن أن يفصل بين اليهود والنصارى من بني إسرائيل في خلافهم الأكبر. وعلام يختلفون إلى طائفتين (الصف ١٤)؟ إنهم يختلفون في عيسى : « ولما جاء عيسى بالبيّنات، قال : قد جئتكم بالحكمة، ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه، فاتقوا الله وأطيعونِ : إن الله ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم. **فاختلف الأحزاب من بينهم،** فويل للذين ظلموا من عذاب يوم عظيم » (الزخرف ٦٢ ـ٦٥). فالقرآن مثل الإنجيل يبيّن لليهود الذي اختلفوا فيه من أمر عيسى. فخلافهم في شأن المسيح يدوم منذ الإنجيل حتى القرآن. فالدعوة القرآنية تخاطب اليهود، وتفصل في خلافهم مع النصارى من بني إسرائيل : هذا هو الواقع القرآني الثاني.

والقرآن، في مكة، يمنع الجدال مع النصارى إِلا بالحسنى، ويبيحه بغير الحسنى مع « الظالمين » من أهل الكتاب، وهذه صفة متواترة لليهود من أهل الكتاب : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ـ إلا الذين ظلموا منهم » ؛ والجدال بالحسنى هو الأمر لأمته بالقول مع النصارى المحسنين بوحدة الإله ووحدة التنزيل ووحدة الإسلام (العنكبوت ٤٦). فلا يجادل القرآن

قوماً غير موجودين؛ ولا يتوعّد قوماً غير موجودين (الزخرف ٦٥)؛ ولا يقص دعوته على قوم غير موجودين. والتعابير مطلقة غير مقيدة بقرائن. هذا هو الواقع القرآني الثالث الذي يشهد بوجود اليهود في مكة.

ويظهر تأثير الدعوة اليهودية على المشركين بمكة، **من تحويل شركهم الوثني إلى عبادة الملائكة**، تلك « الهرطقة اليهودية » التي حرمتها المسيحية منذ القرن الخامس. فالشركاء في نظرهم هم الملائكة، أولاد الله بالاتخاذ. « وقالوا : اتخذ الرحمان ولداً سبحانه، بل عباد مكرمون » (الأنبياء ٢٦)؛ ويهزأ بتواتر من جعل الملائكة بنات الله : « واتخذ من الملائكة إناثاً » (١٧ : ٤٠)؛ « أم خلقنا الملائكة إناثاً » (٣٧ : ١٥٠)؛ « ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » (٥٣ : ٢٧)؛ « الذين هم عباد الرحمان إناثاً » (٤٣ : ١٩)؛ « ألكم الذكر وله الأنثى » (٥٣ : ٢٦) هذا الواقع القرآني الرابع له معنيان : الأول إن الشرك العربي شرك ظاهري لا يمنع التوحيد؛ لكنه ليس « بالدين الخالص » في نظر القرآن (الزمر ٣)؛ والثاني سيطرة اليهودية على العقيدة العربية المكية في موضوع الدين والتوحيد؛ وهذه السيطرة الدينية على العقيدة، مع الحياد المكي في السياسة بين الفرس والروم، هي السبب في معارضة أهل مكة للدعوة القرآنية، وقيام أحزاب المعارضة لها من اليهود والمشركين حتى كانت غزوة الأحزاب للمدينة (الأحزاب ٢٠ ـ٢٢)، فوسمهم القرآن المدني بهذا الوسم المشترك : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا : اليهود والذين أشركوا » (المائدة ٨٥).

إن وجود اليهود في مكة، وتأثيرهم القائم على عقيدة العرب، واشتراكهم في أحزاب المعارضة للدعوة القرآنية، هو واقع قرآني قائم. مع الشهادة بأنه لم يكن لهم كيان منظم نافذ في مكة، كما في المدينة. فكان ذلك من أسباب الهجرة النبوية للقضاء على النفوذ اليهودي على مكة والحجاز في وكره بيثرب.

٢ـ والقرآن يشهد بوجود المسيحيين بمكة، لكن على الحياد

وجود المسيحيين بمكة **يشهد له التاريخ** كما رأينا، من السيطرة السياسية

والدينية للمسيحية على الكعبة. وخير شاهد هو تجديد رسوم الملائكة والأنبياء والمسيح وأمه على جدران الكعبة من داخل، يوم تجديد بنائها قبل البعثة بخمس سنوات. وما كان قس مكة، ورقة بن نوفل، ليطوف مع مريده محمد، حول الكعبة، بعد قضاء الصيام في حراء، لو كانت الكعبة معبد أوثان.

والقرآن يشهد بوجود المسيحية بمكة، قبل البعثة، لأنه يخاطبهم ويضعهم في صفوف المعارضة للدعوة القرآنية. فهو يروي قصة عيسى، بحسب العقيدة « النصرانية » ، ويعقب عليها بقوله : « ذلك عيسى ابن مريم، قول الحق الذي فيه يمترون : ما كان الله أن يتخذ من ولد، سبحانه! إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن، فيكون. وإن الله ربي وربكم فاعبدوه. هذا صراط مستقيم. **فاختلف الأحزاب من بينهم.** فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم » (مريم ٣٤ ـ٣٧). هذا الاختلاف قائم هنا بين « النصرانية » التي يؤيدها والمسيحية التي يتوعدها، بخلاف الاختلاف السابق بين اليهود والنصارى من بني إسرائيل في المسيح (الزخرف ٦٥). فالمسيحيون موجودون بمكة لأن خطاب القرآن موجه لهم.

وعندما يجادل القرآن المشركين في تربيب الملائكة، يجيبونه : « أَجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ ... ما سمعنا بهذا في **الملة الآخرة** » (ص١ ـ١٤)، والملة الآخرة المتهومة بإلهية المسيح مع الله، هي المسيحية. ويقابلون بين تربيب المسيح وتربيب الملائكة، وأنهم أولى منه: « ولما ضرب ابن مريم مثلاً، إذا قومك منه يصدّون. وقالوا : **أآلهتنا خير أم هو؟** ـ ما ضربوه لك إلا جدلاً، بل هم قوم خصمون! إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل » (الزخرف ٥٧ ـ ٥٩).

فالقرآن يرد على المشركين، وعلى المسيحيين بمكة، بردّ « النصرانية » . فالنصارى والمسيحيون مقيمون بمكة، مثل المشركين. وتذكر السيرة أيضاً لابن هشام (٣ ص ٧٤) وجود « أحابيش مكة » ؛ ولا مجال للشك في مسيحيتهم،

فقد كانت الحبشة كلها مسيحية، وأحداث اليمن في الصراع بين المسيحية واليهودية للسيطرة عليه تدل على ذلك. قال حسين هيكل[١] : « كانت مكة إذ ذاك مقام جالية حبشية، لعلها نصرانية (؟)، يدعى أفرادها الأحابيش. وكان بلال مؤذن الرسول منهم » . لا مجال للتردد في مسيحيتهم، ولا مجال للتردد في منزلتهم من نفوس المشركين ومن نفس محمد، فقد انتدب أهل مكة الحليس، سيد الأحابيش، للتفاوض عنهم مع محمد.

وهناك الحركات المتعددة **للاستنصار بقيصر لفرض سيطرة المسيحية على مكة والحجاز**، بعد أن نجحت اليهودية، وربما « النصرانية » معها، بالقضاء على ملوك كندة، ولاة الحجاز، ليخلو لهم الجو. نقل الدكتور جواد علي[٢] ، عن السيرة، : « وأما عثمان بن الحويرث، وكان من ذوي قرابة خديجة أيضاً، فذهب إلى بيزنطية وتنصّر (أي صار مسيحياً)، وحسنت مكانته عند قيصر. ويقال : إنه أراد أن **يُخضع مكة إلى حماية الروم**، وأن يكون عامل قيصر عليها. فطردوه. فاحتمى بالغساسنة (المسيحيين) حتى مات بالشام » . وسنرى كيف استقدم بنو أمية، وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب، أمية بن أبي الصلت، لمقاومة داعي بني هاشم. وذهب أبو سفيان مع أمية إلى الشام[٣] ، وربما اجتمعا هناك بوفد الراهب أبي عامر مع جماعة من يثرب ومن ثقيف، يستصرخون قيصر لفرض المسيحية على مكة والحجاز، قبل أن تسبقها « نصرانية » محمد والقرآن.

وهناك أيضاً **آية الروم** خير دليل : « الم. غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين : لله الأمر من قبل ومن بعد. حينئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، الله ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم » (الروم

---

(١) حياة محمد ص ٣٣٨؛ قابل حتي : تاريخ العرب ١ : ٤٨.
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٣٧٧.
(٣) تاريخ ابن خلدون ٢ : ٧٠٩.

١ ـ٥). لقد فرح المشركون مع اليهود، عملاء الفرس بين العرب، بنصر الفرس؛ لكن في بضع سنين سيفرح المؤمنون من جماعة محمد، مع الروم المسيحيين : فلو لم يكن في مكة **مسيحيون، وعلى الحياد** في الصراع القائم بين اليهودية والنصارى من بني إسرائيل الذين انضم إليهم محمد (النحل ٩٠) يؤيد دعوتهم (الصف ١٤)، لما كانت البشرى بفرح المؤمنين.

فكل هذه **القرائن التاريخية القرآنية** تدل على أن الصراع سجال بين اليهودية والمسيحية والنصرانية للسيطرة على مكة والحجاز. فالقرآن والسيرة والتاريخ تشهد جميعها بوجودهم في مكة، ومحاولاتهم للانفراد بالسيطرة على مكة والعرب. لكن كانت الغلبة « للنصرانية » بالدعوة القرآنية.

*

٣- « النصارى » بمكة، والدعوة القرآنية

قبل أن يفترق المسيحيون إلى ثلاث فرق، ملكية، ونسطورية، ويعقوبية؛ كان أهل الإنجيل، منذ مؤتمر الرسل، صحابة المسيح، قد افترقوا إلى سنّة وشيعة : سنة المسيحيين من الأمميين على سنة الرسل، **وشيعة النصارى من بني إسرائيل** الذين تشيعوا للتوراة ولإمامة آل البيت : وكان الخلاف الأكبر بينهم في العقيدة بإلهية المسيح، كما يظهر من مصادر الوحي الإنجيلي في العهد الجديد.

وفي التاريخ **ظاهرة غربية.** فإن العلماء يتتبعون آثار النصارى من بني إسرائيل حتى قبيل الإسلام. وفجأة يذوبون وينطفئ خبرهم عند ظهور الإسلام. والعلماء في حيرة من أمر آخرتهم.

وقد رأينا، من السيرة النبوية، **في خبر سلمان الفارسي،** الشاهد التاريخي على انسحاب أولئك النصارى التدريجي إلى الحجاز، هرباً من دين الدولة.

ونشاهد من الحديث، بحسب الصحيحين، أن ورقة بن نوفل، قس مكة، كان يترجم الإنجيل العبراني إلى العربية. ونعرف أنه لم يُكتب إنجيل بالعبرانية

سوى الإنجيل بحسب متى الأرامي، بلغة سريانية، وحرف عبراني، والمسمى (إنجيل النصارى). فكان القس ورقة يترجم (إنجيل النصارى)، ومحمد بجواره، للعرب المتنصرين. فهذه شهادة قائمة قيمة تبرهن على أن النصارى من بني إسرائيل موجودون بمكة؛ وقد « تنصّر » قوم من عرب مكة والحجاز، وصاروا بحاجة إلى إنجيل بالعربية؛ وهناك رئيس « للنصارى » اسمه ورقة بن نوفل، ولقبه « قس مكة » بالسريانية - أي أسقف باليونانية - يقوم بالترجمة لصالح جماعته؛ وله معاون اسمه القس عداس، على رئاسة « النصارى » : كلها عناصر تدل على وجود جماعة منظمة، أي على كنيسة « نصرانية » قائمة في قلب مكة.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أيضاً أن القرآن المدني يعلن الوحدة القائمة على المودة بين « الذين آمنوا » ، جماعة محمد، وبين « الذين قالوا : إنّا نصارى؛ ذلك بأن منهم **قسيسين ورهباناً** وأنهم لا يستكبرون » (المائدة ٨٥) - وجدنا أن « القسيسين والرهبان » جماعة عديدة، لا أفراد قلائل؛ وهم يرأسون « النصارى » بمكة والمدينة وسائر الحجاز. فالقرآن الذي يؤلف « أمة واحدة » مع هؤلاء « النصارى » شاهد عدل على وجودهم بمكة والمدينة وسائر الحجاز، وعلى تغلّبهم « على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (الصف ١٤).

لكن الأسلوب القرآني بالتعميم في تعبيره يخلق **شبهتين** : الأولى إطلاق اسم النصارى الواحد، على جماعتين مختلفتين، تارة بالتأييد، وطوراً بالتنديد؛ والثانية التردد بين أهل الكتاب أو أهل الذكر أو أولي العلم - تعابير ثلاثة مترادفة - تارة بالثناء المحبّب، وطوراً بالتنكر المستغرب. لكن هذه الشبهات تزول تحت ضوء الأنوار الكاشفة من القرائن اللفظية والمعنوية.

ففي القرآن صفتان، وهما « المحسنون » و « الظالمون » مع اشتقاقاتهما، تؤخذان تارة بحسب التعبير اللغوي؛ وتارة بحسب اصطلاح قرآني خاص : لغةً تعنيان كل شيء محسن أو ظالم؛ أما في اصطلاح القرآن **فالظالمون هم خصوصاً**

اليهود لكفرهم بالمسيح ثم بمحمد؛ والمحسنون، ومثله المقسطون، هم النصارى من بني إسرائيل الذين آمنوا بالمسيح، وهم يؤمنون بمحمد حتى الاندماج في ((**أمة واحدة**)) هي ((**الأمة الوسط**)) بين المسيحية واليهودية.

وموقف القرآن من يهود زمانه هو التكفير، لكفرهم بالمسيح ثم بمحمد؛ ومن مسيحي الحجاز هو الاتهام ((بالغلو في دينهم)) حتى البدعة والردة عن دين الحق للسيد المسيح، بين الحياد بمكة، والاستنكار للدعوة القرآنية بآخر العهد في المدينة، من قبل وفد نجران، وجماعة الراهب أبي عامر.

وترى في هذا الكتاب الأمثلة القرآنية منثورة تأييداً لتلك **المبادئ التفسيرية** المنبثقة من الواقع القرآني. وعلى ضوئها نرى شهادة القرآن للنصارى من بني إسرائيل بمكة.

*

١) هذه مجموعة أولى من الدلائل على وجود النصارى من بني إسرائيل بمكة :

فالقرآن المكي ـ بعد دعوة مشركي مكة إلى التوحيد الكتابي ـ هدفه أن يقص على بني إسرائيل أعظم اختلافهم : ((إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون)) (النمل ٧٦). وإن ((أكثر الذي هم فيه يختلفون)) **هو الإيمان أو الكفر بالمسيح** : ((ولما جاء عيسى بالبيّنات، قال : قد جئتكم بالحكمة، ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه، فاتقوا الله واطيعونِ. إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه، هذا هو صراط مستقيم. فاختلف الأحزاب من بينهم، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم)) (الزخرف ٦٣ ـ٦٥). فبنو إسرائيل اختلفوا إلى طائفة آمنت بالمسيح وهم النصارى من بني إسرائيل، وطائفة كفرت بالمسيح وهم اليهود، كما ستفسره صريحاً آية (الصف ١٤). والخطاب في (الزخرف) صريح بأنه موجه لبني إسرائيل، لقوله : ((لأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه)) ؛ والمسيح كان يخاطب مباشرة بني إسرائيل. فيثبت أن بني إسرائيل بعد المسيح صاروا يهوداً أو نصارى. والقرآن

يخاطب الفريقين في الآيتين. والذين يقبلون القرآن من بني إسرائيل يسميهم « مؤمنين » (٧٧) « مسلمين » (٨١) فالتعبيران من صفات النصارى من بني إسرائيل.

فالقرآن يتوعد اليهود لكفرهم بالمسيح (الزخرف ٦٥) لذلك عندما يقول : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق، وبه يعدلون » (الأعراف ١٥٨)، فهو يعني النصارى من بني إسرائيل، لا اليهود. والنصارى الإسرائيليون يقومون بدعوة الحق في مكة؛ وهذا تأكيد ضمني لانتساب القرآن إليهم.

كذلك عندما يقول : « ولقد آتينا موسى الكتاب : فلا تكن في مرية من لقائه. وجعلناه هدى لبني إسرائيل (من يهود ونصارى)؛ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا**، لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » (السجدة ٢٣ ـ ٢٤). فاليهود الذين يتوعدهم لكفرهم بالمسيح، لا يقبل أن يكون منهم « أئمة يهدون بأمرنا » . فالأئمة من بني إسرائيل الذين يقومون بهداية الناس، ويصبرون على أذاهم، ويوقنون بآيات القرآن، هم أئمة النصارى من بني إسرائيل. وهذه شهادة صريحة على قيام الدعوة « النصرانية » بمكة، وعلى تأييد القرآن لها.

في عرْف القرآن، جاء المسيح « **رسولاً إلى بني إسرائيل** » (آل عمران ٤٩)، فهو يقتصر رسالة المسيح على بني إسرائيل. لذلك، إذ يقول : « إنْ هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل » (الزخرف ٥٩)، نفر أهل مكة، واليهود طبعاً؛ والذين يقبلونه مثلاً لهم هم النصارى من بني إسرائيل، في مكة.

أخيراً يعلن القرآن انضمامه صريحاً إلى النصارى من بني إسرائيل : ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم (الحكمة) والنبوة، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين. **وآتيناهم بينات من الأمر** (مع عيسى) : فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم،إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. ثم جعلناك **على شريعة من الأمر**، فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » (الجاثية ١٥ ـ١٧). فالعلم جاء بني إسرائيل في « الحكمة »

أي الإنجيل (٤٣ : ٧٣) في بيّنات عيسى. فاختلف بنو إسرائيل إلى يهود ونصارى بعد العلم المنزل مع المسيح. فالنصارى من بني إسرائيل، الطائفة التي آمنت بالمسيح (الصف ١٤) هم **أولو العلم على الاختصاص**. ولما جعل الله محمداً « على شريعة من الأمر » ، أي « أمر الدين » (الجلالان)، على « بينات من الأمر » التي جاء بها عيسى، أمره بالانضمام إلى **أولي العلم** الإنجيلي، النصارى من بني إسرائيل؛ مع تحذيره من أهواء « **الذين لا يعلمون** » أي المشركين.

فهذه **المجموعة الأولى** من القرائن والبراهين تدل على قيام النصارى من بني إسرائيل بالدعوة بمكة؛ وتدل على انضمام النبي العربي إلى دعوتهم « النصرانية » .

لذلك فقوله : « ألم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » (الشعراء ١٩٧) ليس استشهاداً باليهود، كما رأى الأستاذ دروزة وغيره[1] ؛ إنما هو استشهاد بالنصارى من بني إسرائيل الذين يؤمنون بالدعوة القرآنية؛ بينما اليهود يرفضونها، والقرآن يتوعدهم (الزخرف ٦٥). واستشهاد القرآن بهؤلاء النصارى، وشهادتهم له، **برهان على وحدة الدعوة**.

كذلك قوله : « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » (الأحقاف ١٠)، على مثل القرآن، إنما هي شهادة من « نصراني » ، لا من يهودي، وقد كانوا « أول كافر به » !

*

٢) وهذه **مجموعة ثانية** من الإشارات والدلائل الصريحة :

يقول : « **الذين آتيناهم الكتاب** يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » (الأنعام ٢٠). فقوله : « الذين آتيناهم الكتاب » عام يراد به خاص أي النصارى من بني إسرائيل، لا اليهود. وهؤلاء النصارى

(١) عصر النبي ص وبيئته قبل البعثة ص ١٠٣.

يعرفون محمداً والقرآن معرفة الأب ابنه. وهذا برهان الصلة المصدرية بين محمد والقرآن وبين النصارى من بني إسرائيل.

ويقول : « أفغير الله أبتغي حكماً، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً؛ **والذين آتيناهم الكتاب** يعلمون أنه منزل من ربك بالحق » (الأنعام ١١٤) : لا يؤمن بالقرآن إلا النصارى، لا اليهود ولا غيرهم.

ويقول : « **الذين يتبعون الرسول**، النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » (الأعراف ١٥٧). فلا اليهود، ولا المسيحيون، يجدون « الرسول النبي الأمي » مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل؛ إنما هم وحدهم النصارى من بني إسرائيل. **وهذا إعلان صريح بأن الدعوة القرآنية دعوتهم.**

هذا ما يعلنونه بصراحة تامة : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله، **هم به يؤمنون**. وإذا يتلى عليهم قالوا : **آمنا به : إنه الحق من ربنا؛ إنا كنا من قبله مسلمين.** أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، ويدرأون بالحسنة السيئة، ومما رزقناهم ينفقون. وإذا سمعوا اللغو، اعرضوا عنه، وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم، لا نبتغي الجاهلين » (القصص ٥٢ ـ ٥٥) يرى بعضهم في هذا النص شهادة بإسلام وفد طارئ، ولا شيء فيه يدل على ذلك. فالآيات عامة لأهل الكتاب المؤمنين بالقرآن، فهم النصارى من بني إسرائيل، لا اليهود ولا المسيحيون. ونرى أن الدعوة دعوتهم : فقد تبنوها، وهنا يعلنون إيمانهم بها، ويشهدون لها. والقرآن يصف الاضطهاد الذي يتحمله النصارى لاشتراكهم بالدعوة، والشهادة لها، والإنفاق في سبيلها. فلهم أجران: أجر « النصرانية » ، وأجر الدعوة القرآنية. وجميل الإعلان المبين لفهم الإسلام في القرآن : « إنا كنا من قبله مسلمين » : فالمسلمون قبل القرآن هم على الحصر والتخصيص النصارى من بني إسرائيل، ومحمد دخل على إسلامهم « النصراني » بأمر الله : « وأمرت أن أكون من المسلمين » (النحل ٩١).

وقوله : « **سلام عليكم، لا نبتغي الجاهلين** » إعلان للمشركين بأن انتصار « النصارى » للدعوة القرآنية ليس موجهاً ضد « الجاهلين » أهل مكة؛ بل ضدّ غيرهم أي اليهود، فما للمشركين أن يدخلوا فريقاً في الصراع الناشب.

وقوله : « إنا كنا من قبله مسلمين » (القصص ٥٣)، « وأمرت أن أكون من المسلمين » (النحل ٩١)، صريح بأن « المسلمين » قبل القرآن هم حصراً النصارى من بني إسرائيل، ومن « تنصر » معهم من العرب. والقرآن إنما يطلق لقب « المسلمين » على جماعته، على الانتساب والتبعية.

فهم المسلمون، وهم أولو العلم المقسطون، الذين يتحدى القرآن المشركين العرب بإيمانهم : « قل : آمنوا به، أو لا تؤمنوا! إن الذين أوتوا العلم من قبله، إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً! ويقولون : سبحان ربنا، إن كان وعد ربنا لمفعولاً! ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً » (الإسراء ١٠٧ ـ ١٠٨). ليس هذا موقف المشركين، ولا اليهود، ولا المسيحيين. إنه موقف النصارى من بني إسرائيل وحدهم، « الذين أوتوا العلم من قبله » على التخصيص. فالقرآن يتحدى الناس كلهم بإيمان هؤلاء النصارى بدعوته. إنها دعوتهم، وهم « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » معرفة مصدرية.

لذلك فالنصارى من بني إسرائيل وحدهم، من دون سائر أهل الكتاب، يفرحون بالدعوة القرآنية : « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أُنزل إليك » (الرعد ٣٦)، تعميم يُراد به التخصيص.

وفي كل مسألة يحيل القرآن سامعيه إلى النصارى، أهل الذكر الحكيم : « فاسألوا **أهل الذكر**، إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر » (النحل ٤٣ ـ ٤٤)؛ « فاسألوا أهل الذكر، إن كنتم لا تعلمون » (الأنبياء ٧). فهو لا يحيلهم إلى اليهود، ولا إلى المسيحيين؛ بل إلى النصارى، أهل الذكر، وأولي العلم على التخصيص.

والقرآن يحيل محمداً نفسه، عند الشك من أمره ووحيه، إلى أساتذته من أهل الكتاب : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك، **فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك** : لقد جاءك الحق من ربك، فلا تكونن من الممترين » (يونس ٩٤). فمحمد يقرأ الكتاب بقراءة النصارى، لا بقراءة اليهود أو المسيحيين. والنتيجة الحاسمة لهذا التصريح ضخمة، ومزدوجة : إن القرآن العربي هو قراءة للكتاب، على « مثل » الذين يقرأون الكتاب من قبله، وهو يسمي قرآن الكتاب، في السورة عينها، « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧) أي ترجمته وتعريبه بحسب اصطلاحه (فُصلت ٤٤)؛ و « النصارى » هم أساتذة محمد في قراءة الكتاب، وفي « تفصيل الكتاب » بالقرآن.

والنتيجة الأخيرة الحاسمة : « ولا تجادلوا أهل الكتاب، إلا بالتي هي أحسن ـ إلا الذين ظلموا منهم ـ وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأُنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون » (العنكبوت ٤٦ ـ٤٧). فالقرآن لا يبيح جدال النصارى إلا بالحسنى؛ أما اليهود الظالمون فيصح جدالهم بغير الحسنى؛ والحسنى المفروضة هي الأمر بالقول **بوحدة الإله ووحدة التنزيل ووحدة الإسلام** بين جماعة محمد والنصارى من بني إسرائيل. **فالدعوة القرآنية « نصرانية » .**

*

٣) وهذه **مجموعة ثالثة** نكتفي بالإشارة إليها.

في القرآن طائفة أولى من **ثلاث تعابير مترادفة :** أهل الكتاب، وأهل الذكر، أولو العلم. وهم ثلاث طوائف : اليهود، والنصارى من بني إسرائيل، والمسيحيون. فلا يصف بالإحسان والقسط منها إلا النصارى من بني إسرائيل؛ أما اليهود فهم ظالمون غير محسنين لكفرهم بالمسيح ومحمد؛ والمسيحيون « يغلون » في إيمانهم بالمسيح ويرفضون الدعوة القرآنية، فليسوا محسنين ولا مقسطين. أما

النصارى فهم المحسنون، وهم المقسطون، وهم المسلمون، لأنهم « أمة وسط » في إيمانهم بالمسيح وإيمانهم بمحمد : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين » .

والطائفة الثانية من التعابير القرآنية هي **ثلاث صفات مترادفة :** المحسنون، المقسطون، المسلمون. قد يكون التعبير لغوياً فلا يخصهم من دون سواهم؛ وحين يأتي اصطلاحاً، فالمحسنون المقسطون المسلمون هم النصارى من بني إسرائيل ومن تابعهم؛ لأن التعبير الاصطلاحي المختص بجماعة محمد هو « المتقون » من العرب.

وهذا مبدأ تفسيري آخر يرفع كثيراً من المتشابهات في القرآن، وفي فهمه حق فهمه.

نكتفي بالآية الكبيرة، محور القرآن كله، ولو كانت مدنية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة **وأولو العلم قائماً بالقسط** ـ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ إن الدين عند الله الإسلام. وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » (آل عمران ١٨ ـ ١٩). فالذين يشهدون مع الله وملائكته « أن الدين عند الله الإسلام » هم « أولو العلم قائماً بالقسط » على التخصيص بالقسط أي النصارى، لا « أولو العلم » على التعميم، أي اليهود أو المسيحيون. لذلك فالتعبير بصيغة التعميم « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب » في الإسلام، يقصد اليهود على التخصيص، بسبب قرينة « العلم » الذي رفضوه فليسوا من أولي العلم المقسطين. **فالإسلام هو دعوة النصارى من بني إسرائيل**، ومحمد يدعو بدعوتهم، والقرآن يشهد للإسلام بشهادتهم. فإسلام القرآن هو إسلام « النصارى » ، والدعوة القرآنية دعوة « نصرانية » .

فعندما يقول : « قلْ : نزّله روح القدس من ربك بالحق، ليثبت الذين آمنوا، وهدى وبشرى للمسلمين » (النحل ١٠٢) يعني « بالذين آمنوا » جماعة محمد بحسب التعبير المتواتر، « وبالمسلمين » جماعة أخرى هم النصارى من بني إسرائيل بحسب

القرائن المتواترة. فالقرآن هدى وبشرى، أي توراة وإنجيل، للنصارى المسلمين، ومن « تنصّر » وأسلم معهم. فليس التعبير عطف بيان، لاختلاق الهدف.

كذلك، « تلك آيات الكتاب الحكيم، هدى وبشرى للمحسنين » (لقمان ٢ و٣) تجعل الكتاب المقدس هدى وبشرى للنصارى من بني إسرائيل، المحسنين على التخصيص، بحسب صفتهم المتواترة.

وكما جاء القرآن تثبيتاً للذين آمنوا مع محمد، وهدى وبشرى للنصارى المسلمين؛ جاء تصديقاً لكتاب موسى « لينذر الذين ظلموا، وبشرى للمحسنين » (الأحقاف ١٢)، أي إنذاراً لليهود، وبشرى للنصارى المحسنين.

فتعابير « المحسنين المقسطين المسلمين » ، اصطلاحاً على التعميم، هم « النصارى » من أهل الكتاب، أو أهل الذكر، أو أهل العلم، اصطلاحاً على التخصيص.

وتلك التعابير والصفات المتواترة شهادة متواترة على وحدة الدعوة القرآنية والدعوة « النصرانية » . فالقرآن يدعو للإسلام والمسيح والإنجيل **بدعوة النصارى من بني إسرائيل المقيمين بمكة.** ونجد الشهادة نفسها بالنسبة للمدينة.

*

٤- « النصارى » بمكة جالية أجنبية، وطائفة عربية

يقول الأستاذ دروزة[١] : لقد وصلنا في الاستدلالات القرآنية « إلى القول بوجود جالية **أعجمية نصرانية في مكة**، وباحتمال وجود جالية **أعجمية نصرانية في يثرب** أيضاً؛ وبترجيح وجود **عرب متنصرين** في بيئة النبي ص وعصره أيضاً » . وفي أطراف الجزيرة العربية يقدرهم « **بالآلاف** المؤلفة من متنصرة العرب » ، غير الجوالي الأجنبية (ص ٤٥٧). لكن « عدد الكتابيين والنصارى الأجانب في مكة ... لم يكن ليتجاوز **المئات القليلة** » (ص ١٠٣). أما « الذي نرجحه

(١) عصر النبي ص وبيئته قبل البعثة ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

أن مدى انتشار النصرانية في **عرب الحجاز** لم يكن ليتجاوز **الحوادث الفردية**، وذلك استلهاماً من عدم وجود صدى قوي لاحتكاك النبي ص بالنصارى في القرآن الكريم، لا في الآيات المكية ولا في الآيات المدنية، كما هو الأمر بالنسبة إلى اليهود في يثرب » (ص ٤٥٣).

وبعضهم يرى الأستاذ دروزة كريماً في تقدير عدد الأجانب النصارى في مكة « بالمئات القليلة » ، والعرب النصارى « بالأفراد » .

ونقول نحن : إن تقديراته قاصرة مقصرة.

ونميز نحن بين النصارى من بني إسرائيل، وبين المسيحيين، مما لم تجر به العادة. و « النصرانية » دعوة واحدة (الصف ١٤) وإسلام واحد بتصريحه في (آل عمران ١٨ ـ ١٩)، والأمر الصريح إليه في هدايته : « وأمرت أن أكون من المسلمين » الموجودين قبله (النحل ٩٠) أي النصارى من بني إسرائيل. بناءً عليه، ما كانت الدعوة القرآنية لتكتسح الحجاز، رغم مقاومة العرب المشركين واليهود المتحزبين عليها، لولا وجود هذه الجالية « النصرانية » **بكثرة في مكة** والحجاز. وانتصار الدعوة القرآنية « النصرانية » : « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (الصف ١٤)، برهان الواقع التاريخي على كثرة عدد « النصارى » في مكة والحجاز، للقيام بهذا الانقلاب الديني والسياسي والاجتماعي، لأن القضية بالنسبة لهؤلاء « النصارى » الفارين من دولة الروم ودولة الفرس، بسبب الاضطهاد الديني، مسألة حياة أو موت.

وكثرة المسيحيين من أجانب وعرب في مكة والحجاز نجد برهانها القاطع في واقع الكعبة، حيث كانت أصنام العرب القديمة خارجها، بينما كانت جدرانها من داخل ملأى بصور الملائكة والأنبياء والمسيح وأمه؛ وهذا عمل لا يقوم به المشركون، ولا اليهود، ولا « النصارى » ؛ إنما يقوم به المسيحيون وحدهم؛ ونقول **المسيحيون العرب قبل الأجانب**، لأنه لا يعقل أن يفرض أجانب على

معبد قومي حرية التصرف فيه، فيملؤونه بالصور المسيحية. وهذا الواقع الأثري والتاريخي برهان قائم على كثرة المسيحيين من عرب وأجانب، كثرة تمكنهم من إبقاء الأصنام العربية خارج الكعبة والصور المسيحية على جدرانها الداخلية، عند تجديد بناء الكعبة، خمس سنوات قبل البعثة.

والقرآن والتاريخ يظهران بأن الصراع للسيطرة على مكة والحجاز كان قائماً بين اليهودية والمسيحية و « النصرانية » . ونعرف من السيرة محاولات أمية بني أبي الصلت في الطائف، وعثمان بن الحويرث من ذوي قرابة خديجة في مكة، والراهب أبي عامر في المدينة، للاستنصار بقيصر الروم لفرض سيطرة المسيحية على مكة والحجاز، قبل أن يستفحل أمر محمد وجماعته. لا شك أن جواب القيصر لهم جميعاً كان جوابه لأهل اليمن المسيحيين : إن بعد الدار يمنعنا من ذلك. وإن كان قيصر قد كلّف الحبشة المسيحية أن تقوم مقامه في القرن السادس؛ فما كان باستطاعة قيصر في مطلع القرن السابع أن يفعل ذلك، لأن اليمن كان قد وقع تحت سيطرة الفرس وعملائهم اليهود. فكانت محاولات المسيحية فاشلة في كسب السيطرة. لكن هذه المحاولات المتعددة الأطراف برهان على **كيان مسيحي قائم قوي**، وإلا كانت المحاولات ضرباً من الجنون؛ وهذا الكيان المسيحي القائم كان أجنبياً وعربياً.

ودولة الفرس ناصرت اليهودية للاستيلاء على اليمن. لكن ما منعها من المحاولة للاستيلاء على الحجاز، هو المانع نفسه الذي منع الروم، بعد الدار، واعتصام الحجاز بالصحاري الذي تحميه من الشرق ومن الغرب، من الفرس ومن الروم. أضف إلى ذلك حكمة العرب في الحجاز الذين وقفوا على الحياد في صراع الجبابرة : « إن نتبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا » (القصص ٥٧).

وانقسام أهل الكتاب في مكة إلى يهود ونصارى من بني إسرائيل قائم بشهادة القرآن (الزخرف ٦٣ ـ٦٥؛ الصف ١٤)؛ وانقسامهم إلى نصارى من بني إسرائيل ومسيحيين قائم أيضاً بشهادة القرآن المتواترة (مريم ٣٤ ـ٣٧).

وجاءت الدعوة القرآنية للدين والدولة، فحسمت النزاع بين اليهود والنصارى والمسيحيين. لقد تبنى محمد « النصرانية » وأيدها على اليهودية والمسيحية حتى النصر المبين في مكة والحجاز (الصف ١٤). ومنذ مكة حيث عجزت الدعوة القرآنية عن السيطرة، كان القرآن يتوعد اليهود والمسيحية (مريم ٣٧؛ الزخرف ٦٥).

فقد كان في مكة مسيحيون عرب وأجانب، بعدد وافر، لكن الآثار لا تظهر لهم كياناً منظماً، وكنيسة قائمة؛ وفي وصيته الأخيرة لا يشير محمد إلى ترحيل لهم من الحجاز.

أما النصارى من بني إسرائيل فقد كان لهم **كيان منظم**، وكنيسة قائمة من طائفة « نصرانية » عربية، وطائفة « نصرانية » أجنبية، يرأس كل واحدة قس أي « رئيس للنصارى » .

تروي السيرة [١]، بمناسبة بدء البعثة، خبر اتصال السيدة خديجة بقس من نينوى مقيم بمكة اسمه عدّاس. وقيل أن تستفتي ابن عمها القس ورقة بن نوفل، استفتت القس عداس في الرؤيا التي عرضت لمحمد وهو معتكف في غار حراء. « وكان راهباً، شيخاً كبير السن، وقد وقع حاجباه من الكبر » . وهو غير الغلام عداس الذي لقيه محمد في الطائف. فمن لقبه « القس » ومن قوميته، « من أهل نينوى » ، يتضح أنه من مهاجري « النصارى » . ولا شك أنه كان « رئيس النصارى » على الجالية « النصرانية » من بني إسرائيل. هؤلاء هم الذين يسميهم القرآن أهل الكتاب أو أهل الذكر، أو أولي العلم المحسنين، المقسطين، المسلمين قبل محمد، أي النصارى على التخصيص.

وفي المناسبة ذاتها تذكر كل السير، خبر استفتاء خديجة، « سيدة نساء قريش » القس ورقة بن نوفل، ابن عمها، في أمر محمد ورؤياه. وهنا تبرز خصوصاً

---

(١) السيرة الحلبية ١ : ٢٦٧.

تلك **الشخصية الجبارة** التي لعبت **الدور الأول** في هداية محمد وبعثته، كما سنرى في البحث التالي. والسيرة الحلبية (١ : ٢٧٤) تسمي ورقة « القس » ، « رئيس النصارى » بمكة. فليس ورقة راهباً متوحداً أو سائحاً ليكون بلا رعية تتبعه. إنما هو « رئيس النصارى » ، فله جماعة من العرب يرأسهم؛ وبما أنه يترجم لهم الإنجيل العبراني، وهو إنجيل النصارى من بني إسرائيل، فقد كان ورقة بن نوفل « قس » النصارى العرب. ونعرف من شهادة اليعقوبي (١ : ٢٩٨) أن « من تنصّر من أحياء العرب، قوم من قريش » ؛ قبيلة القس ورقة، وابنة عمه السيدة خديجة. فكلها قرائن تدل على أن ورقة بن نوفل كان « رئيس النصارى » من العرب. وهؤلاء العرب « المتنصرون » يسميهم القرآن « **المتقين** » ، قبل أن يصبح التعبير صفة لجماعة محمد.

والشاهد القرآني الأكبر أن القرآن يدعو إلى « أمة وسط » بين اليهودية والمسيحية، تدل كل أوصافها, وعقيدتها، وإنجيلها العبراني، كما سنرى، أنها « النصرانية » . فهي طائفة عربية وأعجمية، استنصرت بالدعوة القرآنية، وانتصرت، آيتان من مكة ومن المدينة تكشفان لنا السر كله : « وأُمرتُ أن أكون من المسلمين » (النمل٩٠) أي النصارى من بني إسرائيل؛ « فآمنت طائفة من بني إسرائيل، وكفرت طائفة : فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، (الصف ١٤). لقد انتصرت « النصرانية » الأمة الوسط، على اليهودية ثم على المسيحية، بالدعوة القرآنية، وباسم الإسلام، على مكة والحجاز والجزيرة كلها. فهذا المصير يدل على أن مركز « النصرانية » كان في مكة، وكان كبيراً، حقق ما عجزت عنه اليهودية والمسيحية.

وكانت **الزعامة الدينية** بمكة لرئيس النصارى، القس ورقة بن نوفل؛ **والزعامة التجارية** لابنة عمه، خديجة، « سيدة نساء قريش » ، التي كان « تجارتها تعدل نصف **تجارة قريش**[1] » . فكانت « النصرانية » كما يظهر من مركزها الديني

---

(١) السيرة لابن هشام ١ : ١٧٦.

والاقتصادي، هي الكتلة المسيطرة في مكة. وكان همّ ورقة وخديجة أن يجدا من يخلفهما في هذه الزعامة الدينية والاقتصادية، فوجداه في محمد بن عبد الله، من بني هاشم، من قريش؛ في بيت **الزعامة السياسية** على الكعبة ومكة وقريش.

* * *

بحث ثالث

محمد على درب « النصرانية » ـ من وحي السيرة

نقل ابن خلدون[1] في تاريخه : « كان التقدم في مضر كلها لكنانة، ثم لقريش؛ والتقدم في قريش لبني لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر. وكان سيدهم قُصَي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي » . وكان وُلد قُصي : عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قُصي.

وكان جد قُصي الغوث بن مرة. « كانت أمه من جرهم، وكانت لا تلد. فنذرت إِن ولدت أن تتصدّق به على الكعبة عبداً لها يخدمها، فولدت الغوث. وخلّى أخواله في جرهم بينه وبين من نافسه بذلك. فكان له ولولده، وكان يقال لهم : **صوفة** » .

هذه رواية أولى عن انتقال ولاية البيت العتيق من جرهم إلى قريش. والرواية الثانية تدل على السبب السياسي الحقيقي : « وقال السهيلي عن بعض الإخباريون : **إن ولاية الغوث بن مرة كانت من قبل ملوك كندة** » . وهو الذي أورثها حفيدة قُصي، الذي تفرّد من دون بني عمومته : « فرأى قصي أنه **أحق بالكعبة وبأمر مكة** وخزاعة وبني بكر، لشرفه في قريش؛ وقد كثرت قريش سائر الناس واعتزت عليهم » . واحتكم الناس في ذلك إلى حكيم كنانة،

---

(١) المجلد الثاني، منشورات دار الكتاب اللبناني ص ٦٩٠ الخ.

« فقضى لقصي عليهم، فولي قُصي البيت وقرّ بمكة، **وجمع قريشاً من منازلهم بين كنانة** إليها، وقطّعها أرباعاً بينهم. فأنزل كل بطن منهم بمنزله الذي صَبحهم به الإسلام » . « وصارت قريش على فرقتين : قريش البطاح، وقريش الظواهر من سواهم. فقريش البطاح ولد قصي بن كلاب وسائر بني كعب بن لؤيّ؛ وقريش الظواهر من سواهم » .

ونرى **بدء دخول « النصرانية » في قريش،** عند انتقال ولاية البيت إليهم من بني جرهم، بفضل ملوك كندة، ولاة الحجاز من قبل التبابعة من حمير. في ذلك يصح قول اليعقوبي في تاريخه (١ : ٢٩٨) : « **أمّا من تنصّر من أحياء العرب، فقوم من قريش** » . واللقب الذي اتخذوه حينئذٍ يدل عليهم : « وكان يقال لهم صوفة » .

ثم اختلف بنو عبد الدار مع بني عبد مناف في منافع الحج. وكان حلف المطيّبين فاقتسموا الوجاهة والمنافع : فكانت السقاية والرفادة لبني عبد مناف، والحجابة واللواء لبني عبد الدار، ورضي الفريقان، واحتجز الناس. كان ذلك على أيام عبد المطلب، الجد الأعلى للنبي العربي، فقام على ولاية البيت.

*

أولاً : « النصرانية » في بيت محمد

١ـ زعامة البيت ومكة في بني هاشم: لعبد المطلب الثاني، جد محمد.

وبعد عبد المطلب الأول، « قام بأمر بني عبد مناف هاشم (ابنه) ليساره وقراره بمكة؛ وتقلّب أخيه عبد شمس (جدّ بني أمية) في التجارة إلى الشام. فأحسن هاشم ما شاء في إطعام الحج وإكرام وفدهم. ويقال : إنه أول مَن

أطعم الثريد الذي كان يطعم، فهو ثريد قريش[1] » . ثم خلفه على الأمر نفسه ابنه المطّلب.

وكان هاشم قد قدم يثرب فتزوّج من بني عدي، من امرأة كانت قبله عند أُحَيحة بن الجلاَّح، سيد الأوس لعهده، فكان له منها عمرو بن أحيحة[2] . وكانت لشرفها تشترط أمرها بيدها، في عقد النكاح. وولدت لهاشم عبد المطلب، فسمته شيبة. وتركه عندها في يثرب حتى كان غلاماً. وهلك هاشم في رحلة إلى غزة من أرض الشام. فخلفه على أمره بحكمه ابنه المطلب، فخرج إلى يثرب يطلب أخاه شيبة. فاحتمله وردفه على بعيره ودخل مكة. فقالت قريش : هذا عبد ابتاعه المطلب؛ فسُمّي شيبة عبد المطلب من يومئذ، فكان على اسم جده.

ثم هلك المطلب بردمان من اليمن، في رحلة إليها. فقام بأمر بني هاشم من بعده عبد المطلب بن هاشم، وهو عبد المطلب الثاني، الجد الأدنى لمحمد. وأقام الرفادة والسقاية على أحسن ما كان قومه يقومون بمكة من قبله. وكانت له وفادة على ملوك اليمن من حمير، وعلى الحبشة. وهذ الصلات إشارة أولى إلى مذهبه الديني.

ولما أراد عبد المطلب الثاني، جد محمد، حفر زمزم، اعترضته قريش. فنذر : لئن وُلد له عشرة من الولد، ثم يبلغوا الحلم معه حتى يمنعوه، « **ليَنحرنَّ أحدهم قرباناً لله عند الكعبة** » ـ لاحظ لغة التوحيد في نذره ـ فلما كملوا عشرة، ضرب عليهم القداح، فخرجت على ابنه عبد الله، والد محمد. فافتداه

(١) يعلق عليه ابن خلدون بقوله : « والثريد لهذا العهد ثريد الخبز، بعد أن يُطبخ في المقلاة والتنور. وليس من طعام العرب. إلا أن عندهم طعاماً يسمونه (البازين) يتناوله الثريد لغةً، وهو ثريد الخبز بعد أن يُطبخ في الماء عجيناً رطباً، إلى أن يتم نضجه، ثم يدلكونه بالمغرفة حتى تتلاحم أجزاؤه وتتلازج » . ونحن نرى في ثريد قريش الذي « ليس من طعام العرب » إشارة على تبدّل الحياة الاجتماعية عند هجرة النصارى من بني إسرائيل إلى مكة، وتنصّر قوم من قريش.

(٢) في رواية ثانية أنها كانت سلمى بنت عمرو بن لبيد الخزرجي.

بمائة من الإبل. « فنحرها عبد المطلب، وكانت من كرامات الناس له » . وعليه قول النبي : « **أنا ابن الذبيحين** » ، يعني عبد الله أباه، وإسماعيل بن إبراهيم، جد العرب المستعربة اللذين قُرّبا للذبح، ثم فُديا بذب من الأنعام.

ثم إن عبد المطلب الثاني، جد محمد، زوّج ابنه عبد الله من آمنة بنت وهب، من بني زهرة، بيثرب. فدخل بها وحملت بمحمد. وعند رجوع عبد الله من رحلة إلى الشام، عرّج على يثرب إلى عرْسه، فمرض هناك ومات، وآمنة حامل بمحمد.

وعاش عبد المطلب الثاني، جد محمد، « ماية وأربعين سنة، وقيل ماية وعشرة، وقيل أقل » . وهو الذي احتفر زمزم، وجعل لها حوضاً يسقي منه. وهو الذي ذهّب حلية الكعبة وجعل لها باب حديد. ويختم ابن خلدون خبره بقوله : « **ثم أقام عبد المطلب برئاسة قريش،** والكون يصغي لملك العرب. والعالم يتمحّض بفصال النبوة » .

هذا الخبر يشهد بأن ولاية البيت ورئاسة قريش قبيل الإسلام كانت بمكة لجد محمد. وهو الذي احتضن محمد بعد موت أبيه عبد الله. وهذه الصورة التاريخية تختلف كثيراً عن الأسطورة التي يردّدونها على الناس عن محمد الولد اليتيم الفقير، راعي الغنم ليعيش.

وصلات القربى والمصاهرة بين عبد المطلب وابنه عبد الله في يثرب، تدل على نجاح الهجرة إلى يثرب، ونصرة أهلها لمحمد في الصراع على الرئاسة بمكة.

*

٢- « تنصّر » عبد المطلب، زعيم مكة، « وتحنّفه » .

لقد أجمعت السيَر النبوية على أن محمداً، قبل مبعثه، كان « يتحنّف » مثل جده عبد المطلب، مع ورقة بن نوفل قس مكة. وقد نقلت السيرة الحلبية[1]

(١) والسيرة المكية، على هامش الحلبية، مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٦٢ ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

(١ : ٢٥٩) في ذلك قول ابن الأثير في تاريخه : « **أول من تحنّث في حراء عبد المطلب** : كان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين، ثم تبعه على ذلك مَن كان يتعبد كورقة بن نوفل، وأبي أمية بن المغيرة » .

نص تاريخي ثمين منقول بالتواتر والإجماع، يكشف لنا أسرار التاريخ والدعوة القرآنية. نعرف أن النصارى من بني إسرائيل، بسبب تشيّعهم للتوراة مع الإنجيل، كان المسيحيون يسمونهم بلغة السريان « **حنفاء** » أي منحرفين عن دين أهل السُنّة. فاتخذوا هم ذلك اللقب اسم فخر لهم دليلاً على دين الحق عندهم. وفي هجرتهم إلى مكة والحجاز أطلقوا دعوتهم « للنصرانية » باسم الحنيفية. وسمّوا التعبد والصيام على طريقتهم : **التحنّف**.

واقتران التحنّف باسم قس مكة، ورقة بن نوفل، برهان « نصرانيته » .

والشهادة التاريخية المتواترة أن عبد المطلب الثاني، جد محمد كان أول من تحنّف من قريش، مع ورقة بن نوفل. **فيكون جدّ محمد، عبد المطلب، أول من « تنصّر » من قريش؛** وجرى على عادة « النصارى الحنفاء » بالتحنّف كل سنة شهراً في حراء.

والشهادة التاريخية الثانية أن **شهر رمضان**، قبل القرآن، كان شهر الصيام، « النصراني » في الجاهلية. وممارسته برهان « النصرانية » ، لدى عبد المطلب وحفيده محمد.

والشهادة التاريخية الثالثة أن **الحركة الحنيفية** التي قامت في مكة والحجاز قبل الإسلام ـ وحارت في مدلولها الأخبار والآثار ـ كانت حركة « نصرانية » ، من اسم أهلها النصارى « الحنفاء » . فكانت الحركة الأولى التي أطلقها بين العرب النصارى من بني إسرائيل، عند هجرتهم إلى مكة والحجاز. والحركة الثانية كانت الإسلام « النصراني » قبل القرآن : « هو سمّاكم المسلمين من قبل، وفي هذا » القرآن (الحج ٧٨). وكانت الحركة الثالثة الدعوة القرآنية : « وأمرت أن أكون من المسلمين » (النمل ٩٠)، أي النصارى أهل الإسلام « الحنيف » .

فبدخول عبد المطلب الثاني، جد محمد، الحركة الحنيفية، تكون « النصرانية » قد غزت بيت « رئاسة قريش » كما يسميها ابن خلدون؛ **ويكون محمد قد ولد في بيت « نصراني » ، في زعامة الدين والدنيا.**

وكانت السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد، ابنة عم ورقة بن نوفل بن أسد : « سيدة نساء قريش » ، « امراة تاجرة ذات شرف ومال » ، « أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهنّ شرفاً، وأكثرهنّ مالاً » ، « تعدل تجارتها تجارة قريش[1] » . ونعرف من قرابتها لابن عمها قس مكة، ومن قبولها الزواج من محمد، بناءً على إشارة القس، ومن استفتاءاتها لأئمة « النصارى » ، بحيرى وورقة وعداس، دون سواهم من العالمين، أنها كانت « نصرانية » على مذهب ابن عمها، قس مكة.

فبورقة، وعبد المطلب، جد محمد، والسيدة خديجة، **اجتمعت الرئاسة الدينية، والمدنية، والتجارية بمكة « للنصرانية » .** وكان محمد في كنف خديجة، وجوار ورقة, يتهيّأ لوراثة تلك الرئاسة كلها.

*

ثانياً : « نصرانية » محمد في سيرته، قبل بعثته

تقسم سيرة النبي العربي قبل بعثته إلى ثلاث مراحل : صلته في صباه بقس مكة ورقة بن نوفل، وبالراهب الأكبر بحيرى في بصرى، « وصي عيسى على دينه » ؛ ثم زواجه من خديجة، « سيدة نساء قريش » بإيعاز من قس مكة ابن عمها، وبإشرافه؛ أخيراً حياة محمد في « التحنّف » وفي « الدرس » ، في كنف خديجة، وجوار ورقة مترجم الإنجيل النصراني من العبرية إلى العربية.

آية وحيدة في القرآن توجز نشأة محمد : « ألم يجدك يتيماً فآوى؟ ووجدك ضالاً فهدى؛ ووجدك عائلاً فأغنى » (الضحى ٦ ـ ٨). والإجماع على أن الإيواء في اليتم كان عند جده عبد المطلب؛ والإثراء بعد فقر كان بزواجه من خديجة،

---

(١) السيرة لابن هشام ١ : ١٩٩ و ٢٠١ ؛ كذلك السيرة المكية، والحلبية.

ثرية مكة. وكان « الهدى » قبل زواجه، أي في صباه. وهنا يكمن سرّ من أسرار السيرة النبوية : **فما معنى « الهدى » في الصبا؟**

١ـ المرحلة الأولى : « الهدى » في الصبا

١) والدا محمد كانا مؤمنين

« قال الفخر الرازي في تفسيره[1] : (إن أبوي النبي ص **كانا على الحنيفية**، دين إبراهيم عليه السلام، كما كان زيد بن عمرو بن نفيل وأضرابه ... وقال تعالى « إنما المشركون نجس » ، فوجب أن لا يكون أحد من أجداده مشركاً) . وقد ارتضى كلامه هذا أئمة محققون، منهم العلامة المحقق، السنوسي، والتلمساني محشيّ (الشفاء)، فقالا : « لم يتقدم لوالديه ص شرك؛ وكانا مسلمين؛ لأنه ص انتقل من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، ولا يكون ذلك إلا مع الإيمان بالله تعالى). وما نقله المؤرخون قلة حياء وأدب. وهذا لازم في جميع الآباء. وقد أيّد الجلال السيوطي كلام الفخر الرازي بأدلة كثيرة، وألف في ذلك رسائل » . فعند أهل السيرة والمفسرين والمتكلمين كان والدا محمد، مثل جده عبد المطلب الثاني، على الحنيفية المسلمة أي على « النصرانية » ؛ فإنه ليس من إسلام قرآني قبل القرآن.

٢) كفالة عبد المطلب لليتيم محمد

وبالإجماع إن عبد الله، والد محمد، توفي قبل مولد ابنه؛ وأن جده عبد المطلب صاحب ولاية الكعبة، ورئاسة قريش، هو الذي كفله. « **والأكثرون أنه كان على الحنيفية**[2] » ، نصرانية ورقة بن نوفل، قس مكة.

وكان أول عمل للكفيل الكبير أنه **ختن حفيده** في اليوم الثامن، على عادة

---

(١) قابل السيرة المكية، بهامش الحلبية ١ : ٧٠ ـ ٧١ .
(٢) السيرة الحلبية ١ : ١١٧ .

النصارى من بني إسرائيل، الذين كانوا يمارسون الختان والعماد معاً، أمة وسط بين اليهودية والمسيحية.

« ومن الموافقات الجميلة أن يُلهم عبد المطلب تسمية حفيده (محمداً). سمّاه كذلك بعد ما ختنه في اليوم السابع[1] » . وهذا كما جاء في الإنجيل : « ولما تمت الأيام الثمانية لختانة الصبي، سُمّي يسوع، على حسب ما سماه الملاك قبل أن يحبل به » (لوقا ٢ : ٢١).

وكان العمل الثاني أنه وجد له **حاضنة نصرانية** اسمها « **بركة الحبشية** » وتدعى « أم أيمن » ، ورثها محمد من أبيه عبد الله. واسمها « بركة » مسيحي؛ وصفتها « الحبشية » تدل على أنها مسيحية. فكان محمد طفلاً في حضانة مسيحية.

٣) الهدى في الصبا

هناك ثلاث روايات عن حادث جرى لمحمد في صباه، تفسرها جميعاً كلمة القرآن : « وجدك ضالاً فهدى » (الضحى ٧). رواية أولى في « شق الصدر » وهو ابن خمس سنين: عن أنس أنه أتاه جبريل وهو يلعب بين الغلمان، فأخذه، فشق صدره، فاستخرج منه علقة، فقال : هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه. رواية متواترة في الحديث يوردها الخازن عند تفسير قوله : « ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك » (الشرح ١ -٣). لقد جسّموا ما جاء مجازاً في القرآن والحديث عن تطهير محمد من الإثم في صباه، وبما أنه لا معجزة في سيرة محمد سوى القرآن، فما معنى رواية شق الصدر وتطهير محمد من الإثم؟

رواية ثانية[2] تقول بأن أمه آمنة ذهبت بمحمد إلى يثرب « لزيارة أخواله » أي أخوال جدّه من بني النجار؛ وربما لزيارة قبر زوجها عبد الله. فمكثت به

---

(١) محمد الغزالي : فقه السيرة ص ٦١.
(٢) السيرة الهاشمية ١ : ١٧٧؛ والمكية بهامش الحلبية ١ : ٧٢.

شـهراً بينهم. ولما قفلت راجعةً به إلى مكة ماتت ودفنت في الأبواء، محل بين مكـة والمدينـة. « وكانت معها بركة الحبشية، أم أيمن التي ورثها من أبيه عبد الله. فحضـنته وجـاءت بـه إلـى جده عبد المطلب » . وهكذا كان محمد ابن خمس سنوات لما فقد أمه أيضاً. وحاضنته المسيحية هـي التي رجعت به بعد زمن الرضاعة وبعد الزيارة ليثرب، إلى مكة، إلى جده عبد المطلب.

رواية ثالثة عن ابن هشام (١ : ١٧٦) تقول : « قال ابن إسحاق : وزعم النـاس فـي مـا يتحدثون ـ والله أعلم أن أمه السعدية (مرضـعه) لمـا قدمت بـه مكـة، أضـلها فـي النـاس، وهـي مقبلة به نحو أهله. فالتمسته فلم تجده. فأتت عبد المطلب فقالت له : إني قدمت بمحمد هذه الليلة. فلما كنت بأعلى مكة أضلني فوالله ما أدري أين هو. فقام عبد المطلب عند الكعبـة يدعو الله أن يرده. فيزعمون **أنـه وجده ورقـة بـن نوفـل**، بـن أسـد، ورجـل آخـر مـن قـريش، فأتيـا بـه عبـد المطلب. فقالا له : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة. فأخذه عبد المطلب على عنقه، وهو يطـوّف بـه الكعبة، يتعوذه ويدعو لـه. ثم أرسل بـه إلـى أمـه آمنـة » . إن الانتحـال ظـاهر علـى الروايـة كمـا يشعر ابن إسحاق ناقلها : فما الداعي أن يبقى طفلاً مع مرضعه خمس سنين؟ وكيـف تطيـق أمـه فراق وحيدها اليتيم طوال هذه المدة؟ إن هـذه الروايـة الثالثـة تحريـف للثانيـة. إن أم أيمـن، بركـة الحبشية، هي التي رجعت إلى مكة بمحمد. وهنا تستقيم الرواية.

فجاءت الحاضنة المسيحية بمحمد الصبي إلـى ورقـة بـن نوفـل، قس مكـة، وهـو بمعبده ومنسكه في حراء **فعمّده بماء زمزم**. وهذا معنى أسطورة « شق الصـدر » لوضـع الـوزر الـذي ينقض الظهر عن محمد. ولا معنـى « للهدى » فـي صـباه، فـي قولـه « ووجدك ضـالاً فهدى » (الضحى ٧) إلا الهداية بالعماد والتنصير، كما يرشح من واقع الحال. قد يكون لقاء ورقة لمحمد أمراً طارئاً. وقد يكون مقصوداً. فما يعمل القس بمكان تعبده بأعلى مكة؟ وكيف يفلت محمد مـن حاضنته ويضيع؟ والغسل لتطهير الصدر بماء زمزم؟ وما معنى وقوف عبد المطلب « يدعو الله أن

يرده » ؟ ولما تسلمه من القس أخذ يطوف به حول الكعبة، بيت الله، على عادة أهل الإنجيل إلى اليوم، حيث يطوف الكاهن المعمِّد مع الكفيل يحمل المعمود في الكنيسة. أنه طواف العماد والتنصير الذي يفسّر قوله : « وجدك ضالاً فهدى » ؛ وقوله : « ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك » . هذا هو « الهدى » في الصبا، لا هدى سواه، مهما خرّج المتخرصون.

٤) الحج إلى الإمام الأكبر، « وصي عيسى على دينه » .

توفي زعيم الكعبة ومكة، عبد المطلب، جد محمد، والصبي له من العمر ثماني سنوات. وبوفاته فُتح الصراع من جديد بين بني هاشم وبني أمية على الزعامة؛ وهذا الصراع لن ينتهي إلا بالإسلام.

فكان محمد في كفالة عمه أبي طالب، « وذلك لأن عبد الله، أب رسول الله ص وأبا طالب أخوان لأم وأب » . « ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، ضمه إلى ولده وقدّمه عليهم، واختصه بفضل احترام وتقدير. وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله »[٢] .

وهذه العناية الرحيمة تفترض أن محمداً تلقى **الثقافة الواسعة** التي حظي بها تربه علي بن أبي طالب؛ وما أمية محمد سوى أسطورة لغاية عقائدية.

وفي سن الثانية عشرة تقريباً، أي سنّ التكليف بحسب الشرع التوراتي الذي يقيم أحكامه مع الإنجيل النصارى من بني إسرائيل حجّ الفتى محمد مع عمه أبي طالب إلى الإمام الأكبر، بحيرى في بصرى، وهو « وصي عيسى على دينه » . ونرى في ذلك امتثالاً لمثل السيد المسيح بحجه في الثانية عشرة إلى بيت الله في أورشليم (لوقا ٢ : ٤٢). لكن أهل السيرة جعلوا الحج تجارة إلى الشام. وما كان الحج يتنافى مع التجارة. وما شأن فتى في التجارة؟

---

(١) ابن هشام ١ : ١٨٩.
(٢) محمد الغزالي : فقه السيرة ٦٧.

قال ابن هشام (١ : ١٩٠ ـ ١٩٤) : لما كان محمد ابن تسع سنين ـ وقيل اثنتي عشرة، وقيل غير ذلك ـ خرج به عمه أبو طالب في ركب تاجراً إلى الشام. « فلما نزل الركب بصرى، من أرض الشام، وبها راهب يقال له بحيرى، في صومعة له. **وكان إليه علم النصرانية.** ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب إليه يصير علمهم، **عن كتاب فيها**، فيما يزعمون، يتوارثونه كابراً عن كابر » . ويستفسر الراهب الإمام عن الفتى محمد، ويقول فيه القول الجميل، وينصح بحيرى أبا طالب : « ارجع بابن أخيك هذا، **واحذر عليه يهود**، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنّه شراً، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم : فأسرع به إلى بلاده » .

هذه الرواية الأولى تدل على أن بحيرى كان بطريرك « النصارى » الذي « كان إليه علم النصرانية » . وهذا قول غريب، متى عرفنا أن بصرى كانت كلها مسيحية، وأسقفها رئيس أساقفة حوران، على خمس وعشرين أسقفاً، ما عدا الكهنة والرهبان. وكان يشترك في المجامع الإقليمية والمسكونية. فقول ابن هشام أن بحيرى « كان إليه علم النصرانية؛ ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب يصير إليه علمهم » هو دليل على أنها صومعة « نصرانية » منفردة في بيئة كلها مسيحية؛ ودليل أيضاً على أنها مركز الإمام الأكبر « للنصارى » . وانفرادها في بيئة مسيحية على مشارف الشام إشارة إلى انسحاب النصارى من بني إسرائيل من ديار الشام إلى الحجاز. وإن اقتصار زيارة أبي طالب والفتى محمد على تلك الصومعة « النصرانية » من دون سائر الأديرة والمراكز الدينية، ومن دون سائر الأساقفة والرهبان **هو برهان على انتساب أبي طالب ومحمد إلى مذهب بحيرى « النصراني »** . واعتماد الإمام الأكبر في « علم النصرانية » الذي ينتهي إليه ـ كأنه بابا تلك الأيام، في الفاتيكان ـ « على كتاب يتوارثونه كابراً عن كابر » ، هو إشارة واضحة إلى (إنجيل النصارى)، الإنجيل بحسب متى في لغته السريانية وحرفه العبراني، الذي كانوا يقبلونه وحده من دون غيره من الأناجيل الصحيحة؛ وهو عين الإنجيل الذي كان يترجمه القس ورقة بمكة.

فظروف الحال تدل على أن الزيارة لم تكن للتجارة؛ إنما هي حج في سن التكليف، بمناسبة تجارة إلى الشام. إذ ما معنى وجود فتى في سن محمد، في تجارة إلى الشام؟ وما معنى الاقتصار في الزيارة على صومعة بحيرى؟ إنها زيارة مقصودة للحج لما بلغ سن التكليف بحسب شرعهم. وتوصية بحيرى لأبي طالب أن يحذر اليهود على محمد، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، لا معنى له إلا اصطفاء الفتى « لِشأن عظيم » بسبب نجابته، وحضانة جده زعيم مكة له. وذلك « الشأن العظيم » لم يكن نبوءة بنبوءة محمد بعد ثلاثين سنة؛ فإن بحيرى لم يكن نبياً ليعرف غيب المستقبل. إنه الاصطفاء منذ الآن لرئاسة النصارى بعد بحيرى.

وفي رواية ثانية يتطور الواقع إلى الأسطورة، كما في السيرة الحلبية (١ : ١٣٠ ـ ١٣١). فيمر الفتى محمد بديرين ويسمع من راهبين البشائر بنبوته : « لأن وجهه وجه نبي، وعينه عين نبي » ! « فلما نزل الركب بصرى، وبها راهب يقال له (بحيرى) ـ وقيل (جرجيس)، وقيل (سرجيس)؛ وحينئذ يكون بحيرى لقبه ـ **وكان انتهى إليه علم النصرانية**، أي لأن تلك الصومعة كانت تكون لمن ينتهي إليه علم النصرانية، يتوارثونها كابراً عن كابر، **أوصياء عيسى عليه السلام**. في تلك المدة انتهى علم النصرانية إلى بحيرى. وقيل : كان بحيرى من أحبار يهود تيماء. أقول : لا منافاة، لأنه يجوز أن يكون **تنصر بعد أن كان يهودياً**، كما وقع لورقة بن نوفل كما سيأتي » . ثم يتنبأ بحيرى صراحة بنبوءة محمد، ويوصي أبا طالب بالحذر عليه من اليهود.

لا يعنينا تضخم الأسطورة. إنما نكتفي بالإشارة إلى صفة بحيرى، فقد كان « وصيّ عيسى على دينه » ؛ لذلك « انتهى إليه علم النصرانية » . وكان شيخاً يطلب خليفة له من بيت الرئاسة بمكة، فوجده في الفتى محمد، « ابن الذبيحين » . فاعتبر القوم اصطفاء محمد لهذا « الشأن العظيم » نبوءة من بحيرى.

ونلاحظ خبطهم في وصف بحيرى ومثله ورقة « **أن يكون تنصّر بعد أن**

كان يهودياً » . إن النصارى من بني إسرائيل قد ذابوا في الإسلام الذي أقاموه بزعامة محمد؛ وكان خبرهم قد عشي عند وضع السيرة. لذلك خبطوا في صفة بحيرى وورقة خبط عشواء : ولو عرفوا اسم « نصارى من بني إسرائيل » لما فعلوا. وفي زمنهم لم يعرفوا بني إسرائيل إلا يهوداً فقط. ولو فطنوا إلى آية القرآن « فآمنت طائفة من بني إسرائيل (بالمسيح) وكفرت طائفة » (الصف ١٤)، لما عثروا. فالقرآن، مثل نبيّه منذ صباه، ينتسب إلى « النصرانية » الإسرائيلية، التي تقيم التوراة والإنجيل ديناً واحداً (المائدة ٧١؛ الشورى ١٣)؛ كما يطلب القرآن نفسه (المائدة ٧١).

والكلمة الحاسمة أن بحيرى كان يومئذٍ « **وصي عيسى على دينه** » : فزيارة محمد الفتى له كانت حجاً إلى الإمام الأكبر « للنصرانية » ؛ **وفي هذه الحجة تقرر مصير محمد**، في قول بحيرى عنه : « سيكون نبي هذه الأمة » كما ترجموا الحادث من بعد. وسنرى بعد اثنتي عشرة سنة أخرى قس مكة يقول لابنة عمه خديجة التي تستفتيه في زواجها من محمد، أن افعلي لأنه « سيكون نبي هذه الأمة » . فذهبت **كلمة السر** في مصير محمد.

٥) محمد الفتى يستمع في عكاظ إلى القس ابن ساعدة ويحفظ له.

بعد أربعين أو خمسين سنة، في عام الوفود، سيؤمّ وفد من بكر بن وائل المدينة لمبايعة النبي. فيسألهم عن القس ابن ساعدة، ويذكر لهم كيف كان يشاهده في عكاظ ويستمع له بانشراح. وقد حفظ له بعد خمسين سنة من أقواله. ويقول : « هذا رجل من إياد تحنّف في الجاهلية[1] » .

وابن ساعدة، الذي اختلف الناس في شخصيته، كان قساً « نصرانياً » ، كما يدل عليه لقبه : « القس ابن ساعدة » . وصورته يخطب متوكئاً على عصا،

---

(١) طبقات ابن سعد ١ : ٢ / ٥٥.

والصليب على صدره، تدل على أنه كان أسقفاً، بلغة الروم[1] . واقتحام سوق الحج والأدب يدل على جرأة نادرة عنده، ساعده عليها وجود بني مذهبه في مكة. وقول الرسول أنه « تحنّف في الجاهلية » يعني أنه كان نصرانياً.

واستماع محمد إليه، وهو فتى، والحفظ عنه بعد خمسين أو أربعين سنة، يدل مع القرائن التي تتجمع لدينا، على مذهب فتى قريش منذ صباه. فكان همه في حفظ دينه، أكثر من اهتمامه برعاية الأنعام.

*

٢ـ المرحلة الثانية : زواج محمد من خديجة « لأنه سيكون نبي هذه الأمة »

لما بلغ محمد الخامسة والعشرين نصحه عمه أبو طالب بالعمل في تجارة السيدة خديجة، ابنة عم قس مكة، ورقة بن نوفل؛ وكانت تجارتها « تعدل نصف تجارة قريش » . وقد أخذت السيدة خديجة المبادرة : « وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم (أي تقارضهم) إياه بشيء تجعله لهم. وكانت قريش قوماً تجاراً. فلما بلغها عن رسول الله ص ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، **بعثت إليه فعرضت عليه** أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة. فقبله رسول الله ص منها. وخرج في مالها، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام[2] » .

وتتم السيرة الحلبية[3] القصة على هذا الوجه : « فلما قدم ص الشام **نزل في سوق بصرى،** في ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا (بالقصر).

---

(١) هذا بخلاف ما قلنا عنه في كتابنا : القرآن والكتاب، القسم الأول ص ١٢٩.
(٢) ابن هشام ١ : ١٩٩.
(٣) السيرة الحلبية ١ : ١٤٧.

فاطلع الراهب إلى ميسرة، **وكان يعرفه**، فقال : يا ميسرة، من هذا الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال ميسرة : رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي[١] .

فأصحاب السيرة يجعلون كل الرهبان أنبياء يتنبأون بمصير محمد النبوي! هذا لا يعنينا, إنما يعنينا الخبر نفسه.

ولا يعنينا أيضا التخريج الغريب لمذهب نسطور، في السيرة الحلبية : « ولعل نسطوراً هذا هو الذي تنسب إليه النسطورية من النصارى. فإن النصارى **افترقت ثلاث فرق :** نسطورية قالوا : عيسى ابن الله؛ ويعقوبية قالوا : عيسى هو الله عزّ وجلّ هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء؛ وملكانية قالوا : عيسى عبد الله ونبيه. زاد بعضهم **فرقة رابعة إسرائيلية** قالوا : هو إله وأمه إله والله إله. وفي (القاموس) : النسطورية (بالضم والفتح) أمة من النصارى تخالف بقيتهم، وهم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في أيام المأمون. وتصرّف بالإنجيل برأيه، وقال : إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة. وهو بالرومية نسطورس » ـ هذا التخريج مليء بالأغلاط التاريخية والكلامية : فنسطور المذكور لم يظهر في أيام المأمون، بل في القرن الخامس، وقد حرم بدعته مجمع أفسس عام ٤٣١ .والفرق الثلاث في المسيحية، النسطورية واليعقوبية والملكانية، كلها تؤمن بإلهية المسيح وبنوته لله، لكن بتفسير كلامي مختلف؛ وبالله الواحد الأحد في أقانيمه الثلاثة، الآب والابن والروح القدس أي الله وكلمته وروحه. وخطأه الأكبر في وصف الملكانية. فتخبط (القاموس) ليس بأقل من تخبط السيرة في العقيدة المسيحية.

إنما يعنينا منه أولاً اللقطة التاريخية الثمينة في السيرة : « زاد بعضهم فرقة رابعة، **الإسرائيلية؛** قالوا : هو إله وأمه إله والله إله » . فطالما عرفوها لماذا لم يروا فيها تكفير القرآن : « أأنت قلت للناس : اتخذوني وأمي إلهين من دون

---

(١) وعند السهيلي في (الروض الأنف) : « ما نزل تحت هذه الشجرة الساعة إلا نبي » .

الله » (المائدة ١١٩). وهي مقالة بعض النصارى من بني إسرائيل الذين يعتبرون « الروح » أي « الروح القدس » أنثى كانت أماً للمسيح بطريقة معجزة، صيغها في قول القرآن : « والتي أحصنت فرجها **فنفخنا فيها** من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » (الأنبياء ٩١): « ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها **فنفخنا فيه** من روحنا » (التحريم ١٢). فالتثليث عند « الإسرائيلية » تعبير لا عقيدة : فالمسيح وأمه مخلوقان لله. فردّ القرآن على منحرفي « الإسرائيلية » بمقالة الإسرائيلية الصحيحة (المائدة ١١٩). فوجود الفرقة الإسرائيلية هو الشهادة التاريخية على ما يسمى « النصارى من بني إسرائيل » القائمين في عهد الفترة وذابوا في الدعوة القرآنية.

ثانياً ترديد نسطور « النصراني » الإسرائيلي لمقالة بحيرى، وإمامهم الأكبر، في نبوءة محمد. وقول السيرة : « فأطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه » يدل على أن غلام خديجة كان يتردد في كل رحلة، باسم خديجة، على صومعة بحيرى، وصي عيسى على دينه، ويكلم أحد الرهبان من حولها، فيقوم بالسفارة بين ثرية مكة والإمام الأكبر. وهذه المرة ينقل لها مقالة أهل الدير في نبوءة محمد، فتسرع إلى الزواج منه، بالتفاهم مع قس مكة، ابن عمها.

« وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى ـ **وكان ابن عمها، وكان نصرانياً** قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ـ **ما ذكر لها غلامها ميسرة** من قول الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملاكان يظلّلانه. فقال ورقة : لئن كان هذا حقاً، يا خديجة، **إن محمداً لنبي هذه الأمة**. وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، هذا زمانه[١] ». هكذا أَطلع ورقة خديجة على كلمة السر بشأن محمد. فما كان كل هؤلاء الرهبان من بحيرى إلى ورقة إلى نسطور ليعرفوا غيب السماء قبل خمسة عشر عاماً!

---

(١) السيرة لابن هشام ١ : ٢٠٣.

فأرسلت خديجة للحال إحدى وصيفاتها، نفيسة، سفيرة إلى محمد. « فأرسلتني دسيساً (أي خفية) إلى محمد ص بعد أن رجع في عيرها من الشام. فقلت : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال : ما بيدي ما أتزوج به! قلت : فإن كفيت ذلك، ودعيتَ إلى **المال والجمال والشرف والكفاية**، ألا تجيب؟ قال : فمن هي؟ قلتُ : خديجة! وكيف لي بذلك؟ قلت : بلى، وأنا أفعل. فذهبت فاخبرتها فأرسلت إليه : أنِ ائت الساعة[١] » .

هكذا باشرت خديجة تطبيق المخطط المرسوم.

« إن خديجة طلبت من محمد ص الحضور إليها، وذلك قبل أن يتزوجها ... فلما جاء ص إلى خديجة أخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها. ثم قالت : بأبي أنت وأمي، والله ما أفعل هذا لشيء، ولكني أرجو أن تكون **أنت النبي الذي سيبعث**. فإن تكن هو، فاعرف حقي ومنزلتي، وادع الله الذي سيبعثك لي. فقال لها : والله لئن كنت أنا هو، **لقد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبداً**؛ وإن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً[٢] » .

وهكذا دخل محمد في مخطط « رئيس النصارى » بمكة، القس ورقة بن نوفل، وابنة عمه خديجة التي « كانت حينئذٍ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً[٣] » ؛ ودخل في نفسه من حديث قس مكة وحديث « سيدة نساء قريش » ما دخلها من حديث النبوة المعد لها، قبل خمسة عشر عاماً من مبعثه.

وتختلف الروايات في من خطب خديجة لمحمد، من أعمامه : أهو أبو طالب، أم حمزة؛ وفي من كان وليّ خديجة في عقد النكاح : أهو أبوها ـ لكنه كان قد مات ـ أم عمها عمرو بن أسد، أم أخوها عمرو بن خويلد. وهناك رواية تقول

---

(١) السيرة الحلبية ١ : ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٢) السيرة الحلبية ١ : ١٥٥.
(٣) السيرة الحلبية : ١ : ١٥٤ ـ ١٥٥ .

بأن **وليها في زواجها** كان ورقة بن نوفل نفسه، وهذا القول أقرب إلى منطق الأحداث، ويقوم على صفة ورقة، قس مكة، في عقد النكاح « النصراني » أمام رجل الدين.

وتنقل لنا السيرة الحلبية الخطب المتبادلة في هذه المناسبة بين أبي طالب وبين ورقة، أي بين الطالب والولي : « إن أبا طالب خطب يومئذٍ فقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئي معَدٌ، وعنصر مضر؛ وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه؛ وجعله لنا بيتاً محجوباً، وحرماً آمناً؛ وجعلنا أحكام الناس. ثم إن ابن أخي هذا، محمد بن عبد الله، لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً. وإن كان المال، قل : إن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة. وهو، والله، بعد هذا له **نبأ عظيم وخطر جليل.** وقد خطب إليكم، رغبة في كريمتكم خديجة) ... وبعد أن خطب أبو طالب بما تقدم، خطب ورقة فقال : (الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت. **فنحن سادة العرب وقادتها،** وأنتم أهل ذلك كله، لا ينكر العرب فضلكم، ولا يردّ أحد من الناس فخركم وشرفكم. ورغبتنا الاتصال بحبلكم وشرفكم. فاشهدوا عليّ معاشر قريش : إني قد أزوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله) : فقال أبو طالب : (قد أحببت أن يشركك عمك). فقال عمها : (اشهدوا عليّ معاشر قريش : إني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد) ... » .

لا نعلق على الصحة التاريخية في الرواية؛ لكنها تظهر موافقة لواقع الحال.

يعنينا فيها **أولاً** مقام القس وابنة عمه بمكة : « نحن سادة العرب وقادتها » . والدور الذي يلعبه القس في عقد النكاح : إنه وليّ العقد كما يفعل كل رجل دين نصراني أو مسيحي. فهو الذي خطط لزواج محمد من خديجة، وهو الذي يشرف على التنفيذ، لأجل تهيئة محمد للدور العظيم الذي ينتظره، ولتهيئته الأسباب له في كنف الثرية العظيمة والقس الحكيم.

ونذكر **ثانياً** كلمة العم أبي طالب، ولي محمد في نكاحه : « وهو والله بعد هذا له **نبأ عظيم وشأن خطير** » . لم يكن أبو طالب يعلم الغيب ليعرف مصير ابن أخيه؛ فيظهر أنه دخل هو أيضاً في مخطط الإمام الأكبر وقس مكة، منذ الاصطفاء في سن الثانية عشرة حتى مرحلة بدء التنفيذ في سن الخامسة والعشرين. إن القوم، كما تدل جميع السير، **يهيئون محمداً تهيئة متواصلة لمقام النبوة**، وذلك خمسة عشر عاماً قبل مبعثه، ورؤيا ملاك الوحي في غار حراء.

ونرى **ثالثاً** أن السيدة خديجة، « سيدة نساء قريش » ، وثرية مكة، قد انقادت هي أيضاً لمخطط رؤساء دينها، ورضيت أن تكون زوجاً بمالها وجمالها لمن « سيكون نبي هذه الأمة » ، وهي تكبره بخمس عشرة سنة، وكانت تحت أبي هالة بن زارة، فلما توفّي تزوجها عتيق بن عابد المخزومي ومات، فتزوجها محمد فكان زوجها الثالث. إنه زواج مصلحة مدروس.

ففي هذا الزواج يقول القرآن : « ووجدك عائلاً فأغنى » (الضحى ٨). بهذا الزواج المدروس جاءه الغنى والجمال، والجاه والسلطان، **وصار أهلاً لأن ينتزع زعامة مكة** التي كانت لجده بعد المطلب. لقد أصبح في كنف « سيدة نساء قريش » ، وفي جوار ورقة ابن عمها قس مكة، **أقوى شخصية في مكة**، والحامي الأكبر « للنصارى » فيها وفي الحجاز كله.

والنتيجة الحاسمة لواقع الحال في هذا الزواج، كما يدل إجماع السير، إن البيئة كلها « نصرانية » . ألا يظهر من منطق الأحداث كلها، من الحج إلى الإمام الأكبر بحيرى، إلى قيام القس والثرية بتنفيذ رغبته، إن هذا الزواج كان تدبيراً « نصرانياً » محكماً؟ وهل كان قس مكة « النصراني » وسيدة نساء قريش التي تأتمر بأمره، يرضيان بهذا الزواج لو لم يكن محمد مثلهما « نصرانياً » ، وأهلاً لاستلام رئاسة « النصارى » ؟

وقام محمد خمسة عشر عاماً على كلمة السر المكررة بأنه « سيكون نبي هذه الأمة ».

*

٣ـ المرحلة الثالثة : محمد ينتظر في « التحنّف » و « الدرس » ساعة الله

قضى محمد خمسة عشر عاماً، منذ زواجه بخديجة حتى مبعثه، بجوار ورقة بن نوفل، يقوم بكل **مظاهر** « **النصرانية** » **الرهبانية،** من تحنّف ودرس الكتاب، وتعبد وصلاة، وحضور ترجمة الإنجيل.

١) تحنّف محمد مع القس ورقة

إن التحنّف، أو التحنّث، أو التعبّد في الصوم والخلوة، عادة « نصرانية » رهبانية: فالحركة تدور من عبد المطلب إلى حفيده محمد **حول ورقة بن نوفل، قس مكة** « النصراني » ؛ **ونعتها** « **بالتحنف** » يأتي من صفة « النصارى الحنفاء » كما ينعتهم أهل السنّة المسيحية؛ وقيامها في شهر رمضان، قل القرآن، يدل على أن الشهر شهر الصيام عند « النصارى » ، فرمضان شهر صيام « نصراني » قبل أن يكون قرآنياً، فإنه « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » (البقرة ١٨٣).

جاء في السيرة الهاشمية (١ : ١٧٦) على لسان عبد الله بن الزبير : « كان رسول الله ص يجاور في حراء، من كل سنة، شهراً. وكان ذلك مما تحنّث به قريش في الجاهلية ـ والتحنث، التبرّر « كلمة نصرانية » ـ تقول العرب : « التحنّث والتحنف » . وعلى لسان عبيد بن عمير : « فكان رسول الله ص يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين. فإذا قضى ص جواره من ذلك الشهر، كان أول ما يبدأ به، إذا انصرف من جواره، الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً، أو ما شاء الله من ذلك. ثم يرجع إلى بيته. حتى كان الشهر الذي أراد الله تعالى فيه ما أراد من كرامته » .

وتضيف السيرة الحلبية (١ : ٢٥٩) : « وكان ذلك مما تتحنث فيه قريش في الجاهلية ـ أي المتألهون منهم ـ وكان أول من تحنّث فيه من قريش جده ص عبد المطلب. فقد قال ابن الأثير : (أول من تحنّث بحراء عبد المطلب؛ كان

إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين؛ ثم تبعه على ذلك من كان يتألّه ـ أي يتعبد ـ كورقة بن نوفل وأبي أمية بن المغيرة). ولم يصح أنه اختلى أكثر من شهر » .

فواقع الحال في « التحنّف » ، من خلوة وصوم وإطعام المساكين، وذلك في شهر الصيام « النصراني » ، شهر رمضان، يدل على أن محمداً كان « نصرانياً » في صيامه وتحنفه. يؤيد ذلك القيام به أسوة بقس مكة « النصراني » ، ورقة بن نوفل. هذا دليل أول.

وكيفية تعبده تدل على أن محمداً كان « نصرانياً » في تحنّفه. يقول السراج البلقيني، في (شرح البخاري) كما نقلت عنه السيرة المكية والحلبية : « لم يجيء في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفية تعبده ص. وقال بعضهم بإطعام المساكين والانقطاع عن الناس. وقيل : التفكر مع الانقطاع. وقيل : كان تعبده بالذكر. وقيل : كان يتعبد قبل النبوة بشرع إبراهيم؛ وقيل : بشرع موسى » .

نقول : إن التعبّد في الصوم والخلوة، وفي شهر رمضان، ليس من شرع إبراهيم، ولا من شرع موسى؛ إنما هو عادة « نصرانية » ، وبممارسة الخلوة على انفراد عادة رهبانية. نجهل جميعنا شرع إبراهيم، ولم يكن محمد قبل مبعثه نبياً ليعرف شرع إبراهيم. والقول بتعبد محمد على شرع موسى، يجعل محمداً قبل مبعثه على اليهودية، وهذا ما ينقضه القرآن كله. لقد تحنّف على طريقة « النصرانية » . هذا دليل ثانٍ.

واعتماد شهر رمضان، قبل القرآن، للتحنف والصيام، دليل ثالث على « نصرانية » محمد. فعادة الصيام والخلوة في شهر رمضان، لا عهد للعرب بها، ولا لليهود. إنها عادة « نصرانية » أدخلها النصارى معهم إلى مكة، عند هجرتهم إليها؛ وكان يتعبد بها من « تنصّر » معهم. فتحنّف عبد المطلب جدّ محمد، وتحنّف محمد نفسه، على طريقة قس مكة « النصراني » شهادة ثابتة قائمة على

« نصـرانية » محمد وجـده مـن قبلـه. فـالنبي العـربي، بهـذا التحنّـف، « نصـراني »، ابـن « نصراني » ، ابن « نصراني » .

لقد اختلفوا في **كيفيـة تعبده قبل بعثـه**، بين إطعـام المسـاكين، والانقطـاع عن النـاس، والتفكر، والذكر الحكيم. وفاتهم الأساس، الصيام. لقد كان تعبده بهذه جميعاً. وهذه عادة رهبان النصارى في صيامهم. فكان محمد يصوم، مع قس مكة، صيام الرهبان! وهذا دليل رابع على « نصرانيته » .

وطواف محمد بالكعبة سبعاً، بعد جواره شهر رمضان، كطواف النصارى في الأعياد في كنائسهم أو حولها إلى اليوم، كما يشهده الجميع في أحد الشعانين بختام الشهر دليل رابع مزدوج : بما أن محمداً يطوف بالكعبة مثل قس مكة، فهذا برهان على أن **الكعبة لم تكن بيت أوثان** كما يتوهمون ويوهمون، بل كعبة توحيد؛ ورسم صور المسيح ومريم العذراء والملائكة والأنبياء على جدرانها من داخل خير شاهد على أنها **كعبة توحيد إنجيلي**[1] . وطواف محمد بها، أسوة بقس مكة، بعد جواره وصيامه وتعبده، شاهد كذلك على « نصرانية » محمد.

٢) « درس » الكتاب مع القس ورقة

كانت الفترة ما بين زواج محمد من خديجة وبين مبعثه، فترة دراسة للكتاب الإمام، وللكتاب المنير، التوراة والإنجيل. نتحقق ذلك من إشارات القرآن الصريحة. فمنذ السورة الثانية، ولم ينزل من القرآن العربي سوى عشر آيات يتحدّى المشركين المجرمين بالنصارى المسلمين : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟ ما لكم، كيف تحكمون؟! **أم لكم كتاب فيه تدرسون؟** إن لكم فيه لما تخيرون » (القلم ٣٥ ـ ٣٨). فذروة التحدي بالكتاب الذي يدرسه هو، وبذلك يستعلي عليهم.

---

(١) قابل ابن هشام ١ : ٢٠٤؛ والأزرقي في تاريخ مكة، والسهيلي في (الروض الأنف)، والزرقاني في (شرح المواهب اللدنية) بمناسبة فتح مكة، وطمس الصور عليها ما عدا صور المسيح وأمه.

وليس الكتاب واحداً بل جملة. يتحدونه : « ما هذا إلا إفك مفترى » ! « إن هذا إلا سحر مبين » ! فيرد عليهم : « **وما آتيناهم من كتب يدرسونها**، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير » (سبأ ٤٣ ـ ٤٦). فليس القرآن إفكاً مفترى، ولا سحراً مبيناً! إنه « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧). وهو يستعلي عليهم بالكتب التي درسها! وهي « الكتاب والحكم (الحكمة) والنبوة » (٣ : ٧٩؛ ٦ : ٨٩؛ ٤٥ : ١٥)؛ وبتعبير آخر « الكتاب والحكمة » أي التوراة والإنجيل (٢ : ١٢٩؛ ١٥١؛ ٣ : ٧٩، ١٦٤؛ ٦٢ : ٢).

وهو إذ يتلو عليهم آيات القرآن بينات، « وكذلك نصرّف الآيات ـ وليقولوا : **درست!** ـ ولنبيّنه لقوم يعلمون » (الأنعام ١٠٥). فلا يرد الاتهام بل يؤكد الغاية من الدرس الذي درسه : ولنبينه لقوم يعلمون » . فقد نزل الكتاب على طائفتين من قبلهم، وإن كانوا عن دراستهم لغافلين » (الأنعام ١٥٦)، فدرس هو الكتاب الإمام، والكتاب المنير أي الإنجيل، وجاء القرآن العربي « يعلمهم الكتب والحكمة » أي التوراة والإنجيل. فالقضية تعلّم وتعليم.

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (لقمان ٢٠؛ الحج ٨). أما محمد فهو يجادل الناس بعلم وهدى وكتاب منير، « وقد شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » (الأحقاف ١٠).

لقد أصبح محمد بعد خمسة عشر عاماً من درس « العلم والهدى والكتاب المنير » كفوءاً لكي « يعلمهم الكتاب والحكمة » أي التوراة والإنجيل.

٣) وفي الحديث الصحيح عن الشيخين (البخاري ١ ـ ١٨ : ٢٣؛ مسلم ١ : ٩٧ : ٩٨) أن ورقة بن نوفل « كان امرءاً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب » . سنرى تقييم هذه الشهادة. ومضمونها أن القس ورقة كان يترجم (إنجيل النصارى) من حرفه العبراني إلى العربية. وهذا الحديث الصحيح على لسان عائشة، تختمه

بقولها : ((ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي)) . فحزن محمد حتى كاد ينتحر. فهذا الحديث يدل، فيما يدل، على أن محمداً كان يحضر مع أستاذه ترجمة إنجيل النصارى إلى العربية. وحزنه حتى الانتحار يدل على أن القس ورقة كان أستاذه، خصوصاً في (إنجيل النصارى). وهذه شهادة مزدوجة على ((نصرانية)) محمد، وعلى دراسته ((النصرانية)) .

٤) أخيراً كان محمد يداوم في الفترة الاستعدادية على قيام الليل للصلاة وتلاوة آيات الله في كتابه العزيز، سواءٌ في تحنّفه، أو طوال السنة، كما ترى من الأمر له بالقيام على ذلك بعد مبعثه : ((يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ... ورتل القرآن ترتيلاً (المزمل ١ ـ ٤).

لم ينزل من القرآن العربي بعد سوى فاتحة (العلق والقلم)، عشر آيات؛ فليس هو ((بالقرآن)) المعلم المعروف الذي يؤمر بتلاوته في قيام الليل. إنه يتلو في قيام الليل قرآن الكتاب، مثل أستاذه. وقيام الليل وتلاوة آيات الله فيه عادة نصرانية، لا عربية، ولا يهودية : ((ليسوا سواءً : من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون)) (آل عمران ١١٣) وهذه العادة النصرانية الرهبانية هي البرهان القرآني ـ مع غيره كثيراً ـ على ((نصرانية)) محمد في صلاته الليلية وتلاوة كتاب الله فيها.

في تلك المواقف الأربعة المتواصلة مدة خمس عشرة سنة، كان محمد يدرس ((النصرانية)) ويعيشها مع نسيبه وأستاذه قس مكة، ورقة بن نوفل، ينتظر ساعة الله.

جاء في (شرح المواهب اللدنية ١ : ٢٥٩) عن عبد الله بن الزبير : ((إن خديجة كانت تأتي ورقة بما يخبرها رسول الله ص أنه يأتيه)) أي يحصل له في سيرته وتحنفه. فقد كان القس الأستاذ يتتبع تطور محمد في الحياة والدراسة

والتحنّف؛ وكانت ابنة عمه، الزوج الوفية، خير معين له، في توفير الأجواء، وتسقط الأنباء.

فقد كان الثلاثة، القس، والزوج الوفية، ومحمد نفسه، ينتظرون ساعة الله التي فيها محمد « سيكون نبي هذه الأمة » .

* * *

بحث رابع

مبعث محمد، ودور أئمة « النصارى » فيه ـ من وحي الحديث والسيرة

قضى محمد خمسة عشر عاماً، من سن الخامسة والعشرين إلى سن الأربعين، يتمتع مع السيدة خديجة « بالمال والجمال، والشرف والكفاية » ؛ ويأخذ « علم النصرانية » عن قس مكة، ورقة بن نوفل، من ترجمة **الإنجيل العبراني** إلى العربية الذي يذكر الحديث الصحيح، ومن « **الكتاب** الذي يتوارثونه كابراً عن كابر » كما تقول السيرة، ولعله « **المثل** » القرآني الذي تذكره آية (الأحقاف ١٠)، حتى دقت ساعة الله، وقد تهيأت نفسه بالدرس والانعكافات السنوية، مدة شهر الصيام « النصراني » ، في غار حراء، لسماع صوت السماء.

أولاً : « الرؤيا الصالحة في النوم »

أخرج صحيح البخاري (ك ١ باب ١٨ : ٢٣)، وصحيح مسلم (ك ١ باب ٩٧ : ٩٨) في حديث عن عائشة، قالت : « أول ما بدئ به رسول الله من الوحي، الرؤيا الصالحة في النوم. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبّب إليه الخلاء. وكان يخلو بغار حراء، فيتحنّف فيه (يتعبد) الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزح إلى أهله، ويتزود إلى ذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها؛

حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء. فجاءه **الملاك** فقال : اقرأ! قال : **ما أنا بقارئ**[1] **!** قال : فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ! قلت ما أنا بقارئ! قال : فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال : اقرأ! قلت : ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق ...). فرجع بها رسول الله ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة بنت خويلد، فقال : زملوني! زملوني! فزملوه حتى ذهب عنه الروع. ثم قال لخديجة : أي خديجة، **مالي؟** وأخبرها الخبر. ثم قال : **لقد خشيت على نفسي.** فقالت له خديجة : كلاّ، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً : إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتُكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق ... » .

ففي هذا الحديث الصحيح، محمد لا يعلم ما يجري له، ويخشى على نفسه مما رأى، ويفزع إلى خديجة ترجف بوادره، من « الرؤيا الصالحة في النوم » . وكأن القوم خشوا الشبهات على هذه **الرؤيا** الليلية في المنام، فوضعوا رواية أخرى **لرؤية** في وضح النهار، في حديث رواه ابن جرير الطبري عن ابن الزبير :

« قال رسول الله : فجاءني، **وأنا نائم**، بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال : اقرأ! فقلت : ماذا أقرأ؟ ففتني حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال : إقرأ ! فقلت : ماذا أقرأ ؟ ـ **وما أقول ذلك إلا افتداء من أن يعود إليّ بمثل ما صنع بي** ـ قال : (إقرأ باسم ربك الذي خلق) إلى قوله (علم الإنسان ما لم يعلم). قال : فقرأته، ثم انتهى، ثم انصرف عني. وهببت من نومي، وكأنما كتب في قلبي كتاباً. قال (محمد) : ولم يكن من خلق الله أبغض إليّ من شاعر أو مجنون؛ لا تحدّث بها عنّي قريش أبداً؛ لاعمدنّ إلى حالق من الجبل، فلاطرحن

(١) هذه القراءة التي أثبتناها هي من (شرح المواهب) أما القراءة الصحيحة في الأصول والطبري فهي على الاستفهام : « ما أقرأ ؟ » يكررها ثلاثاً. قابل حاشية مصطفى السقا، على سيرة ابن هشام (١ : ٢٥٢ حاشية ٤)، التي تنقل حديث عبيد بن عمير بن قتادة الليثي، بصيغة الاستفهام.

نفسي منه، فلأقتلنها، فلأستريحنّ! قال (محمد) : **فخرجت أريد ذلك**، حتى إذا كنت في وسط الجبل، سمعت صوتاً من السماء يقول : **يا محمد، أنت رسول الله؛ وأنا جبريل.** قال : فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء يقول : (يا محمد، أنت رسول الله؛ وأنا جبريل). قال : فوقفت أنظر إليه، وشغلني ذلك عما أردت، فما أتقدم، وما أتأخر؛ وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك. فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي ولا أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، حتى بلغوا مكة، ورجعوا إليها، وأنا واقف مكاني. ثم انصرف عني. وانصرفت أنا إلى أهلي » .

في رواية ابن الزبير، عند الطبري، رؤية نهارية، بعد رؤيا ليلية، لم يذكرها الحديث الصحيح عند الشيخين : فهي رواية متأخرة موضوعة لدفع الشبهات في رواية الصحيحين؛ وهي تتعارض مع رواية عائشة : عائشة تذكر أن خديجة كانت في مكة يتزود منها إلى عزلته؛ وابن الزبير يقول إنها كانت معه في غار حراء، إذ بعثت رسلها إلى مكة في طلبه؛ ورواية عائشة لا تذكر اسم ملاك الله، بينما رواية ابن الزبير تقص على أنه جبريل، وجبريل لم يذكر القرآن اسمه إلا في المدينة؛ ابن الزبير يذكر سكينة محمد في رؤية النهار، بينما يتفق مع عائشة على هلع محمد في رؤيا الليل حتى فكر بالانتحار! وكيف يقصد الانتحار من الهلع مَن يرى ملاك الله؟ وعند عائشة ليس من وصف للملاك، بينما ابن الزبير يصفه بشراً سويّاً. عائشة تذكر كلام خديجة لتهدّئ من روع محمد؛ بينما ابن الزبير لا يرى حاجة في ذلك، فقد ناب ملاك الله عنها، في الرؤية النهارية. فكل هذه المتناقضات تدل على أن الرؤية النهارية موضوعة.

لكن الروايتين تأتلفان في وصف **صلة محمد بملاك الوحي** بأنها كانت **رؤيا في منام.** وتأخذ معنى رواية عائشة عن محمد : « ما أنا بقارئ » ، من تفسير رواية ابن الزبير: « وما أقول ذلك إلا افتداءً من أن يعود إليَّ بمثل ما صنع بي » .

فلا يصح الاعتماد على رواية « ما أنا بقارئ » ، للقول **بأمية محمد**؛ فالقرآن يشهد له بالدرس والكتابة في معرض تحديه للعرب بدرس الكتاب، وكتابة الغيب منه (القلم ٣٧ و٤٧). ورواية « ما أنا بقارئ » من وضع (شرح المواهب)؛ أما في الأصول بالصحيحين، وعند الطبري، فهي على الاستفهام : « ما أقرأ ؟ » ، « ماذا أقرأ ؟ » .

ونحن نعتقد بصحة الرؤيا، وصحة اتصال محمد بملاك الله، لأنها جاءت في القرآن، وكما جاءت في القرآن.

فالقرآن في كل أخباره عن الوحي والتنزيل يرجع إلى **رؤيا غار حراء الوحيدة**. يصف الرؤيا في سورة (النجم ١ ـ ١٨) حيث يؤكد أنها رؤيا : « ما كذب الفؤاد ما رأى » (١١)؛ وحيث « أوحى إلى عبده ما أوحى » (١٠)؛ وحيث « رأى من آيات ربه الكبرى » (١٨) برؤيا الملاك في المنام.

والقرآن يصرح بما أوحى إليه الملاك في قوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، إنه عليٌّ حكيم : وكذلك **أوحينا إليك روحاً من أمرنا**؛ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان؛ ولكن **جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا**[1] ؛ وإنك لتُهدى إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض؛ ألا إلى الله تصير الأمور » (الشورى ٥١ و٥٢ و٥٣). فكلام الله للبشر على ثلاثة أساليب : إما بالوحي المباشر كما كان مع المسيح؛ وإما بالكلام من وراء حجاب، كما جرى لموسى؛ وإما « يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » ، فيكون **الوحي بالواسطة**، كما جرى لمحمد : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أَمرنا » . وقد فسروا « روحاً » بأنه القرآن لقوله « أوحينا إليك » ؛ وفاتهم أنه « روح **من أمرنا** » أي مخلوق، من عالم الأمر؛ وهذا لا يقبلونه للقرآن. وما استخدم تعبير

---

(١) « لتُهدى » قراءة أصح من قراءة « لتَهدي » ، لأنها تنسجم مع قوله : « نهدي به مَن نشاء من عبادنا » .

« أوحينا » إلا للدلالة على أنَّ « الروح » أتاه في وحي الرؤيا، لا في رؤية؛ « **والرؤيا أدنى طرق الوحي** » كما قال بعضهم.

والإعلان صريح بأن ما أوحى الملاك إلى محمد هو **الهداية إلى الإيمان بالكتاب**، لأنه النور الذي يهدي به الله من يشاء من عباده؛ هذا هو الصراط المستقيم في تدبير الله الذي إليه « تصير الأمور » . وفي السورة عينها يعلن : « شرع لكم من الدين ... ما وصينا به إبراهيم وعيسى وموسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » ؛ وعلى شك أهل الكتاب من اليهود في أمر محمد، يجيب : « فلذلك فادع واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم؛ وقل : **آمنت بما أنزل الله من كتاب**، وأُمرت لأعدل بينكم » (الشورى ١٣ ـ ١٥)، بين اليهود والنصارى من بني إسرائيل، بدعوة « الأمة الوسط » إلى دين موسى وعيسى معاً، بلا تفريق؛ وهي دعوة « أُمرت لأعدل بينكم » فقد جاء « هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذين هم فيه يختلفون » (النمل ٧٦).

هذا هو القرآن الذي نزل عليه في رؤيا غار حراء، في ليلة مباركة، ليلة القدر، من شهر رمضان : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة ... **أمراً من عندنا** : إنا كنا مرسلين » (الدخان ١ ـ ٥)؛ « إنا أنزلناه في ليلة القدر » (القدر ١)؛ « شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن، هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان » (البقرة ١٨٥). فالقرآن الذي نزل في رؤيا غار حراء، كان « أمراً من عندنا : إنا كنا مرسلين » أي الأمر ببعثة محمد للدعوة إلى الإيمان بالكتاب. أما القرآن المكتوب، الذي تلاه محمد مدة ثلاث وعشرين سنة فكان « بينات من الهدى والفرقان » أي من الكتاب وفرقانه أي تفسيره، الذي بهما شرع للعرب دين موسى وعيسى معاً بلا تفريق، على طريقة « أولي العلم قائماً بالقسط »

الذين يشهدون مع الله وملائكته « إن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٨ ـ ١٩)، وهم النصارى من بني إسرائيل، بإمامة قس مكة، ورقة بن نوفل.

والقرآن المكتوب يؤكد مراراً وتكراراً بأن القرآن المنزل في رؤيا غار حراء، في ليلة مباركة، هي ليلة القدر، من شهر رمضان، شهر الصيام « النصراني » عند العرب قبل الإسلام، كان هذا الأمر إلى محمد بالإيمان بالكتاب والدعوة له، ليعدل بين اليهودية والمسيحية بدعوة « الأمة الوسط » إلى دين موسى وعيسى ديناً واحداً. يصرّح : **إنما أمرت** أن أعبد رب هذه البلدة، **وأمرت** أن أكون من المسلمين » (النحل ٩٠ ـ٩١) الموجودين بمكة من قبله؛ « وأمرت أن أكون من المؤمنين » (يونس ١٠٤) المقيمين بمكة من قبله. **بل يصرح بأنه أُمر باستلام السلطة على المسلمين المذكورين :** « قل : إني أمرت أن أعبد مخلصاً له الدين، وأمرت لأن أكون **أول المسلمين** » (الزمر ١١ ـ ١٢)، ومن الواضح أنها ليست أولية زمانية، بل بالمنزلة : وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (الأنعام ١٦٣)، « قل : إني أُمرت أن أكون أول من أسلم » (الأنعام ١٤). أخيراً يعلن بأنه أُمر أن يستقيم على الدعوة لدين موسى وعيسى معاً ديناً واحداً يشرعه للعرب · وهذا هو الإسلام القرآني « النصراني » : فلذلك فادع واستقم كما أُمرت، ولا تتبع أهواءهم » ، أهواء أهل الكتاب من يهود ومسيحيين، وأهواء المشركين (الشورى ١٥). لذلك « فلا تكُ في مرية مما يعبد هؤلاء » المشركون؛ « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا » (اليهود)؛ « واصبر فإن الله لا يضيّع أجر المحسنين » من النصارى، البقية الناجية « من القرون من قبلكم ـ ممن أنجينا منهم، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه » : « فاستقم كما أُمرت ومَن تاب معك » من العرب (هود ١١٠ و١١٤ و١١٧ و١١٣). وهكذا فما القرآن إلا تفصيل الأمر الذي أُوحي إليه في رؤيا غار حراء؛ فالقرآن المتلوّ المكتوب **ليس إلا خبراً** يفصّل قرآن غار حراء، الأمر بالإيمان بالكتاب على طريقة « المسلمين » من قبله، ليشرع للعرب دين موسى وعيسى معاً.

وفي هذه الاستقامة على « النصرانية » سرّ مقاومة أهل مكة للدعوة القرآنية، **التي تشرع لهم دين أقليّة « نصرانية »** (هود ١١٧) لا تحميها دولة كبرى كالفرس لليهود، والروم للمسيحيين؛ لذلك « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » (الشورى ١٣)؛ لأنه « إنْ نتّبع الهدى معك نُتخطّف من أرضنا » (القصص ٥٧)؛ فموقف أهل مكة المشركين ليس دينياً ضد التوحيد؛ إنما هو على الأصح سياسي خوفاً من الجبارين المتخاصمين والمتحفزين دائماً لاحتلال الجزيرة؛ وفي عقلية الناس كلهم حينئذٍ أن الدين والدولة واحد، والناس على دين ملوكهم.

وفي تلك الاستقامة على « النصرانية » التي أُمر بها (النمل ٩٠) سر مقاومة أهل الكتاب من يهود ومسيحيين في الحجاز. لذلك كان في مكة يتوعدهم (مريم ٣٧؛ الزخرف ٦٥)، لكنه يهادنهم حتى تقوى حركته : « وأمرتُ لأعدل بينكم؛ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم؛ **لا حجة بيننا وبينكم** (أي خصومة)؛ الله يجمع بيننا وإليه المصير » (الشورى ١٥). وفي المدينة، مع تشريع الجهاد، تنجلي خطة « الأمة الوسط » بين اليهودية والمسيحية، بكسر شوكة العرب المشركين، وتهجير اليهود من الحجاز، وإرهاب المسيحيين في اليمن والشمال، لكي « لا يبقى في جزيرة العرب دينان » ، كما جاء في وصية النبي الأخيرة، سوى الإسلام القرآني « النصراني » .

تلك هي رؤيا غار حراء في أبعادها وخواتيمها. فما الدعوة القرآنية كلها **سوى خبر لها وتفصيل**، في « بيّنات من الهدى والفرقان » ، من الكتات وفرقانه، بلسان عربي مبين، على مدى ثلاث وعشرين سنة. بحسب الخطة المرسومة : « فاستقم كما أُمرت » (هود ١١٣؛ الشورى ١٥).

*

ثانياً : صفة ورقة بن نوفل، قس مكة، من إنجيله وحديثه

آن لنا أن نقطع بصفة ورقة بن نوفل، من الإنجيل الذي يترجمه إلى العربية لقد أجمعت كل المصادر من حديث وسيرة وتفسير على أن ورقة كان من

النصارى. وبما أن المصادر الإسلامية لا تفرّق بين المسيحيين من الأمم، والنصارى من بني إسرائيل الذين هم « النصارى » على التخصيص، فعلينا إبراز « نصرانيته » من القرائن القائمة.

الدليل الأول على « نصرانية » ورقة، قس مكة، هو صفته في السيرة الحلبية « أنه تنصّر بعد أن كان يهوديّاً » . ولجهلهم معنى « نصراني من بني إسرائيل » وصفوه ذلك الوصف المشبوه. وهو يدل على أنه من مذهب النصرانية الإسرائيلية.

والدليل الثاني من الحديث الصحيح المتواتر في الإنجيل الذي يترجمه إلى العربية، نجد لهذا الحديث ثلاث صيغ :

الصيغة الأولى في صحيح البخاري عن عائشة (ك ١، باب ١٨، ع ٢٣) : « وكان يكتب الكتاب العبراني، ويكتب **من الإنجيل بالعبرانية** ما شاء الله أن يكتب ... هذا الناموس الذي نزل **على موسى** » .

الصيغة الثانية في صحيح مسلم عن عائشة (ك ١ باب ٩٧ ع ٩٨) : « فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ... وهو ابن عمها، أخي أبيها، وكان امرءاً قد تنصّر في الجاهلية. وكان يكتب **الكتاب العربي**، ويكتب **من الإنجيل بالعربية** ما شاء أن يكتب ... هذا الناموس الذي نزل **على موسى** » .

الصيغة الثالثة للزرقاني في (شرح المواهب اللدنية ١ : ٢٥٩) عن ابن الزبير : « إن خديجة كانت تأتي ورقة بما يخبرها رسول الله ص أنه يأتيه. فيقول ورقة : لئن كان حقّاً ما يقوله، أنه ليأتيه الناموس الأكبر، **ناموس عيسى**، ابن مريم، الذي لا يجيزه أهل الكتاب إلا بثمن! وهذه الكلمة محرفة في جميع الأصول ولها أشكال متباينة، لم نتبيّن تصويبها، منها : أنه ليأتيه **ناموس** عيسى الذي لا يعلمه بنو إسرائيل أبناءهم » .

والسير كلها هي على صيغة صحيح البخاري.

وللتوفيق بين هذه الأحاديث وصيغها، من لغة إنجيل ورقة، وناموس عيسى أو موسى، جاء في (شرح النووي، لصحيح مسلم) : « هكذا هو في مسلم (**الكتاب العربي ...** ويكتب من الإنجيل بالعربية). ووقع في أول صحيح البخاري (يكتب **الكتاب العبراني** فيكتب من الإنجيل بالعبرانية)، وكلاهما صحيح. وحاصلهما أنه تمكن من معرفة دين النصارى بحيث أنه صار يتصرف في الإنجيل فيكتب أي ّ َ موضع شاء منه : بالعبرانية إن شاء، وبالعربية إن شاء. والله أعلم. وقوله (أنزل **على موسى** ص) هو قول الصحيحين وهو المشهور. وروي في غير الصحيحين : « نزل على عيسى ص) وكلاهما صحيح » ـ فالنووي يصوّب الصيغتين في الموضوعين.

وجاء في السيرة الحلبية (١ : ٢٦٣) : « وإنما ذكر ورقة موسى دون عيسى عليهما الصلاة والسلام، مع أن عيسى أقرب منه، وهو على دينه، لأنه **كان على دين موسى ثم صار على دين عيسى، أي كان يهودياً ثم صار نصرانياً ...** وفي رواية : (وإنك على مثل ناموس عيسى) عليهما الصلاة والسلام. أي ففي بعض الروايات جمع، وفي بعضها اقتصر على موسى. ثم رأيت أنه جاء في غير الصحيح الاقتصار على عيسى، فقال : « هذا الناموس الذي نزل على عيسى). **فهو كما جاء بالجمع بينهما، جاء الاقتصار على** كل منهما. وفي (فتح الباري) : إنه عند إخبار خديجة لورقة بالقصة، قال لها : (هذا ناموس عيسى) بحسب ما هو فيه من النصرانية؛ وعند إخبار النبي ص بالقصة، قال له : (هذا ناموسى موسى) للمناسبة بينهما، **فكلاهما أرسل بالنقمة** » .

وسبب هذا الخلط كله، جهلهم حقيقة « نصرانية » ورقة، وحقيقة حرف إنجيله, ومن إنجيله نعرف حقيقة « نصرانيته » .

إن صحيح مسلم، في تبديله العبرانية بالعربية، اجتهاد منه في تفسير استغرابه لعربي يتلو الإنجيل بالعبرانية، وما عرفوا إنجيلاً بالعبرانية. وقد رأينا من شهادة العلماء المسيحيين المعاصرين في عهد الفترة للنصارى من بني إسرائيل أن إنجيلهم

الوحيد كان باللغة الأرامية السريانية، لكنه بالحرف العبراني المقدس عندهم، ولذلك يسمونه « الإنجيل العبراني » أو « الكتاب العبراني » .

وقولهم بأن ورقة كان على دين موسى ثم صار على دين عيسى، فهو جهل لحقيقة دين « النصرانية » التي تقيم التوراة والإنجيل معاً، وتقول بالإيمان بموسى وعيسى ديناً واحداً.

فشهادة صحيح البخاري، التي عنها كلهم ينقلون ويفسّرون، هي الشهادة الصحيحة التاريخية : كان ورقة بن نوفل، قس مكة، « رئيس النصارى » من بني إسرائيل، و « المتنصّرين » معهم من العرب، فهو على « النصرانية » دين موسى وعيسى معاً ديناً واحداً. ففي مقالته، قال : « ناموس موسى وعيسى » ؛ فاضطرهم لفظ « ناموس » إلى الاقتصار على موسى.

والجميع يشهدون بأن ورقة كان « حبراً عالماً » . فهو يعرف مع العربية لغته القومية السريانية لغة جماعته النصارى من بني إسرائيل، والحرف العبراني حرف إنجيلهم.

وهكذا تعني الشهادة في صحيح البخاري أن ورقة كان يترجم الإنجيل من حرفه العبراني إلى العربية. ووجود هذا الإنجيل معه، وهو الوحيد الذي يقول به النصارى من بني إسرائيل، ولا يقبل به المسيحيون، **البرهان القاطع** على أن ورقة بن نوفل، قس مكة، كان على مذهب النصارى من بني إسرائيل؛ فهو على سبيل الحصر قس « النصارى » بمكة. والذين يلتفون حوله، من عبد المطلب، جد محمد؛ إلى أبي طالب، عم محمد؛ إلى عبد الله، والد محمد؛ إلى السيدة خديجة، ابنة عمه؛ إلى محمد نفسه الذي يدور في فلكه قبل مبعثه؛ كانوا كلهم « نصارى » على مذهب النصرانية الإسرائيلية.

وهذا يكشف لنا كثيراً من الغموض الذي يكتنف الحديث والسيرة والتفسير في هذه المواضيع كلها.

*

ثالثاً : دور « النصارى » في بعثة محمد ـ من وحي السيرة

لقد نقلنا حديث بدء الوحي عن الصحيحين في رؤيا غار حراء؛ وأردفنا بحديث ابن الزبير عن الرؤية النهارية لشخص جبريل وإعلانه : « يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل » ؛ واستنتجنا من إجماع الحديث الصحيح والسيرة أن حديث ابن الزبير موضوع، يدل عليه **خشية محمد على نفسه**[1] من رؤياه التي تتعارض مع رؤية الملاك نفسه في وضح النهار؛ كما يدل عليه استفتاء خديجة لورقة ابن نوفل في ما يجري لمحمد؛ وعزّزنا بشهادة القرآن أن اسم جبريل لم يبرز إلا في المدينة (البقرة ٩٧ و٩٨؛ التحريم ٤)؛ ولا ذكر له في القرآن المكي.

وأعلنا، ونكرر إعلاننا، **بصحة الرؤيا في غار حراء،** على ما جاء بها القرآن واقعاً (النجم ١ ـ ١٨) وموضوعاً (الشورى ٥٢ و١٥).

والآن نرى تبسط السيرة في الرؤيا؛ فنرى فيها دور « النصارى » في مبعث محمد.

١) حديث الرؤيا في السيرة

تنقل سيرة ابن هشام (١ : ٢٥٢) حديث عبيد بن عمير بن قتادة الليثي، وهو جامع لحديث عائشة في الصحيحين، وعبد الله ابن الزبير عند الطبري : « خرج رسول الله ص إلى حراء كما كان يخرج لجواره، **ومعه أهله،** حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها، **جاءه جبريل** عليه السلام بأمر الله تعالى. قال رسول الله ص : فجاءني جبريل، **وأنا نائم** بنمط من

---

(١) يقول السهيلي في (الروض الأنف) : « وليس ذكر النوم في حديث عائشة ولا غيرها؛ بل في حديث عروة ما يدل ظاهره على أن نزول جبريل حين نزل بسورة (اقرأ) كان في اليقظة ... وقد يمكن الجمع بين الحديثين بأن النبي ص جاءه جبريل في المنام قبل أن يأتيه في اليقظة توطئة وتيسيراً عليه ورفقاً به » ـ وسورة النجم تنقض ذلك : « ما كذب الفؤاد ما رأى » (١١).

ديباج، **فيه كتاب**، فقال : إِقرأ. (قال) قلت : ما أقرأ ؟ **ففتني به**[١]، حتى ظننتُ أنه الموت، ثم أرسلني فقال : اقرأ. (قال) قلت : ما أقرأ ؟ (قال) ففتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال : اقرأ. (قال) قلت : **ماذا أقرأ ؟** (قال) ففتني به حتى ظننتُ أنه الموت، فأرسلني، فقال : اقرأ؟ (قال) فقلت : ماذا أقرأ ؟ ـ ما أَقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي ـ فقال :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق

اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم »

(قال) فقرأتها. ثم انتهى فانصرف عني، **وهببت من نومي**، فكأنما كتبت في قلبي كتاباً ».

هذا تفسير السيرة لرؤيا الوحي، في حديث جامع. وفيه نرى أن جواب محمد مرتين « ما أقرأ؟ » ومرتين « ماذا أقرأ؟ » مع تفسير قوله « ما أقول ذلك إلا افتداءً منه » ، **يقطع التخرصات بأمية محمد**. وفي حديث السيرة، كما في حديث الصحيحين، أن أَمر الملاك المكرر : « إِقرأ » برهان على أنه يقرأ. يؤيده قول القرآن « الذي علّم بالقلم » ، وهو يدل على أنه يكتب أيضاً. أما تفسيرهم بأن الملاك « جعله يقرأ بعد ما كان أُميّاً » فهو اختلاق معجزة ليست في الحديث ولا في السيرة، وينقضها نقضاً مبرماً موقف القرآن السلبي من كل معجزة تنسب لمحمد، سوى القرآن نفسه.

والسيرة تسمي الملاك (جبريل)؛ بينما حديث الصحيحين والطبري لا يسميه؛ واسم جبريل لا يرد في مكة، ولا يظهر إلا في المدينة.

---

(١) بأنه جعله على أنفه وفمه (السيرة المكية).

والسيرة تؤكد أن خطاب الملاك وتلقين « إقرأ » كان **رؤيا في النوم.** فالوحي كان في رؤيا غار حراء، ومحمد نائم؛ هذا ما يشهد به حديث عائشة في الصحيحين، حيث لا إشارة إلى رؤية نهارية في ذلك الحديث. والقرآن يجعلنا نجزم بأنه كان وحياً في ليلة، لا رؤية نهارية، « إنا أنزلناه **في ليلة مباركة** » (سورة الدخان)؛ « إنا أنزلناه **في ليلة القدر** » (سورة القدر)، « ما كذب الفؤاد ما رأى » (النجم ١١).

وبعد رواية **الرؤية النهارية الموضوعة**[١] ، كما رأينا، تكمل السيرة الهاشمية : وانصرفتُ راجعاً إلى أهلي، حتى أتيت خديجة، جلست إلى فخذها مضيفاً إليها. فقالت : يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك، **حتى بلغوا** مكة، ورجعوا إليّ. ثم حدثتها بالذي رأيت. فقالت : أبشر، يا ابن عم، واثبتْ! فوالذي نفس خديجة بيده، **إني لأرجوك أن تكون نبيّ هذه الأمة** » .

فسيرة ابن هشام لا تذكر **الخشية المخيفة** التي اعترت محمداً من رؤياه، كما ينص عليها الحديث في الصحيحين، لكن وصف حال محمد يلتصق بفخذ خديجة يستطمن قربها، وجواب السيدة الكبيرة يشيران إلى تلك الخشية. وتنص أيضاً على **وجود عائشة معه في حراء ليلة الرؤيا.**

وجدير بالذكر أن محمداً لا يفهم من رؤياه أنه نبي؛ والسيدة خديجة هي التي تعلن له : « إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة » (١ : ٢٥٤) ـ فهل كانت التاجرة الكبيرة عالمة بكيفية وصفة النبوة، حتى تطلق لمحمد هذه البراءة التي لا أصل لها في الحديث الصحيح عن الخشية المخيفة التي اعترته.

*

---

(١) السيرة الهاشمية التي تنقلها تناقض نفسها في قصة الامتحان : أهو ملاك أم شيطان، بجلوس محمد في حضنها، فظل يراه؛ ثم تحسرت وألقت خمارها والنبي في حجرها، فاختفى فلم يعد يراه؛ فحكمت أنه ملاك. فلو كانت رؤية نهارية، وإعلان الملاك له : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » ، لما بقي لهذا الامتحان من معنى، ولا لاستفتاء ورقة من حاجة.

٢) الخشية المخيفة في الرؤيا

جاء في الحديث الصحيح عن عائشة[١] : «فرجع بها رسول الله **ترجف بوادره**، حتى دخل على خديجة بنت خويلد. فقال : زملوني! زملوني! فزملوه حتى **ذهب عنه الروع**. ثم قال لخديجة : أي خديجة **مالي؟** وأخبرها الخبر. ثم قال : **لقد خشيت على نفسي** ».

وينقل (الإتقان ١ : ٢٤ ـ٢٥) عن غيرها : «فأخذتني **رجفة**، فأتيت خديجة، فأَمرتهم فدثروني »؛ «قال لخديجة، إني إذا خلوت وحدي سمعتُ نداءً؛ فقد والله خشيتُ ان يكون هذا أمراً » .

وفي السيرة المكية : «فرجع إلى خديجة، وقال : قد خشيت على نفسي » .

وفي السيرة الحلبية : «قال الحافظ ابن حجر : هذا الذي وقع له ص عند ابتداء الوحي **من خصائصه** إذ لم يُنقل عن أحد من الأنبياء ص أنه جرى له عند ابتداء الوحي مثل ذلك ... وفي رواية : **يرجف فؤاده** أي قلبه ... وقال لقد **خشيت على نفسي**، وفي رواية لقد **خشيت على عقلي**، كما في (الامتاع) » .

لقد فهم المحدثون والرواة أن ما عرض لمحمد في رؤيا الغار، من غثّ وغطّ ، ورجفة وخشية على نفسه أو على عقله، لم ينقل عن أحد من الأنبياء ص أنه جرى له مثل ذلك. وشعروا بما في ذلك من شبهة، فالتمسوا له تفسيراً. « وفي كلام الحافظ ابن حجر : اختلف العلماء في هذه الخشية على اثني عشر قولاً[٢] » . وفي السيرة المكية[٣] : « وفي كلام الحافظ ابن حجر : اختلف العلماء في هذه الخشية على اثني عشر قولاً ... وقال الحافظ الإسماعيلي : إِن هذه الخشية كانت **قبل أن يحصل له العلم الضروري بأن الذي جاءه ملاك من عند الله**، وأما بعد حصوله، فلا » .

---

(١) البخاري ك ١ باب ١٨ ع ٢٣؛ مسلم ك ١ باب ٩٧ ع ٩٨.
(٢) السيرة الحلبية ١ : ٢٦٧.
(٣) بهامش الحلبية ١ : ٢٨٢.

هذه هي الشبهة : لم يحصل لمحمد في رؤياه العلم الضروري بأن الذي جاءه ملاك من عند الله، حتى أخذ المعنى من خديجة ثم من علماء خديجة : « إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة » ؛ هذا تحليل كتب السيرة لرؤيا غار حراء؛ وهذه الشبهة كانت سبب قصة الرؤية النهارية وما وُضع لها من أحاديث.

*

٣) امتحان حقيقة الرؤيا الصالحة

هذا الامتحان يؤيد حقيقة الخشية والفزع من الرؤيا.

في السيرة المكية[١] : « جاء بعض الروايات أن خديجة، قبل أن تذهب به إلى ورقة، ذهبت به إلى عداس، وكان نصرانيّاً من أهل نينوى ... وعداس هذا كان راهباً. وكان شيخاً كبير السن، وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر وهو غير عداس غلام عتبة بن ربيعة الذي اجتمع بالنبي ص في الطائف ... يروى أنه قال لها حين أخبرته بالخبر : يا خديجة إن الشيطان ربما عرض للعبد فأراه أموراً. فخذي كتابي هذا وانطلقي به إلى صاحبك : فإن كان مجنوناً، فإنه سيذهب عنه؛ وإن كان من الله فلن يضره. فانطلقت بالكتاب معها » . وتنقل السيرة الحلبية[٢] أيضاً هذه الرواية.

وبما أنهما تذكران **وجود خديجة مع محمد في الغار ليلة الرؤيا**، أيكون الكتاب الذي به غت أو غط الروح النبي على وجهه فكاد يخنقه، هو الكتاب الذي دفعه عداس لخديجة لتتعوذ به في حال عارض ثان يحدث لمحمد؟ لكن حديث الصحيحين لا يذكر شيئاً من هذا الامتحان. لكن يبقى أن هذه الرقية بالكتاب قد تكون سبب ذهاب خديجة مع محمد في تلك الليلة المباركة، من دون سائر الأيام والليالي، حين الانعكاف بحراء. وهكذا يقترن كتاب عداس، ووجود خديجة في الغار، مع الحديث الصحيح لبدء الوحي في رؤيا الغار.

---

(١) على هامش الحلبية ١ : ١٨٣.
(٢) السيرة الحلبية ١ : ٢٦٧.

وهناك امتحان آخر لحقيقة الرؤيا، تنقله سيرة ابن هشام (١ : ٢٥٥). وجاءَ في السيرة الحلبية (١ : ٢٧٥) إن امتحان خديجة لحقيقة الروح الذي يأتي محمداً، « ان ذلك من خديجة كان بإرشاد من ورقة، فإنه قال لها : اذهبي إلى المكان الذي رأى فيه ما رأى. فإذا رآه فتحسري، فإن يكن من عند الله لا يراه محمد » .

فطلبت خديجة من محمد أن يخبرها حين يأتيه الروح. فأتى فأخبرها. « قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى. فقام ص فجلس عليها. قالت : هل تراه ؟ قال : نعم. قالت: فتحول فاجلس على فخذي اليمنى. فتحول ص فجلس على فخذها اليمنى. فقالت : هل تراه؟ قال : نعم. قالت : فتحول فاجلس في حجري. فتحول ص فجلس في حجرها. قالت : هل تراه. قال نعم. فتحسرت وألقت خمارها، ورسول الله ص جالس في حجرها. وفي رواية أخرى : أَدخلت رسول الله ص بينها وبين درعها. ثم قالت له : هل تراه؟ قال : لا. قالت : يا ابن عم اثبت وابشر : فوالله إنه لملاك، وما هذا بشيطان » .

فخديجة تمتحن حقيقة الرؤيا، بإرشاد من رؤساء دينها، وتثبت محمداً في صحة رؤياه، وصحة نبوته. هكذا فهم الأمر المحدثون ورواة السيرة.

*

٤) استفتاء خديجة لرؤساء دينها في معنى الرؤيا

هذا الاستفتاء ينص عليه الحديث الصحيح عند البخاري (ك ١ باب ١٨ ع ٢٣) وعند مسلم (ك ١ باب ٩٧ ع ٩٨) : « فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ـ وهو ابن عم خديجة[١] ـ وكان امرءاً قد **تنصر في الجاهلية**، وكان يكتب الكتاب العبراني[٢] ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة : أي ابن عم اسمع من ابن أخيك

(١) في صحيح مسلم : كان ورقة « عم » خديجة، لا ابن عمها. والمشهور أنه ابن عمها.
(٢) معناه : كان يكتب الكتابة العبرانية.

فقال له ورقة : يا ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ص خبر ما رأى. فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل على موسى (على عيسى؟). يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حيّاً، إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ص : أو مخرجي هم؟ قال : نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إِلا عودي. وإن يدركني يومك حيّاً، أنصرك نصراً مؤزراً ـ **ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي** » .

إِن القصة عن هجرة محمد، قبل اثنتي عشرة سنة موضوعة لأن ورقة لم يكن نبياً يعرف غيب المستقبل. لكن النص على أنه يكتب من الإنجيل بالعبرانية « ثمين لمعرفة مذهب ورقة. وقد رأينا أنه على مذهب النصارى من بني إسرائيل، لأنهم وحدهم بين أهل الإنجيل يعرفون الإنجيل بالعبرانية، ولا يقبلون سواه. وهذا هو الإنجيل الذي حضر محمد ترجمته قبل مبعثه.

والإشارة الكبيرة في الحديث الصحيح، في ربط فتور الوحي بوفاة ورقة : وهذا دليل صريح على دور ورقة في النبوءة، ثم في الوحي.

والسيرة الهاشمية (١ : ٢٥٤) تفصل بين استفتاء خديجة لورقة وحدها، وبين لقاء محمد لورقة عند طوافه بالكعبة، بعد فراغه من جواره بحراء. ففي الاستفتاء يقول ورقة لخديجة : « **وإنه لنبي هذه الأمة**، فقولي له : فليثبت » . وفي اللقاء المذكور يقول ورقة لمحمد نفسه : « والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة » .

فورقة بواسطة خديجة، ثم بذاته، هو الذي يعلن لمحمد أنه « نبي هذه الأمة » .

والسيرة الحلبية (٢ : ٢٦٣) تذكر ثلاثة استفتآت لورقة : « يكون تكرر سوآل ورقة ثلاث مرات : الأولى على يد أبي بكر ر . وذلك قبل أن يرى جبريل؛ والثانية التي رأى فيها جبريل وسمع منه ولم يجتمع به، وذلك عند اجتماعه به ص في المطاف؛ والثالثة بعد اجتماع جبريل له يقظة بالقرآن. ـ أي (اقرأ باسم ربك) على المشهور بأنه أول ما نزل ـ وذلك على يد خديجة » .

وتنقل السيرة الحلبية[1] (١ : ٢٧٤) حديث محمد في ورقة : « فلما توفي ورقة قال رسول الله ص : لقد رأيت القس في الجنة، وعليه ثياب الحرير ـ القس يعني ورقة. والقس (بكسر القاف) **رئيس النصارى** (وبفتحها) من تتبّع الشيء. هذا وفي القاموس : القس (مثلث القاف) تتبع الشيء وطلبه، كالتقسس، (وبالفتح) صاحب الإبل الذي لا يفارقها، **ورئيس النصارى في العلم** » . ومن مكانة ورقة، ومن حديث فتور الوحي، ثم من حديث رؤيته في الجنة، تظهر مكانة قس مكة في تطمين محمد على صحة نبوته، التي ذكرها وخطط لها، قبل خمسة عشر عاماً، يوم زواج محمد بخديجة. لاحظ تعبير « **القس** » على الإطلاق، فهو « رئيس النصارى » المسؤول الأول عنهم بمكة.

جاء في السيرة المكية خبر استفتاء **القس عداس،** وكان على مذهب ورقة، وبصفة كونه من نصارى نينوى المهاجرين إلى مكة، كان رئيس النصارى على الجالية منهم، أتى من فارس مثل القس سلمان الفارسي الذي استقر بالمدينة. قالت : « وفي بعض الروايات إن خديجة ر. قبل أن تذهب إلى ورقة، ذهبت إلى عداس » . وفي رواية أخرى « قال بعضهم إن هذه القصة (الاستفتاء) بعد ذهابها به إلى ورقة. والحاصل أن خديجة ر. كانت في بدء الوحي **تتردد بين ورقة وعداس وغيرهما** ممن له علم الكتاب، لتتثبت في الأمر، لشدة اعتنائها به ص، وتثبتها في أمره ص، ولتقوّي قلبه وتعينه على الحق. **فنعم الوزير كانت له ص** ورضي الله عنها » .

والسيرة الحلبية (١ : ٢٦٧ ـ ٢٦٨) تنقل الاستفتآت ذاتها لعداس وورقة.

أخيراً، وفوق الكل، كان استفتاء خديجة **لإمام** « **النصرانية** » **الأكبر،**

---

(١) وتنقله أيضاً السيرة المكية : « لقد رأيت القس ـ يعني ورقة ـ في الجنة وعليه ثياب الحرير ـ والقس بفتح القاف وكسرها : رئيس النصارى » .
(٢) بهامش الحلبية ١ : ١٨١ ـ ١٨٢.

بحيرى في بصرى، الذي « انتهى إليه علم النصرانية » فكان « وصي عيسى ص على دينه » كما تنص كتب السيرة.

في السيرة المكية[1] : « وذكر ابن دحية أنه ص لما أخبرها بجبريل ـ ولم تكن سمعت به قط (؟) ـ كتبت إلى بحيرى الراهب، وقيل **سافرت إليه**. فسألته عن جبريل. فقال لها قدوس، قدوس، يا سيدة نساء قريش، أنّى لك بهذا الاسم؟ فقالت : بعلي وابن عمي أخبرني بأنه يأتيه. فقال : إنه السفير بين الله وبين أنبيائه؛ وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا أن يتسمى باسمه » . ونقلت السيرة الحلبية (١ : ٢٦٨) النص نفسه. بعد هذه الفتوى الكبرى، اطمأنت خديجة وطمأنت محمداً بأنه « نبي هذه الأمة » .

« والحاصل أن خديجة كانت في بدء الوحي تتردد **بين ورقة وعداس وغيرهما** ممن له علم بالكتاب، لتتثبت الأمر » ، كما تقول السيرة المكية. وهذا الواقع المأثور يدل على أن **خديجة لعبت الدور الأول**، بامتحان النبوة، واستفتآت أئمة دينها، في تثبيت محمد بأنه « نبي هذه الأمة » .

*

٥) كيفية الوحي : الإغماء « وبرحاء الوحي »

جاء في الإتقان (الإتقان ١ : ٤٥ ـ ٤٦) : « وقد ذكر العلماء للوحي كيفيات : (إحداها) أن يأتيه الملاك في مثل صلصلة الجرس، كما في الصحيح. وفي مسند أحمد : أسمع صلاصل ثم أسكت. (الثانية) أن ينفث في روعه الكلام نفثاً. وهذا قد يرجع إلى الحالة الأولى أو التي بعدها. (الثالثة) أن يأتيه في صورة رجل فيكلمه كما في الصحيح. (الرابعة) أن يأتيه الملاك في النوم. (الخامسة) أن يكلمه الله **إما في اليقظة كما في ليلة الإسراء، أو في النوم** » .

إذن يقتصر الوحي في اليقظة على ليلة الإسراء. وتشهد سورة الإسراء بأنه كان « ليلاً »[1] ورؤيا : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » (٦٠).

فمجمل الكيفيات توحي بأنه رؤيا في النوم، مصحوبة بمثل صلصلة الجرس، أوحى فيها إلى عبده ما أوحى، روح من الله تمثل له في صورة رجل يكلمه.

وقد تمّ ذلك على هذه الحالة : « أخرج ابن سعيد عن عائشة قالت : كان رسول الله إذا نزل عليه الوحي **يغط في رأسه، ويتربد وجهه** ـ أي يتغير لونه بالجريدة ـ ويجد برداً في ثناياه، ويعرق حتى يتحدّر منه مثل الجمان » (الإتقان ١ : ٤٦).

« روى الإمام أحمد والحاكم ـ وصححه ـ والترمذي والنسائي عن عمر قال : كان ص، إذا نزل عليه الوحي، يسمع عنده **دوي كدوي النحل** ـ فأفهم قوله (عنده) أن ذلك بالنسبة للصحابة. ولذا قال الحافظ : إنه لا يعارض **صلصلة الجرس**، بالنسبة له ... وفي مسلم، عن أبي هريرة قال : كان رسول الله ص إذا نزل عليه الوحي لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى ينقضي الوحي. وفي لفظ : كان إذا نزل عليه الوحي **استقبلته الرعدة**. وفي رواية : **كرب كذلك وتربد وجهه وغمض عينيه؛ وربما غط كغطيط البكر** ... وفي كلام الشيخ محيي الدين ما يدل على أنه ص كان إذا جاءه الوحي **يستلقي على ظهره** » . وهذا ما أسموه « **برحاء الوحي** » .

وتنقل السيرة الحلبية (١ : ٢٧٥ ـ ٢٧٦) أن محمداً كان **يصاب بالإغماء** قبل مبعثه منذ طفولته، وبعد بعثته؛ ولهذا السبب، عملاً بإرشاد ورقة، امتحنت صحة وحي الملاك بحسرها عن رأسها عند حضوره فاختفى، فعلمت أنه روح من الله، لا جني : « أزالت عن رأسها ما يُغطّى به الرأس لتعلم عين اليقين أن هذا الذي يعرض له ص هل هو حامل الوحي الذي كان يأتي به الأنبياء قبله،

---

(١) السيرة المكية، بهامش الحلبية ١ : ١٩٠ و١٨٨.

أو هو الإغماء الذي هو بعض الأمراض الجائزة عليهم. وفيه أنه ينبغي أن يكون المراد به الإغماء الناشئ عن لمسة الجن، فيكون من الكهان، لا من الأنبياء، الذي قال بسببه لخديجة (لقد خشيت على نفسي). وسيأتي أنه **كان يعتريه، وهو بمكة، قبل أن ينزل عليه القرآن، ما كان يعتريه عند نزول الوحي عليه، أي من الإغماء ...** وروى ابن إسحاق عن شيوخه أنه ص كان **يُرقى من العين** وهو بمكة، قبل أن ينزل عليه القرآن : **فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يصيبه قبل ذلك.** هذا يدل على أنه ص **كان يصيبه قبل نزول القرآن ما يشبه الإغماء،** بعد حصول الرعدة وتغميض عينيه وتربد وجهه، ويغط كغطيط البكر. فقالت له خديجة : أوجه إليك من يرقيك؟ قال : أما الآن فلا! ولم أقف على من كان يرقيه، ولا على ما كان يرقى به » .

فالسيرة الحلبية تؤكد أن **برحاء الوحي هي حالة الإغماء** التي كانت تعتريه قبل نزول الوحي إليه. وبعد نزول الوحي أبطل الرقية التي كان يستخدمها من قبل.

وبسبب تشابه الحالتين، الإغماء وبرحاء الوحي، تتساءل السيرة الحلبية (١ : ١٧٦ ـ ١٧٨) : « فإن قيل : بهذه الأمور علم ص أن جبريل ملاك لا جني؛ فمن أين علم أنه يتكلم عن الله تعالى؟ أُجيب : بأنه، على تسليم أن **قول ورقة** المذكور وما تقدم عنه لا يفيده العلم، فقد يقال : خلق الله تعالى فيه ص علماً ضرورياً بعد ذلك علم به أنه جبريل، وأنه يتكلم عن الله تعالى، كما خلق في جبريل علماً ضرورياً بأن الموحي إليه هو الله » . وهذا التخريج ينقض رؤية الملاك نهاراً، لأن الرؤية الحسية لا تحتاج إلى دليل. والشعور الباطني بالوحي يكفي، لأن الله إذا أوحى لعبده لا يتركه في حيرة من أمره. ونرى من تصريح القرآن أن حيرة محمد من أمره لازمته مدة دعوته، حتى جاءه الأمر : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك **فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك :**

لقد جاءك الحق من ربك، فلا تكونن من الممترين، ولا تكونن من الذين كذّبوا آيات الله فتكون من الخاسرين » (يونس ٩٤ ـ٩٥).

فالسيرة تفسّر القرآن تفسيراً صحيحاً بأن ورقة، قس مكة « النصراني » هو الذي أفاده العلم بأنه نبي يكلمه ملاك، للتمييز بين مرض الإغماء الذي كان يصيبه قبل رؤيا حراء، وفيها، وبعدها، طول حياته؛ وبين « برحاء الوحي » .

ولا يُستبعد أن يكون الكتاب في نمط من ديباج، الذي رأى محمد في رؤياه أنه يُغتّ به، كان الكتاب المقدس، الذي دفعه القس عداس إلى خديجة لتضعه على رأس محمد، ترقاه به عند الإغماء. وتنص السيرة على أن خديجة كانت معه في الغار تلك الليلة، ليلة الرؤيا المباركة.

وعندنا أن كيفية الوحي لمحمد، تشبه بالحرف الواحد كيفية الإلهام للقديس أغسطينوس من قبله. فقد كان على الشرك، وأمه المسيحية تصلي لهدايته. فإذا به، كما حكى هو نفسه، يرى ملاكاً يقدّم له الكتاب المقدس ويقول له : « **خذْ واقرأ** » : فأخذ وقرأ وآمن بما أنزل الله من كتاب، وصار رئيس المسيحية في وطنه، ونور المسيحية مدى الدهر. كذلك رأى محمد في رؤيا غار حراء روحاً من أمر الله (الشورى ٥٢) يقول له ثلاثاً، وهو يريه كتاباً : « إقرأ » ؛ فاهتدى إلى الإيمان بالكتاب : « قلْ : آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم » (الشورى ١٥) فكانت الدعوة القرآنية.

*

٦) دور « النصارى » بمكة في بعثة محمد

يظهر لنا جليّاً، مما تقدّم، الدور الفريد الذي لعبه ورقة بن نوفل، قس مكة، « القس » بحسب الحديث، مع زميله القس عداس، وخديجة سيدة نساء قريش وثرية مكة، بتوجيه من الإمام الأكبر، بحيرى في بصرى، « وصي عيسى على دينه » كما تقول السيرة.

فنحن مدينون بنبوءة محمد، النبي العربي ـ بعد الله تعالى ـ إلى زعماء « النصرانية » بمكة. فهم الذين احتضنوا محمداً بزواجه من خديجة، وبشروه قبل خمسة عشر عاماً بأنه سيكون « نبي هذه الأمة » ؛ وهم الذين أعطوه البراءة، بمناسبة رؤيا غار حراء الصحيحة، بأنه صار « نبي هذه الأمة » . خديجة هي التي تدير الجميع وتسيطر عليهم : « وأن خديجة كانت تأتي ورقة بما يخبرها رسول الله ص أنه يأتيه »[١]

إذا كان في ما أقول من كفر، فناقل الكفر ليس بكافر : فما أقول ليس من عندي؛ إنما هو روايات الحديث والسيرة، كما نرى من نصوصها التي نقلناها

فالدور الأول، في بعثة محمد كان لزعماء « النصرانية » بمكة.

وهنا نتساءَل : لماذا لم تلجأ خديجة، في استفتآتها، بشأن رؤيا حراء، إلى بني عمومتها من قريش، وهم صناديد مكة في التجارة والأدب والعلم وسدانة الكعبة؟ إنما لجأت هي وزوجها الكريم إلى زعماء « النصارى » بمكة، تستفتيهم وتسير مع محمد برأيهم. أليس هذا برهاناً على أن خديجة ومحمد يدوران في فلك « النصرانية » ، وكانا على « نصرانية » مفتيهم؟ وفي خلوة محمد مع القس ورقة، بحراء، مدة صوم رمضان « النصراني » ، الخبر اليقين، وفي تشريع القرآن للعرب دين موسى وعيسى ديناًً واحداً (الشورى ١٣) فصل الخطاب.

ثم نتساءَل : ما السرّ في **مخطط ورقة،** قس النصارى بمكة، ومن فوقه **هدف بحيرى،** الإمام الأكبر، « وصي عيسى على دينه » من احتضان محمد بزواجه من خديجة، « سيدة نساء قريش » ؟

نرى السر في رواية الحديث والسيرة، لما جاءَ في القرآن : « **وأمرتُ أن أكون من المسلمين** » (النمل ٩٠) . الذين بهم يتحدى المشركين : « قلْ : آمنوا به، أولا تؤمنوا : إن الذين **أوتوا العلم من قبله،** إذ يُتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً، ويقولون : سبحان ربنا، إن كان وعد ربنا لمفعولاً » (الأسرار ١٠٨)؛

---

(١) الزرقاني : شرح المواهب ١ : ١٥٩.

كما أُمر أيضاً : قل : إني أمرتُ أن أكون أول من اسلم » (الأنعام ١٤)، « وبذلك أمرت، **وأنا أول المسلمين** » (الأنعام ١٦٣)؛ « قلْ : إني أمرتُ أن أعبد الله مخلصاً له الدين، وأمرتُ **لأن أكون أول المسلمين** » (الزمر ١١ و١٢). فهي ليست أولية زمانية، بل أولية في المنزلة والسلطان.

نرى من الحديث والسيرة أن **هدف بحيرى** في بصرى بعد كمال هجرة النصارى من بني إسرائيل إلى مكة والحجاز، وسيطرتهم على مكة **بالزعامة المدنية** مع عبد المطلب **والزعامة التجارية** مع السيدة خديجة، **والزعامة الدينية** مع ورقة بن نوفل، قس مكة، ومن لف لفهم من العرب المتنصرين ـ كان **نقل زعامة « النصرانية »** في مطاولة المسيحية واليهودية اللتين تضايقانها من دولة الروم ودولة الفرس، إلى مكة، « أم القرى » . وبما أن عبد المطلب وورقة قد طعنا في السن وأشرفا على المئة سنة، كان لا بدّ من إيجاد خليفة « لوصي عيسى على دينه » في مكة. فوقع الخيار على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، منذ حجهما إلى بحيرى في بصرى، لما بلغ محمد سن التكليف في الثانية عشرة. ولما بلغ محمد الخامسة والعشرين ومر، في تجارة خديجة، بالإمام الأكبر في بصرى، أو عز بحيرى إلى ورقة بن نوفل قسّ مكة، وإلى خديجة زعيمة التجارة والثروة، أن يحتضنا محمداً ويهيآناه لزعامة « النصرانية » في مكة والحجاز والجزيرة كلها.

فبادرت خديجة بطلب الزواج من محمد وقالت له : « أرجو أن تكون أنت النبي الذي سيبعث! فقال لها : والله لئن كنت أنا هو، لقد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبداً »[1] . ولما شاورت القس ابن عمها في أمر الزواج، اغتبط وأعطاها **كلمة السر** في مصير محمد زوجاً لها : « إن محمداً لنبي هذه الأمة »[2] فدخل محمد في مخطط ورقة وابنة أخيه.

---

(١) السيرة الحلبية ١ : ١٥٥.
(٢) السيرة لابن هشام ١ : ٢٠٣.

وأقام محمد خمسة عشر عاماً في بيت خديجة يتمتع بالجمال والمال والسيطرة التجارية على قريش والجزيرة؛ ويتدرب في كنف القس ورقة على الرسالة « النصرانية » بين العرب؛ ويحضر ترجمة ورقة لإنجيل النصارى من العبرانية إلى العربية؛ ويتعلم « المِثل » القرآني (الأحقاف ١٠) الذي فيه « علم الكتاب » (الرعد ٤٥)؛ ويستعد لأن يكون « أول المسلمين » (الأنعام ١٦٣ : الزمر ١٢) متى دقت ساعة الله.

« وحبب الله إليه الخلاء » ، فكان يختلي مع قس مكة شهراً من السنة، شهر رمضان في الصيام والنسك والتعبد، على طريقة الرهبان، يتأمل في الوجود ورب الوجود، ويستذكر ما تعلمه من أستاذه القس، وهو مجاور بجواره.

لكن في تلك « الليلة المباركة » ، « ليلة القدر » ، من « شهر رمضان » كانت خديجة معه في الغار[1] . ففي هذا الشهر المبارك، من هذه السنة، « كانت خديجة تأتي ورقة بما يخبرها رسول الله ص أنه يأتيه » . فحضرت معه، بإرشاد ورقة وعداس، وأحضرت معها الكتاب الذي دفعه لها عداس، لتضعه على رأسه، إذا رأى رؤيا، في حال الإغماء الذي ينتابه. فكانت « الرؤيا الصالحة » ، الصادقة، ورقته خديجة بالكتاب على رأسه ووجهه. ولما أفاق من رؤياه مذعوراً، التصق بجنب خديجة، ترجف بوادره، وأخبرها ما رأى. فقالت له خديجة، عفو الخاطر، وقبل أن ترجع إلى القس، رئيس دينها : « أبشر، يا ابن عم، واثبت! فوالذي نفسي بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة » .

وقامت مسرعة إلى مكة تزفّ البشرى إلى القس، ابن عمها ورقة؛ فيقول لها « رئيس النصارى » بمكة، قبل أن يسمع محمداً ويراه، وتصدّق الأيام رؤياه : « قدوس، قدوس، والذي نفسي بيده، لئن صدقت يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر[2] ، ناموس عيسى! **وإنه لنبي هذه الأمة!** فقولي له : ليثبت » !

---

(١) السيرة الحلبية ١ : ٢٦٢.
(٢) الزرقاني : شرح المواهب ١ : ١٥٩.

فرجعت خديجة مسرعة إلى محمد، وهو بعد في حراء، وأخبرته بفتوى القس في الرؤيا. فقام ورجع إلى مكة، وعرَّج على الكعبة يطوف بها كعادته قبل الدخول إلى بيته. فلقيه القس هناك، كأنه على موعد معه، واستخبره الخبر، فأعطاه هذه البراءة : « والذي نفسي بيده، **إنك لنبي هذه الأمة!** ولقد جاءك الناموس الأكبر، ناموس عيسى[١] » .

هذا كله، ولم ينزل من القرآن سوى الأمر بالقراءة، قراءة الكتاب. فما معنى استباق الأحداث؟

وما هذا الإصرار مدة خمسة عشر عاماً، على الإيحاء لمحمد بأنه « نبي هذه الأمة »؟ وما هذا الاستغلال التقوي لعارض « الإغماء » الذي كان يعتريه ؟

لا تفسير، لهذه الآثار والأخبار، في الحديث والسيرة، سوى قول القرآن : « وأمرت لأن أكون أول المسلمين » (الزمر ١٢)، « وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين » (الأنعام ١٦٣). فقد توسم زعماء « النصرانية » بمكة، في ابن قرابتهم، محمد بن عبد الله، **الكفاءة لخلافة أئمتهم** في الدعوة إلى « النصرانية » ، وفرضها بالدعوة، وبالجهاد، إذا اقتضى الأمر، على مكة والحجاز والجزيرة، « أمة وسطاً » بين اليهودية والمسيحية، ودولة وسطاً بين الفرس والروم. فكان لهم ذلك بعد خمسة عشر عاماً، من الاستعداد الديني والنفسي والفكري، في تلك « الليلة المباركة »، « ليلة القدر »، من « شهر رمضان »، **بتلك « الرؤيا الصالحة »، الصادقة**. وكان الله نفسه من وراء قصدهم، « والله أعلم حيث يجعل رسالته » (الأنعام ١٢٤).

فمهما كان على روايات السيرة من شبهات، خصوصاً في شبهة الإغماء و « برحاء الوحي » ، **يجب التسليم بصدق « الرؤيا الصالحة »** كما عرضها القرآن نفسه : « كذلك

---

(١) رأينا أن تعبير « الناموس » كان من ألقاب المسيح الحسنى عند « النصارى » ، لذلك يجب تنقيح « ناموس موسى » بالقراءة الأخرى : « ناموس عيسى » .

أوحينا إليك روحاً من أمرنا (أي ملاكاً) : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا؛ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » (الشورى ٥٢)؛ وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم » (الشورى ١٥) بين اليهودية والمسيحية، بفرض « النصرانية » ، دين موسى وعيسى ديناً واحداً على العرب (الشورى ١٣)، بإقامة التوراة والإنجيل معاً : « قل : يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وما أنزل إليكم من ربكم » (المائدة ٨١). فهذا الأمر المكرّر المتواتر بالدعوة لهذا الإسلام « النصراني » (آل عمران ١٨ -١٩) **هو كل القرآن** الذي جاءه في تلك « الرؤيا الصالحة » ، الصادقة : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » (الدخان)، « إنا أنزلناه في ليلة القدر » (القدر)، « شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان » (البقرة ١٨٥). أما القرآن المكتوب، فهو « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٦) في « بينات من الهدى والفرقان » ، أي قرآن الكتاب وتفصيله في الفرقان.

أجل **يجب التسليم بصدق تلك « الرؤيا الصالحة »** ، مهما قام عليها من شبهات في الآثار والأخبار، لأن الذي يقوم بتأسيس دين ودولة، وأمة وثقافة، **بفرض « النصرانية » على العرب**، « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (الصف ١٤)، لا يكون إلا صادقاً، من « أولي العزم » .

وهكذا تمّ لورقة بن نوفل، قس مكة، بفضل ابنة عمه السيدة خديجة، ما أراده لمحمد مدة خمسة عشر عاماً، أن يكون « نبي هذه الأمة » ، خليفته وخليفة بحيرى، الإمام الأكبر، على « النصرانية » ، بالدعوة للإسلام « النصراني » . وقد حققت السماء بمحمد، أمل « رئيس النصارى » بمكة.

هذا هو اجتهادي في استقراء المصادر الإسلامية من قرآن وحديث وسيرة. فإن أصبت فلي أجران؛ وإن أخطأت فلي أجر الاجتهاد. وسنرى في الوثائق القرآنية نفسها صحة هذا الاجتهاد.

بحث خامس

أثر القس ورقة بن نوفل، في محمد والقرآن ـ من وحي الحديث

هذا الكتاب لبيان المطابقة الكاملة القائمة بين « النصرانية » والدعوة القرآنية؛ وفي **تعريب « النصرانية » أخذ محمد مقام عيسى،** لا في القرآن، بل في الإسلام المنبثق عنه، لما خرجت الدعوة القرآنية من بيئتها الضيقة في مكة والمدينة، إلى سائر الجزيرة، وتطورت من دعوة دينية إلى دعوة قومية أميرها محمد وخلفاؤه الراشدون؛ لأن القوم ابتعدوا عن الأصول فلم يروا في الدعوة القرآنية إلا محمداً والعرب.

وفي البحث التالي سنرى الخطوط الكبرى لمطابقة الدعوة القرآنية « للنصرانية » . نكتفي في هذا البحث بإظهار أثر ورقة بن نوفل في محمد والقرآن، من وحي الحديث.

رأينا أثر أئمة « النصارى » بمكة جملة في قيام النبوة والدعوة القرآنية. وهنا نظهر أثر ورقة بن نوفل، قس مكة، خصوصاً. ونقدر أن نحدّده في **هذا التعريف :** كان **التخطيط** من تصميم الإمام الأكبر « للنصرانية » ، بحيرى في بصرى، « وصي عيسى على دينه » . وكان **التطبيق** من اختصاص ورقة، قس مكة؛ **والتنفيذ** خديجة، ثرية مكة، و « سيدة نساء قريش ».

فالذي تولى تعريب « النصرانية » لفرض سيطرتها على مكة والحجاز والجزيرة هو ورقة بن نوفل، قس مكة. وفي الأحاديث المنقولة عن النبي، **يسميه « القس » على الإطلاق؛** وهذا الإطلاق يبين أثر « القس » في نفس محمد وتفكيره وتعبيره.

لقد رأينا أَثر « القس » في ما يسميه القرآن « هداية » الطفل محمد، بمناسبة

كفالة جدّه عبد المطلب له : « ألم يجدك يتيماً فآوى؟ ووجدك ضالاً فهدى » ! (الضحى ٦ ـ ٧) : هداية في الطفولة، في بيئة « نصرانية » لا تكون إلا العماد النصراني؛ ولا يستقيم غير ذلك.

ويضيف القرآن : « ووجدك عائلاً فأغنى » (الضحى ٨). فهو يربط الهداية بالكفالة، والغنى بزواجه من خديجة. ولا أثر في القرآن عن حداثة محمد سوى تلك الآيات الثلاث. وفي مسارعة خديجة التي تتطاول على جميع رجال قريش، إلى الزواج من محمد الفقير، وهي أكبر منه بخمس عشرة سنة، أخذت **كلمة السر** من « القس » : « سيكون نبي هذه الأمة » : فتجندت للتنفيذ. ومنذ زمن المزمور الثالث في الزبور اعتاد أتقياء الله ممارسة الخلوة والنوم في بيت الله ينتظرون منه وحياً في رؤيا بمنام الليل.

ولما دقت ساعة الله برؤيا الغار، سارع ورقة وخديجة إلى تبليغ محمد معنى الرؤيا، وهو لم يأخذ بعد من وحي روح الله سوى الأمر بالقراءة : « إنه لنبي هذه الأمة! فقولي له : ليثبت » ! فكانت براءة « القس » بالنبوة لمحمد.

ومما يدل على توجيه « القس » للرسالة والدعوة في مطلعها، أن السيرة تضع على لسان ورقة نبوءة في إخراج محمد من مكة وهجرته، ونبؤة أخرى بفرض الجهاد لإعلاء كلمة الله. ولم يكن قس مكة نبياً يستطلع غيب المستقبل؛ لكن الرواية الموضوعة دليل توجيه الرسالة والدعوة.

ويظهر أثر ورقة الكبير في النبوة والدعوة من خبر عائشة في حديث « بدء الوحي ». تنتهي كل الأصول في رواية الحديث بهذه العبارة العميقة الأغوار، الكثيرة الأبعاد، كما في الصحيحين[1] : « **ثم لم ينشب (يلبث) ورقة أن توفي، وفتر الوحي** » . فالحديث الصحيح يجعل صلة سببية بين وفاة ورقة وفتور الوحي. أجل يجعلون للوحي المحمدي فتوراً على فترات، لكنه كان عابراً. أما الفتور

---

(١) البخاري (ك ١ باب ١٨ ع ٢٣)؛ مسلم (ك ١ باب ٩٧ ع ٩٨).

الأكبر الذي خلق الخطر الأكبر على النبي والدعوة كان بسبب وفاة « القس » ، في السنة الرابعة من المبعث : « وفي كلام صاحب (كتاب الخميس) في الصحيحين أن الوحي تتابع في حياة ورقة، وأنه آمن به؛ وتقدم أنه الموافق لما في (الامتاع) من أنه مات في السنة الرابعة[١] » . فلما توفي ورقة **فقد محمد صوابه وكاد ينتحر لولا لطف الله.** « ولقد قيل : إن النبي ضاق ضيقاً شديداً بانقطاع الوحي عنه، وأنه كان يهيم على وجهه في الصحراء يناجي ربه. وبلغ به الأمر مرة أن همّ بإلقاء نفسه من قمة جبل شاهق[٢] » . فإقدام محمد على الانتحار بسبب وفاة « القس » برهان تاريخي قاطع على أثر ورقة بن نوفل في النبي والقرآن؛ في الرسول والرسالة؛ في السيرة والدعوة.

وهناك حديث آخر[٣] ، بصيغ متعددة، يدل على فضل ورقة على الرسول والرسالة : « فلما توفي ورقة، قال رسول الله ص : لقد رأيت القس ـ يعني ورقة ـ في الجنة، وعليه ثياب الحرير ... وفي رواية : أبصرته في بطنان الجنة وعليه السندس. وفي رواية : قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضاً، وأحسبه لو كان من أهل النار لم تكن عليه ثياب بيض » .

وقد حفظ محمد للقس جميله عليه، فكان يقدّس ذكره كما في هذا الحديث : « **لا** تسبُّوا ورقة فإني رأيت له جنة ـ أو جنتين ـ لأنه آمن بي وصدقني » . وحمل أوائل الصحابة على الإيمان والتصديق. فهذا علي بن أبي طالب « كان يتوقع ظهور نبوة النبي ص لما سمعه من ورقة ... حتى أنه كان أول من بادر إلى التصديق به ص[٤] » .

(١) السيرة الحلبية ١ : ٢٧٦.
(٢) محمد صبيح : عن القرآن ص ٤١.
(٣) السيرة الحلبية ١ : ٢٧٤.
(٤) السيرة الحلبية ١ : ١٩٤.

ويظل الحديث الصحيح عن فتور الوحي بسبب وفاة ورقة « القس » ، برهاناً قائماً على تأثير « رئيس النصارى » بمكة، في النبي والقرآن. وانتساب الدعوة القرآنية إلى « النصرانية » شاهد عدل.

* * *

بحث سادس

انتساب الدعوة القرآنية إلى « النصرانية » ـ بنص القرآن نفسه

هذا البحث **تتمة وفاتحة** : تتمة تُظهر تأثير « النصرانية » في الدعوة القرآنية؛ وفاتحة للفصل الثاني نقيم الدليل على انتساب الدعوة القرآنية إلى « النصرانية » ، وذلك بنص القرآن نفسه.

أولاً : على حياة « القس » ، ورقة بن نوفل

١ـ بدْء القرآن دعوة إلى القراءَة، في سورة (العلق ١ ـ٥). ولكن « ماذا أقرأ » ؟ فجاء البيان في السورة الثانية (ن والقلم)، حيث المفاجأة الأولى : « **المسلمون** » ، **ودرْس الكتاب معهم.**

« نَ . والقلم وما يسطرون	ما أنت بنعمة ربك بمجنون	١ ـ ٢
وإن لك لأجراً غير ممنون	وإنك لعلى خلق عظيم ...	٣ ـ ٤
أفنجعل « المسلمين » كالمجرمين ؟	ما لكم ؟ كيف تحكمون ؟	٣٥ ـ ٣٦
أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟	ـ إنَّ لكم فيه لما تخيّرون...	٣٧ ـ ٣٨
أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ ..	وما هو إلا ذكر للعالمين »	٤٢ و٥٢

إنها السورة الثانية في تاريخ النزول. نسمع فيها فجأة اسم « **المسلمين** » في مقابلة المشركين « المجرمين » : فمن هم؟ على معرفتهم يتوقف سرّ الدعوة القرآنية.

لم يؤمن بعد بمحمد سوى خديجة : فليس هؤلاء « المسلمون » جماعة محمد. إنهم أهل الكتاب تجاه المشركين. وليسوا اليهود ولا المسيحيين على التخصيص. إنهم الطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح، ومن « تنصّر » معهم من العرب والتي جاءَت الدعوة القرآنية نصرة لها على اليهودية (الصف ١٤)، في « أمة وسط » بين اليهودية والمسيحية (البقرة ١٤٣) تحاول بالدعوة القرآنية فرض دين موسى وعيسى معاً ديناً واحداً على العرب (الشورى ١٣).

إنها شهادة بوجودهم بمكة؛ وشهادة بمحاولتهم « تنصير » المشركين « المجرمين » وشهادة بتحريض المشركين على الانضمام إليهم مثل محمد : « وأمرتُ أن أكون من المسلمين » (النمل ٩٠).

وتفضيل هؤلاء « المسلمين » يقوم على أن لهم « كتاباً فيه يدرسون » ويشترك محمد معهم بهذه الدراسة، وبذلك يستعلي على المجرمين الذين ليس لهم « كتاب فيه يدرسون » . ومن هذا الكتاب يستكتب محمد ويكتب « الغيب » الذي يدعو به، « ذكراً للعالمين » . فمحمد يدرس الدعوة القرآنية مع هؤلاء « المسلمين » ، ويبلغها للعرب المشركين : هذه هي المفاجأة الأولى المزدوجة في القرآن. إن « المسلمين » في اصطلاحه هم « النصارى » من بني إسرائيل، ومن « تنصر » معهم من العرب بزعامة ورقة بن نوفل قس مكة.

٢ـ وفي السورة الثالثة (المزمل ١ ـ٥) تظهر المفاجأة الثانية : « **القرآن** » .

« يا أيها المزمّل، قم الليل إلا قليلاً	نصفه، أو أنقص منه قليلاً	١ ـ ٣
أو زِدْ عليه، ورتّل القرآن ترتيلا :	إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلا	٤ ـ ٥

في السورة الثانية رأينا محمداً يدرس الكتاب مع النصارى « المسلمين » . وفي هذه السورة الثالثة، نرى محمداً يصلي معهم في قيام الليل، ويتلو معهم « القرآن » .

إن قيام الليل للصلاة وترتيل آيات الله في كتابه ليست عادة عربية، ولا يهودية؛ إنما هي عادة رهبان عيسى مذ كانوا، بنص القرآن القاطع « ليسوا سواءً؛

من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » (آل عمران ١١٣). أوجز الرازي تفسيرها : « في المراد بأهل الكتاب قولان : (الأول) **وعليه الجمهور** المراد منه الذين آمنوا بموسى وعيسى. (الثاني) المراد بأهل الكتاب كل مَن أوتي الكتاب من أهل الأديان، وعلى هذا القول يكون المسلمون من جملتهم » . هذا القول الثاني تخريج باطل : إن قيام الليل « نافلة » للنبي وحده (الإسراء ٧٩)؛ وتعبير « أهل الكتاب » مخصوص بهم، في اصطلاحه، من دون جماعة محمد؛ وفي السورة عينها سبق ذكر جماعة محمد، وذكر اليهود (١١٠ ـ ١١٢)؛ وفي الآية (١١٣) يميز بين أهل الكتاب هؤلاء القوّامين بالليل لتلاوة آيات الله في صلاتهم. بقي القول الأول الذي « عليه الجمهور » . وتمييزهم بين أهل الكتاب ظاهر من اسمهم المذكور في السورة الثانية : إنهم « المسلمون » النصارى.

فمطلع هذه السورة يصف محمداً، بل يأمره بقيام الليل للصلاة مع المسلمين « النصارى » ، **وترتيل « القرآن »** معهم. فما هو هذا « القرآن » ؟ لم ينزل من القرآن العربي سوى آيات معدودات، هي (قرآن)، لكنها ليست « القرآن » المعروف المشهور قبل محمد؛ وليس في آيات معدودات مادة للتلاوة مدى ساعات « آناء الليل وهم يسجدون » . فلا تنطبق ظروف الحال والمقال إلاّ على الكتاب الذي يستعلي بدراسته على المشركين (القلم ٣٧) مع النصارى « المسلمين » : إنه **قرآن الكتاب**، الذي أُمر محمد في رؤيا بقراءَته. وإلى اليوم يعلن رجل الدين المسيحي، في الكنيسة، قبل تلاوة الكتاب أو الإنجيل : « **فصل** من الإنجيل المقدس بحسب متى » أو غيره. والتعبير اليوناني الأصلي ليس « فصلاً » ، بل « قراءَة ، قرآناً » ، وبالسريانية « قريانا » . فتحاشاه المسيحيون حرمة لشعور المسلمين. إنما الإعلان الحق في مطلع تلاوة الكتاب أو الإنجيل هو « **قرآن من الإنجيل المقدس** بحسب فلان » . « فالقرآن » على الإطلاق، في اصطلاحه، إنما هو قرآن الكتاب والإنجيل. وتعبير « القرآن » أطلق على ما يتلو محمد تجاوزاً

لأنه « تفصيل الكتاب » . هذه هي المفاجأة الثانية في مطلع الدعوة : محمد يتلو في صلاته ودعوته « القرآن » أي قرآن الكتاب والإنجيل، كما تشير إلى ذلك مطالع بعض السور : « تلك آيات الكتاب، وقرآن مبين » .

هذا هو « القرآن » الموجود قبله، والذي على محمد أن يتهيأ بالدرس (المزمل ٣٧ و٤٢) والتلاوة في قيام الليل (المزمل ١ ـ٤) لقراءَته على العرب : « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » ـ فما هو؟

٣ـ وفي السورة الرابعة (المدثر) تظهر المفاجأة الثالثة : **محمد « نذير للبشر »**

« يا أيها المدثر	قمْ فأنذر !	١ ـ ٢
وربك فكبّر	وثيابك فطهّر !	٣ ـ ٤
والرجز فاهجر	ولا تمننْ تستكثر	٥ ـ ٦
ولربك فاصبر	. . . .	٧
كلاّ ! والقمر	والليل إذا أدبر	٣٢ ـ ٣٣
إنها لإحدى الكبَر :	نذير للبشر	٣٤ ـ ٣٥
كلاّ ! إنها تذكرة	فمن شاء ذكره	٥٤ ـ ٥٥
وما يشاؤون إلا أن يشاء الله	هو أهل التقوى وأهل المغفرة »	٥٦

لقد اكتملت عناصر رؤيا غار حراء، وأتى محمداً الأمر بالدعوة: « قم فأنذر » . وهذا هو الأمر الذي يذكره بتواتر. وهذا الإنذار يقوم على تكبير الله بتوحيده، وهجر « الرجز » أي الشرك ـ و « الرجز » تعبير كتابي، بينما « الشرك » عربي.

ثم يحكي ذهول القوم من هذه الظاهرة الجديدة التي يستكبرها المشركون : أمحمد « نذير للبشر » ؟ « إنها لإحدى الكبر » ! فيجيب بأن هذا الإنذار ليس بجديد، إنما هو « **تذكرة** » من « القرآن » الذي يتلوه ويدرسه محمد مع « المسلمين » النصارى.

فالمفاجأة الثالثة مزدوجة : محمد « نذير للبشر » ، هذه هي صفة محمد في دعوته، لا ذكر لنبوة ولا لرسالة : إنما هو « نذير للبشر » ، بحسب الأمر الذي تلقاه : « قم فأنذر » . لذلك ما يتلوه هو « **تذكرة** » من قرآن الكتاب والإنجيل. فكل التعابير تدل على أن صفة محمد هي نذير على التخصيص، وعلى التوسع نبي ورسول، بتلاوة « القرآن » ، قرآن الكتاب والإنجيل، على العرب.

٤ـ في السورة الخامسة (الفاتحة) يطلب إلى الله الرحمان الرحيم الهداية إلى الصراط المستقيم. وقصته التي تروي رؤيا الغار تنص على أن الصراط المستقيم هو الإيمان بالكتاب (الشورى ٥٢). وهو صراط الذين أنعم عليهم من « النصارى » غير المغضوب عليهم من اليهود، ولا الضالين المشركين. ولا يمكن أن يعني القسم الأول من الفاتحة في تعبير « الذين أنعمت عليهم » جماعة محمد، لأنهم لم يتكونوا بعد، وهو إنما عنى بها على التخصيص الذين عناهم من قبل : « المسلمين » النصارى (القلم ٣٥)، ومن بعد : « وأمرتُ أن أكون من المسلمين » (النمل) أي « النصارى » الذين ينضم إليهم. فهو يطلب لنفسه « ولمن تاب » معه الهداية إلى صراط « المسلمين » النصارى. هذه هي المفاجأة الرابعة.

٥ـ في السورة السادسة « تبّت » يطلق لعنةً على عمه أبي جهل الذي يقف بوجه الدعوة. وفي السابعة (التكوير) يعلن أنه ينذرهم بناءً على « قول رسول كريم » ، هو روح الله الذي أوحى إليه الأمر بالدعوة في رؤيا الغار. وفي الثامنة (الأعلى) يصرح :

« سبّح اسم ربك الأعلى	الذي خلق فسوّى	١ ـ ٣
والذي قدَّر فهدى ...	فذكر ، إن نفعت الذكرى ...	٣ و٩
إن هذا لفي الصحف الأولى	صحف إبراهيم وموسى	١٨ ـ ١٩

هنا تبرز المفاجأة الخامسة : **موضوع الدعوة ومصدرها.** يؤمر بتسبيح الرب الأعلى الخالق. وهذا الأمر هداية من تقديره : « قدّر فهدى » : فنبوّة محمد كانت الهداية له؛ ودعوة محمد الهداية لهم. كانت هداية إلى « الصحف الأولى » ، وهي

دعوة إلى « الصحف الأولى » أي الكتاب، من باب ذكر العام بالخاص. فالإيمان بالكتاب، والدعوة له كان موضوع رؤياه وبعثته (الشورى ٥٢ و١٥). فلا ذكر لتنزيل جديد، إنما الأمر تذكير بما في صحف الكتاب من قبله. وقوله : « قدّر فهدى » ببعثة محمد، هو **الهداية الثانية**.

٦ـ في السورة التاسعة (الليل) دعوة إلى الإصلاح الاجتماعي بالبذل والعطاء للمحرومين. والسورة العاشرة (الفجر) تحريض على إكرام اليتيم وإطعام المسكين بالعبرة من هلاك المستكبرين، في الأرض، ومن هول يوم الدين. فتوحيد الرب الأعلى هو الموضوع الأول من الدعوة، والإصلاح الاجتماعي بذكر يوم الدين هو الموضوع الثاني. فالإصلاح الاجتماعي هو المفاجأة السادسة من أصول الدعوة القرآنية.

تلك هي عناصر الدعوة القرآنية وملابساتها، كما تظهر في السور الأولى، من تاريخ النزول، على حياة « القس » ورقة بن نوفل. وهي القرآن العربي كله؛ وما القصص والتشريع سوى تكميل. وفجأة توفي « القس » ورقة « **وفتر الوحي** » . وفتور الوحي دام من أشهر معدودات إلى ثلاث سنين، على أقوال مختلفة.

٧ـ وبعد المحنة نزلت السورة الحادية عشرة (الضحى) تسلية للنبي، بتذكيره **بالهداية الأولى** : بفتور الوحي لم يهمله ربه؛ وله من مسيرته الأولى خير دليل :

« والضحى ! والليل إذا سجى ! ما ودّعك ربك ، وما قلى ! ١ ـ ٣
وللآخرة خير لك من الأولى ؛ ولسوف يعطيك ربك فترضى ٤ ـ ٥
ألم يجدْك يتيماً فآوى ؟ ووجدك ضالاً فهدى ! ٦ ـ٧
ووجدك عائلاً فأغنى » ! ٨

التسلية عن فتور الوحي تقوم على ثلاثة أحداث، هي الآيات الثلاث الوحيدة في القرآن عن سيرة محمد قبل البعثة : كفالة جده له في يتمه من والده ثم من أمه؛ وهدايته من الضلال؛ والغنى بعد فقر في زواجه من خديجة.

والقرآن يقرن هذه الهداية الأولى بكفالة جده له : فما معنى « الهدى » في الصبا؟ أليس العماد « النصراني » كما تدل إشارات « السيرة النبوية » ؟ فلم يولد محمد على الهدى مثل غيره؛ ولم ينشأ على الهدى مثل غيره : إنما هو اهتدى في حداثته، ثم اهتدى في بعثته؛ فهما دليل على الهدى في رسالته. فما عليه أن يقنط من رحمة ربه، بوفاة « القس » أستاذه؛ وما عليه إلا أن يستلم مكانه في قيادة الدعوة القرآنية إلى الصراط المستقيم، صراط « المسلمين » النصارى، بتلاوة « القرآن » ، قرآن الكتاب، على العرب.

*

ثانياً : بعد وفاة ورقة، ظل القرآن العربي بمكة ينتسب على « النصرانية »

١ـ القصة الأولى لمبعث النبي في رؤيا الغار

بعودة الوحي إليه شرح الله صدر محمد، ووضع عنه وزره الذي فيه همّ بالانتحار لوفاة ورقة وفتور الوحي (الشرح). حينئذ يقص لأول مرة رؤيا حراء : « شديد القوى، أوحى إلى عبده ما أوحى » : أي « ينبئ بما في صحف موسى، وإبراهيم الذي وفّى » . لذلك فما هو إلا « **نذير من النذر الأولى** » ، أي نذير بالنذر الأولى التي في الصحف المذكورة (النجم ٥ و٩ و٣٦ و٥٦).

هذا ما أنزل إليه، في ليلة القدر التي فيها رأى روح الله يكلمه في المنام (سورة القدر). وإذا ما سئل عن مصدر دعوته أجاب : « بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ » (البروج ٢١ ـ ٢٢). من البديهة أنه لا يحيلهم إلى لوح محفوظ في السماء، حيث لا يستطيعون، بل إلى الأرض حيث يقدرون أن يروا عند « النصارى » المسلمين « القرآن » الذي يدرسه معهم في النهار (المزمل) ويرتله في قيام الليل (القلم ٣٥ ـ٤٢).

٢ـ « فقد يسرنا القرآن للذكر »

يكذبون الداعية؛ لكن ما تكذيبهم إلا كمثل تكذيب أهل الأخدود

لشهداء نجران من نصارى ومسيحيين (البروج ١ ـ ٨). فهو يستشهد بأهل دينه، ويقسم على ذلك بقسمهم : ((لا ! أقسم بهذا البلد ـ وأنت حلٌّ بهذا البلد ـ **ووالد وما ولد**)) ! (البلد ١ ـ ٤). هذا الإطلاق في ((الوالد والولد)) لا يعني آدم وذريته، ولا إبراهيم وولده إسحاق، ولا إسماعيل وحفيده محمد! إنما هو إشارة إلى الله ومسيحه، كما تدل إشاراته حتى الآن.

أجل ((نحن أعلم بما يقولون! وما أنت عليهم بجبَّار : **فذكر بالقرآن** من يخاف وعيدِ)) (ق ٤٥). إن القرآن العربي يقص الأمر إلى محمد : ((فذكر بالقرآن)) ، فهو غيره. منذ مطلع الدعوة، لا يذكر ((القرآن)) إلاّ معرّفاً على الإطلاق، كأنه مشهور، فلا يمكن أن يعني القرآن العربي، بل ((القرآن)) الذي أُمر منذ بدء الدعوة ـ قبل نزول القرآن العربي ـ أن يرتله في قيام الليل مع أهله، النصارى ((المسلمين)) .

والمفاجأة الضخمة، الإعلان عن ترجمة ((القرآن)) : **فقد يسرنا القرآن للذكر :** فهل من مذكّر؟ .. أكفاركم خير من أولئكم؟ أم لك براءة في الزبر)) ؟ وفي اصطلاحه، أن تيسير ((القرآن)) هو ((تصريف)) آياته (الأنعام ١٠٥)، بيان ما ((نزل إليهم)) من قبل (النحل ٤٤)، أي ((تفصيل الكتاب)) (يونس ٣٦). إن قرآن الكتاب قد يسره الله لتذكير العرب به : ألا يشير هذا إلى ترجمة ورقة للإنجيل عن ((العبرانية)) ؟ فالقرآن العربي قصص لهذا ((القرآن)) ، وخبر عنه، وليس هو ((القرآن)) الذي يخبر عنه : ((فقد يسرنا القرآن للذكر)) . يدل على ذلك استعلاؤه على كفار العرب ((بأولئكم)) الذين عنه يأخذه، فهم لهم ((براءة في الزبر)) من دون العرب المشركين. وبما أن البشرى عظيمة، فهو يكرر مراراً إعلانها ((فقد يسرنا القرآن للذكر)) (القمر ١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠).

ويخبر بأنه كتاب يتلوه عليهم ((ليدبروا آياته)) ، و ((ليذكر أولو الألباب)) ، ((أن لا إله إلا الواحد القهار)) ، وما هو سوى ((نذير مبين)) (ص ٢٩ و٦٥ و٧٠ و٧٨). هذا هو النبأ العظيم (ص ٤٩ و٦٧).

والبرهان على أن « القرآن » الذي يذكره هو غير هذا القرآن العربي، القسم به : « والقرآن ذي الذكر » (ص ١) : فلا يقسم بنفسه على نفسه، وهو موضوع تكفير عندهم! لا يقسم بما لا يعرفون، ولا يقبلون : إنما هو يقسم بما هو معروف مشهور، مقدس عند الجميع : فالقسم بالقرآن العربي للمشركين عبث لديهم. فالقرآن العربي هو « تفصيل الكتاب » أي تعريب « المثل » النصراني (الأحقاف ١٠).

٣ـ فالدعوة القرآنية « درس » للتوراة والإنجيل للدعوة إليهما

في القرآن العربي، « وكذلك نصرّف الآيات ـ وليقولوا : درست! ـ ولنبينه لقوم يعلمون » (الأنعام ١٠٥) : هنا التمييز صريح بين القرآن العربي الذي يصرّف آياته، و « القرآن » الذي يهدف إلى بيانه. يتهمونه « بالدرس » ، فلا يردّ التهمة، إنما يبين الغاية من الدرس، وهي بيان « القرآن » بواسطة القرآن العربي. فهم غفلوا عن دراسة الكتاب الذي نزل على طائفتين من قبلهم (الأنعام ١٥٦) وأتاهم بالقرآن العربي « ليعلمهم الكتاب والحكمة » التي في « القرآن » ، الذي يسرّه الله للذكر.

٤ـ « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون »

تتواتر التلميحات، تتخلّلها التصريحات : « لقد جئناكم بكتاب فصلناه على علم، هدى ورحمة لقوم يؤمنون ... **ومن قوم موسى أمة** يهدون بالحق وبه يعدلون ... (محمد) إنْ هو إلا **نذير مبين** : قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً، إلا ما شاء الله؛ ولو كنت أعلم الغيب، لاستكثرت من الخير وما مسنّي السوء ... إن وليَّ الله الذي نزّل الكتاب، وهو يتولى الصالحين. **وإذا قرئ القرآن** فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » (الأعراف ٥١ و١٥٨ و١٦٨ و١٨٠ و١٨٧ و٢٠٣).

هذه نظرة جامعة مانعة في كتاب الله و « القرآن » منه : فالقرآن العربي يخبرنا بأن الله هو « نزّل الكتاب » ، ويأمر : « إذا قرئ القرآن فاستمعوا له

وانصتوا » : فهو يخبر لا عن نفسه، بل عن غيره، عن « القرآن » الذي هو قراءة عربية لكتاب الله.

وهذا « القرآن » لكتاب الله، موجود عند أمة من قوم موسى يهدون بالحق وبه يعدلون. معروف موقف القرآن التكفيري من اليهود. فمن هي هذه « **الأمة من قوم موسى** » ؟ نجد التصريح عنها في آية (الصف ١٤) : « **فآمنت طائفة من بني إسرائيل**، وكفرت طائفة (بالمسيح) : فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » . إنهم النصارى من بني إسرائيل الذين قامت الدعوة القرآنية انتصاراً لهم على اليهود من بني إسرائيل حتى النصر المبين. هؤلاء هم « النصارى » على الإطلاق. وسيسميهم « **الأمة الوسط** » بين اليهودية والمسيحية، الذين على مثالهم وعقيدتهم قامت أمة محمد « أمةً وسطاً » ليكونوا شهداء على الناس (البقرة ١٤٣). إن هؤلاء « النصارى » هم الذين يهدون بالحق وبه يعدلون؛ وقد سماهم من قبل « المسلمين » (القلم ٣٥).

وهم يهدون بالحق، وبه يعدلون، بكتاب الله الذي معهم؛ فهم « يتلون الكتاب حقّ تلاوته » ويقرؤونه بالعربية حق قراءته، في « القرآن » الذي يخبر عنه القرآن العربي : « وقد شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » (الأحقاف ١٠)؛ « كتاب أُحكمت آياته، **ثم فصّلت** من لدن حكيم خبير » (هود ١)، « تنزيل من الرحمان الرحيم : كتاب فُصّلت آياته قرآناً عربيّاً لقوم يعلمون » (السجدة ١ ـ ٣). إن « القرآن » المتواتر ذكره في القرآن العربي هو كتاب التنزيل من الرحمان الرحيم، الذي فصّلت آياته قرآناً عربيّاً. وقرآن محمد يخبر بذلك.

ومحمد « إنْ هو إلا نذير مبين » لا يعلم « الغيب » الذي يعلمه النبي. إنما يخبر بأن « جئناهم بكتاب **فصلناه** على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » . وهذا الكتاب موجود مع « الأمة من قوم موسى » ، « الطائفة من بني إسرائيل » التي آمنت بالمسيح، وتؤيدها الدعوة القرآنية حتى النصر المبين. إن « القرآن » الذي يطلب القرآن العربي الاستماع إليه بخشوع هو كتاب هذه الأمة الوسط، في

« المِثْل » الذي « فصّلت آياته قرآناً عربيّاً » . فهو إذا انتسب إلى الكتاب وأهله، **فهو إنما ينتسب إلى « النصارى »** من بني إسرائيل، وإلى « القرآن » ، قرآن الكتاب، الذي « درسه » معهم، وما زال يتلوه معهم في قيام الليل.

٦- « واجعلنا للمتقين إماماً »

تلك الأمة المهدية الهادية يسميها « **عباد الرحمان ... الذين يبيتون لربهم سُجداً وقياماً** » ؛ وهذه عادة نصرانية رهبانية، لا عهد للعرب، ولا لليهود بمثلها وهي في القرآن العربي « نافلة » للنبي وحده من دون جماعته : فهؤلاء يطلبون إلى ربهم : **واجعلنا للمتقين إماماً** » (الفرقان ٦٣ و٦٤ و٧٤). وتعبير « المتقين » كناية عن العرب المهتدين إلى الإيمان بالكتاب كله؛ والنصارى، « عباد الرحمان هم« إمام المتقين » العرب. والقرآن العربي يدعو إلى كتابهم وعقيدتهم؛ وهو به « ينذر قوماً ما أُنذر آباؤهم، فهم غافلون » ، وينذر مع من اتّبع الذكر، وخشي الرحمان بالغيب » (يس ٦ و١١). « فقد أورثنا الكتاب مَن اصطفينا من عبادنا » (فاطر ٣٢).

ودليل على ذلك أيضاً الهجرة إلى الحبشة المسيحية، وسورة (مريم) التي حمّلها محمد جماعته يتلونها على النجاشي وعلى قومه ليستجيروا بها عندهم، عربون الوحدة الأصلية في الدين الواحد : « واذكر في الكتاب مريم (١٤). واذكر الكتاب إبراهيم (٤١). واذكر في الكتاب موسى (٥١). واذكر في الكتاب إسماعيل (٥٤). واذكر في الكتاب إدريس (٥٦) : أُولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين، من ذرية آدم، وممن حملنا مع نوح، ومن ذرية إبراهيم وإسماعيل، وممن هدينا واجتبينا، إذا تتلى عليهم آيات الرحمان **خرّوا سجداً وبكيّاً** (٥٨). فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً » (٦٠). يستفتح بأنبياء الإنجيل، ويأتي إلى أنبياء التوراة ويجمع إليهم إسماعيل، جد العرب الذي به ينتسبون إلى إبراهيم. وهكذا يستجيرون عند النجاشي بقوميتهم ودينهم. فالقرآن العربي ينتسب إلى الكتاب انتساباً مطلقاً، مع الذين « من ذرية إبراهيم وإسماعيل، وممن

هدينا واجتبينا، إذا تتلى عليهم آيات الرحمان خرّوا سجّداً وبكيّاً » ، أي النصارى من بني إسرائيل، و « المتنصرين » معهم من العرب.

٧- « إنّا كنّا من قبله مسلمين »

ونوجز موقف القرآن المكي من هؤلاء « النصارى » باستشهادين.

الأول في قوله عنهم : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به، إنه الحق من ربنا - **إنّا كنّا من قبله مسلمين.** أولئك يؤتون أجرهم مرتين، بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة، ومما رزقناهم ينفقون؛ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم، لا نبتغي الجاهلين » (القصص ٥٢ -٥٥).

فسره الجلالان : « نزلت في جماعة أسلموا : من اليهود كعبد الله بن سلام، وغيره من النصارى قدموا من الحبشة ومن الشام » . لم يسلم من اليهود سوى عبد الله بن سلام وكعب الأحبار للدس على الإسلام. والذين قدموا من الحبشة والشام كانوا مسيحيين، لا « نصارى » ، فلا يقولون : « إنا كنّا من قبله مسلمين » بإسلامه. وحدهم النصارى من بني إسرائيل، « والمتنصرون » معهم من العرب بزعامة ورقة بن نوفل وعبد المطلب الأول، جد محمد الأعلى، يقولون بإسلام القرآن، لأنه إسلامهم. والخطاب خبر عنهم، فهم وحدهم يقومون بالدعوة القرآنية مع محمد، « بإيمانهم بالكتابيين » (الجلالان)، وباحتمال الاضطهاد في سبيلها من اليهود، **وبالإنفاق عليها.** وهم يعلنون للمشركين العرب أنهم لا يقصدونهم : « سلام عليكم، لا نبتغي الجاهلين » . فالصراع قائم بمكة بين اليهودية والنصرانية عند بني إسرائيل على زعامة مكة والحجاز؛ وجاءَت الدعوة القرآنية تأييداً لهذه « النصرانية » على اليهودية (الصف ١٤) - وهذا يدل على أن المسيحية بمكة كانت خارج الحلبة - فالإسلام القرآني هو الإسلام « النصراني » . وهؤلاء « النصارى » ، « إيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذ، وإنما هو أمر تقادم عهده ... وكونهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن » (البيضاوي).

والثاني هو الإعلان للعرب بأنه يشرع لهم دين موسى وعيسى ديناً واحداً؛ فكبر عليهم ذلك ـ لسبب سياسي (القصص ٥٧) ـ وتفرّق اليهود يقاومون الدعوة لشكهم في نوايا محمد، فكان الجواب : « فلذلك فادعُ واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءَهم، وقلْ آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم؛ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم؛ لا حجة بيننا؛ الله يجمع بيننا، وإليه المصير » (الشورى ١٣ ـ١٥)؛ فما على محمد أن يتبع أهواء اليهود، مع الإعلان لهم أن الكتاب واحد والرب واحد، وإن اختلفت أعمال العبادة؛ وهو يأمل بمكة أن يجمع اليهود إليه. ففشل واضطر إلى الهجرة إلى يثرب، حيث تظهر المواقف على جليتها. فالقرآن المكي يدعو مع « النصرانية » إلى إسلام واحد، في « أمة واحدة » (المؤمنون ٥٣؛ الأنبياء ٩٢).

*

ثالثاً : القرآن المدني يعلن وحدة الأمة بين جماعة محمد و « النصارى »

مما يثير الشبهات في التفسير، استخدام القرآن لتعابير « أهل الكتاب »، و« النصارى » و « أولي العلم » حيث يراد التخصيص في معرض التعميم؛ لكن القرائن اللفظية والمعنوية تبين المقصود. ففي القرآن المدني يأتي الإعلان بأن « **الأمة الواحدة** » بمكة، هي « **الأمة الوسط** » بين اليهودية والمسيحية، المؤلفة من « طائفة من بني إسرائيل » آمنت بالمسيح، وتقوم بالدعوة مع محمد، « ومن تاب معه » من العرب « المتقين » . يفتتح القرآن المدني برد اليهودية، ويختتم برد المسيحية، وما بينهما يقيم « الأمة الوسط » : النصرانية.

١ـ « **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** » (البقرة ١٤٣).

في سورة البقرة، مدة عامين فما دون، يفتتح القرآن برد اليهودية، وقيام « الأمة الوسط » . فالصراع قائم فيها بين القرآن واليهود الذين أظهروا أنفسهم « **أول كافر به** » (البقرة٤١). فيرد عليهم بأن الإيمان الحق هو الإيمان بموسى

وعيسى معاً، بالتوراة والإنجيل معاً؛ ويأمر جماعته : « قولوا : آمنا بالله وما أُنزل إلينا، وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط؛ **وما أوتي موسى وعيسى**؛ وما أوتي النبيّون من ربهم : لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون » (البقرة ١٣٦) : فالإسلام الحق هو الإيمان بموسى وعيسى معاً، وإقامة التوراة والإنجيل معاً؛ وهذه هي « النصرانية » ما بين اليهودية والمسيحية فهي الأمة الوسط الناجية، في أمة التوحيد الواحدة التي نادى بها بمكة. واليوم يعلنها صريحاً في المدينة : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » (البقرة ١٤٣). هذا هو **الإعلان الأول الكبير** في المدينة : فكان سبب ثورة اليهود على الدعوة القرآنية : « ولقد آتينا موسى الكتاب، وقفينا من بعده بالرسل، وآتينا عيسى ابن مريم البينات، وأيدناه بروح القدس : أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذبتم، وفريقاً تقتلون » (البقرة ٨٨). إن الخلاف ليس على الرسل بين موسى وعيسى، إنما هو على موسى وعيسى والتفريق بينهما؛ واليهود كذبوا موسى الذي تنبأ بعيسى؛ وقتلوا عيسى الذي قال إن موسى « كتب عني » (يوحنا ٥ : ٤٦)، وأخذ يعدل شريعة موسى : « سمعتم أنه قيل للأولين ... وأنا أقول لكم » (متى ٢ : ٢١ و٢٨ و٣٢ و٣٨). لقد اتخذ القرآن الموقف العلني بإعلان الأمة الوسط من جماعته و « النصارى » .

٢ـ « إن الدين عند الله الإسلام » .

بعد الإعلان عن « الأمة الوسط » يأتي **الإعلان الثاني الكبير** عن دين الأمة الوسط، بعد نصر بدر الذي كسر شوكة المشركين، وأعلى معنويات المسلمين.

بدأ فأعلن وحدة الإله « الحي القيوم » في تنزيل الكتاب توراة وإنجيلاً وقرآناً مع تنزيل الفرقان غير المكتوب تفصيلاً لها (آل عمران ١ ـ٣). ثم ردّ على فتنة اليهود للعرب في متشابه القرآن، بإيمان « **الراسخين في العلم** » بالمحكم والمتشابه معاً (آل عمران ٧)؛ ونعرف أن تعبير « الراسخين في العلم » اصطلاح

لا لغة؛ وهو يعني « أولي العلم قائماً بالقسط » (آل عمران ١٨) أي النصارى من بني إسرائيل و « المتنصرين » من العرب. أخيراً يأتي الإعلان عن دين « الأمة الوسط » من هؤلاء « النصارى » ومن جماعة محمد : الإسلام :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ـ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ أن الدين عند الله الإسلام. وما اختلف الذين أوتوا الكتاب (اليهود) إِلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » (آل عمران ١٨ ـ١٩).

نعرف أن « أولي العلم » مرادف لأهل الذكر، أي لأهل الكتاب، في اصطلاحه. وهو يقسمهم إلى فئتين أو طائفتين : الظالمين وهم اليهود؛ والمقسطين أو المحسنين وهم النصارى؛ وكلاهما من بني إسرائيل؛ ولا يتعدى أفق القرآن الصراع بين الطائفتين من بني إسرائيل، قبل غزوتي مؤتة وتبوك إلى مشارف الشام، وما بعدهما زيارة وفد نجران المسيحي. فالذين يشهدون بالإسلام هم النصارى أولو العلم المقسطون؛ فهم يشهدون مع الله وملائكته « أن الدين عند الله الإسلام » ، **والقرآن يشهد به بشهادتهم،** لأنها من شهادة الله وملائكته. لذلك فأهل الكتاب من اليهود يخالفون هذه الشهادة، وينكرون هذا الإسلام « بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » أولاً بالمسيح، والآن بالقرآن.

فالإسلام القرآني هو الإسلام « النصراني » بنص القرآن القاطع. وهذا الإعلان الضخم يجعل القرآن دعوة « نصرانية » لا ريبة في ذلك، ولا مجال للشبهة.

بإِعلان « الأمة الوسط » ، وبإِعلان هذا الإسلام، حدّد القرآن تحديداً جامعاً مانعاً هوية جماعته، وهوية إسلامه : إنه « **أمة واحدة** » **مع النصارى من بني إسرائيل** و « المتنصرين » معهم من العرب، هي « الأمة الوسط » بين اليهودية والمسيحية، « خير أمة أخرجت للناس » (آل عمران ١١٠) على مثال من هم « من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون؛ يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في

الخيرات، وأولئك من الصالحين؛ وما يفعلوه من خير فلن يكفروه. والله عليم بالمتقين » من العرب معهم (آل عمران ١١٣ ـ١١٥).

وميزة هذا الإسلام القرآني « النصراني » : الإيمان « بالكتاب كله » (آل عمران ١١٩) أي بالتوراة والإنجيل على السواء، بموسى وعيسى معاً، على دين واحد وشرع واحد. هذا هو « دين الله. وله أسلم من في السماوات والأرض » (٨٣). فلا دين غيره : « قل : آمنا بالله وما أُنزل علينا، وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، **وما أوتي موسى وعيسى** والنبيون من ربهم : لا نفرّق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون؛ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين » (آل عمران ٨٤ ـ٨٥). فالقرآن دعوة « نصرانية » بمنتهى الصراحة.

وبعثة محمد أن يعلم العرب هذا الإسلام القرآني « النصراني » ، بتعليمهم التوراة والإنجيل، كتاب الله الواحد؛ وهذه منة من الله عليهم : « لقد منّ الله على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، **ويعلمهم الكتاب والحكمة**، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » (آل عمران ١٦٤) ـ الكتاب والحكمة كناية عن التوراة والإنجيل (آل عمران ٤٨). هذه هي نبؤة محمد ورسالته : إنها تعليم العرب التوراة والإنجيل، كما « درسها » عند « المسلمين » (القلم ٣٥) من قبله، الذين أُمر برؤيا غار حراء أن ينضم إليهم ويدعو بدعوتهم : « وأُمرت أن أكون من المسلمين، وأن أتلو القرآن » (النمل ٩٠ ـ ٩١).

٣ـ موقف القرآن و « النصارى » من الكتاب واحد

أعلن السيد المسيح : لا تظنوا أني أتيت لأنسخ التوراة (الشريعة) والنبيين؛ إني ما أتيت لأنسخ بل لأكمّل » (متى ٥ : ١٧). ففهم المسيحيون هذا التكميل بأنه **تطوير وتعديل**؛ وفهم النصارى من بني إسرائيل بأنه **تصديق**

وتفصيل. لذلك قال المسيحيون بإِقامة الإنجيل من دون التوراة؛ وقال النصارى بإِقامة الإنجيل والتوراة. لذلك أيضاً يعتبر المسيحيون الإنجيل الكتاب الأسمى؛ بينما النصارى من بني إسرائيل كانوا يعتبرون التوراة الكتاب، والإنجيل بالنسبة له « الحكمة » . ونرى القرآن يقف موقف « النصارى » ويدعو بعقيدتهم، ما بين اليهودية والمسيحية.

فالإنجيل بنظر القرآن تصديق الكتاب : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة، وهدى وموعظة للمتقين » (المائدة ٤٩). فالإنجيل كما كان حكمة وموعظة لأهله، فهو كذلك « للمتقين » من العرب؛ ويظل كتاب موسى إماماً.

وهكذا جاء القرآن تصديقاً وتفصيلاً للكتاب كله : « تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب، لا ريب فيه، من رب العالمين » (يونس ٣٧). وكما كان كتاب موسى إمام الإنجيل، عند « النصارى » ، يظل إِمام القرآن في دعوته : « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة » (هود ١٧)؛ وعلى هذا الأساس هو إنذار لليهود الظالمين، وبشرى للنصارى المحسنين : « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، وهذا كتاب مصدّق لساناً عربياً، لينذر الذين ظلموا، وبشرى للمحسنين » (الأحقاف ١٢) . فالموقف لدى القرآن و « النصارى » بالنسبة للكتاب واحد.

٤ـ عقيدة القرآن و « النصارى » في المسيح واحدة

أعلن السيد المسيح في دعوته أنه « ابن الله » : ففهمها المسيحيون **بنوة ذاتية** فقالوا بألوهية المسيح؛ وفهمها النصارى من بني إسرائيل **بنوة مجازية،** فقالوا بأن المسيح، وإن كان « كلمة الله وروحاً منه » فهو عبد لله، لا « ابن الله » في الحقيقة والواقع. وهذا هو الفارق الجوهري بين النصرانية والمسيحية.

ولما جاء وفد نجران المسيحي يباحث محمداً في حقيقة المسيح الذي يدعو إليه أعلنوا له إلهيته وبنوته. فكان جواب القرآن : « يا أهل الكتاب (المسيحيين) لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق : إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه؛ فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا : ثلاثة! انتهوا، خيراً لكم؛ إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد ... لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون » (النساء ١٧٠ ـ ١٧١). فالقرآن يرد عليهم بعقيدة « النصرانية؛ لكنه ينكر « الثلاثة » وينكر إلهية المسيح، جواباً على عقيدة « اليعقوبية » لدى وفد نجران، لا على الإطلاق بالنسبة للمسيحية جمعاء. فأسباب النزول توضح بأن تعليم القرآن في ذلك نسبي، لا مطلق. وتظل عقيدة القرآن و « النصارى » واحدة في المسيح : إن المسيح « كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه » . وهذا التعبير المترادف هو الذي قسم أهل الإنجيل إلى نصارى ومسيحيين، كما يفصل بين الإسلام والمسيحية بالعقيدة « النصرانية » الواحدة : **الحرف واحد، أما التأويل فمختلف.**

فاقتتل اليهود وأهل الإنجيل على حرف العقيدة نفسه؛ واقتتل النصارى والمسيحيون على التأويل : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض : منهم من كلم الله (موسى)؛ ورفع بعضهم درجات (؟ ـ لعله محمداً)؛ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس. ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم، من بعد ما جاءتهم البينات. ولكن اختلفوا : فمنهم من آمن (النصارى والمسيحيون) ومنهم من كفر (اليهود). ولو شاء الله ما اقتتلوا، ولكن الله يفعل ما يريد » (البقرة ٢٥٤). وجاء القرآن « يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » (الزخرف ٦٤)، ويؤيد النصرانية على اليهودية (الصف ١٤)، ريثما يؤيدها على المسيحية (التوبة ٢٩ ـ٣٣).

فالقرآن و « النصرانية » عقيدة واحدة في المسيح لفظاً ومعنى.

٥ـ شريعة القرآن و « النصارى » واحدة، في إقامة التوراة والإنجيل معاً

لقد اختلف النصارى من بني إسرائيل مع المسيحيين من الأمميين، منذ عهد الرسل، على إقامة التوراة والإنجيل معاً، شريعة واحدة؛ وكانوا يأمرون المسيحيين بوجوب الختان وأحكام التوراة. فأفتى مجمع الرسل، صحابة المسيح، بتحرير المسيحيين من شريعة موسى والختان، وأقام النصارى عليهما حتى القرآن.

وجاء القرآن ينادي بشريعة النصارى ضد اليهودية والمسيحية جميعاً : « قلْ يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليكم من ربكم. وليزيدنّ كثيراً منهم ما أُنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً، فلا تأس (تحزن) على القوم الكافرين » (المائدة ٧١).

وهذه الدعوة القرآنية، « النصرانية » تجعل شريعة القرآن وسطاً بين اليهودية والمسيحية في أحكامها كلها؛ فهي شريعة وسط بين اليهودية والمسيحية، على وحدة تامة بين القرآن والنصرانية.

٦ـ الدعوة القرآنية تأييد « للنصرانية » على اليهودية للسيطرة على الجزيرة

بعد القضاء على يهود المدينة، وصلح الحديبية مع أهل مكة، كانت غزوة الشمال إلى وادي القرى. سمي كذلك لكثرة القرى الواقعة فيه، ومنها دومة الجندل والحجر وديدان. سكنه اليهود أولاً؛ ونزل عليهم فيه قضاعة وسليح المسيحيتان؛ وعن هجرة النصارى من بني إسرائيل إلى الجزيرة هرباً من دين الدولة عند الروم، استوطن قسم منهم الوادي[١] . فكانت الغزوة انتصاراً

---

(١) قال شاعر منهم يصف زعامة النصارى في وادي القرى على اليهود وعلى المسيحيين (الأغاني ٧ : ١٦١).

ونحن معنا ذا القرى عن عدونا	وعذرة ، إذ نلقى يهوداً وبعثرا
منعناه من عليا معدّ ، وأنتم	سفاسيف روح بين قرح وخيبرا
فريقان : رهبان بأسفل ذي القرى	وبالشام عرافون ممن تنصرا

للإسلام والنصرانية على اليهودية والمسيحية. فأشاد القرآن بهذا النصر المبين في سورة (الصف).

وختم السورة بالكشف أخيراً عن سر **الدعوة القرآنية وهدفها :** « يا أيها الذين آمنوا (من العرب) كونوا أنصار الله، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله! **فآمنت طائفة من بني إسرائيل**، وكفرت طائفة : **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم** فأصبحوا ظاهرين » (الصف ١٤).

هذا النص يكشف لنا أولاً معنى « النصارى » في لغة القرآن : ليسوا أهل الإنجيل على الإطلاق كما يوهم التعبير الدارج، بل هم « طائفة من بني إسرائيل » التي آمنت بالمسيح.

ويكشف لنا أيضاً **هدف الدعوة القرآنية :** إنه نصرة وانتصار « للنصرانية » على عدوها اليهودية، ومن بعده المسيحية (في سورة التوبة).

فالقرآن، بنصه القاطع، تأييد « النصرانية » على اليهودية، للسيطرة على الجزيرة. وهذا هو البرهان القاطع على « نصرانية » الإسلام والقرآن.

حينئذٍ يجهر القرآن بالوحدة القائمة بين الدعوة القرآنية و « النصرانية » ، على المشركين واليهود في الجزيرة : « لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا (جماعة محمد) اليهود والذين أشركوا! ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : « إنّا نصارى » ، وذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً، وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينه تفيض من الدمع، ممّا عرفوا من الحق؛ يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ... » (المائدة ٨٥ ـ ٨٨).

٧ـ وصية القرآن الأخيرة، بإخضاع اليهود والمسيحيين للجزية

بعد فتح شمال الحجاز، وفتح مكة، تمت السيطرة للإسلام القرآني « النصراني » على الحجاز كله. حينئذ فكر النبي العربي، مع أنصاره من العرب

و « النصارى » بفتح اليمن ومشارف الشام، للسيطرة على العرب المسيحيين، حتى « لا يبقى في جزيرة العرب دينان » بحسب وصية محمد الأخيرة.

وبمناسبة غزوة تبوك نزلت « براءة » بقتل المشركين العرب حيث وجدتموهم (١ ـ ٢٩) وبإخضاع اليهود والمسيحيين للجزية : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولا يحرّمون ما حرَّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق، من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية على يدٍ وهم صاغرون » (براءَة ٣٠). ويبرّر ذلك بقول المسيحيين : « المسيح ابن الله » ، واليهود : « عزيز ابن الله » ؛ وباتخاذهم جميعاً « أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله (٣١ ـ ٣٢). وفوق ذلك فالفريقان « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (٣٣). هذه صورة الصراع في ذروته بين الإسلام القرآني « النصراني » ، وبين اليهودية والمسيحية. وما السيادة في الجزيرة إلاّ لدين الحق على الدين كله : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون » (٣٤). إن « الهدى » في مثل هذا التعبير اصطلاح فيه كناية عن الموسوية؛ و « دين الحق » كناية عن « النصرانية » ، فقد وصف المسيحيون السريان **« النصارى » بالحنفاء** لميلهم عن دين الآباء، فاتخذوا هم حنيفيتهم شعاراً لدين الحق، فكانوا في نظرهم أهل « الهدى ودين الحق » لا اليهود ولا المسيحيون. وجاءَت الدعوة القرآنية لتُظهر هذه « النصرانية » على الدين كله في الجزيرة العربية. هذا ما فعله محمد؛ وهذا ما تركه وصية أخيرة لأمته.

* * *

خاتمة الفصل

هل الدعوة القرآنية هي ((النصرانية)) باسم ((الإسلام)) ؟

فكل تلك القرائن والدلائل توضح بجلاء أن محمداً نشأ في بيئة ((نصرانية)) ، منذ هدايته طفلاً وهو في كفالة جده عبد المطلب (الضحى ٦ ـ٧)؛ وبزواجه من خديجة، ((سيدة نساء قريش)) دخل في مخطط أئمة ((النصارى)) ، من بحيرى في بصرى، ((وصي عيسى على دينه)) ، إلى ورقة بن نوفل، قسّ مكة؛ وأخذ ((يدرس)) مع هؤلاء ((المسلمين)) الكتاب وقرآنه (القلم ٣٧ ـ ٣٨؛ الأنعام ١٠٥) ويرتل معهم هذا ((القرآن)) في قيام الليل (المزمل ١ ـ ٤)؛ وينسك شهر رمضان في حراء مع أستاذه ((القس)) مدة خمسة عشر عاماً، حتى جاءَته إشارة السماء بالقيام بالدعوة، لفرض ((النصرانية)) على العرب (الشورى ١٣). فقام بذلك ((بالحكمة والموعظة الحسنة)) في مكة (النحل ١٢٥)، و ((بالحديد الذي فيه بأس شديد، ومنافع للناس)) في المدينة (الحديد ٢٥). وهدفه الذي يتضح شيئاً فشيئاً كان إظهار ((النصرانية)) ، ((الهدى ودين الحق)) ، على الدين كله ولو كره المشركون وسائر الكتابيين من يهود ومسيحيين (الفتح ٢٨؛ الصف ٩؛ التوبة ـ براءة ٣٤).

وهكذا نرى أن ((النصرانية)) أنبتت محمداً، النبي العربي؛ ومحمد أظهر ((النصرانية)) على اليهودية والمسيحية، بسيطرتها على الجزيرة العربية، بالدعوة القرآنية، باسم الإسلام (الحج ٧٨؛ آل عمران ١٨ ـ١٩)، فكان مثلهم ((حنيفاً مسلماً)) ، حنيفاً في نظر اليهود والمسيحيين، ولكن مسلماً في نظر النصارى من بني إسرائيل ومن ((تنصّر)) معهم من العرب.

فالقرآن دعوة ((نصرانية)) .

هذا ما نرى تفصيله في الوثائق القرآنية.